سلسلة أجمل الرّوايات العالميّة

إدغار ألن پو

قناع الموت الأحمر

وقصص أخرى



دار الحرف العربي



المخيلة عند إدغار ألن بو هي ملكة الطاقات الروحيّة، لكنه يعني بهذه الكلمة شيئًا أعظم مما يعرفه عامة القرّاء. ليست المخيلة التوهم، ليست كذلك الحساسيّة، المخيلة طاقة تكتشف، بعيدًا عن المناهج الفلسفيّة وخارجها، العلائق الحميمة بين الأشياء، وأسرارها وتطابقها وتجانسها.

وإدغار ألن بو ليس كبيرًا بعدته الأدبيّة المعجزة وحسب، بل أيضًا بحبه للجميل، وإدراكه شروط انسجام الجمال، وبشعره العميق الحزين، الشفاف المحكم كالجوهرة، بأسلوبه العجيب الصّافي الخارق المسرود كالدِّرع، السهل الممتع الذي يهدف، أول ما يهدف، إلى دفع القارئ، بليونة ويُسر نحو الهدف المقرر، أخيرًا، على الخصوص، بهذه العبقريّة التي لا مثيل لها، وهذا المزاج الفريد الذي أتاح له أن يصوّر بطريقة، فائقة، آسرة، مرعبة - كل ما هو غريبٌ واستثنائي في نظام الحياة والفكر.

يدخل القارئ إلى عالمه كما يدخل دوّامة، بهدوء ودون عنف. إن زهوه يفاجئ ويترك الفكر في يقظة. نشعر أوّلًا أن ثمة شيئًا جليلًا، ثم تتبدّى رويدًا رويدًا، قصة تكمن لذتها كلها في زيغان الذهن زيغانًا لا يُدرك، في تصوّر غير منتظر، في فرضيّة جريئة، في تهوّر بين مزالق الطبيعة، وهذا كله يجري في مزيج غريب من الطاقات الرّوحيّة الغريبة، وإذ يتّحد القارئ بهذا الدُّوار يُضطر إلى متابعة الكاتب في سرده القصصي الجذّاب.

وهذه ثلاثون قصة مختارة من روائع قصصية تصدر باللّغة العربية رأينا أن نقدمها في هذا الكتاب تقديرًا لكاتبها الذي مضى على وفاته أكثر من مائة وخمسين عامًا.





إدغار ألن پو

قناع الموت الأحمر

وقصص أخرى



اسم الكتاب :

قناع الموت الاحمر

المؤلف :

ادغار الن بو

اعداد و تحليل و تقديم :

الدكتور رحاب عكاوي

الناشر :

دار الحرف العربي

للطباعة و النشر و التوزيع

زقاق البلاط -بناية فخر الدين

شارع خليل سركيس

تلفون و فاكس : 009611/361045

بيروت – لبنان

E-mail:

Dar_al_haref_alarabi@yahoo.com

Harefal3arabi@hotmail.com

الطبعة :

الاولى 2009

تصميم الغلاف :

فؤاد سليمان وهبي

الترقيم الدولي :

ISBN:978-9953-542-00-3

سلسلة أجمل الروايات العالمية

إدغار ألن پو

قناع الموت الأحمر

وقصص أخرى

إعداد وتقديم وتحليل

الدكتور رحاب عكاوي





دار الحرف العربي

الطبعة الأولى
١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م



دار الحرف العربي
للطباعة والنشر والتوزيع
ص. ب: ١١٣/٦٤٨٠
فاكس: ٠٠٩٦١١/٣٦١٠٤٥
بيروت - لبنان

Printed In Lebanon طبع في لبنان

إدغار ألن پو

١٨٠٩ - ١٨٤٩

ولد إدغار پو في التاسع عشر من كانون الثاني/ يناير عام ١٨٠٩ في بوسطن ، تحت برج ـ جدي ـ النسر والغراب والسرو الحزين . كان من أصل إنكليزي . جاء جدُّه ، داڤيد پو ، حفيد الأميرال ماك برايد ، إلى أميركا صغيراً ، كان أحد رفاق لافاييت(*) ، وقد عُيِّن Assistant deputy quarter master(**) أو ما يشبه رتبة جنرال إداري ، في جيش التحرير . حمل ابن هذا الرجل الطيب اسم داڤيد هو الآخر ، وجرت تربيته بمنتهى الرفاهية البرجوازية . كان أهله يعدّونه لتولّي منصب في القضاء ، إلاّ أن داڤيد پو الابن قطع دراسته ودخل ، وهو في السادسة والعشرين من عمره ، وفي وقت كان لا يزال بلا وظيفة ، في فريق للتمثيل كان يدعى «Charleston players» ، ولم يكن دخوله في هذا الفريق نتيجة موهبة فنية ، بل للحاق بممثلة شابة كان يهواها . كان اسم تلك الممثلة إليزابيث أرنولد . يقول معاصرها «برفرلي توكر» إنها كانت تتمتّع «بقوام طفولي ، وعينين غامضتين . كان شعرها كثيفاً ومعقوصاً ، حالك السواد . أما قامتها فمرتفعة ، وذراعاها نحيفان ، ورأسها مرفوع باعتزاز» . كانت بداياتها المسرحية



تعيّن هذه اللوحة المكان الذي ولد فيه إدغار في بوسطن على وجه التقريب .



إدغار ألن پو

(*) ماري جوزف دو لافاييت (١٧٥٧ ـ ١٨٣٤) قائد وسياسي فرنسي . اشترك في الثورة عام ١٧٨٩ ثم حارب في سبيل استقلال الولايات المتحدة .

(**) كما جاء بالإنكليزية في النص المعرّب .

وهي بعد في سن الحادية عشرة ، ذاك أن والديها ، وهما من الجنسية الإنكليزية ، كانا ممثّلين . وعندما بلغت التاسعة عشرة عام ١٨٠٦ اقترنت بداڤيد پو ، لكنها كانت قد تزوّجت من قبل ممثّلاً كوميديّاً يدعى «هوبكيز» توفي عام ١٨٠٥ .

وإذا كانت إليزابيث تتمتّع بقدر من الموهبة ، فإنّ داڤيد لم يكن موهوباً على الإطلاق . عاش الزوجان حياة خاملة في فرق محلية ، تعرّفا خلالها على الفنادق الرديئة ، ووجبات الخبز اليابس . ولا شك أنّ ثلاث ولادات متتالية كانت كافية لتهديم صحة المرأة الشابة . كانت قد أصبحت مسلولة حين ولدت إدغار ، إلاّ أن داڤيد سبقها إلى مثواه الأخير تاركاً لها عبء تربية ثلاثة أطفال . وقد واجهت التاعسة مأساتها بشجاعة . كانت أمارات العافية لا تزال بادية على وجهها تحت أضواء المسرح ، إلاّ أنه ما إن كان الستار ينسدل حتى تتهالك منهوكة وتسعل لساعات طويلة . لقد ساعدها رفاقها مراراً ، منظّمين لحسابها حفلات ، في حين كانت أصبحت عاجزة تماماً عن الظهور على المسرح . وهكذا أعلنت الصحافة في ٧ كانون الأول/ ديسمبر ١٨١٢ ، في ريتشموند ، حيث استأجرت غرفة تحتضر فيها ، عن الأمسية النهائية المنظّمة لصالحها : «هذه الليلة ، تسألكم السيدة پو ، الذاوية على سرير المرض محاطة بأطفالها ، تسألكم المساعدة وربما للمرة الأخيرة» . وبالفعل ، تخرّمها الموت غداة تلك الأمسية .

تقدير جمهور المسرح وإخلاص المؤجّرة كانا يلطّفان منذ مدة قساوة قدر المرأة المحتضرة . لقد اهتم بالممثلة البائسة امرأتان ثريّتان هما السيدتان ألن وماكنزي ، واللتان نجحتا في استدرار عطف زوجيهما ، وهما تاجران صارمان ، فدفعا مصاريف الجنازة وقبلا الاهتمام باليتامى . كان الولد البكر ويليام هنري ليونارد لدى جدّيه لأبيه وبقي عندهما ، أما الوسطى روزالي فتبنّاها آل ماكنزي ، فيما تبنّى آل ألن الطفل إدغار .

كان جون ألن ، وهو من أصل سكوتلندي ، في سن الواحدة والثلاثين ، أمّا زوجته فرانسيس فكان عمرها خمساً وعشرين ، وكانا يعيشان في ريتشموند في بيت جميل في «توباكو أللي» ، وكانت تعيش معهما آن مور

فالنتين ، شقيقة السيدة ألن . لم ينجبا أطفالاً ، وكان جون ألن رجلاً سيئاً ، كانت تتملكه ببساطة معتقدات طائفته «Caste»(*) وأنانيتها . إنَّ رجل الأعمال الكثيرة هذا ، مجهِّز السفن وتاجر السلع الأجنبية والكحول والحبوب والنسيج وحتى الأحصنة ، واستطراداً العبيد ، كان متزمّتاً فيما يخص مسائل الشرف ، مع أنه كان له في ريتشموند بالذات ولدا زنى وكان لكرمه حدود . لم يكن يستسيغ تعلُّق زوجته بالصغير إدغار ، ابن المهرِّجيْن هذا ، وحاول مراراً أن يقنعها بضرورة تسليم اليتيم لآخرين يعتنون به . بورجوازي أميركي منافق ومتنطّس ، هذا هو جون ألن ، وهو ليس أسوأ ولا أفضل من غيره . إنه إذا لم يكن أحب إدغار فهو لم يجرؤ مع ذلك على طرده ، وهو قد انتهى بالفعل إلى تقبُّل فكرة أنه سيكون وريثه . إلاّ أنه مع ذلم لم يتوصل إلى الاهتمام بتربيته ـ اللهم إلاّ لتأنيبه وإنزال شديد العقاب به ـ تلك التربية ، لسوء حظ الشاعر فيما بعد ، أمَّنتها السيدة ألن وأختها آن على وجه الحصر ، وهما امرأتان رقيقتان ، مفعمتان بالحنان والعطاء ، لم توفِّرا له إلاّ فتيات صغيرات كرفيقات لعب ، كما أنهما كانتا تجولان به كل يوم على كنائس قائمة لا تنتهي .

حين بلغ السادسة من عمره ، أُرسل إدغار إلى مدرسة الأمومة التي كان يديرها ويليام أروين . وثمة مجال للافتراض أنه كان في المساء ، وقبل أن يأوي إلى فراشه ، يروح يتسكع في مكاتب مجهِّز السفن ، حيث كان تجار التوابل وجوّابو البحار يروون قصصاً رجولية جميلة ، لا بل حتى في العنابر حيث كان العبيد المقيَّدون بالسلاسل يغنون أناشيد حزينة .

عام ١٨١٥ ، بعدما تمت هزيمة فرنسا وعاد الهدوء إلى المحيطات ، قرّر جون ألن أن يذهب إلى بريطانيا لزيارة عائلته هناك وليبدأ مشاريع جديدة . وبعد سفر دام ستة وثلاثين يوماً ، نزلت العائلة كلها في ليفربول وانتقلت حالاً إلى سكوتلندا . . سكوتلندا القصور المسكونة والضباب الضريحي والخشونة .

(*) Caste : كل طبقة اجتماعية مغلقة على نفسها . وتعني نظام الطوائف الاجتماعية وهو نظام قوامه التمييز الطبقي المبنيّ على أساس المنزلة أو الثروة .

تركت تلك الإقامة في نفس إدغار ذكريات لا تمحى ، وحدَّدت ميله إلى الوحدة والغموض ، والانطواء على الذات . وكان أن عاد آل ألن إلى لندن ، أمّا الطفل فبقي في عهدة امرأة صارمة تقيّة ، هي مارين ألن ، عمة والده بالتبني ، التي لم تكن تغفر له أقل هفوة . وقد جرى إرساله إلى مدرسة إيرفن حيث النظام في غاية الصرامة ، والعقوبات الجسدية معمول بها ، كما كانت المراسم الدينية تُقام ولا تنتهي . من هنا نفهم بصورة أفضل إيثار إدغار پو القصص الخارقة للأمكنة المظلمة والجنائزية ، حين نعرف أن القصاص الأقل قساوة في إيرفن كان إعادة نسخ الكتابات التي على القبور ، وأن النزهة المعتادة كانت زيارة خرائب قصر كيلمارنوك الملأى بالأشباح .

في عام ١٨١٦ أعلنت العمة ماري أنها لم تعد قادرة على احتمال مزاج إدغار السوداوي ، ولذا أُرسل هذا الأخير إلى مدرسة في لندن بعهدة الآنسات دوبور(*) . وقد غادر الفتى هذه المدرسة عام ١٨١٧ إلى مدرسة داخلية في ستوك نيوينغتون ، وهي «قرية قائمة في إنكلترا تزينها أشجار كبيرة عملاقة وكثيرة العقد ، كل بيوتها مغرقة في القدم»(**) ، عند المحترم برانسبي ، وهو رجل نزق ، شرس ، لكنه رياضي ، أكسب الطفل تذوق التمارين الرياضية .

عام ١٨٢٠ ، قرّر جون ألن العودة إلى أميركا : كانت أعماله تسوء وصحة فرانسيس ألن تذوب في ضباب لندن . ركبت العائلة السفينة ووصلت إلى نيويورك في ٢١ تموز/ يوليو .

في ريتشموند ، أُلحق إدغار بعد أن عاد إلى كنف العائلة بالمدرسة الإنكليزية الكلاسيكية ، التي كان يديرها الإيرلندي جوزف كلارك ، وهو متبحِّر في اللاتينية متفقّه ومعجب كثيراً بالأدب الإنكليزي ، من «جونسون»(***) إلى

(*) سوف تبرز ذكريات هذه المدرسة في «ويليام ويلسون» ، كما سيظهر اسم دوبور في «جريمة شارع مورغ» .

(**) هي القرية في «ويليام ويلسون» .

(***) صموئيل جونسون (١٧٠٩ - ١٧٨٤) كاتب وناقد ومعجمي إنكليزي ، يُعرف عادة بـ«الدكتور جونسون» .

«غولدسميث»(*) ، غرس في تلميذه حب الآداب والحنين إلى تراث العالم القديم . منذ تلك الفترة ارتسم الشاعر في ذلك الفتى البالغ الذكاء ، لكن الحالم المتوحِّد ، العاشق قبل الأوان للفاتنة سارة ألميرا رويستر ، وهي بنت أحد الجيران ، تكبره بثلاث سنوات ، والعاشق دون شك أيضاً لفرانسيس ألن ، أمه بالتبني ، وهي امرأة شابة ناعمة وجميلة كانت مشرفة على الموت بمرض السل ، كما ماتت إليزابيث المسكينة .

كان جون ألن يصبح أكثر فأكثر قساوة مع الصبي ، كلّما تدهورت صحة زوجته ، فكان يثقله بالمضايقات والتأنيب ، كما لو كان يريد إجباره على التمرّد والهرب . وكان إدغار يلجأ إلى المطالعة ، وإلى أولى المحاولات الشعرية ، أو كان يجول حول بيت رفيقه روبرت ستانارد ، الذي كانت والدته جين تلهمه عشقاً جديداً قبل أوانه . كانت المرأة الشابة جميلة ، غضّة ، داعبت جبين الشاعر المبتدئ ، وكان ذلك كافياً لتصبح «هيلانة»(**) في قلب ابن الخامسة عشرة ، هذا الذي لم تكن الميثولوجيا من مرمر بالنسبة إليه ، بل من لحم ودم . لقد فكَّر بها وهو يكتب مقاطع لهيلانة :

إيهِ هيلانة ، يبدو جمالك لي
شبيهاً بمراكب الزمن الغابر النيسية تلك
التي كانت تحمل بلطف ، على البحر المعطر ،
المسافر المتعب والمنكسر
نحو شواطئ ميلاده . .

إلاّ أن هيلانة ـ جين ماتت ، للأسف ، في نيسان/ أبريل سنة ١٨٢٤ ، مجنونة ودون شك مسلولة هي الأخرى . بكاها إدغار كرجل عاشق مدة طويلة وبيأس . . وبدا أنه لن ينساها أبداً .

لكن في خريف ذلك العام ذاته ، جاءت حادثة مهمة تلهيه عن حزنه :

(*) أوليڤر غولدسميث (١٧٣٠ ـ ١٧٧٤) شاعر وروائي وكاتب مسرحي إنكليزي .

(**) أميرة يونانية اشتهرت بجمالها . هي ابنة زفس وزوجة ميلاس ملك إسبرطة . خطفها باريس فكان ذلك سبباً لنشوب حرب طروادة .

كانت أميركا تستعد لاستقبال لافاييت بمنتهى الأبهة العسكرية . جرى في ريتشموند بالذات تدعيم الميليشيا المحلية ، المولفة من متطوعين ، لهذه الغاية . ولقد انتخب إدغار رغم حداثة سنه ملازماً ، لأنه جرى تذكُّر علاقات الصداقة التي كانت تربط لافاييت بدافيد پو الجد .

إن المصافحة الاحتفالية التي منحها الجنرال الفرنسي المجيد للكاتب ـ مستقبلاً ـ خلال استعراض ريتشموند ، تركت تأثيراً كبيراً ومتعدداً في مصيره . ولّد هذا التأثير عنده الكبرياء ، وأعطاه فكرة أسمى عن نفسه . جاءته الرغبة في التحرر . كان قد أصبح واثقاً من عضلاته ـ ومآثره في السباحة مشهورة ـ أمّا الآن فقد صار واثقاً من شخصيته . كان قد أثار إعجاب الجمهور ، وجون ألن ذاته ، بصلابته وأناقته . كان يعرف ذلك ويتمتع به . إن قيادته لأسابيع أناساً أكبر منه ، بمعظمهم ، أعطته فوق ذلك حب السلطة . ربما لا ينبغي أن نبحث في غير هذه الدقيقة التاريخية عن أساس إرادة استقلال وسيطرة سوف يؤكدها پو حتى التطرّف في كل ظروف حياته .

في سن السادسة عشرة ، أصبح إدغار پو «كما في ذاته» : متشكّكاً ومعتزاً ، فولاذي النظرة . كان شحوبه وليد فكر مركز لا جسد منزوف ، يثير إعجاب النساء ورهبة الرجال . وكان في الوقت ذاته مقداماً ومتحفظاً ، ملاطفاً وسيئ الطبع ، سريع الغضب ، قادراً على المرونة الصبور ، مشغوفاً بالدراسة ومفتتناً ، على طريقة يونانييه العزيزين على قلبه ، بجمال الأجساد ، إنه يُمَثْلِنُ «Idéalise» المرأة ، يحترمها ويخافها ، لكنه يعرف كذلك أن يفتنها بسحرِهِ الطبيعي (هو جميل بجبينه العالي ، وشعره الأسود المعقوص ، وأسنانه المنتظمة ، وبشرته البيضاء ، ويديه الرشيقتين)(*) ، وهو لا يتردّد في

(*) قال فيه بودلير : كان لإدغار جبين عريض ، مسيطر ، حيث بعض النتوءات تكشف القدرات الفياضة التي تمثلها : البناء ، المقارنة ، السببية ، وحيث يتبوأ في كبرياء هادئة حس المثالية ، الحس الجمالي بامتياز . إلاّ أنه رغم تلك المواهب ، أو حتى بسبب تلك الامتيازات غير المألوفة ، فإن هذا الرأس ، منظوراً إليه جانبياً ، ربما لم يكن يبدو=

ذلك . إنه مأخوذ بهمّ الكمال ، لكنه يحب إظهار مزاياه ، وثمة في ذاته جانب «الشوفينية»(*) الذي يجعلك تبتسم أحياناً ، كما أنَّ حب السبق يجعله يقدم على حماقات .

هذا هو إدغار الإنسان ، الإنسان المكوَّن الذي واجهه جون ألن في مكتبه الممتلئ نماذج وسجلات صارمة ، في عيد الميلاد عام ١٨٢٦ . لقد ودّع إدغار جامعة شارلوتسفيل حيث أرسل ليتابع دراسته . أمّا أسباب عودته فترجع إلى أنه دخل في مبارزة ، وتخاصم مع الشرطة ، وسكر واستدان ، لأن والده بالتبنّي لم يكن يعطيه إلاّ مائة دولار في السنة لمصاريفه القليلة ، فيما كان يحتاج إلى ثلاثمائة وخمسين . ولكي يسدّد ديونه ، رأى الشاب المجنون أن يلعب بالنرد ، وبالطبع فقد خسر . رفض جون ألن ، غاضباً ، أن يدفع لدائني شاعر «تامرلان»(**) وأخرجه ببساطة من الجامعة . كان النقاش عنيفاً بين الاثنين ، وقد أنهاه إدغار بصفق الباب وراءه .

وأضيفت خيبة أخرى أكثر إيلاماً . لقد تزوجت سارة ألميرا رويستر التي كان يحبها منذ طفولته ، والتي أقسم لها أنها ستكون زوجته ، تزوجت في أثناء وجوده في جامعة شارلوتسفيل ، وحرصاً على الدقة نقول «زوّجوها» شخصاً اسمه السيد «شلتون» ، وقد اكتشف إدغار أن جون ألن ، الذي كان على علم بما بين ولده بالتبني والفتاة ، مارس ضغطاً شديداً على السيد رويستر ليسرّع ذلك الزواج .

مرت شهور عدّة عاصفة وعقيمة . ترك جون ألن إدغار دون نقود . لم يكن يستطيع أن يشتري كتباً ، ويئس من قدرته على أن يعاود دراسته .

= مشهداً لذيذاً كما في كل الأشياء المفرطة ، فإن نقصاً يمكن أن ينجم عن الفيض ، وفقراً عن الاغتصاب . كانت لديه عينان كبيرتان ، قاتمتان ، وفي الوقت ذاته مفعمتان ضياء ، لونهما ملتبس وداج ، يميل إلى البنفسجي ، وله أنف نبيل صلب ، وفم دقيق حزين ، وإن كان بسّاماً قليلاً ، وبشرة سمراء صافية ، ووجه شاحب بعض الشيء ، وهيئة شاردة نوعاً ما تموّهها كآبة معتادة .

(*) Chauvinisme وتعني التزمّت الوطني .

(**) ديوان شعر لإدغار .

كانت فرانسيس ألن المريضة عاجزة عن تليين موقف زوجها ، ولم تستطع إلاّ أن تحضر كشاهد لا حول له المشاحنات التي كانت تستعر باستمرار بين الرجلين . لقد انفجر في ١٨ آذار/ مارس ١٨٢٧ مشهد عنيف بشكل خاص . صرخ جون التاجر : «إذا لم تكن راضياً ، فتّش عن نصيبك في مكان آخر!» . لم ينتظر إدغار لحظة ، بل ذهب يقيم في كورت هاوس تافرن ، من حيث بعث برسالة تنضح اعتزازاً إلى والده بالتبني يقول فيها :

«سيدي . .

بعد الطريقة التي عاملتني بها البارحة ، وما حصل بيننا هذا الصباح ، أكاد أعتقد أنك ستفاجأ بمضمون هذه الرسالة . لقد اتخذت قراري أخيراً بمغادرة منزلكم ومحاولة إيجاد مكان لي في هذا العالم الواسع حيث أُعامَل . . بصورة مختلفة عن كيفية معاملتك لي . ليس هذا قراراً متسرعاً ، لقد فكّرت فيه تماماً ، ولأني فكرت ملياً فلن يتبدل قراري . ربما اعتقدت أني فررت غضباً وأني أتحرق الآن للعودة . لا شيء من ذلك . وسوف أوضح لك الأسباب التي دفعتني إلى حسم موقفي ، وعند ذلك سوف تحكم .

من يوم أصبحت قادراً على التفكير في شيء ما ، تاقت أفكاري ، وأنت علّمتها أن تتوق ، إلى رقيٌ اجتماعي ما ، وهو أمر لا يمكن بلوغه دون بلوغ درجة عالية من التعليم ، يستحيل الحصول عليها في مدرسة ابتدائية .

لقد رغبت بحرارة أن أنتسب إلى مدرسة عالية ، وكنت آمل أن يحصل ذلك عاجلاً أو آجلاً . لكن في لحظة نزق ، دمرتَ رجائي لأني وجدتني على خلاف معك حول رأي وجدت نفسي مضطراً إلى التعبير عنه . . ثم سمعتك تقول (في حين لم تكن تعتقد أني أصغي إليك ، وبالتالي فقد قلت ما قلت صادقاً) إنك لا تشعر بأي محبة نحوي . زد على ذلك أنك أمرتني بمغادرة منزلك . إنك تؤنبني بلا انقطاع ، متهماً إياي بأكل خبز العطالة ، مع أنك أنت الشخص الوحيد القادر على تلافي ذلك بإعطائي شيئاً أعمله . . إنك تستمتع بالتجريح بي بحضور الأشخاص القادرين على مساعدتي في الحياة . . .» .

أما الفقرة الأخيرة فكانت أقل اعتزازاً : «أرسلْ لي حقيبتي إلى كورت هاوس تاڤرن ، وأستحلفك ، قليلاً من المال حالاً لأني في عوز شديد» .

أجاب جون ألن بتقريعات مريرة على أمور كثيرة ، ليس أخطرها الاشتغال بالأدب ، لكنه لم يرسل مالاً . وقد بعث إليه إدغار في الغداة برسالة جديدة يقول فيها :

«أنا في ضيق شديد ، لم أذق طعاماً منذ صباح البارحة ، ليس لي أي مكان آوي إليه ليلاً ، أتخبّط في الشوارع ، أنا منهك تقريباً . . ليس معي سنتيم واحد للحصول على الطعام . . . .» .

لم يجب جون ألن هذه المرة . فيما بعد وجدت رسالة الشاعر بين أوراقه ، كتب على ظهرها هذه الإشارة المقتضبة : «رسالة جميلة !» .

إلاّ أن الشاعر حصل على النجدة من فرانسيس ألن التي حملت إليه حقائبه ، ومن أحد رفاقه ، بورلينغ ، الذي أنزله في «ريتشارد سونز تاڤرن» . وقد قرر أن يغادر ريتشموند ، وبالفعل انتقل تحت اسم «هنري لورينر» إلى بوسطن ، بعد أن قال إنه يغادر أميركا إلى أوروبا ، وهو ما سوف يدعم الخرافة القائلة إن إدغار پو زار فرنسا وألمانيا وروسيا .

كان أول اهتماماته في بوسطن أن ينشر كتاباته . ولقد قام ، مستعيناً بالمال الذي أعطته إياه فرانسيس ألن ، بطبع «تامرلان» وقصائد أخرى بمعونة طبّيع شاب التقاه مصادفة هو «كالڤن توماس» ، وقد وقّع ديوانه بعبارة متواضعة هي : «أحد سكان بوسطن أو البوسطني» . هل كان يأمل الحصول على أي كسب من نشر هذه المجموعة؟ لا نعرف ، ولن يكون باستطاعتنا أن نعرف عنه شيئاً حتى ٢٦ أيار/ مايو ١٨٢٧ ، حين انخرط كجندي عادي باسم إدغار أ . بري ، متذكراً مصافحة لافاييت له .

أرسل في البدء إلى حصن الاستقلال ، قرب بوسطن ، ثم إلى حصن مولتري في جزيرة سوليڤان ، التي سيصفها فيما بعد في «البقّة الذهبية» ، ولقد حظي الشاعر بنجاح ، وبدت الحياة العسكرية تروق له . كانت لديه أوقات فراغ بدأ في أثنائها بكتابة قصيدته الكونية الأولى «الأعراف» ، التي أوحت إليه بها دون ريب تأملاته الليلية الطويلة . إلاّ أنه ما مرت عليه عدة

أشهر حتى مل جفاف جزيرة سوليفان ، حيث لا ينبت إلاّ بعض الأشجار الضامرة ، وحيث لا يرى المرء إلاّ «بعض الأكواخ الخشبية البائسة التي يسكنها في الصيف أناس يهربون من الغبار والحميّات في شارلستون» ، وقط طلب إعفاءه من الخدمة . أيده رؤساؤه في ذلك ، وهم كانوا يودّون أن تعد له «وست بوينت» ليصبح ضابطاً . لكن كان ينبغي لذلك موافقة جون ألن الذي رفض إعطاءها مرتين .

إلاّ أن التاجر الخشن لان بعد أشهر . في غضون ذلك ، توفيت فرانسيس ألن ، وقد وعدها على فراش موتها ألاّ يتخلى أبداً بصورة كلية عن إدغار . وهكذا استطاع الجنرال «غاينز» في الخامس عشر من نيسان/ أبريل ١٨٢٩ أن يوقّع أخيراً على تسريح «السرجان ميجور(*) أ . بري» (الذي منح شهادة نادراً ما تُمنح ، شهادة في . . . الرزانة) ، وقد قدم إدغار طلباً بقبوله في وست بوينت . غادر ريتشموند في أيار/ مايو إلى واشنطن حيث كان عليه أن يمثل أمام وزارة الحربية . ولقد أعطاه جون ألن ، الذي قرر مساعدته أخيراً ، بعض المال ورسائل توصية . لكن بعد أن قام بالإجراءات اللازمة في واشنطن ، لم يعد الشاعر إلى ريتشموند . تذكّر جدته العجوز وأخاه هنري بو ضابط البحرية في ذلك الحين ، والشاعر في ساعات فراغه(**) ، وقرر أن يذهب إلى بالتيمور لرؤيتهما .

في بالتيمور ، حل إدغار ضيفاً في غرفة ابن عم له هو «موشر بو» الذي سرقه في أثناء نومه . هوذا الآن بلا مال . إلاّ أن عمته ماري كليم أبدت حياله الكثير من الطيبة ، وقد التقى أخاه وجدّته بفرح كبير . إن إقامته قرب أهله ـ التي كانت تقطعها سفرات إلى فيلادلفيا حيث حاول نشر «الأعراف» ، وإلى واشنطن حيث كان يذهب من وقت إلى آخر للسؤال عن طلب القبول في وست بوينت ـ هي في الواقع أسعد فترات حياته . كان يمضي أمسيات وهو يتحدث عن الشعر مع شقيقه ، وقد أحاطته ماري كليم

(*) Sergeant major : رقيب أول .

(**) نشر هنري بو عام ١٨٢٧ قصيدة بعنوان : «من أجل الأميركي الشمالي» .

بعطف الأم ، وهو لم يمل من مداعبة ابنة عمته ڤرجينيا التي اخترع لها قصصاً عجيبة .

ثم ابتسم له الحظ فجأة : كان قد أرسل قصيدته «الأعراف» إلى جون نيل ، الناقد الأدبي لـ«المجلة الأدبية لأميركا وبوسطن» ، وقد نشرها له هذا في الجريدة المذكورة الواسعة الانتشار ، ثم قامت دار «هاشت إند دانينغ» بإصدارها في ديوان مع قصائد إدغار الأخرى .

كتب جون نيل حول المجموعة مقالاً تقريظياً(*) ، ومذ ذاك لم يعد إدغار پو مجهولاً .

أثر ذلك إيجاباً في نفس جون ألن ، فمع أنه كان رفض قبل شهور أن يكفل ولده بالتبني بمبلغ مائة دولار ، وأن يستقبله في ريتشموند ، عاد فاستقبله عن طيب خاطر ، وقَبِلَ أن يمده بما يحتاج إليه بانتظار قرار الوزارة . إلاّ أن الوفاق لم يدم ، وقد علِم الشاعر ، بالكثير من الارتياح ، بنبإ قبوله أخيراً في وست بوينت .

كان التلامذة جميعهم في مدرسة الأحداث من عائلات غنية . وقد وصل إدغار وفي جيبه عشرون دولاراً فقط ! وعادت حيارة شارلوتسڤيل مع الحرمان والديون . . وفي الخامس من تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٣٠ ، أضاف جون ألن إلى قناعة الشاب ، بأنه لقيط بائس ، واقعاً جديداً ، لقد تزوج من جديد آنسة اسمها لويزا غابرييلا باترسون . انضاف إلى ذلك قضية جد خبيثة : كان إدغار مديناً بمبلغ من المال لأحد رفاقه في السلاح ، المدعو بولي ، الذي طالبه عبثاً بدفع المبلغ . وقد عنّ على بال الشخص المشار إليه أن «يبتز» جون ألن بأن أرسل إليه نسخة من عدة رسائل يتحدث فيها إدغار عن والده بالتبني بتعابير تجديفية . وقد استشاط جون ألن غيظاً وأرسل المال

(*) كان جون نيل ناقداً ممتازاً ، إلاّ أن النسيان كان قد غيّبه لو لم يكتسب عرفان الأجيال اللاحقة بجميله لكونه أول من اعترف بعبقرية إدغار پو : «إن نقادنا الحاليين الكبار ، المنغلقين بصورة منهجية على كل تجديد شعري ، يحسنون صنعاً إذا هم استلهموا نفاذ بصره ونبله !» .

المطلوب إلى «بولي» للاستحصال على تلك الرسائل ، فيما أبلغ ولده بالتبني أن كل علاقة بينهما قد انقطعت ، وإلى الأبد . استلم إدغار هذا الحكم في أول كانون الثاني/ يناير سنة ١٨٣١ . وقد أجاب عليه في الثالث منه برسالة طويلة عدّد فيها كل مطاعنه ، وخلص فيها إلى القول : «ما الفائدة من مواصلة هذه الحياة البائسة لولد فقير؟» ، وأضاف أنه أصبح كبيراً كفاية لاختيار مهنة وكسب معيشته ، وأنه قرر البدء بترك وست بوينت . أما جون ألن فكتب على قفا هذه الرسالة بتدقيقيته المعتادة : «وصلت هذه الرسالة في العاشر ولم أجد ضرورة للإجابة عليها . أكتب هذه الملاحظة في الثالث عشر ، ولا أرى أي مسوّغ لتبديل رأيي» .

في الثامن والعشرين من شباط/ فبراير ، شطبت المحكمة العسكرية في وست بوينت اسم إدغار بو من ملاكات الجيش لرفضه الاستجابة للدعوات وحضور الدروس وممارسة الوظيفة .

بدأ الحظ يبتسم له للوهلة الأولى في نيويورك حيث وصل وهو مصمم بحزم على فرض شعره واحتراف مهنة الأدب . . كان وعد رفاقه حين غادر وست بوينت بنشر قصائد هجائية أوحت بها إليه حياة المدرسة ، وجمع اكتتاباتهم . وقد استخدم هذا المال في الواقع لينشر لدى «إيلام بليس» الديوان الذي كان يوليه عظيم الاهتمام . صدر الكتاب بعنوان : «قصائد لإدغار أ . پو» ، وضم ملحوظة نقدية مهمة هي بداية كتابة عمل لاحق باسم «تكوين قصيدة» .

إلاّ أن هذا الشعر الفاتر والمُجهد فيه الفكرُ كثيراً لم يلفت انتباه أحد ، وهكذا كان بيعه معدوماً . تألم إدغار ، إلاّ أنه واصل الكتابة بإصرار . للأسف لم يجد عملاً ، وعانى بؤساً مريراً . فكر لفترة أن يعود إلى الجيش ، ثم عاد إلى بالتيمور قرب أهله . استقبلته ماري كليم بطيبة ، إلاّ أن المرأة المسكينة كانت مبتلاة بزوج سكير مبذّر ، وتجد صعوبة في إطعام أولادها ، وقد زاد بؤس المنزل بمرض هنري پو الذي توفي في أول نيسان/ أبريل ١٨٣١ . لم يترك ضابط البحرية إرثاً اللهم إلاّ ديوناً طولب إدغار بإيفائها . كان الشاعر عاجزاً عن إرضاء دائني أخيه ، مع أن المبلغ لم يتعد عشرات

الدولارات ، وقد جعل ماري كليم تكتب رسالة إلى جون ألن بالموضوع . ولم يقرر الأخير إرسال المطلوب إلاّ في ١٢ كانون الثاني/ يناير ١٨٣٢ حين علم بأن إدغار سوف يدخل السجن .

بقي إدغار طيلة الشتاء في سقيفته منكباً على العمل . كتب «**حكايات فوليو ـ كلوب**» التي تأمّل التمكن من بيعها لصحف يومية ، وبعض القصائد ، ومن بينها «الكوليزه» . في تلك الفترة انحبكت قصته مع إحدى جاراته ، ماري دسفيرو . استعان الشابان بالصغيرة فرجينيا لتبادل رسائل لاهبة . جرى الحديث عن الزواج . لكن إدغار جاء إلى بيت ماري كليم في أحد الأيام وهو سكران ، فرُمي خارجاً . هل كان سكران من الكحول أو من الأفيون أو فقط من الرغبة؟ تقول الأسطورة المنسوجة حوله إنه أدمن المخدرات وعاقر المسكر . لا نعرف شيئاً على وجه الدقّة ، والرواية التي وردت على لسان ماري دسفيرو بالذات جد غامضة ، إن الأكيد هو أن إدغار كان مضطرباً ، وكان سلوكه غير خاضع لمنطق واضح . هكذا انتقل في حزيران/ يونيو سنة ١٨٣٢ إلى ريتشموند . . ثم عاد منها دون رؤية جون ألن المريض وطريح الفراش ، لكن ليس دون إحداث فضيحة في هذا البيت الذي اعتقده بيته والذي لم يعد له فيه مكان .

عام ١٨٣٣ ، سطع الضوء فجأة على هذه الحياة الممزقة : لقد أجرت «بالتيمور ساترداي فيزيتور» مباراة أدبية رصدت لها جائزتين ، إحداهما لأفضل قصيدة ، وكان مقدارها خمسة وعشرين دولاراً ، والثانية لأفضل حكاية بمبلغ خمسين دولاراً . أرسل إدغار «الكوليزه» و«مخطوطة في قنينة» . وقد قررت لجنة التحكيم المؤلفة من جيمس هـ . ميللر ، وجون كندي ، وج .هـ . لاترو منحه جائزة الخمسين دولاراً ، ونشرت الجريدة الحكاية الفائزة . لم يعد ذلك عليه بالمجد ، لكن بشهرة حقيقية استغلها الشاعر في الحال . أصبحت المجلات تقبل بنشر أقاصيصه ، وصار بؤسه أقل قساوة . إن جون كندي ، الذي كان معجباً به ويكنّ له محبة ، قدّمه لـ«وايت» ، مدير الـ«ساوثرن ليتري ميسنجر» التي كانت تصدر في ريتشموند ، وقد عرض عليه وايت وظيفة محرر . هو ذا إدغار يعود إلى ريتشموند (حيث توفي

جون ألن دون أن يذكر حتى اسمه في وصيته) ، وهو يقع من جديد في قبضة الحزن والكمد . ذلك أن ريتشموند ليست بالنسبة إليه بيتاً عزيزاً يعود إليه ، بل طفولة تاعسة تُبعث حية ويعيشها المرء من جديد رغماً عنه . كل شيء يحدث الشاعر هنا عن قصص حب ميتة : جين ستانارد ، فرانسيس ألن ، سارة ألميرا رويستر ، كل شيء يذكره هنا بالتقريع ، بالظلم ، وعدم التفهم من جانب ذلك الذي لم يكن يلتمس منه إلاّ أن يحبه كأب . شرع يشرب وأهمل عمله . . وقد صرفه وايت ، لكنه عاد فاستدعاه من جديد في نهاية عام ١٨٣٥ ، بناء على إلحاح جون كندي(*) .

عندما عاد إدغار پو إلى ريتشموند ، لم يكن هذه المرة وحده ، كانت تصحبه ماري كليم وڤرجينيا ، ڤرجينيا ابنة عمته الصغيرة بنت الثلاثة عشرة التي ربطه بها زواج سري انعقد في ٢٢ أيلول/ سبتمبر . انكب على العمل من جديد ، وبإصرار شديد هذه المرة . يكفي أن نتصفح مجموعة أعداد الـ«ساوثرن ليترري ميسنجر» لنتأكد من ذلك : إن نثر إدغار پو يملأ أعمدتها ! يتعلق الأمر في قسم كبير بمقالات نقد أدبي لاقت نجاحاً كبيراً لصفائها وصراحتها وجرأتها . زادت نسخ المجلة وابتهج وايت لذلك . وسرعان ما أسند إليه منصب رئيس تحرير براتب ثمانمائة دولار سنوياً . لم تكن تلك هي الثروة ، إلاّ أن ماري كليم ، بتأسيسها فندقاً عائلياً ، عاش الزوجان حياة جد لائقة . وما إن احتفل بالزواج الرسمي في ١٦ أيار/ مايو ١٨٣٦ حتى أصبح بإمكان العروسين أن يسافرا إلى «بيتسبورغ» لقضاء شهر عسل .


ڤرجينيا . . الزوجة الصغيرة

إلاّ أن إدغار ما عتّم أن عاودته كآبة لا

(*) تقاسم جون كندي مع جون نيل شرف فهم إدغار پو ومساعدته «لن ننسى اسمه أبداً حتى ولو لم يتذكر أحد أنه كان كاتباً وصحفياً مرموقاً» .

تقهـر ، فعـاود الشـرب بشـدة ، وأهمل عـمله من جديد . وقـد طرده وايت نهائياً هذه المرة .

وصل الشـاعـر إلى نيويورك حاملاً بداية مخطوطته «أرثور عـوردون بيم» في حقائبه . لم يجد عملاً ، وإن كانت شـهرته كناقد أصبـحت ذائعة ، ولقد كـان على ماري كـليم أن تلبي حـاجـات الثـلاثي ، مـؤسسـة فندقـاً عـائليـاً جديداً . عـام ١٨٣٨ ذهب إدغار إلى فيلادلفيا بغية تأسيس صحيفة . لكنه كان خاوي الوفاض ، ومن أجل الحصول على المال ، عمد وصديقه «سدلر» إلى كـتـابة كـرّاس علمي مملّ ، مطرز بتـرجـمـات لأعـمـال «كـوفـيـيـه»(*) وبانتـحالات متنوعـة . نشـر الكتاب لدى «هـاربر» عام ١٨٣٩ ، وأعيـد طبعه ثماني مـرات . إلاّ أن حقوق المؤلف التي حصل عليها إدغار لم تكن كافية لتأسيس جـريدة . تابع نشـر الحكايات ، ولا سيمـا في الـ«بوسطنز جنتلمانز مـاغازين» حين ظهر على التوالي «الإنسان الذي كان منهكاً» ، «انهيار منزل أوشـر» ، «ويليم ويلسـون» ، «موريلا» ، «محادثة إيروس مع شارميون» . وقد تلقى مقابـل كل منهـا عـشرة دولارات . نشـر كـذلك لـدى «ليـاو بلانشـارد» كتابه «Tables of the grotesque and arabesque» وقد انتظر حتى عام ١٨٤٠ حين استطاع أخيـراً أن يحـقق جـزءاً من طمـوحه : إن غـراهام الذي اشـترى الـ«بوسطنز جنتلمانز ماغازين» أسند إليه إدارة قسم الأدب في المجلة . فتح له هذا المـركـز صـالونات ، ومكـاتب نـاشـرين ، وجـعـله على صـلة بكـتّـاب مشـهورين ، ولا سيمـا «لونغفيلو»(**) . هوذا «ينطلق» ويحس بالسـعادة . . إلاّ أن المأساة تنهـال عليه من جـديد : فها هي فـرجينيا ، معشوقته الصغـيرة ، التي يحيطها بحب انخطافي وعفيف ، تمرض مرضاً شديداً . لقد روى فيما بعد في رسـالة بتاريخ ٤ كـانون الثاني/ يناير ١٨٤٨ ، في أي هاوية سحيـقة أوردته تلك الضربة القاسية :

(*) جـورج ليـوبولد كـوفـييـه (١٧٦٩ - ١٨٣٢) عـالم حـيـوان فـرنسـي يُعـدّ رائد علم التشريح المقارن .

(**) هنري لونغفيلو (١٨٠٧ - ١٨٨٢) شاعر أميركي اشتهـر بقصائده القصـصية ذات الموضوع التاريخي .

«منذ سنوات ست ، قطعت زوجتي ، التي كنت أحبها كما لم يحب رجل امرأة ، وريداً لها وهي تغني . لم يعد من أمل في شفائها ، قلت لها وداعاً إلى الأبد ، وقاسيت سكرات موتها . . صرت مجنوناً ، مع فترات طويلة من الصفاء الرهيب . في نوبات الانعدام التام للوعي شربت ! الله وحده يعرف كيف وكم ! بخبث ، عزا أعدائي الجنون إلى السكر بدل أن يعزوا السكر إلى الجنون . .» .

إن أعداءه هؤلاء هم أصدقاء قدامى من مثل «غريزوولد» و«بترسون» . هذا الأخير حاز على تقدير مدير «بوسطنز جنتلمانز ماغازين» إلى درجة تمكن معها من إزاحة إدغار الشاعر والحلول محله . هكذا فقد إدغار عمله دون أمل بالحصول على عمل جديد . سوف نجده ، فيما بعد ، متعتعاً من السكر في مماشي البيت الأبيض حيث كان سيستقبله الرئيس تايلر بالذات بتوصية من شخص يدعى توماس ، صديق لتايلر الابن . كان الأمر يتعلق بالاستحصال من الرئيس على ترخيص بإصدار جريدة جديدة اسمها : «ذي ستيلوس» عنَّت فكرتها لإدغار وقَبِلَ الناشر كلارك أن يموِّلها ، وبالطبع أُغلق الباب في وجه السكير . . سنجده فيما بعد في فيلادلفيا ثم في نيويورك حيث تعامل مع الـ«نيويورك صن» والـ«إيفننغ ميرور» والـ«برودوايز جورنال» ، دون أن يتوصل مع ذلك إلى جعل إحداها تنشر قصيدته «الغراب» . أخيراً ، وبعد عناء طويل ، قامت الـ«إيفننغ ميرور» بطبع هذا النص . . . الذي استقبله الجمهور كلطمة . هل هو النصر؟ إنه في كل حال نجاح كبير في إثارة الفضول . إن هذا جد غريب ، وجد عنيف بجدته ، ومرضاني إلى حد بعيد ! إلاّ أنه في ذلك اليوم ـ يقول بودلير ـ «بينما كان اسم پو على كل شفة ولسان ، وفيما كان الناس جميعاً يتهافتون على قصيدته ، كان هو يجتاز برودواي يصطدم بالبيوت ويتعثر . . .» إلاّ أنه بعد أيام ، أُعيد نشر قصيدة «الغراب» في الـ«أميركان ويغ ريفيو» وفي الـ«سلوثرن ليتريري ميسنجر» و«برودوايز جورنال» ، فشعر إدغار بتبدل الحال وغمره الكبر . ألقى محاضرات ، وأصبح نجم الأوساط الأدبية ، تسكره المدائح والتقاريظ . وقد اتخذ له عشيقة ، هي فرانسيس سارغنت أوسغود ،

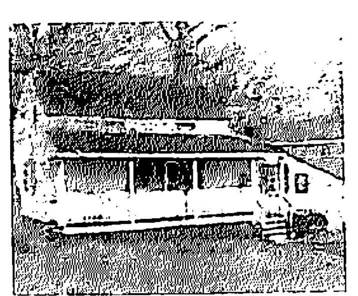
وهي شاعرة أُعجبت به . هكذا تخلى قليلاً عن المسكينة الصغيرة ڤرجينيا ، التي أسكنها في «فوردهام» ، فيما كان يقيم في نيويورك للاهتمام بشهرته . كانت حياته مشوشة ومنحلة ، فهو يشرب ويثرثر ويغازل ويلقي قصيدة «الغراب» كآلة في الصالونات جميعاً . أصبح مديراً للـ«برودوايز جورنال» وهو مركز أسنده إليه الناشر «بريغز» المفتون به . إلاّ أنه أفسد تلك الفرصة الفريدة ، وعاد من جديد بدون عمل ولا مال . ولقد التحق بڤرجينيا في «فوردهام» ، صاحياً من سكرته ، نادماً . هناك ، قرب سريرها ولها ألّف «أنابيل لي» ، إحدى قصائده الأكثر حرقة :

«كان ذلك منذ سنين ، سنين

في مملكة قرب البحر . . .»

ثم شرع في كتابة دراسة واسعة عن الأدباء النيويوركيين يبدو فيها متطلباً وقاسياً ، الأمر الذي عاد عليه بالشتائم والدعاوى . عملت ماري كليم سكرتيرة له . أما ڤرجينيا فكانت تذوي بقربه . كان يفلت أحياناً لمعاقرة الخمرة أو للقاء صديقات جميلات من مثل فرانسيس أوسغود (وزغود) والسيدة إيلر . . إن عمله في تلك الفترة يحمل بصمات تلك الفلتات وغالباً ما كان تفكيره يُغَشّى بالضباب . وسرعان ما لم يعد في المنزل شروى نقير ، لولا اكتتاب ودي بادرت إليه إحدى المعجبات ، السيدة شو ، ما سمح لپو بالعودة إلى العمل والتمكن من إطعام ذويه . يقال إنه اضطر إلى استعارة كفن لدفن ڤرجينيا حين ماتت بين ذراعيه في كانون الثاني/ يناير سنة ١٨٤٧ . إن من المؤكد أنه لم يعدم إخلاص أصدقائه ، فلقد افتتحت السيدة شو ، غداة وفاة ڤرجينيا ، اكتتاباً جديداً لحساب الشاعر ، وبدت الأكثر تفهُّماً بين النساء لهذا المراهق الكبير الدائم الذي لم يكن يخرج من معاركه مع الملاك إلاّ للاستسلام لشيطان السكر ، لا بل إنها استدعت له طبيبين حاولا إفهامه أنه يعرّض حياته للخطر بشربه الخمر بإفراط . هذه المساعدة اللطيفة والثابتة ، مضافة إلى تلك التي كانت تقدمها ماري كليم ، نجحتا في انتشال إدغار پو من فلتانه . انكب من جديد على العمل ، كتب «أولالوم» وباشر بكتابة «أوريكا» التي قدمها للجمهور في ٣ شباط/ فبراير سنة ١٨٤٨

ونشرها فيما بعد لدى «بوتمان» ، دون أن يحصل على النجاح الذي كان يتوقعه لهذا العمل الطموح .



أمضى پو السنوات الأخيرة القليلة من حياته في كوخ صغير في برونكس في نيويورك .

إلاّ أن انعدام الاستقرار عاوده سريعاً . غادر فوردهام لإلقاء سلسلة محاضرات ، وقد أعلن لمدام شو عن لواعج حبه لها ، ثم ابتعد عنها لأن أعمال برها كانت تذله . استسلم لمعاقرة الأفيون واللودانوم والمورفين ، وكان يسكر بصحبة أوغاد . هام في حب سيدتين هما مدام ريتشموند ومدام وايتمان اللتان تردّد فيما بينهما طويلاً ، مقرراً أخيراً أن يطلب الزواج من الثانية ، وهي امرأة شابة جميلة ، مترملة وغنية جداً . إلاّ أنه التقى صباح العرس رفاقاً قدامى وسكر معهم بصورة شنيعة ، ما أدى إلى صفق الباب في وجهه ، فاستدار نحو مدام ريتشموند مرسلاً إليها رسائل ملتهبة ، وكتب لها قصيدته «إلى آني» .

في أول تموز/ يوليو ١٨٤٩ ركب القطار لملاقاتها في لويل (ماساشوستس) مزوداً بخمسين دولاراً قدمها له أحد المعجبين به «إدوارد نورثون» ، إلاّ أنه التقى في فيلادلفيا ندامى قدامى وسكر معهم حتى فقد وعيه . هكذا صرعته أرضاً نوبة هذيان رعاشي في الثاني من تموز/ يوليو . جرت محاولة للعناية به إلاّ أنه استطاع الإفلات وحاول الانتحار مرتين ، الأولى بإلقاء نفسه في خزّان ماء ، والثانية بابتلاع جرعة كبيرة من اللودانوم . حين عاد إلى هدوئه في السابع من تموز/ يوليو كتب لماري كليم يقول :



صورة دَغَرية (طريقة قديمة للتصوير الفوتوغرافي على لوحة فضية) للشاعر الأديب (للمصوّر أوسكار هالنغ) .

«كنت مريضاً . . أصبت بالكوليرا أو بتشنجات على القدر ذاته من السوء . . ليس مفيداً إطلاقاً حديث العقل معي الآن ، ينبغي أن أموت . لم تعد لي رغبة منذ كتبت أوريكا . . لم أكن يوماً مجنوناً حقاً ، إلاّ في

المناسبات التي كان يتأثر فيها قلبي . . رميت في السجن منذ وصلت إلى هنا على أساس أني شربت ، إلاّ أنني لم أشرب . . .» .

النهاية تتسارع . ما إن عاد إدغار إلى فوردهام حتى غادرها من جديد في الثالث عشر من تموز/ يوليو إلى ريتشموند هذه المرة . وجد هناك سارة ألميرا رويستر التي ترملت ولم يعد يفكر بمدام ريتشموند! شعر بعشقه الصبوي الماضي يشتعل من جديد . أما سارة ألميرا ، فمع أنها كانت أم عائلة وجد تقية ، استجابت لحبه وتقرر الزواج . عين موعدة في ١١ تشرين الأول/ أكتوبر ، وعد إدغار بأن لا يعود إلى معاقرة الخمر أبداً ، لا بل وصل إلى حد الانتساب إلى «رابطة أبناء الاعتدال» ! إلاّ أنه فيما كان منطلقاً في السادس من تشرين الأول/ أكتوبر إلى فيلادلفيا ، من حيث كان عليه أن ينتقل إلى نيويورك للاهتمام بإعادة نشر حكاياته ، وقع مريضاً في القطار بعد أن تجاوز بالتيمور التي توقف فيها لمعاقرة الخمرة ، ثم عاد إلى بالتيمور حيث تجول طيلة الليل . في الغداة ، اكتشفه عابرون بلا حراك على مقعد في «لايت ستريت» ونقلوه إلى معهد واشنطن الطبي . فحصه الدكتور ج .ج . موران الذي سرد ملاحظاته بصورة دقيقة :

«لم تكن تفوح من ثيابه وأنفاسه أية رائحة كحول . لم يكن يهذي ولا يضطرب . كان جلده أدكن ، فقط بعض الغرغرات كانت تسمع في حلقه . كان يبدو نائماً . في حالة غيبوبة . . .» .

استعاد إدغار پو وعيه بعد نصف ساعة ، فأزاح عنه الأغطية وسأل أين هو . حيّاه الدكتور موران ووعده باستقدام أمتعته وطمأنه إلى مشاعره الودية . تعجب إدغار پو وقال :

«أفضل صديق لي هو ذلك الذي يجهز علي بطلق ناري» ، ثم راح يتفجَّع : «آه كم أنا تعيس! عندما أتأمل انحطاطي وخرابي أيها السيد ، عندما أفكر كم تألمت وفقدت ، بالهم والبؤس اللذين سببتهما لأحبائي ، أود لو أختفي في قاع هاوية ، منبوذاً من الله والناس ، كحثالة المجتمع . يا إلــهي! أي وضع رهيب! أليس من فدية للروح الخالدة؟» .

أعطاه الطبيب علاجاً مهدئاً فنام ، إلا أنه كان ، في حين استيقظ ، قلقاً ،

مضطرباً ، سأل الطبيب :

«هل أنا مريض جداً يا دكتور؟ أليس ثمة أمل؟» . ورجا الدكتور موران أن يعلم ماري كليم وسارة ألميرا .

«في تلك اللحظة ـ هذا ما كتبه الدكتور موران ـ تلوّنت سحنته وانتفخت أوردة صدغيه ، أدار عينيه بتشنج عظيم وانحنى رأسه إلى الأمام . . بقي الشاعر في حالة ذهول كامل مدة ساعة ، ثم انتعش قليلاً قليلاً . جرى مذ ذاك إعطاؤه منشطات بين الحين والحين ، ومضادات للحمى وحساء ممزوجاً بعدة نقط من الأمونياك ، ومنعشات ، فيما كان يجدد الثلج على رأسه باستمرار . ثم جاء طبيب آخر من معهد واشنطن الطبي هو البروفسور جون مونكور ، وما إن رأى پو حتى قال لي : «إن مريضك يموت» . . فحص الشاعر بدقة ، وطلب مني وصف كل الأعراض التي حصلت منذ الصباح ، وقد جاء رأيه يعزز رأيي : «كان المحتضر عرضة لتهيج عصبي فائق الحدة ، ناجم عن الحرمان ، مضاعف بتعرض طويل للبرد ، كان مصاباً بالتهاب الدماغ . استعاد پو وعيه بعد قليل من ابتعاد زميلي . فتح عينين واسعتين وبدا يجد صعوبة كبرى في الكلام .

قال : «ـ دكتور ، انتهى كل شيء . . . اكتب : انتهى إدي . . .» .

كان إدي اسم الدلال الذي كانت تطلقه عليه عمته السيدة كليم .

قلت له : «اسمح لي سيد پو أن أنبئك بأنك على وشك الموت . هل لديك رغبات تود أن تعبر عنها سواء لك أو لأصدقائك؟» .

فتمتم :

«ـ وداعاً إلى الأبد !

« ـ فكّر بالله . إنه رحيم وسوف يشفق عليك ، كما يفعل بالنسبة إلى البشرية جمعاء .

« ـ إن قباب السماء تسحقني . دعني أمر . لقد كتب الله مراسيمه بصورة مقروءة على جبين كل مخلوق إنساني . . . إن الشياطين تتجسّد . . . سجونهم الأمواج المزوبعة لليأس الأسود .

قاتلاً نفسي ، أرى الميناء ما وراء الهاوية . . أين العوامة؟ زورق

النجاة؟ . . . سفينة نار ، بحر نحاس ! . . الهدوء في كل مكان . . لم يعد ثمة شطآن !» .


ضريح إدغار ألن بو في مقبرة بالتيمور (مريلاند) .

انتابته عدة رعشات ، ثم رعدة عظيمة في كل جسده وكانت نهايته في السابع من شهر تشرين الأول/ أكتوبر سنة ١٨٤٩ . أي عصفور رعب دخل الغرفة وصفق بجناحيه؟ إنه منتصف الليل .

بعد ذلك بيومين ، رافق أكبر شاعر في أميركا ، إلى مقبرة بالتيمور حيث ووري الثرى في مدفن العائلة ، تسعة أشخاص .

پو وبودلير

«ليس بتلك العجائب المادية ، التي كانت مع ذلك أساس شهرته ، سيكون له أن يكسب إعجاب قوم يعقلون ، إنما بحبه للجمال ، بمعرفته الشروط المتناغمة للجمال ، بشعره المتألم العميق ، المتقن الصنع في الوقت ذاته ، الشفاف والسليم كجوهرة بلّور ، ـ بأسلوبه المدهش ، النقي والغريب ، ـ المضغوط كحلقات درع ، ـ المراعي والدقيق ، ـ والذي ألطف نية لديه هي دفع القارئ بلطف إلى هدف مراد ، ـ وأخيراً خاصة بهذه العبقرية جد الخاصة ، بهذا المزاج الفريد الذي سمح له أن يرسم ويشرح الاستثناء في النظام الأخلاقي ، بصورة معصومة ، أخاذة ، رهيبة . ـ إن ديدرو(*) ، إذا أخذنا مثلاً على مائة ، هو مؤلف دموي ، أما پو فهو كاتب الأعصاب ، لا بل شيء أكثر من ذلك ، ـ والأفضل الذي أعرفه . . .» .

يلخص كلام بودلير هذا بوضوح خصائص أدب إدغار پو الأساسية ، وإن يكن لا يستوفي بالطبع الصورة الكاملة لشاعر وقصّاص وناقد عظيم أحدث أثراً عميقاً ، ليس فقط في الأدب الأميركي ، الذي كان من واضعي مداميكه

(*) دنيس ديدرو (١٧١٣ ـ ١٧٨٤) فيلسوف فرنسي نشر مبادئ الإلحاد والفلسفة العقلانية في القرن ١٨ . أسّس الأنسيكلوبيديا وأشرف على إصدارها .

الأولى ، بل كذلك في الآداب العالمية المختلفة .

وليس بودلير إلاّ واحداً من شعراء وأدباء كبار آخرين يدينون لپو بالكثير في تبلور عبقريتهم الشعرية وإبداعهم الفني ، وإن كانت علاقته به تتخطى هذه المسألة إلى أبعادها الإنسانية وخلفيتها الحياتية . ذاك أن بودلير أكثر من أخ لپو وأكثر من شبيه ، وليست سورة المخدر أو الخمر الجامع المشترك الوحيد ، بل ثمة جوامع أخرى كثيرة ، ليس أقلها شأناً عداء معاصريهما من الأدباء والناقدين ، وفهمٌ يكاد يكون واحداً للعملية الإبداعية . الاثنان متفقان على أن «لا هدف للشعر سوى ذاته ، لا يمكن أن يكون له هدف آخر» (بودلير) . . «لا علاقة له بالعقل أو الوعي إلاّ بصورة جانبية ، وهو لا يهتم إطلاقاً بالواجب أو الحقيقة ، اللهم إلاّ مصادفة . .» (پو) .

وقد كانا أخوين أحياناً إلى درجة العلاقة بين الفعل ورد الفعل ، بين التحدي والاستجابة للتحدي ، إلى الدرجة التي لم يجد معها بودلير مناصاً من كتابة مجموعته «قلبي معرّى» ، كنوع من الرد بالتحديد على التحدي الذي أطلقه پو في مارجيناليا ، حين دعا من يود أن «يثوّر فجأة عالم الفكر والرأي والشعور الإنساني بأكمله» ، إلى «أن يؤلف وينشر كتيّباً صغيراً عنوانه بسيط ومؤلف من كلمتين لا ادعاء فيهما : «قلبي معرّى» . . .» ، مختتماً فكرته تلك بالقول إن أحداً لن يجرؤ «على كتابته يوماً ، لن يعرف أحد كيف يكتبه ، حتى ولو تجرأ على ذلك ، لأن الورقة كانت لتنطوي على نفسها وتشتعل لمجرد الاحتكاك بريشته الملتهبة» .

وبالطبع لا مجال هنا لتحري مدى توفيق بودلير في «رده على تحدي» پو ، إلاّ أن المهم هو التأكيد انطلاقاً من هنا على الهاجس الذي عاشه هذا الأخير إلى أبعد الحدود ، هاجس المطابقة بين الفنان والكائن ، بين المبدع والعمل الإبداعي ، إلى درجة جعلت نده الفرنسي يعتبر أقاصيصه مجتمعة «سيراً ذاتية» بهذا المعنى أو ذاك ، فيما رأى فيه دوستويفسكي(*) كاشفاً للزيف ونازعاً للأقنعة .

(*) فيدور دوستويفسكي (١٨٢١ - ١٨٨١) كاتب روائي روسي كان له التأثير العظيم في الحركة الفكرية الروسية العصرية . تمتاز رواياته بالتحليل الأخلاقي النفسي .

إن حياة پو ، «الحمّى المسماة حياة»(*) ، تنزل بكل رهبتها وعذابها ، بكل ذكرياتها وأوهامها ، بكل ما فيها من تماثل بين الحقيقة والحلم ، في الإطار المتكامل للعمل الأدبي ، أكان قصيدة أم قصة أم أقصوصة ، مدخلة إيانا في هذا الجو الخانق ، جو «القصص الخارقة(**)» والكتابات الهاذية إلى هيلانة وآني وأولالي وليـنور ، إلى موريلا وأنابيل لي ، كل الأسماء الجميلة التي حملها پو على ذراعيه إلى القبر ، وأودعها في الوقت ذاته قالب «الخلق الإيقاعي للجمال(***)» الذي هو الشعر ، إلى الحد الذي تمّحي فيه المسافة بين القبر والكلمة ، ونصل معه إلى اعتبار أدب پو ، الذي «يندر فيه الهواء» حسب تعبير بودلير صاحب ، «أزاهير الشر» ، مقابر لكنها حافلة بالعائدين(****) .

وإذا كان هذا التحليل صحيحاً ، يصبح العمل الفني لدى إدغار پو محكوماً ومحتوماً ببعد زمني واحد هو الماضي ، الماضي الذي لا بدّ منه ولا غنىً عنه ، الذي يطارده كظل ويتعلق به كحجاب(*****) .

*

في أعمال پو وقصصه :

إنَّ حياة الشاعر إدغار ألن پو(******) وعاداته وسلوكه وكيانه الجسمي ـ وما يشكل مجموع شخصيَّته ـ هذا كله يبدو لنا شيئاً مُعتماً ومشعاً في آن واحد . كانت شخصيّته فريدة آسرة ، تتميَّز ، مثل نتاجه ، بطابع من الكآبة لا

(*) عبارة لإدغار پو في قصيدته : «إلى آني» .
(**) مجموعة أقاصيص مشهورة لپو ، تجمع بين الغرابة والرهبة .
(***) تحديد پو للشعر في مقالته الطويلة «مبدأ الشعر» .
(****) الموتى الذين يعودون إلى الحياة .
(*****) مستلّة من تقديم كميل قيصر داغر لكتاب «إدغار ألن پو» سلسلة أعلام الفكر العالمي تأليف جان روسلو .
(******) نستعين هنا بمقاطع من مقدمة كتبها الشاعر الفرنسي بودلير بعنوان «إدغار پو ، حياته وأعماله» حين قام بترجمة أعمال پو إلى الفرنسية .

حدود له . ورغم أنه كان صغير البنية ، مُرهف الملامح ، فقد كان أكثر من قويّ وكان البأسُ يتفجَّر من قسماته . كأنَّ الطبيعة تمنح مزاجاً حيوياً شديداً لهؤلاء الذين تريد أن تأخذ منهم الأشياء الكبيرة ، كما تمنح الحيوية الهائلة للأشجار التي قُدّر لها أن ترمز إلى الحداد والألم .

كان سلوكه مزيجاً غريباً من الكبرياء والعذوبة الوادعة ، وكل شيء فيه يشير إلى أنه كائنٌ مُجتبى . كان أشبه بهؤلاء الذين يعبرون فيجذبون أعين الذين يرونهم ويملأون ذاكرتهم . وربما يجهل الكثيرون أنه كان يمتاز بحساسية مدهشة اختُصَّت بها المرأة الفرنسية ، فكان يعرف أن يتزين بلا شيء ، ويعرف أن يحوّل الكوخ إلى قصر من نوع جديد . ثمَّ ، ألم يضع ، بأصالة وتفرّد ، مشاريع كثيرة لزخرفة البيوت وتأثيثها ، وتصاميم لبيوت ريفية وحدائق ، ومخططات لتحسين الريف وتجميله؟

تقول السيدة فرانسيس أوسغود إحدى صديقاته في رسالة لها : «لم تتعرَّف عليه امرأةٌ إلاّ أحست بجاذب عميق نحوه . وكنت أراه دائماً مثالاً للأناقة والامتياز وشرف النفس» . وتحدثت عن لقائهما الأول حين طلب إليها رأيها في قصيدته ـ «الغراب» فقالت : «الموسيقى الخفيَّة الساحرة في هذه القصيدة الفريدة نفذت إلى أعماقي ، حتى أنني حينما عرفتُ أنه كان يرغب في إهدائها إليّ أحسستُ بشعور غريب يُشبه الرعب . وأقبل ، برأسه الجميل الشامخ ، وعينيه الكئيبتين المليئتين بنور فريد ـ من الفكر والعاطفة ، وهيئته الوديعة المتعالية في آنٍ واحد وبشكل لا يُفَسَّر ؛ ـ حيَّاني هادئاً ، رصيناً ، بارداً تقريباً ؛ لكن ، تحت هذه البرودة ، كان يتململُ تعاطفٌ واضحٌ أثر فيَّ أعمق التأثير . وصرنا صديقين منذ هذه اللحظة حتى موته . . .

» . . . ظهرت لي شخصيته بأبهى أضوائها ، في دخيلته البسيطة الشعرية معاً . كان مَرِحاً ، عاطفياً ، روحيَّ النزعة ، وديعاً تارةً وشيطاناً تارة كطفل مدلل ؛ . . . أما بالنسبة إلى الحب ، فأعتقد أن زوجته هي المرأة الوحيدة التي أحبّها حبّاً حقيقياً دائماً» .

ليس في قصص بو حبٌّ ، بالمعنى الخالص لهذه الكلمة . لعله كان يعتقد أن النثر ليس لغةً في مستوى هذه العاطفة الخارقة التي يكاد يستحيل التعبير

عنها ؛ ذلك أن شعره ، على النقيض ، مُشبعٌ مليءٌ بالحب . الحب في شعره رائع ، مكوكب ، تغطيه دائماً كآبة لا شفاء منها . وفي «جنَّة أرنهايم» يؤكد أن الشروط الأولية الأربعة للسعادة هي : الحب ، الحياة في الهواء الطلق ، التخلص من كل طموح ، وخلق جمال جديد . فليس في نتاجه كله ، رغم موهبته المعجزة في المرعب والمضحك ، فقرة واحدة تتصل بالدعارة أو حتى بلذات الجسد . والصور التي يقدمها عن النساء صور تحيط بها الهالات ؛ إنها مرسومة بلهفة المتعبد ولهجته ، مغمورة بضبابٍ سماويٍّ شفَّاف .

أما عن السُّكْر الذي أُثر عنه وانتقد عليه كثيراً ، فيقول الذين كانوا يعرفونه حقَّ المعرفة إن كمية قليلة من الخمر أو الشراب كانت تكفي للتأثير فيه . ويسهل ، من ناحية ثانية ، الافتراض أن شاعراً عاش في مثل وحدته وشقائه الهائلين ، يبحث أحياناً عن لذة النسيان في الشراب . الأحقاد والشتائم الأدبية ، دُوار اللانهاية ، آلام الحياة اليومية ، مشاكل البؤس ـ من هذا كله كان يهرب إلى غيابة السُّكر ، إلى ما يشبه القبر التمهيدي . وهو لم يكن يشرب كما يفعل الكحوليّ المدمن ، بل كما يشرب الرجل الخشن القاسي بنشاط واقتصاد في الوقت ، كما لو أن في داخله شيئاً يريد أن يقتله . ثم إن صفاء أسلوبه وإحكامه ، ووضوح تفكيره ، وحماسته للعمل ـ هذا كله لم يكن يتأثر إطلاقاً بعادة سُكره .

بالطبع ليس في السكر تتابع أحلام وحسب ، بل أيضاً سلسلة من الأحكام التي تحتاج ، كي تظهر ثانية وتتكاثر ، إلى الوسط الذي تبحث عنه . أريد أن أقول إن سكر پو كان في حالات كثيرة وسيلة للتذكر ، ومنهج عمل ؛ وكان هذا المنهج خلَّاقاً ومميتاً ، لكنه كان يلائم طبيعته الجامحة . فلقد اهتمَّ أن يشرب ، كما يهتم الأديب الكثير التدقيق بتدوين يومياته وملاحظاته . كان يعجز أن يقاوم رغبته وشوقه إلى الالتقاء بعوالم الرؤى العجيبة والتصورات البالغة النعومة واللطف ، ممَّا رآه في عاصفة ماضية ؛ كانت هذه المعارف والصداقات القديمة تجذبه إليها بطغيان ، وكان يسلك إليها الطريق الأكثر خطراً ، لكن الأكثر استقامة . إن جزءاً مما يخلق سرورنا واستمتاعنا اليوم ، هو نفسه الذي أماته .

ماذا أقول عن نتاج هذا العبقري الفذ؟ طالما قيل عنه : «أدب انحطاط !» هذا قول فارغ نسمعه كثيراً يسقط مع رنين التثاؤب المتفخ من أفواه الكائنات «السفنكسية» التي لا سرّ فيها والتي تسهر على الأبواب المقدسة في ممالك الجمالية الكلاسيكية . ليسمح لي هؤلاء الحكماء أن أسألهم إذا كانوا يدركون بطلان حكمتهم وعدم جدواها . «أدب انحطاط» ، عبارة تضمر وجود سلّم من الأنواع الأدبية ـ أدب ولادة ، أدب طفولة ، أدب مراهقة . . . إلخ ؛ أعني أن هذه العبارة تفترض في الأدب وتطوره نوعاً من الحتمية والعناية الإلــهية .

هذه الشمس التي كانت ، منذ هنيهة ، تصعق الأشياء كلها بنورها الأبيض المستقيم ، ستغمر ، بعد قليل ، الأفق الغربيّ بألوانٍ من كل نوع . بعض الشعراء يجدون لذة جديدة في لعب هذه الشمس التي تموت ؛ يكتشفون فيه صفوفاً أخّاذة من الأعمدة ، وشلالات من المعدن الذائب ، وجنّات من النار ، وبهاء حزيناً ، وغبطة ندم ، وطلاسم حلم ، وذكريات أفيون . ويبدو لهم غروب الشمس أشبه بروح مليئة مثقلة بالحياة تهبط خلف الأفق حاملة ذخراً هائلاً من الأحلام والخواطر . هذا ما لم يفكر فيه الأساتذة السفنكسيون ؛ فمثل هذا التعقد في حركة الحياة ، وهذا التوافق الغريب الممكن ، وهذا الجديد ـ لا يعني شيئاً لحكمة التّلمذ ، وروح المدرسة .

المخلية عند إدغار ألن پو هي ملكة الطاقات الروحية . لكنه يعني بهذه الكلمة شيئاً أعظم مما يعرفه عامة القراء . ليست المخيلة التوهم ؛ ليست كذلك الحساسية وإن كان صعباً تصور إنسان خياليّ غير حساس . المخيلة طاقة شبه إلــهية ، تكتشف ، بعيداً عن المناهج الفلسفية وخارجها ، العلائق الحميمة بين الأشياء ، وأسرارها وتطابقها وتجانسها . وهو يمنح لهذه الطاقة أهمية ووظيفة إلى درجة أن العالم الذي يخلو منها عالم مزيف ، أو على الأقل ، عالم ناقص .

تحقّق المخيّلة أغرب النتائج ، وتجني الكنوز ـ لا الأغنى والأثمن (فهذه وقفٌ على الشعر) بل الأكثر عدداً وتنوعاً ، في القصّة القصيرة . إن پو يؤثرها على القصّة الطويلة ، لكثافة تأثيرها وكلّيته ووحدة الانطباع الذي

تولّده ؛ ـ حتى أن الأقصوصة تفضل ، من هذه الناحية ، القصة القصيرة . الإيقاع ضروري لنمو فكرة الجمال ، التي هي هدف القصيدة الأكبر والأسمى . لكن حيل الإيقاع عقبة في وجه هذا النمو الدقيق للأفكار والتعابير التي تتخذ الحقيقة موضوعاً لها . وكثيراً ما تكون الحقيقة هدف القصة القصيرة ؛ والتعليل هو أفضل أداة لبناء قصة قصيرة كاملة . لهذا يقدر هذا النوع الأدبي ، غير المهيَّأ لعلوٍّ عظيم كعلو الشعر الخالص ، أن يقدم نتاجاً أكثر تنوعاً وقابلية للانتشار . نضيف إلى ذلك أن كاتب القصة القصيرة يمتلك عدداً كبيراً من الإمكانيات التعبيرية لا تصحّ في الشعر الخالص .

ليس إدغار ألن پو كبيراً ، بعدته الأدبية المعجزة وحسب ، بل أيضاً بحبه للجميل ، وإدراكه شروط انسجام الجمال ، وبشعره العميق الحزين ، الشفاف المحكم كالجوهرة ، وبأسلوبه العجيب الصَّافي الخارق المسرود كالدِّرع ، السهل الممتنع الذي يهدف ، أول ما يهدف ، إلى دفع القارئ بليونة ويُسر نحو الهدف المقرر ؛ أخيراً ، على الخصوص ، بهذه العبقرية التي لا مثيل لها ، وهذا المزاجح الفريد الذي أتاح له أن يصور بطريقة ، فائقة ، آسرة ، مرعبة ـ كل ما هو غريبٌ واستثنائي في نظام الحياة والفكر .

يدخل القارئ إلى عالمه كما يدخل إلى دوَّامة ، بهدوء ودون عنف . إن زهوه يفاجئ ويترك الفكر في يقظة . نشعر أوّلاً أن ثمة شيئاً جليلاً . ثم تتبدّى ، رويداً رويداً ، قصة تكمن لذتها كلها في زيغان الذهن زيغاناً لا يُدرك ، في تصور غير منتظر ، في فرضيَّة جريئة ، في تهور بين مزالق الطبيعة ـ وهذا كله يجري في مزيج غريب من الطاقات الروحية الغريبة . وإذ يتحد القارئ بهذا الدُّوار يُضطر إلى متابعة الكاتب في سرده القصصي الجذّاب .

لم يتحدث أي إنسان بسحر أروع من سحر حديثه عن الاستثناءات والمفارقات في الحياة الإنسانية وفي الطبيعة : ـ نهايات الفصول المثقلة بالبهاء المُسكر ؛ الساعات الدافئة ، الرطبة الضبابية حيث الريح الجنوبية تُرخي الأعصاب كالحبال ، وحيث تمتلئ العيون بدمع لا يأتي من القلب ؛ التهاويل التي تفتح الطريق أولاً للشك ، ثم لا تلبث أن تصير مقنعة ، مليئة بالبراهين

كالكتاب ؛ العبث الذي يسكن في البصيرة ويحكمها وفق منطق رهيب ؛ التهيج العصبي الذي يغتصب الإرادة ويذللها ؛ التناقض القائم بين الأعصاب والفكر ؛ الإنسان المتصدّع إلى درجة التعبير عن الألم بالضّحك . إنه يحلّل أكثر الأشياء هروباً وتفلتاً من التحليل ، يزن ما لا يُوزن ، يصف بطريقة محكمة وعلمية مخيفة ، هذا العالم الخيالي الذي يتموّج حول الإنسان العصبي ويتحكم به ويقوده . إن إدغار ألن پو ، شأنه في ذلك شأن دولاكروا(*) الذي ارتفع بفنّه إلى مستوى الشعر العظيم ، يحبّ أن يحرك أشكاله على أرض بنفسجية وخضراء حيث يتجلّى وميض العفن ورائحة العاصفة . الطبيعة المسماة ميتة ، تشارك طبيعة الكائنات الحية ؛ ومثلها ترتعش رعشة كهربائية خارقة . الأفيون يعمّق الفضاء ، يُعطي معنىً سحرياً للأصباغ ويجعل الأصوات تهتزّ برنينٍ أكثر دلالة . وكثيراً ما تفاجئنا فلتاتٌ رائعة من الكلام والضوء واللون في ما يقدمه لنا . ونلمح بغتة مدناً شرقية وهندسات تظهر في أقاصي آفاقه ، ضبابية على البُعد ، حيث الشمس تمطر الذّهب ، وحيث الغرابةُ جزءٌ من الجميل لا يتجزأ .

هذا الشخص الذي اجتاز الأعالي الفنية الوعرة ، وغاص في مهاوي الفكر الإنساني ، واكتشف ، عبر حياته الشبيهة بالعاصفة التي لم تهدأ ، طرائق جديدة وأشكالاً فريدة ، لكي يدهش الخيال ويروّي الظامئة أبداً إلى الجمال ؛ ـ هذا الشخص مات فوق أحد المقاعد في الشارع ، عام ١٨٤٩ ، وكان عمره سبعة وثلاثين عاماً .

أروع القصص التي كتبها پو :

بيرينيس	- "Berenice"
القط الأسود	-"The Black Cat"
برميل أمونتيلادو الخشبي	-" The Cask of Amontillado"
سقوط منزل أوشر	-" The Fall of the House of Usher"

(*) أوجين دولاكروا (١٧٩٨ ـ ١٨٦٣) مصوّر فرنسي ، زعيم المدرسة الرومنطيقية ، غنيّ الألوان عميق العاطفة . من لوحاته «حلم يعقوب» «قارب دانتي» و«الجزائريات» .

البقة الذهبية	-" The Gold - Bug"
الضفدع النطاط	-" Hop - Frog'
ليجيا	-" Ligeia"
رجل القيثارة	-" The Man of the Crowd"
قناع الموت الأحمر	-" The Masque of the Red Death"
جريمة شارع مورغ	-"The Murders in the Rue Morgue"
الحفرة ورقاص الساعة	-" The Pit and the Pendulum"
الرسالة المختلسة	-" The Purloined Letter"
القلب الواشي	-" The Tell - Tale Heart"
الصندوق المستطيل	-"The Oblong Box"
الخديج المدفون	-" The Premature Burial'
اللوحة البيضوية	-"The Oval Portrait"

هذه المجموعة :

بدأ إدغار بو حياته شاعراً لكنه لم ينل ما يستحقه من تشجيع ، ولم يدرّ عليه الشعر مالاً ، فانصرف إلى فن آخر هو فن القصة ، فوضع حوالى سبعين قصة بين طويلة وقصيرة ، حملت في طياتها التأسيس لمدرسة خاصة ، وعبّدت الطريق أمام كتّاب القصة القصيرة في العالم أجمع .

ومدرسة بو هذه تقوم على فن الأدب الإحساسي ، «غير العاطفي» . إنها تخاطب العقل والمنطق ، إنها تحث القارئ على أن يكون مفكراً ومحلّلاً في آن واحد .

وقصص إدغار بو في معظمها تتّسم بطابع عقلي فريد في نوعه ، فهي تبدو للقارئ تشاؤمية ، في حين أنها تعمد في الواقع إلى تصوير أحاسيس المرء وتخيلاته القاتمة أروع تصوير .

والحق أنّ لخوض الكاتب في هذا التيار أسباباً تكمن في نفسه منذ أن فتح عينيه على هذا العالم . . فقد حُرم من حنان الأبوين وهو لا يزال في سن الطفولة ، وهجر أبوه أمه ، فماتت بداء السل ، ثم تبنّته أسرة جورج ألن

فنشأ وهو كسير الخاطر ، يتنازعه حب حاضنته له ، وعدم اكتراث حاضنه به ، بل طرده له من المنزل في نهاية المطاف . ثم وفاة أخيه الأكبر مسلولاً ، ثم وفاة زوجته بداء السل أيضاً . . يضاف إلى ذلك كله سلسلة من المتاعب في سبيل كسب العيش في كنف عمته البائسة ، في بيت ريفي ، أو كوخ حقير ، يقيم فيه البؤس ، ويحيط به اليأس .

ومن مبادئه في فن القصة أنه يرمي دائماً إلى إيجاد «الأثر الفرد» ، ثم يخلق الأشخاص والظروف التي تجعل ذلك الأثر دراميّاً في ذهن القارئ ، حتى يصل به ، بعد سلسلة من التحليلات ، إلى نتيجة منطقية . . في قصة «سفينكس» مثلاً نراه يتخيل صورة وحش هائل تقشعر منه الأبدان ، ثم يتضح لنا في ختام القصة أنه حشرة لا أكثر !

وفي رأيه أن القصة يجب أن تعني شيئاً عقلياً ، وأن تُقدَّم للقارئ في قالب فني جميل . . أما الخيال فيها فليس جوهرياً وإنما هو بمنزلة جسر فقط يحمل عناصر العظمة ، والتسامي ، والمبادئ المعنوية .

وقد تأثرت القصة الفرنسية من بعدُ بهذا الرأي فصارت تخاطب العقل ، والفكر المحلّل ، عكس القصة الإنكليزية ، والأميركية ، التي كانت ترمي في بداياتها إلى تقويم السلوك البشري .

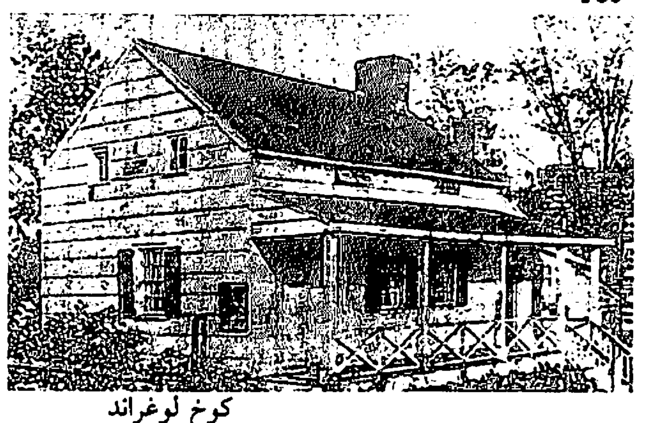
وإدغار بو كاتب بارع في قصص الرعب ، والجنون ، والجريمة ، والموت ، وهو يهز مشاعر قارئه بشكل مثير لكنه غير غريب عن الطبيعة البشرية في جوهرها ، فحياته هو نفسه قصة ضارية لرجل دخل عالماً تتزاحم فيه أشباح البؤس والألم ، وخرج منه محطم الأعصاب فاقد الوعي ، لكنه خلّف ثروة قصصية وشعرية جعلته في مصاف الكتّاب الخالدين .

لقد تُرجمت مؤلفات الكاتب الأميركي الكبير إلى جميع اللغات الحية ، وكان محط عناية شارل بودلير وستيفان ملارمه الشاعرين الفرنسيين في الناحيتين القصصية والشعرية . وهذه ثلاثون قصة مختارة من روائع قصصه تصدر باللغة العربية رأينا أن نقدِّمها في هذا الكتاب تقديراً لكاتبها الذي مضى على وفاته أكثر من مائة وخمسين عاماً .

*

البقّة الذهبيّة(*)

قبل سنين عديدة توثّقت عُرى صداقتي بالسيد ويليام لوغراند ، وكان هذا الصديق ثرياً يتحدّر من أسرة هوغونوتية(**) قديمة ، لكن سلسلة من النكبات نزلت به أوردته موارد الفقر ، ولكي ينأى بنفسه عن المهانة والمذلة ترك نيو ـ أورليان مدينة أسلافه ـ واستقر في جزيرة سوليڤان ، بالقرب من شارلستون ، جنوبي كارولينا .



كوخ لوغراند
في جزيرة سوليڤان

وجزيرة سوليڤان فريدة في نوعها ، فهي في الواقع بحر من الرمال ، طولها ثلاثة أميال على وجه التقريب ، أمّا عرضها فلا يتعدى ربع الميل ، ويفصلها عن البر جون يكاد أن يكون غير ملحوظ ، يشق طريقه الموحلة عبر أرض بور من الطين الأسود والقصب ، المكان المحبّب إلى دجاج المستنقعات ، أما الخضرة في هذه الجزيرة فنادرة جداً ، أو أنها على الأقل ضعيفة النبت ، ولا يرى المرء فيها أشجاراً من أي حجم أو ارتفاع ، باستثناء بعض نُخَيْلات لا تحمل إلاّ الشوك نبتت في الطرف الغربي من الجزيرة ، حيث يقوم حصن مولتري ، وبعض المنازل الحقيرة التي تؤجر صيفاً للهاربين من حر مدينة شارلستون وغبارها .

فالجزيرة بمعظمها ، باستثناء الناحية الغربية منها ، والساحل ، مغطاة بكميات كثيفة من نبت الرند الحلو الطعم ، الذي يقدّره البستانيون الإنكليز

(*) وردت هذه القصة في الأصل الإنكليزي بعنوان «The Gold bug» وتعريبه البقة الذهبية ، أمّا الخنفسة فإنكليزيتها Beetle ، ولذا رأيت أن أسمّيها بهذا الاسم .

(**) الهوغونوتي (Huguenot) هو البروتستانتي الفرنسي .

كثيراً . . . وشجيرات الرند هذه تبلغ من الارتفاع بين خمسة عشر وعشرين قدماً . . وتشكّل آجاماً كثيفة ملتفّة تفغم الهواء بروائحها العطرة .

وقد اختار صديقي ويليام لوغراند أعماق هذه الآجام ، التي تقع في الناحية الشرقية من الجزيرة ، وابتنى لنفسه هناك كوخاً صغيراً ، حيث تعرّفت إليه من طريق المصادفة وهو يقيم في هذا الكوخ ، وسرعان ما تحوّل هذا التعارف إلى صداقة وثيقة العرى ، فقد وجدت في معتزله هذا ما يبعث على الاهتمام ويدعو إلى التقدير ، ووجدته هو أيضاً على مستوى رفيع من الثقافة ، يتحلى بقوة فكرية خارقة ، ولكنه مطبوع على مقت الناس وكراهة عشرتهم ، خاضع للنزوات الخبيثة المترددة بين الحماسة والسويداء . . . وقد حمل معه إلى كوخه كتباً كثيرة غير أنه قلما كان يرجع إليها ، إذ كانت هواياته الكبرى تقتصر على قنص الطيور ، وصيد الأسماك ، أو التجول على امتداد الشاطئ ، وبين أشجار الرند ، للبحث عن أصداف أو عن نماذج من الحشرات والهوام . ولا ريب في أن «سوامردام» كان يحسده على ما تراكم عنده من مجموعات . . . وكان لوغراند يصطحب في تجواله زنجياً مسنّاً يدعى جوپيتر ، كانت الأسرة قد أعتقته قبل انحلالها ، لكنه كان يعتبر الوقوف عند عتبات سيده الشاب «ماساويل»(*) حقّاً من حقوقه ، وقد حُمل ، بالترغيب أو بالترهيب ، على التخلي عن هذا الحق . . . غير أن أقارب لوغراند اعتبروا الزنجي مضطرب العقل ، فساندوه في عناده ، ليظل في خدمة الشاب التائه وحراسته .

وكان فصل الشتاء في جزيرة سوليڤان معتدل المناخ ، يندر أن يلجأ المرء فيه إلى إشعال الحطب . . . ولكن حدث في يوم من أيام منتصف شهر تشرين الأول/ أكتوبر سنة ـ ١٨ أن اشتد البرد في تلك المنطقة اشتداداً ملحوظاً . . ورأيت نفسي ، قبيل غروب الشمس ، وأنا أسعى ، عبر الحشائش ، إلى كوخ صديقي ، بعد انقطاع عنه دام بضعة أسابيع . . كنت أقطن وقتئذ في شارلستون ، وهي تقع على بعد تسعة أميال من الجزيرة ،

(*) تعني الـ«Master Will» أي السيد ويليام بلغة الزنوج .

وكانت طرق المواصلات إليها وعرة جداً بالنسبة إلى أيامنا هذه، ولـمّا بلغت الكوخ طرقت بابه، كما هي عادتي، ولـمّا لم أتلق جواباً بحثت عن المفتاح، وكنت أعلم أين يخبّئه، وفتحت الباب، وولجت إلى الداخل، فوجدت فيه ناراً مهيبة المنظر، مشتعلة في الموقد، وهي بدعة في حد ذاتها لكنها قليلة الجدوى . . . وطرحت عني معطفي واستلقيت على مقعد ذي مسندين، يتحرك على جذعين مطقطقين، ورحت أنتظر عودة صديقي والزنجي جوپيتر بأناة وصبر.

وما إن أسدل الليل ستاره حتى أقبلا، فرحّبا بي ترحيباً حاراً، وابتسم الزنجي ابتسامة عريضة، وراح يعدُّ لنا دجاجة من دجاجات المستنقعات . . . أمّا لوغراند فكان في طُفرة من الحماسة لأنه عثر على صدَفة غريبة مشطورة، هي من نوع جديد من الصدف، والأهم من هذه الصدفة أنه أسقط بقّةً من نوع «سكارابوس» بمساعدة جوپيتر واحتفظ بها، وهو يعتقد أن هذا النوع من البقّ جديد تماماً، ويود الاطلاع على رأيي بصددها في الصباح.

فسألته وأنا أفرك يداً بيد على نار الموقد، وأرجو الهلاك لجميع أنواع البقّ: ولماذا لا يكون ذلك هذه الليلة؟

فأجابني: ليتني عرفت أنك هنا في كوخي . . لقد مضت مدة طويلة من الزمن لم أرك في أثنائها، فكيف لي أن أتنبأ بمقدمك هذه الليلة بالذات؟ . . فحين كنت عائداً إلى البيت التقيت بالملازم (ج)، التابع لحامية الحصن، وقد دفعني الحمق إلى أن أعيره البقّة الذهبية، ولذلك يستحيل عليك أن تراها هذه الليلة . . إنها أبدع شيء خُلق في الكون.

فقلت: أهي بزوغ الشمس؟

قال: ما هذا الهراء؟ . . إنني أعني بها بقّة في حجم البندقة، برّاقة، ذهبية اللون، تزيّن ظهرها بقعتان سوداوان إلى فوق، وبقعة مستطيلة إلى أسفل. أما البقّة هذه فهي . .

وهنا قاطعه الزنجي بقوله: إن البقّة ذهبية حقاً، وهي صلبة تماماً بحيث لم أرَ لها مثيلاً في الثقل.

فأجابه لوغراند بشيء من الجد أكثر مما يستوجبه الأمر : «فلنفترض صحة ما تقول يا جوب . . . ولكن هل هذا ما يسوّغ لك تركك الدجاجة لتحترق» . . . ثم وجّه حديثه إليّ قائلاً : «إن لون البقة يعلّل رأي جوپيتر . . . وإنك لم ترَ أبداً لمعاناً معدنياً كالذي يشع من حراشفها ، وستحكم على ذلك بنفسك غداً صباحاً . . . وفي هذه الأثناء أعطيك فكرة عن شكلها» . . قال لوغراند ذلك وجلس إلى خوان صغير عليه قلم ومحبرة ، باستثناء الورق ، وعبثاً بحث عنه في الدرج .

وقال في نهاية الأمر : لا بأس في ذلك ، فهذه الورقة ستقوم مقامها . . . وأخرج من جيبه طلحية ورق قذرة جداً ، ورسم عليها رسماً غليظاً . . وفيما هو منهمك بعمله هذا قربت مقعدي من النار لأنني أحسست بالبرد يسري في جسمي ، وحين أتم الرسم قدّمه لي وهو جالس ، وما إن أمسكته بيدي حتى سمعت همهمة صاخبة ، تبعها خمش على الباب . . ، فأسرع جوپيتر إلى الباب وفتحه ، وإذا بكلب ضخم من نوع «نيوفوندلاند» يقتحم الغرفة ، ويقفز على كتفي ويغمرني بلعقه ، لأنني كنت أبدي له في زياراتي السابقة كثيراً من الاهتمام ، ولـمّا كفّ عن قفزه وقمزه ، ألقيت نظرة على الورقة ، والحق يقال أنني وجدت نفسي في حيرة مما رسمه صديقي .

فقلت له بعد أن تأملتها قليلاً : عليّ أن أقر بأن بقّة «سكارابوس» هذه عجيبة الشكل ، وهي جديدة بالنسبة إليّ ، بل إنني لم أرَ لها مثيلاً في حياتي ، كما أنني لا أجد لجمجمتها شبيهاً في كل ما وقع عليه نظري من هوام !

فردّ عليّ قائلاً : الجمجمة . . . حقاً إنها تبدو على القرطاس كما تراها . . . فالرقعتان السوداوان تبدوان وكأنهما حدقتا العينين . . . والبقعة الطويلة في أسفلهما تشبه الفم ، والشكل على الجملة بيضوي .

فقلت له : لعل ما تقوله هو الصواب . . . لكنني أخشى يا لوغراند أنك لست رساماً ماهراً . . . وعليّ أن أنتظر رؤية الحشرة ذاتها لكي أكوّن عن هيئتها فكرة معينة .

فأجاب بشيء من الامتعاض : لا أدري إن كنت رساماً أم لا . . . لكنني

رسمتها بإنعام نظر وأناة، وبعد أن أتممتها تملقت نفسي بدفع بلادة الذهن عني.

فأجبته: أهازل أنت يا صديقي العزيز؟ .. لقد أجدْتَ في رسم الجمجمة، بل إنها ممتازة جداً، وفقاً للرأي الدارج في هذا النموذج الطبيعي، وما من ريب في أن بقّتك هذه هي أعجب بقّة في عالمها... وبوسعها أن تخلق فينا اعتقاداً باطلاً... وفي رأيي أن تدعوها بقّة «سكارابوس كابوت هومينيس» أو خنفسة نهاية الإنسان، أو ما شابه ذلك من الأسماء الموجودة بكثرة في كتب التاريخ الطبيعي... ولكن أين هي البقّة التي رسمتها؟

فأجابني لوغراند بحماسة: ألا تراها... لقد صنّفتها بالنسبة إلى أصولها، وفي ذلك كفاية كما أعتقد.

فقلت له: حسناً تقول.. لكنني لا أراها... وناولته الورقة دون أن أضيف أية ملاحظة ثانية، متحاشياً إثارة طبعه الحاد، لكنني دهشت جداً للتحوّل الذي طرأ عليه، وحيّرني اضطراب مزاجه. أمّا الورقة فلم تكن تحمل رسم بقّة وإنما رسم جمجمة إنسان عادية لا أكثر.

وتناول الورقة بانزعاج، وأحكم قبضته عليها وكأنه يود إلقاءها في الموقد، ولم يردعه عن ذلك سوى نظرة ألقاها على الرسم على حين غرة.

كان وجهه يحمر تارة ويمتقع تارة أخرى، وهو يسبر غور الرسم الذي خطه بدقة تامة، ثم هبَّ فجأة واقفاً، وتناول الشمعدان عن الخوان، وخطا ليجلس على الصندوق في أبعد ركن من أركان الغرفة... وهو يتفحص الورقة ويقلّبها في كل اتجاه... وهو في ذلك لم يتفوه بكلمة واحدة لكن سلوكه حيّرني وأدهشني، وعقدت النية على ألاّ أبدي له أية ملاحظة تثير قلقه، وتؤثر في أعصابه... ثم رأيته يخرج من جيب معطفه جراباً ويضع فيه الورقة بعناية تامة، ثم يحمله إلى درج مكتبه فيضعه ويقفل عليه بالمفتاح... وقد بدا لي بعد ذلك أنه جنح إلى الهدوء، إلاّ أن حماسته المعهودة قد تلاشت تماماً، واتسم وجهه بمعالم التفكير بدلاً من السخط.. ولمّا حلّ الليل أمسى وقوراً لا تثيره نكتة أو نادرة خاطر، وكان في نيتي

أن أقضي الليل في الكوخ ، كما كنت أفعل دائماً ، غير أنني لـمّا رأيت صديقي على هذا الحال من تعكير المزاج قررت العودة إلى المدينة ، ولم يصرّ هو على بقائي ، بل إنني حين ودّعته صافحني بحرارة أكثر من المعتاد .

بعد مرور شهر على هذه الزيارة (ولم يبلغني أي خبر عن لوغراند خلال هذه المدة) ، زارني في شارلستون الزنجي جوپيتر ، وكانت ملامحه تدل على اليأس ، فخشيت أن يكون صديقي قد أصيب بسوء ، وقلت له : ما وراءك يا جوپ وكيف حال سيدك؟

فقال : الحقّ أقول إن سيدي ليس في حالة جيدة .

قلت : لا بأس عليه . . لقد أحزنتني بهذا الخبر . . فممّ يشكو؟ . .

قال : إنه لا يشكو من شيء ، لكنه مريض جداً .

قلت : أهو مريض جداً؟ . . فلماذا لم تقل ذلك منذ البداية . . أيلازم الفراش؟ . .

قال : كلاّ . . إنه لا يلازم الفراش . . وهو لا يجد ضرورة لملازمته . . وهذا ما يسعدني حقاً . . لكنه مسكين السيد ويل ! . .

قلت : أريد أن أفهم ما تعنيه يا جوپيتر . . فأنت تقول إن سيدك مريض . . أولَم يقل لك ما علة مرضه؟

قال : ليس ما يستدعي اهتمامك الكبير بالأمر يا سيدي ، فالسيد ويل لم يقل شيئاً عما يشكو منه ، ولكنه يتجول مطأطئ الرأس . . ويحمل بيده لوحاً دائماً .

قلت : ماذا يحمل يا جوپيتر؟

قال : يحمل لوحاً عليه أرقام . . . وهذه الأرقام هي من أعجب ما رأت عيناي . . ولقد قلقت من أجله ، وشددت المراقبة عليه ، لكنه رحل ذات يوم خفية وتركني بمفردي منذ شروق الشمس حتى غروبها . . وكنت قد أعددت عصاً لأقرعه بها جيداً حين يعود ، ولكن قلبي لم يطاوعني ، فقد رأيته مسكيناً يستحق الشفقة والعطف حقاً .

فقلت له : ماذا تقول؟ . . كلاّ يا جوپيتر . . عليك ألاّ تقسو على هذا المسكين كثيراً ، بل عليك أن تمتنع عن جلده ، فهو لا يحتمل الجلد

والضرب . ولكن هل لك أن تحدثني عن سبب علته ، أو عن هذا التغيّر الذي طرأ على مسلكه؟ . . فهل حدث ما لا يسرّه منذ أن تركتكما؟

قال : كلاّ يا سيدي ، لم يحدث لنا ما يزعجنا منذ أن تركتنا ، وإنني أخشى أن يكون هذا الإزعاج قد حصل قبل قدومك . . أو في يوم وصولك .

قلت : أفصح عمّا تعنيه يا جوپ .

قال : إنني أعني البقّة يا سيدي .

قلت : ماذا؟

قال : إنني على يقين بأن البقّة الذهبية قد عضّت السيد ويل في قفا رأسه .

قلت : وما الذي حملك على هذا الافتراض يا جوپيتر؟ . .

قال : للبقّة فم ومخالب . . إنني لم أر في حياتي بقّة شرسة مثلها . . إنها ترفس و«تعض» كل شيء يعترض سبيلها . . وقد أمسكها السيد ويل بشدة لكنها أفلتت منه وعضته . . . وإنني لأمقت النظر إلى هذه البقّة الخبيثة ، ولا أرفعها بأصابعي أبداً ، وإنما ألتقطها بقطعة ورق تقزّزاً منها .

قلت : وأنت تظن أن هذه البقّة قد عضّت سيدك حقاً ، وأمرضته؟

قال : إنني لا أظن شيئاً من هذا أبداً . . ولكن لماذا يحلم سيدي بالذهب كثيراً إن لم تكن البقّة الذهبية قد عضته؟

قلت : ولكن كيف تعرف أن سيدك يحلم بالذهب؟

قال : عرفت ذلك منه ، فهو يتحدّث عنه كل ليلة في نومه .

قلت : حسن يا جوپ . . ربما تكون على حق في رأيك هذا . . ولكن ما هي المناسبة السعيدة التي دعتك إلى هذه الزيارة المشرفة؟

قال : ماذا تعني يا سيدي؟

قلت : هل حمّلك السيد لوغراند رسالة ما إليّ؟

قال : كلاّ يا سيدي . . وإنما أوصاني بأن أسلمك هذه الورقة .

وقرأت في الورقة ما يلي :

عزيزي . . .

لم أرك منذ زمن بعيد . . . أرجو ألاّ تكون تصرّفاتي قد حملتك على اعتبارها إهانة لك ، إنني أستبعد ذلك تماماً .

فمنذ أن رأيتك وأنا عرضة لقلق عظيم ، وعندي ما أقوله لك ، ولكنني لا أدري كيف أقول ذلك ، وأين .

إنني لم أكن مرتاح البال في الأيام الأخيرة ، ولقد مللت من هذا الشيخ المسكين جوپيتر ، وهو يطوّقني بعنايته ورعايته . . . فهل تصدّق أنه أعدّ عصاً غليظة ليقرعني بها عقاباً لي على تركي إياه خفية وقضائي يوماً كاملاً بمفردي بين الأشجار !؟

ولا أرتاب في أن معالم التعب ، التي بدت على ملامحي ، قد شفعت لي ، وأنقذتني من العقاب .

لم أضف شيئاً إلى مكتبي منذ لقائنا الأخير .

فأرجو أن تحضر مع جوپيتر إذا لم يكن في ذلك أي إزعاج لك . . فهل لك أن تحضر؟ . . إنني أرغب هذه الليلة في إطلاعك على أمر مهم ، بل إنه عظيم الأهمية .

المخلص لك

ويليام لوغراند

كانت لهجة هذه الرسالة غير اعتيادية ، وأسلوبها هو غير أسلوب لوغراند الذي أعهده ، لقد أقلقتني في الواقع . . فما الذي يحلم به صديقي؟ . . . وما كنه هذه الخواطر الجديدة التي تشغل دماغه القلق ، وما هو «الأمر العظيم الأهمية» الذي يود أن يطلعني عليه؟ . . إن حديث جوپيتر عنه لمّا ينذر بسوء . . . وأخشى أن تكون النوائب المتتالية قد مسّت عقله ، وهكذاً لم أتردد لحظة واحدة في إعداد نفسي لمصاحبة جوپيتر .

لمّا بلغنا رصيف الميناء استرعى انتباهي وجود منجل كبير ، وثلاثة محافر جديدة الصنع ، ملقاة في الزورق الذي سيقلّنا إلى الجزيرة ، فقلت لجوپيتر : ما سبب وجود هذه الأدوات؟

قال : إنها محافر ومنجل .

قلت : أعرف هذا . . . ولكن لماذا تنقلها في الزورق؟

قال : لقد سألني السيد ويل أن أبتاعها له من المدينة . . . وابتعتها له بمال الشيطان .

قلت : إنني أقسم عليك باسم هذه الأسرار والمعميّات هلاّ تخبرني ما الذي سيفعله السيد ويل بالمنجل والمحافر؟

قال : هذا ما لا أعرفه ، وليأخذني الشيطان إذا كنت أعرف عنها شيئاً أكثر مما يعرفه سيدي . . ولكنني أعزو السبب في شرائها إلى البقّة .

وإذ أيقنت أن من العبث الحصول على جواب شافٍ من جوپيتر ، وأن «البقّة» تشغل حيزاً كبيراً من تفكيره ، نزلت إلى الزورق وأبحرنا . . ودفعتنا الرياح ، معتدلة حيناً وشديدة حيناً آخر ، إلى أن بلغنا الجون الواقع في شمالي حصن مولتري ، ثم قطعنا مسافة ميلين سيراً على الأقدام إلى أن بلغنا الكوخ حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر ، وكان لوغراند ينتظرنا بفروغ الصبر . . ولـمّا صافحته شدّ على يدي بانفعال عصبي ، فذعرت ، وزادت شكوكي فيه . . كان شاحب اللون مروّعاً ، وعيناه غائرتين تشعان ببريق غير عادي . . وبعد الاستفسار عن صحته لم أجد موضوعاً لمتابعة الحديث غير الاستفهام عن البقّة الموجودة عند الملازم (ج) .

فأجابني ، وقد تلوّن وجهه : أجل ، لقد استعدتها منه في صبيحة اليوم التالي . . وما من شيء يستطيع حملي على أن أتخلّى عنها . . أتدري أن جوپيتر على حق في ذلك؟

فسألته والألم يحزّ في نفسي : ماذا تعني يا صديقي؟

قال : إنه على حق بقوله إن البقّة ذهبية فعلاً . . قال ذلك وقد صعقتني أمارات الجد التي لاحت على محياه .

وارتسمت على شفتيه ابتسامة النصر وقال : ستكون هذه البقة مصدر ثروة لي ، وستعيد لي مركزي في أسرتي العريقة . . فهلاّ تراني أستحق ذلك بعد أن تحققت أمانيّ؟ . . فما دامت الثروة متاحة لي فما علي إلاّ أن أعرف كيف أستفيد منها ، أجل عليّ أن أبلغ مكان الذهب المشار إليه في الجدول . . . أيا جوپيتر ، هاتِ بقّة السكارابوس .

فقال الزنجي خائفاً : ماذا؟ . . البقّة؟ . . كلاّ ، إنني لا أزج بنفسي في

المتاعب ، فانهض وأحضرها بنفسك ! . .

فنهض لوغراند ، وسار بتؤدة ووقار ، إلى حيث كانت البقّة وأخرجها من علبة زجاجية ، فرأيتها حقاً بقة جميلة ، غير معروفة لعلماء الطبيعة ، ولها أهمية عظيمة من وجهة نظر العلم الطبيعي . . ورأيت بقعتين سوداوين مستديرتين في أعلى ظهرها ، ورقعة سوداء مستطيلة في أسفله . . أما حراشفها فكانت قاسية ومصقولة ، وهي على الجملة ذهبية اللون ، وثقيلة الوزن ، وبعد أن أنعمت النظر فيها وجدت أن جوپيتر محق في رأيه . ولكن ما الذي يدعو لوغراند إلى أن يتفق في رأيه مع رأي الزنجي؟ . . . هذا ما عجزت عن إدراكه .

وقال صديقي ، بلهجة كلها تفخيم : لقد أرسلت في طلبك بعد أن أتممت دراستي للحشرة . . وسألتك المجيء لأسترشد بنصحك ، ولأعتمد على معونتك في مجابهة القدر . . والبقّة .

فصحت فيه قائلاً : إنك متوعّك المزاج يا عزيزي لوغراند ، ويجدر بك أن تحتاط لنفسك ، فاذهب إلى فراشك ، وسأظل أنا هنا أياماً قلائل حتى تتماثل إلى الشفاء . . إنك ولا ريب محموم و . . .

فقاطعني قائلاً : جس نبضي !

فجسسته ، والحق يقال ، أنني وجدته طبيعيّاً ولم أجد فيه أقل أثر للحمى .

قلت : ولكنك ربما تكون مريضاً من غير حمّى . . فاسمح لي هذه المرة أن أُملي عليك ما يجب أن تفعله ، فأول شيء اذهب إلى فراشك ، وثاني شيء هو أن . .

فقاطعني محتداً : إنك لعلى خطإ يا صديقي ، فأنا لا أشكو شيئاً ، كل ما في الأمر أنني مضطرب ، وإذا أردت أن تراني معافى حقاً فما عليك إلاّ أن تمد لي يد المساعدة للتخلص من انفعالي .

قلت : وكيف السبيل إلى ذلك؟

قال : الأمر جد بسيط ، سأقوم أنا وجوپيتر برحلة إلى التلال الواقعة على البر ، وسنحتاج في رحلتنا هذه إلى شخص نوليه ثقتنا ، وأنت هو هذا

الشخص ولا ريب . . أجل ، أنت هو الشخص الوحيد الذي نثق به . . أما انفعالي الذي تلحظه فسيلطف بقطع النظر عما نلاقيه في رحلتنا من توفيق أو فشل .

قلت : إنني مهتم بأمرك كيفما كان عليه الحال . . ولكن هل لهذه الحشرة الخسيسة علاقة بالرحلة التي ستقوم بها إلى التلال؟

قال : أجل .

قلت : اسمع يا لوغراند . . أنا غير مستعد للاشتراك في هذه الرحلة التافهة !

قال : يؤسفني ألاّ أقبل بغير اشتراكك . . يجب أن نسعى إلى ذلك معاً .

قلت : ولم لا تسعى إلى ذلك بمفردك؟ - حقاً إن الرجل قد فقد عقله - ولكن مهلاً . . كم تستغرق هذه الرحلة من وقت في اعتقادك؟

قال : يحتمل أن تستغرق طوال الليل . . وعلينا أن نتحرك على الفور ، وسنعود عند شروق الشمس .

قلت : وهل تعدني بشرفك أنك ، بعد أن تفرغ من قضاء نزوتك هذه في الجري وراء البقّ ، ستعود إلى بيتك ، وستتبع نصائحي كما تتبع نصائح الطبيب؟

قال : أجل ، أعدك ، وليتحرك ركبنا الآن ، حتى لا يذهب الوقت سدى .

رافقت صديقي بقلب مثقل بالغمّ ، وشرعنا في رحلتنا حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر ، وكان الموكب يتألف مني ومن لوغراند وجوپيتر ، والكلب ، وقد جمل جوپيتر المنجل والمحافر ، وهذا كل ما كان يصرّ على حمله ، لا لوثوقه بمشاريع سيده ، وإنما تهرباً من الإفراط في الكدّ والعمل . . وكان وجهه متجهماً لا ينفك طوال الطريق يتمتم بهذه العبارة : «يا لهذه البقّة الخبيثة» . . أمّا أنا فقد حملت بعض المصابيح في حين تولى لوغراند حمل البقة ، وقد ربطها إلى طرف خيط سوط وتركها تحوّم ذهاباً وإياباً كمن يقوم بشعوذة أو سحر . . وما كان لحركات صديقي هذه إلاّ أن ضاعفت ظنوني في خفة عقله ، ولم أتمالك عن ذرف الدموع من أجله . . وعلى كلٍّ ، تبيّن لي أن أفضل وسيلة في معاملته ، إبان الرحلة ، هي في مسايرته

وإنعاش مخيّلته ، ثم استبدال هذه المعاملة ، عندما تحين الظروف المناسبة ، بمعاملة أخرى أكثر حزماً وصرامة . . وأخذت أحدثه عبثاً بصدد الغاية من الرحلة ، وكان هو ، بعد أن تمكّن من استدراجي لمرافقته ، يتهرّب من النقاش ويقول لي دائماً : «سوف نرى» .

وعبرنا الجون بالزورق من الجهة العليا للجزيرة ، ثم هبطنا منه إلى البئر ، وسرنا في اتجاه شمالي غربي ، عبر مناطق موحشة خلاء ليس فيها للإنسان أي أثر ، وكان لوغراند يقودنا في رحلتنا هذه بتصميم ، فيتوقّف هنا وهناك للحظات مستطلعاً بعض العلامات التي تركها في الرحلة الأولى التي قام بها خفيةً بمفرده .

دامت رحلتنا على هذه الحال مدة ساعتين ، وما إن أشرقت الشمس حتى كنّا بلغنا مكاناً أشد وحشة من غيره من الأماكن التي مررنا بها ، فالمكان الذي بلغناه منبسط عالٍ ، يقع على مقربة من قمة جبل منيع الحجاب ، تتكاثف فيه الأشجار من سفحه حتى أعاليه ، وتتشابك مع صخور جمة متعددة الأشكال ، بل إن هذه الصخور تقف سداً منيعاً في وجه الأشجار وتحول دون انحدارها إلى الوادي ، وهناك المجاري البعيدة الغور ، المتعرجة في كل اتجاه ، والتي تخلع على المكان مهابة شديدة التجهّم .

فالمنطقة التي وصلنا إليها كانت مكسوّة بكميات وافرة من شجيرات العليق ، بحيث يتعذر علينا شق طريقنا خلالها إلاّ باستعمال المنجل ، وراح جوپيتر يعبّدها لنا لتقودنا إلى سوسنة عالية جداً ، تقوم على المنبسط المذكور إلى جانب ثماني عشرة صنوبرة ، وتسمو على زميلاتها كثيراً . ثم إن كل الأشجار التي رأيتها في تلك المنطقة كانت على غاية الروعة من حيث شكلها ، وطبيعة أوراقها ، وتفرّع أغصانها ، وعظمة مظهرها . . وما إن بلغنا السوسنة حتى التفت لوغراند إلى جوپيتر ، وسأله إذا كان يستطيع تسلقها ، فذهل الزنجي والتزم الصمت قليلاً . . ثم تقدّم من الجذع الضخم وصار يدور حوله ببطء ، ويتفحصه بدقة متناهية ، ولـمّا انتهى من تطوافه قال : أجل يا سيدي ، فإن جوپ يتسلّق شجرة لم يرَ لها مثيلاً في حياته !

فقال لوغراند : فاصعد إذاً بأسرع ما يمكن قبل أن يحل الليل .

فأجابه الزنجي : وما هو الارتفاع الذي سأبلغه؟

قال : عليك أن تصل إلى نهاية الجذع الرئيسي أولاً ، ثم أخبرك عن الاتجاه الذي ينبغي عليك أن تتجه إليه . والآن قف . . خذ هذه البقّة معك .

فصاح الزنجي وهو يتقهقر متقزّزاً وقال : البقة ! . . البقة الذهبية ! . . وما الحكمة من حمل هذه البقة إلى أعالي الشجرة؟ . . كلاّ لن أفعل ذلك!

فقال له لوغراند : إذا كنت تخشى يا جوپ ، وأنت الزنجي القوي ، حمل هذه الحشرة غير المؤذية بيدك ، فلماذا لا تحملها وهي مقيدة إلى طرف الخيط؟ ! أمّا إذا كنت ترفض حملها بأي شكل كان فسأضطر إلى تحطيم رأسك بهذا المحفار!

ويبدو أن الزنجي قد خجل من نفسه وقال : إنك يا سيدي تلحّ دائماً في كلامك مع الزنجي المسنّ . . فهل تظنني أخشى البقّة؟

وأمسك الخيط حذراً ، مبعداً عنه الحشرة قدر المستطاع ، وهمَّ بارتقاء الشجرة .

كانت السوسنة في صغرها ، وهي من أبدع الأشجار التي تنمو في الغابات الأميركية ، تقوم على جذع أملس ، وقد ارتفعت إلى مسافة عالية دون أن تبرز فرعاً ، ولكنها لـمّا نضجت اعجرّ قشرها واحدودب ، وبرزت فيها جذوع صغيرة كثيرة . . وهكذا كانت الصعوبة في تسلّقها وهمية . وتقدّم منها جوپيتر ، واحتضنها بذراعيه وركبتيه ، وأمسك ببعض النتوءات ، وبعد أن تلوّى على الجذع ، متحاشياً السقوط مرة أو مرتين ، بلغ غصناً كبيراً في أعلاها ، وخُيِّل إليه أنه أنهى المرحلة الأولى من التسلّق . . والواقع أنه أنجز شطراً كبيراً من المشروع الخطر ، وارتفع مسافة ستين أو سبعين قدماً عن الأرض .

وسأل جوپ سيده : أي طريق عليّ أن أتبع؟

فقال له لوغراند : اصعد إلى أضخم غصن في الشجرة .

فأطاع الزنجي أمره على الفور ، وتابع التسلّق أكثر فأكثر دون صعوبة ، إلى أن اختفى بين أوراق الشجرة الكثيفة . . وصاح من فوق : أأتابع الصعود؟

فسأله لوغراند : وما هي المسافة التي بلغتها؟

فأجابه الزنجي : ارتفعت كثيراً . . إنني أرى السماء من أعالي الشجرة .

فقال : لا بأس في ذلك . . ولكن انظر إلى أسفل ، وعدَّ الفروع التي صعدت عليها .

فأجابه : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة . . . أجل لقد تخطيت خمسة فروع من هذا الجانب ، وها أنا أقف على الفرع السادس .

فقال : تابع الصعود إلى فرع آخر .

وبعد دقائق سُمع صوت الزنجي يعلن بلوغه الفرع السابع .

فقال له لوغراند بانفعال : والآن يا جوپ . . أريدك أن تسير على الفرع قدر إمكانك . . فإذا شاهدت شيئاً غريباً أشعرني به على الفور .

وفي هذه الأثناء زايلني كل شك في سلامة عقل صديقي ، وتأهبت لإقناعه بضرورة العودة إلى الكوخ ، وإذا بجوپيتر يقول من أعالي الشجرة : إنني أخشى السير على هذا الفرع بعيداً ، إنه فرع ميت .

فسأله لوغراند بصوت مرتعش : أتقول إن الفرع ميت يا جوپيتر؟

فأجابه الزنجيّ : أجل يا سيدي إنه ميت مثل «مسمار الباب» ، إنه فاقد الحياة .

فبدت على وجه لوغراند أمارات الغم وقال : بحق السماء . . ما العمل؟

فاغتنمت هذه الفرصة وقلت له : عليك أن تعود إلى كوخك . . ألم تعدني بذلك؟ فهيّا بنا قبل أن يداهمنا المساء .

فلم يصغ إلى كلامي وصاح بأعلى صوته : أتسمعني يا جوپيتر؟

فأجابه : أجل أسمعك يا سيد ويل بكل وضوح .

فقال له : جرِّب متانة الفرع بسكينك ، وتيقّن من أنه تالف كثير العطب .

فأجابه الزنجي بعد لحظات : إنه تالف ولا شك ، ولكنه ليس على درجة كبيرة من التلف ، وبوسعي التعلق به بذاتي مسافة أبعد .

فقال له : ماذا تعني بكلمة بذاتي يا جوپيتر؟ . .

فأجابه : أعني البقّة . . إنها ثقيلة جداً . . وإذا ما أسقطتها من يدي فسيسهل على الفرع حملي بمفردي .

فصاح لوغراند وقد انتعش كثيراً : اسمع أيها المنافق اللعين . . ما هذه الترهات التي تحدثني بها !؟ ثق بأنني سأحطم عنقك إذا ما أسقطت الحشرة . . أتسمع ما أقوله لك؟

فأجابه : أجل أسمعك . . . وليس من موجب لأن تتحامل على هذا الزنجي المسكين .

فقال له : إذا ما مشيت على الفرع مسافة أبعد ، وإذا ما تمسكت بالبقّة ولم تلقها ، فإنني سأمنحك دولاراً فضياً حالما تهبط إلى الأرض .

فأجابه الزنجي على الفور : سأفعل ما تريد . . وها قد بلغت نهاية الفرع .

فقال لوغراند : هل بلغت نهاية الفرع؟ . . هل ترى شيئاً عند هذه النهاية؟

فأجابه : أجل بلغتها يا سيدي . . . ولكن . . . ولكن . . . ما هذا . . . رحماك يا رب . . . ما هذا الذي أراه على الشجرة؟

فقال له لوغراند وقد ملأه السرور : ما هذا الذي تراه؟

فأجابه : لا شيء ، إنها جمجمة ، ويلوح لي أن أحد الناس قد ترك رأسه معلقاً على هذه الشجرة . . وأنّ العقبان لم تترك عليه أي أثر من آثار اللحم .

فقال له لوغراند : تقول إنك رأيت جمجمة ، فهل هي مقيدة إلى الفرع جيداً . . وبمَ هي مقيدة؟ . .

فأجابه : أجل إنها مثبتة إلى الفرع بمسمار كبير .

فقال : والآن افعل ما أقوله لك بدقة يا جوپيتر ، أتسمعني؟

فأجابه : أجل أسمعك .

فقال : انتبه جيداً . . انظر إلى عين الجمجمة اليسرى .

فأجابه الزنجي : هذا شيء بديع !! وهل لهذه الجمجمة عين؟

فقال : تبّاً لك من أحمق يا جوپيتر . . وهل تميز يدك اليمنى عن يدك اليسرى؟

فأجابه : إنني أميزها طبعاً . . فهذه التي أقطع بها الفرع هي اليسرى .

فقال : تأكّد من ذلك . . إنك تنزع إلى اليسار في كل شيء . . فعينك

اليسرى تقع في جهة يدك اليسرى ، والآن فإنني أفترض بأنك عثرت على عين الجمجمة اليسرى ، أو على المكان الذي تقع فيه هذه العين . . أليس كذلك؟

وهنا ساد صمت طويل ، وأخيراً تساءل الزنجي : هل عين الجمجمة اليسرى تقع في جهة اليد اليسرى أيضاً؟ . . ولكنها في الواقع جمجمة بلا يد . . وعلى كل سأعثر على العين التي تريدها . . وها هي . . والآن قل يا سيدي ما الذي عليّ أن أفعله؟

قال : أطلق الحشرة في فتحة العين اليسرى ، واتركها تدخلها بقدر ما يسمح الخيط الممسك بها ، ولكن حذار أن يفلت من يدك قبل أن آمرك بذلك .

لم يظهر لجوپيتر وجه في أثناء هذا الحوار ، إلاّ أن الحشرة التي آله أمر العودة بها كانت تتراءى لنا مربوطة بطرف الخيط ، وهي تتألق كما تتألق الكرة الذهبية تحت أشعة الشمس ، وكانت بعض إشعاعات الحشرة تتساقط علينا ، وتضيء البقعة التي نقف عليها بنور خافت . . وإذا ما سقطت من علٍ فإنها ستسقط بيننا مباشرة ، ولذا أخذ لوغراند المنجل ونظف به دائرةً ، تقعُ تحت الحشرة ، قطرها ثلاث أو أربع ياردات ، وبعد أن أتمّ عمله هذا أمر جوپيتر بأن يطلق الخيط والبقة معه ويهبط إلى الأرض .

ودقّ لوغراند وتداً في المكان الذي سقطت فيه الحشرة تماماً ، ثم أخرج من جيبه شريطاً للقياس وثبّت أحد طرفيه في جذع الشجرة من الناحية القريبة للوتد ، ثم ابتعد بالشريط مسافة خمسين قدماً ، وكان جوپيتر يقتفي أثره منظفاً الدرب من شجيرات العليق . . ولـمّا بلغ النقطة التي يريدها دق فيها وتداً آخر ، ورسم حولها دائرة قطرها أربعة أقدام على وجه التقريب ، ثم حمل محفراً وسلم الزنجي محفراً آخر ، كما سلمني المحفر الثالث وقال : فلنعمل معاً على إحداث حفرة في هذه البقعة وبأسرع ما يمكن .

والحق يقال أنني لم أشعر برغبة في القيام بهذا الضرب من البله ، وكنت أود رفض طلبه بداعي التعب وحلول المساء . . لكنني وجدت ألاّ مفرّ من ذلك ، وخشيت إزعاج صديقي المسكين ، ولو كنت أعتمد على معونة

جوبيتر لما توانيت لحظة واحدة في حمل المعتوه إلى كوخه بالقوة، لكنني تيقنت أن الزنجي لن يناصرني ويعادي سيده، كما أن هذا الزنجي لا يزال أسير أوهام كثيرة يذعن لها أهل الجنوب، أوهام تتعلق بالكنوز الدفينة، وجاءت البقة الذهبية وقوّت فيه هذا الوهم، وربما يكون هو الذي أصرّ على سيده أن يحتفظ بالحشرة لتصبح بقة من الذهب الحقيقي . . وقد لاقت هذه الفكرة هوى في نفس المعتوه، وتوافقت مع الأفكار المحببة إلى نفسه، أفلم يقل لي في حديث سابق إنه يعقد آماله على الحشرة لتكون «دليلاً إلى الثروة» التي يسعى إليها؟ . . وعلى الجملة لقد احترت في أمر هذا الرجل الحالم، وعوّلت على مسايرته في حفر الأرض بطيبة خاطر، لأثبت له عقم أفكاره وفسادها من طريق الاختبار والمعاينة .

وأشعلنا المصابيح واندفعنا إلى العمل بهمّة، ليتها كانت من أجل شيء واقعي . وكان منظرنا عجيباً مريباً ونحن نجدُّ في حفر الأرض، والمصابيح تُسقط إشعاعاتها علينا .

وتابعنا الحفر مدة ساعتين بإصرار وعناد، ولم يزعجنا شيء سوى الكلب، فقد كان في بادئ الأمر هادئاً، يراقب أعمالنا بانتباه زائد، ثم صار ينبح نباحاً مستمراً خشينا معه أن يسترعي انتباه بعض العابرين في تلك المنطقة النائية، والواقع أنَّ هذا ما كان يخشاه لوغراند، أما أنا فكنت أتمنى مجيء أي شخص يساعدني على إعادة هذا التائه إلى كوخه . وحينما تفاقم نباح الكلب، خرج له جوبيتر من الحفرة وكم خطمه بإحكام، وعاد إلى مواصلة عمله وقد ارتسمت على محياه علامات التشفي .

وفي هذه الأثناء كنا قد تعمّقنا في الحفر إلى مسافة خمسة أقدام، ومع ذلك فإننا لم نعثر على أي أثر للكنز . وتوقفنا عن العمل قليلاً، فظننت أن بداية الإخفاق قد حانت . وكان لوغراند مجداً، مقطّب الحاجبين، ثم تابعنا العمل فوسّعنا الحفرة وزدناها عمقاً، لكننا لم نصل إلى أية نتيجة، فتوقف لوغراند عن العمل ثانية، وخرج وأمائر الخيبة مرتسمة على محياه، ووضع سترته على كتفيه، وأشار إلى جوبيتر أن يجمع أدوات العمل، ورفع الكمامة عن خطم الكلب، وقفلنا عائدين إلى الكوخ .

وبعد أن ابتعدنا مسافة قصيرة التفت لوغراند نحو جوپيتر فجأة وحملق في وجهه ، ثم أمسكه من ياقة سترته ، فأجفل الزنجي وفغر فاه ، وترك المنجل يقع على الأرض ثم خرّ على ركبتيه .

فقال له لوغراند حانقاً : قل لي أيها اللعين . . أجبني على الفور . . أين هي عينك اليسرى؟

فأجابه بذعر : رحماك يا سيد ويل . . إن عيني اليسرى تقع هنا . . ووضع يده على عينه اليمنى!

قال لوغراند : فلنعد إلى السوسنة مرة أخرى . . فالعمل لم ينته بعد .

ثم إنه خاطب جوپيتر قائلاً : اسمع يا جوپيتر ، هل كانت الجمجمة مسمّرة ووجهها إلى الأمام أم إلى الخلف؟

فأجابه : كانت الجمجمة مسمّرة إلى الأمام ، حتى تتمكن منها العقبان دون عناء .

فأجفل لوغراند ووضع يديه على عيني الزنجي وسأله : في أية عين وضعت الحشرة؟ في هذه أم في هذه؟

فأجابه الزنجي : وضعتها في هذه العين . . وأشار إلى عينه اليمنى .

قال لوغراند : علينا أن نعيد الكرة مرة أخرى .

وشرع صديقي ، الذي تأكد لي جنونه ، يعمل من جديد ، فانتزع الوتد من المكان الذي سقطت عنده البقة ودقه في مكان يبعد مسافة ثلاث بوصات إلى الغرب من مكانه السابق ، ومدّ شريط القياس من الشجرة في خط مستقيم إلى مسافة خمسين قدماً ، كنا قد نظفناه سابقاً ونحن نحفر الأرض .

وأحدثنا دائرة جديدة ، أوسع من سابقتها ، وباشرنا أعمال الحفر ، ورأيت نفسي هذه المرة مندفعاً ، بل ومتحمّساً للعمل بالرغم من السأم المستولي علي . . فمن يدري أن صديقي الشاذ يهدف إلى شيء واقعي؟ . . وشرعت أحفر الأرض وأنا أمنّي نفسي بالعثور على كنز وهمي ، أي أنني صرت أشاطر صديقي التعس أوهامه . وبعد عمل دام ساعة ونصف الساعة هبّ الكلب ينبح نباحاً شديداً كما فعل في السابق ، ولـمّا حاول جوپيتر أن

يكمم خطمه قاومه مقاومة عنيفة ، وقفز إلى داخل الحفرة وصار يرفع التراب بمخالبه كأنه أصيب بصرع ، وما هي إلاّ ثوان حتى كشف عن هيكلين عظميين بشريين عليهما بعض الأزرار المعدنية ، وإلى جانبهما خنجر إسباني ، ولـمّا تعمقنا في الحفر عثرنا على ثلاث أو أربع قطع من الذهب والفضة .

لم يكن لوغراند راضياً عن هذه النتيجة ، فألح علينا بمواصلة الحفر ، ولا أدري كيف زلت بي قدمي في تلك اللحظة فسقطت على وجهي ، وعندما تبينت السبب وجدت أنَّ قدمي قد علقت بحلقة حديدية نصفها مدفون في الأرض والنصف الثاني بارز فوقها .

وضاعفنا العمل بهمّة وعزم إلى أن كُشف لنا عن صندوق كبير طوله ثلاثة أقدام ونصف القدم ، وعرضه ثلاثة أقدام ، وارتفاعه قدمان ونصف القدم ، تحيط به أطواق من الحديد ، وله ست حلقات متينة ليتمكّن ستة رجال من حمله ، وعبثاً حاولنا زحزحته من مكانه لثقله ، ولـمّا كشفنا غطاءه ، أصبنا برجفة ووجوم بالغين ، ونحن نتراجع إلى الخلف ، كان الصندوق طافحاً بالجواهر الثمينة والقطع الذهبية ، من كل شكل ونوع ، وهي تشع ببريق يأخذ الأبصار .

ذُهلت حقاً لمرأى الجواهر ، أما لوغراند فقد خارت قواه ، ولم يتفوه إلاّ بكلمات معدودات . وأمّا الزنجي فقد امتقع لونه ، وانعقد لسانه ، ثم ركع في الحفرة ودفن ذراعيه العاريتين في الذهب كأنه يمتع نفسه بحمام فاخر ، ثم تنفس الصعداء وقال : أهذا هو ما جلبته لنا البقّة الذهبية؟ . . هذه البقة الطيبة ، المسكينة . . ألا تباً لي على تلك المعاملة القاسية التي عاملتها بها . . ألا تخجل من نفسك أيها الزنجي؟ . . أجب !

وأصررت على صديقي الزنجي بضرورة رفع الكنز من الحفرة ، ونقله إلى الكوخ قبل طلوع الفجر . . وبعد أن أعملنا الفكر طويلاً وصلنا إلى قرار واحد وهو رفع ثلثي محتويات الصندوق لتخفيف وزنه ، ثم رفعه كله من الحفرة . . وهكذا كان ، فقد أخرجنا كميات كبيرة من الجواهر ووضعناها بين العليق في حراسة الكلب ، وزودنا جوپيتر بتعليمات صارمة بألاّ يتحرك

من مكانه أو يفتح فمه قبل عودتنا ، وأسرعنا إلى الكوخ ونحن نحمل الصندوق ، فبلغناه الواحدة بعد منتصف الليل ، ثم تناولنا العشاء واسترحنا قليلاً ، بعد أن بذلنا مجهوداً فوق الطاقة البشرية ، ثم عدنا إلى التلال ونحن نحمل ثلاثة أكياس متينة الصنع ، وبلغنا الحفرة قبل الساعة الرابعة صباحاً ، فحملنا ما تبقى من جوهر وذهب وعدنا بها إلى الكوخ تاركين الحفرة كما هي فاغرة فاها ، فبلغناه مع طلوع تباشير الصباح ؛ وإشعاعاتُ الشمس الأولى تتألق على قمم أشجار الرند .

لقد أضنانا التعب ، غير أن أعصابنا المهتاجة المتوترة لم تدع لنا مجالاً للراحة طويلاً ، وبعد غفوة مضطربة ، دامت ثلاث ساعات أو أربعاً ، نهضنا ثانية لنتفحص محتويات الصندوق .

كان الصندوق طافحاً حتى غطائه بالمجوهرات ، فقضينا طوال النهار ، وشطراً من الليل ، ونحن نحصيها ونرتبها بعناية ودقة ، فاتضح لنا أننا غدونا نملك ثروة أكثر مما تصوّرنا عند الوهلة الأولى . . كان الصندوق محتوياً على أربعمائة وخمسين ألف قطعة ذهبية . . ومجوهرات مختلفة قديمة فرنسية وإسبانية وألمانية ، وكميات من الجنيهات الإنكليزية ، ونقود ذهبية تابعة لبلدان أخرى لم نرَ لها شبيهاً أبداً ، لكننا لم نعثر بينها على نقد أميركي . . وقد تعذر علينا تقدير ثمن هذا الكنز ، فهناك الألماس بأحجام كبيرة وعددها مائة وعشر ماسات ، وكلها بديعة ورائعة . . وقد ظهر لنا أنها نُزعت من قواعدها وألقيت في الصندوق اتفاقاً . . أما تلك القواعد فقد دُقت دقاً عنيفاً لإزالة معالمها . . وكان في الصندوق ، بالإضافة إلى ذلك ، كميات من الزخارف الذهبية ، وثلاثمائة وثمانون خاتماً وقرطاً من النوع الثقيل ، وثلاثون عقداً نفيساً ، وثلاثة وثمانون صليباً ، وخمس مباخر باهظة الثمن ، وطبق ذهبي كبير مزين بأوراق العنب ، وبمختلف الصور البديعة ، وقبضتا سيف من الذهب الخالص ، وكثير من الأشياء الصغيرة التي لا تحصى . . وهذه المجوهرات جميعها تزن أكثر من ثلاثمائة وخمسين أوقية ، يستثنى من كل ما ذكرته حوالى مائة وسبع وتسعين ساعة ذهبية محلاة بالمجوهرات ، ومعظمها قديم جداً ، لكنها متوقّفة بسبب تأكُّل آلاتها ، وقد قدرنا قيمة محتويات

الصندوق جملة بمليون ونصف مليون دولار .

أخيراً ، وبعد أن انتهينا من عملية الإحصاء ، وهدأت أعصابنا بعد عناء تلك الليلة ، التفت إليّ لوغراند وقال لي : أراك مضطرب الخاطر ، تبدي رغبة ملحة في حل هذا اللغز . . وها أنا أضعه بين يديك ، قال :

أتذكر تلك الليلة التي سلّمتك فيها الرسم السريع للبقّة؟ ! أتذكر كيف امتعضت منك لأنك كنت تلح في القول بأن الرسم يشبه الجمجمة؟ ! فلمّا أبديت تلك الملاحظات وقتئذ ظننتك مازحاً ، لكنني لـمّا نظرت إلى البقع السود التي تزيّن ظهر البقّة اتضح لي أن في كلامك بعض الحق . . واستهزاؤك بي كرسام لا يزال يهزني لأنني أعتبر نفسي رساماً ماهراً ، وكان بودي وقتئذ أن ألقي إلى النار ذلك الرق الذي رسمت عليه الحشرة .

قلت : لعلك تعني بالرق قصاصة الورق؟ !

قال : إنها تبدو قصاصة ورق ولكنها ليست كذلك ، فحين أخذت أرسم عليها تبيّن لي أنها رقّ رقيق جداً ، ولـمّا رحت أطويه حانقاً رأيته في الواقع يحمل رسم جمجمة ، وأن هذا الرسم يقع في المكان ذاته الذي رسمت فيه الحشرة . . وقد أخذتني الدهشة لما في الرسمين من تشابه ودقة رغم الاختلاف القائم في التفاصيل . . وأخذت الشمعدان وجلست على صندوق في أحد جوانب الغرفة وأنا أنعم النظر في الرق ، وحينما قلبته على الجهة الثانية رأيت الرسم الذي خطته يدي قبل لحظات ، فدهشت جداً للتشابه الواقع بين الرسمين في خطوطهما العامة ، فمن جهة الجمجمة ، ومن جهة أخرى رسم الحشرة ، والتشابه قائم فيما بينهما شكلاً وحجماً . . وانصرفت وقتئذ إلى إيجاد الرابطة العارضة التي تربط الرسمين ، فلمّا عجزت عن ذلك أصبت بما يشبه الشلل المؤقت فنمت . ولـمّا صحوت بدأت أنظر إلى الأمر بأنه أكثر من مجرد مصادفة ، فقد تذكرت أنني قلّبت الرق على الجانبين وأنا أبحث عن مكان نظيف لأضع عليه رسم الحشرة فلم أرَ للجمجمة أثراً ، وقد أثارني هذا السر وتعذّر عليّ حله ، ومنذ ذلك الحين وإشعاع خافت يضيء قرارة نفسي ، وصور باهتة تنسج خيوطها في مخيلتي ، كان من نتائجها الوصول إلى هذا الكنز الذي تراه . . ونهضت من

على الصندوق ووضعت الرق في مكان أمين ، عاقداً النية على اغتنام فرصة للاختلاء بنفسي لسبر كنه هذا السر .

وكان الذي فعلته بعد أن تركتني ، وبعد أن ذهب جوبيتر إلى فراشه ، أن باشرت أتحرى المسألة بدقة تامة ، فأول ما جال في خاطري كيفية وصول الرق إلى حوزتي . . كنت قد عثرت على البقة عند ساحل البر ، وعلى بُعد ميل من شرقي الجزيرة ، ولـمّا التقطتها «عضتني» في يدي وسقطت على الأرض ، فأسرع جوبيتر الخطو ليلتقطها بأي شيء يقع تحت يده ، فوقع نظره على ما ظنه وظننته أنا أيضاً ورقة ، فرفعها ونصفها مختف في الأرض ، والنصف الثاني ظاهر فوقَها . . وقد لاحظت أن بالقرب من المَكان حطام سفينة قديمة العهد .

ولفَّ جوبيتر البقة بالرق وأعطانيه ، ثم عدنا إلى الكوخ ، فالتقينا في طريقنا بالملازم (ج) وهو يتحمس جداً للتاريخ الطبيعي ؛ وأطلعته على الحشرة ، فسألني أن آذن له بحملها إلى الحصن ، فلم أمانع في ذلك ووضعها في جيب صدرته ، دون الرق الذي لُفّت به ، وذهب هو في سبيله ، ووضعت أنا الرق في جيبي بصورة عفوية .

ولعلك تذكر أيضاً أنني حين جلست إلى الخوان لأرسم الحشرة لم أجد في درجه ورقة ، وبحثت في جيوبي لعلي أجد رسالة قديمة أرسم عليها ، فوقعت يدي على الرق .

وسرعان ما أخذت أجمع أشتات الأمور إلى بعضها ، وأثبت الروابط القائمة فيما بينها ، فأول ما استرعى انتباهي أن هناك حطام سفينة ملقاة على الشاطئ ، وإلى جانبها رقّ ـ وليس ورقة ـ وقد رسمت عليه صورة جمجمة . . وستسألني ولا شك وما علاقة هذه بتلك . . . . فأجيبك أن الجمجمة هي شعار القراصنة المشهور ، وكانوا يضعونه على راياتهم في جميع المعارك التي يخوضونها . والشعار هذا مرسوم على الرق لا على ورقة عادية ، والقصد من ذلك المحافظة عليه من البلى ، فالرق إذاً هو سجل لشيء ما !

فقاطعته قائلاً : ولكنك ذكرت في حديثك أنك لم ترَ للجمجمة أثراً

عندما جعلت ترسم الحشرة ، فكيف اهتديت والحالة هذه إلى الصلة القائمة بين حطام السفينة والجمجمة؟

قال : أنت على حق ، إنني لما رسمت الحشرة لم أرَ للجمجمة أثراً ، ولكنني حين انتهيت من رسمها ناولتك إياها فرأيت أنت فيها صورة للجمجمة . . فما السر في ذلك؟

لقد كان الطقس يومئذ شديد البرودة ، والنار تتأرجح في الموقد ، وكنت أنت تجلس بقربه ، فلمّا سلمتك الرق لتتفحص صورة الحشرة وثب الكلب بين كتفيك ، وأخذت تربّت عليه بيدك اليسرى ، بينما كنت تقبض على الرق بيدك اليمنى ، فسقط الرق من يدك على الأرض بالقرب من الموقد تماماً ، وكاد اللهيب يلتهمه ، وما إن رفعته حتى ظهرت عليه صورة الجمجمة . . فحرارة النار إذاً هي التي أظهرت الصورة على الرق . . فالكتابة بالمواد الكيمياوية كانت معروفة في العهود الماضية ، وكانت تستعمل في الكتابة على الورق أو على الجلود . . فمادة «الزفر» إذا ما مُزجت بماء «ريجيا» تعطي حبراً أخضر . . وحجر الزرنيخ إذا ما مزج بروح النشادر يعطي حبراً أحمر . . . وهذه الألوان تختفي عن النظر إذا ما حُفظت الكتابة بها في أماكن باردة ، ولكنها تبرز ثانية إذا ما عرضت لوهج النيران .

واتضح لي إذ ذاك أن الجهة العليا من الجمجمة أكثر وضوحاً من غيرها ، فاستنتجت من ذلك أن الحبر المستعمل في الرسم لم يكن متعادلاً . . . فأسرعت وأوقدت ناراً وعرضت الرق عليها من كل جانب ، فبرزت في أسفل الرق صورة شبيهة بالعنزة ، ولـمّا دققت فيها وجدتها جَدْياً .

فضحكت ولكنني استدركت الأمر وقلت له : لا يحق لي أن أضحك وأمامي كنز يساوي مليوناً ونصف مليون من الدولارات ، ولكنك لم تصل الحلقات واحدتها بالأخرى بعد! فما علاقة القراصنة بالعنزة . . وهم كما تعرف لا يرعون الماعز؟

قال : ولكنني أفدتك بأن الصورة الجديدة التي رأيتها هي صورة جدي .

قلت : ولنفرض أنه جدي ، فما الذي نستنتجه من ذلك؟

فأجاب لوغراند : لعلك سمعت بالقرصان الشهير المدعو «كابتن كيد» أو

الربان الجدي ، فرسم الجدي جاء محل التوقيع تماماً . . وصرت أتوقع ظهور شيء بين الجمجمة شعار القراصنة وتوقيع القرصان الشهير .

قلت : لعلك كنت تتوقع ظهور رسالة بينهما !

قال : أجل كنت أتوقع شيئاً من هذا القبيل . . . لقد استحوذت عليَّ فكرة العثور على ثروة ما ، وهذه الفكرة مبنية على الرغبة لا على الاعتقاد ، وجاءت كلمات جوپيتر التافهة بصدد «البقّة ذهبية حقاً» مثيرة لنفسي وخيالي . . ثم بدأت بعد ذلك سلسلة من الحوادث المتتالية المتعارضة ، حوادث خارقة للعادة . . فجاء ذلك اليوم الوحيد من أيام السنة ، ببرده القارس ، فاضطررنا إلى إشعال النيران في الموقد ، وظهرت الجمجمة . . فلولا اتفاق هذه الحوادث لما توصلت إلى هذه النتائج .

قلت : تابع حديثك يا صديقي .

قال : ما من شك في أنك سمعت شائعات كثيرة عن الكنوز التي دفنها الربّان كيد ورجاله ، إنها شائعات تقوم على أساس من الصحة ، وهي في الواقع وليدة الظروف التي دفن فيها الكنز وظل مدفوناً دون أن يعثر عليه أحد من الناس . . فجميع الشائعات والقصص التي تروى بهذا الشأن تتحدث عن الباحثين عن الكنز لا عن الذين عثروا عليه . . ولكن هل عاد كيد وأخرج الكنز ثانية؟ . . يبدو لي أنه قد طرأ له حادث ، كنسيان المكان الذي دفن فيه الكنز ، منعه من استخراجه من مكانه ، وأن رجاله كانوا على علم بهذا الحادث ، وحاولوا فيما بعد عبثاً الاهتداء إليه ، ومن ثم سرت الشائعات بصدده وتواترت الروايات . . فهل بلغك أنت أن كنزاً مدفوناً في مكان ما من الشاطئ؟

قلت : كلاّ .

قال : أجل ، إن مجوهرات «كيد» كانت هائلة وذائعة الصيت . . . وكنت أنا مقتنعاً بأنها لا تزال في بطن الأرض ، وكان لذلك الرق العجيب أن قوّى فيّ الرجاء للاهتداء إلى مكانها .

قلت : وكيف تابعت تحقيقاتك؟

قال : أمسكت بالرق إلى جانب النار فلم يظهر عليه شيء جديد ، فقلت

ربما تكون الأوساخ العالقة به هي التي تحول دون ظهور الكلمات ، فغسلته بمياه دافئة ، ثم وضعته في صفيحة جاعلاً الجمجمة إلى أسفل ، ووضعت الصفيحة على فرن حتى اشتدت حرارتها ، ثم رفعت الرق ، فغمرني فرح عظيم إذ رأيت صفوفاً من الأرقام ترتسم عليه . . وها هي كما تراها الآن .

وناولني لوغراند الرق وعليه أرقام تتخللها رموز شتى ، فتفحّصتها لكنني لم أفقه ما تعنيه قطعاً . . فأعدتها له قائلاً إنني لا أزال في ظلمة حالكة .

فقال لوغراند : إن حلَّ هذه الأرقام صعب ولا شك ، إنها (شيفرة) تتضمن معنى يعرفه الربّان كيد ، وقد اتضح لي على الفور أنني لا أستطيع تفسيرها بلا مفتاح .

قلت : وهل استطعت حلها بالفعل؟

قال : لقد سبق لي أن حللت ألغازاً أصعب من هذا اللغز . . والمهم في هذا الشأن أن تعرف اللغة التي كتبتها الشيفرة أولاً ، فتصوير الجدي كدلالة لمعنى (كيد) يبرهن على أن الرسالة كتبت بالإنكليزية ، أمّا نصها فهو مزيج من الأرقام والحركات ، وقد بدأت أحلل الكلمات المختصرة المؤلفة من حرف واحد ، ثم أحصيت الأرقام المشابهة ، فوجدت أن رقم ٨ هو أكثرها عدآً إذ بلغ ٣٣ ، ولـمّا كان حرف E بالإنكليزية هو أكثر الحروف استعمالاً فقد استنتجت أن رقم ٨ يعني E ، وكثيراً ما يضاعف هذا الحرف في الكلمات الإنكليزية مثل Meet ، Fleet ، Speed إلخ . . فحرف E إذاً هنا قابل للمضاعفة .

فاعتبرت والحالة هذه رقم ٨ بمنزلة حرف E ، ولـمّا كان هذا الحرف يأتي كثيراً في كلمة THE ، وهي أكثر الكلمات استعمالاً بالإنكليزية ، استنتجت أن الأرقام التي تسبقه هي T, H فتؤلف معاً كلمة THE أي «الـ» التعريف .

ثم تابعت تحري الشيفرة على ضوء هذه القاعدة ، فظهر لي أن هناك أرقاماً تؤلف كلمات «شجرة» و«جيد» و«ثلاث عشرة» إلخ . . وكانت النتيجة في نهاية الأمر استخراج هذه الرسالة :

«نظارة جيدة في فندق المطران ، في مقر الشيطان ـ وواحدة وأربعون درجة وثلاث عشرة دقيقة ـ إلى الشمال الشرقي وإلى الشمال ـ الفرع

الأساسي هو الفرع السابع وإلى الشرق ـ يسقط من العين اليسرى لرأس الميت ـ خط مستقيم من الشجرة لمسافة خمسين قدماً» .

قلت له : وما الذي تفهمه من كلمات «مقر الشيطان» و«رأس الميت» و«فندق المطران»؟ . . لقد بلبلت هذه الرسالة أفكاري أكثر من ذي قبل ، وأنا لا أزال في ظلمة حالكة !

قال : لقد بلبلت هذه الرسالة أفكاري أنا أيضاً من قبل خلال أيام قليلة ، إلى أن أجريت تحقيقاً في الأماكن المجاورة لجزيرة سوليفان عمّا إذا كانت هناك عمارة تسمى «فندق المطران» فلم أصل إلى نتيجة مرضية ، وأخيراً قلت لنفسي ربما ترجع كلمة BISHOP (المطران) إلى BESSOP ، وهو اسم شخص كان يملك في قديم الزمان بيتاً صغيراً على بعد أربعة أميال من شمالي الجزيرة ، فتوجهت إلى ذلك المكان والتقيت عجوزاً زنجية ، وعلمت منها أنها تعرف مكاناً اسمه «بيسوبس كاستل» وقادتني إليه ، فلم أجد هناك لا قصراً ولا حانة ، وإنما شاهدت مجموعة من الصخور ، وقد برزت من بينها صخرة عالية ، فارتقيتها ، ولـمّا كنت منهمكاً في تأملاتي ، وقع نظري على حافة ضيقة تقع إلى الناحية الشرقية من الصخرة ، تشبه المقعد ، فاستنتجت على الفور أنها هي «مقعد الشيطان» .

أما «النظارة الجيدة» فهي ترمز إلى المنظار ، لأن البحّارة يستعملونها في الغالب بهذا المعنى ، فاستنتجت من ذلك أن من الضروري استعمال منظار والتطلع فيه من اتجاه معيّن للوصول إلى نقطة معينة . . ولم أتردّد في الاقتناع بأن الدرجة الواحدة والأربعين ، والثلاثين دقيقة ، والشمال الشرقي ، إنما تعني الدرجات التي يجب أن يتجه إليها المنظار .

فأسرعت إلى الكوخ وأحضرت منظاراً ، وعدت إلى الصخرة التي انتصبت عليها ، ثم انحدرت حيث مقعد الشيطان وجلست عليه في اتجاهه الطبيعي ، وتطلعت من المنظار «وفقاً» للمقاييس المذكورة ، فوقع نظري على شجرة بعيدة سامقة ، كما وقع على شيء أبيض اللون ، يقبع في أعلى الشجرة ، فوسّعت عين المنظار قليلاً لأتبيّنه جيداً ، فإذا هو جمجمة إنسان .

وهنا أدركت أنني قد حللت اللغز نهائياً ، وأن عبارة الغصن «الرئيسي»

و«الفرع السابع» إنّما تدل على المكان الذي تقوم عليه الجمجمة . . وأن عبارة «أسقط من عين رأس الميت اليسرى» هي تفسير للمكان الذي دفن فيه الكنز . . واتضح لي أيضاً أنني إذا ما أسقطت قطعة من الرصاص من عين الجمجمة اليسرى ، فإنها ستقع على الأرض إلى جانب جذع الشجرة ، وعليَّ بعدئذ أن أمد شريطاً لمسافة خمسين قدماً ، وعلى خط مستقيم ، فيحتمل إذاً أن أبلغ بذلك المكان الذي أودع فيه كيد الكنز .

قلت : وماذا حدث لك بعد أن تركت «فندق المطران»؟

قال : عدت إلى الكوخ . . وقد لاحظ جوپيتر اضطراب حالي فشدّد عليّ المراقبة ، غير أنني غررت به يوماً وذهبت إلى حيث تقوم الشجرة العالية التي رأيتها بالمنظار ، ولما عدت من هذه الرحلة كان الزنجي قد عقد النية على جلدي تأديباً لي وعقاباً . . . هذه هي القصة ، وما تبقى منها فإنك تعرفه كما أعرفه أنا .

قلت : ولكن ما الذي دفع بك إلى استعمال البقة الذهبية في هذه العملية بدلاً من قطعة الرصاص؟ . . لقد ظننت أنك جننت !

قال : أصارحك القول بأنني سئمت ارتيابك في سلامة عقلي ، وقررت أن أعاقبك على ذلك بطريقتي الخاصة ، أي بإسبال ضرب من الغموض على القضية كلها . . ولهذا السبب كنت أهز البقة ، ولهذا السبب أيضاً تركتها تسقط من على الشجرة !

قلت : لقد فهمت الآن كل شيء ، ولكن ما رأيك في الهيكلين العظمين البشريين اللذين عثرنا عليهما في الحفرة؟

قال : لا شك عندي الآن في أن الربّان كيد هو الذي أخفى الكنز في الأرض ، وهو الذي قضى على هذين الرجلين ، وهما يعملان في الحفرة ، ليدفن معهما سر الكنز إلى أبد الآبدين . .

القطط الأسود

أنا لا أتوقع منكم ، بل إنني لا أطلب أن تصدّقوا الوقائع التي أدوّنها في هذه الصفحات لقصة هي أغرب القصص وإن كانت في الوقت نفسه مألوفة جداً . سوف أكون أبله لو توقعت أن تصدقوا ما أكتبه ، لأن حواسيّ ذاتها ترفض أن تصدّق ما شهدته ولمسته ؛ غير أنني لست أبله ـ ومن المؤكد أنني لم أحلم . وإذ كنت ملاقياً حتفي غداً فلا بدَّ لي من أن أرفع هذا العبء عن روحي .

إنَّ الذي أبغيه هنا هو أن أكشف أمام العالم ، بوضوح ودقة ، دون أي تعليق ، سلسلة من الوقائع العادية جداً . إنها الوقائع التي اجتاحتني أهوالها ثم واصلت تعذيبي ودمرتني . ومع ذلك لن أحاول تعليلها . وإذا كنت لا أجد فيها غير الرعب فإنها لن تبدو للآخرين مخيفة بقدر ما ستبدو نوعاً من الخيال الغرائبي المعقّد . قد يظهر في مقبل الأيام ذكيّ متوقّد الذهن يبيّن له تفكيره أنَّ هذا الكابوس مجرد أحداث عادية ، وربما جاء أَلْـمَعِيٌّ آخر ، أكثر حصافة وأرسخ منطقاً ، وتفكيره أقل استعداداً للإثارة من تفكيري ، ليرى في الأحداث التي أعرضها برعب مجرد تعاقب مألوف لعوامل طبيعية ونتائجها المنطقية .

منذ طفولتي عُرفت في أسرتي بوداعتي وطبعي الإنساني الرقيق ، حتى أنَّ رقة قلبي كانت على درجة من الإفراط جعلتني موضوع تندّر بين زملائي . وقد اتّصفت بولع خاص بالحيوانات ما جعل أبويّ يعبّران عن تدليلهما لي بإهدائي أنواعاً من الحيوانات الأليفة . مع حيواناتي هذه كنت أمضي معظم أوقاتي ، ولم أعرف صحبتها سعادة تفوق سعادتي حين كنت أطعمها وأداعبها . نمت هذه الطباع الغريبة مع نموّي ، وكانت لي في مرحلة الرجولة أكبر مصادر المتعة . فالذين عرفوا مشاعر الولع بكلب ذكي وفيّ سوف يفهمون بسهولة ما أود قوله عن مدى البهجة المستمدَّة من العناية بحيوان أليف . إنَّ في تعلّق الحيوان بصاحبه ، تعلّقاً ينكر الذات ويضحي بها ، ما ينفذ إلى قلب الإنسان الذي هيأت له الظروف أن يعاني من خسة

الصداقة وقلّة الوفاء عند أقرانه من الجنس البشري .

تزوجت في سنّ مبكرة ، وقد أسعدني أن أجد في طباع زوجتي ما لا يناقض طباعي ، فهي حين لاحظت ولعي بالحيوانات المنزلية لم تترك مناسبة تمر دون أن تقتني منها الأجناس الأكثر إمتاعاً وإيناساً . هكذا تجمَّع لدينا طيور وأسماك ذهبية وكلب أصيل وأرانب وقرد صغير . . وقط .

كان هذا القط كبير الحجم بشكل ظاهر ، جميل الشكل ، أسود اللون تماماً ، وعلى قدر عجيب من الذكاء . كانت زوجتي ، التي لا أثر للمعتقدات الخرافية في رأسها ، حين تتحدث عن ذكائه تشير إلى الحكايات الشعبية القديمة التي تعتبر القطط السود سَحَرةً متنكّرين . على أنَّ هذه الإشارات لا تعني أنها كانت ، في يوم من الأيام ، جادَّة حول هذه المسألة . وأنا أذكر هذا الآن لسبب وحيد هو أنه لم يرد إلى ذهني قبل هذه اللحظة .

كان پلوتو ـ وهذا هو اسم القط حيواني المدلّل وأنيسي المفضل . أطعمه بنفسي ، ويلازمني حيثما تحركت في غرف البيت ، بل كنت أجد صعوبة لمنعه من اللحاق بي في الشوارع أحياناً .

استمرت صداقتنا على هذه الحال سنين عديدة ، تبدّل في أثنائها مزاجي وساء سلوكي جراء الإدمان على المسكر ـ (إني أحمرّ خجلاً إذ أعترف بذلك) ـ ويوماً بعد يوم تزايدت حدة مزاجي وشراستي ، واستعدادي للاهتياج . وتفاقم استهتاري بمشاعر الآخرين . ولكم عانيت وتألمت بسبب التعابير الوقحة التي رحت أوجهها إلى زوجتي ، حتى أنني لجأت أخيراً إلى العنف الجسدي في التعامل معها . وبالطبع فقد استشعرت حيواناتي هذا التغيّر في مزاجي . ولم أكتف بإهمالها ، بل أسأت معاملتها أيضاً . وإذا كان قد بقي لقطي پلوتو بعض الاعتبار ما حال دون إساءتي إليه ، فإنني لم أستشعر إثماً في الإساءة إلى الأرانب ، أو القرد ، أو حتى إلى الكلب ، كلما اقتربت مني مصادفة أو بدافع عاطفي . غير أنَّ مرضي تغلب عليَّ ـ وأي مرض كمعاقرة الخمر ! ـ ومع الأيام ، حتى پلوتو ، الذي صار هرماً ، ومن ثمَّ عنيداً نكداً ، حتى پلوتو بدأ يعاني من نتائج سوء مزاجي المرضيّ .

كنت عائداً ذات ليلة إلى البيت من البلدة التي كثر ترددي إليها وقد

تعتعني السكر ؛ خيِّل إليَّ أنَّ القطّ يتجنّب حضوري ؛ فقبضت عليه بيديّ ؛ وإذ أفزعته حركاتي العنيفة عضّني بأسنانه وجرحني جرحاً طفيفاً ، فتملّكني غضب الأبالسة ، وبدا أنَّ روحي القديمة قد اندفعت على الفور قافزة من جسدي ؛ وارتعد كل عرق في هيكلي بفعل حقد شيطاني غذّاه المسكر ، فتناولت من جيب سترتي سكيناً ، فتحتها ، وقبضت على عنق الحيوان المسكين واقتلعت عن عمد إحدى عينيه من محجرها ! إنني أحتقن ، أشتعل ، أرتعد حين أكتب تفاصيل هذه الفِعلة الجهنمية .

في الصباح ، حين استعدت رشدي ـ بعد أن نوَّمت هياج الرجس الذي شهده الليل ـ عانيت شعوراً محضاً هو مزيج من الرعب والندم بسبب الجريمة التي ارتكبتها ، غير أنَّ ذلك كان في أحسن الحالات شعوراً ضعيفاً وملتبساً لم يبلغ منّي الأعماق . ومن جديد استحوذ عليَّ الإفراط في الشراب ، وسرعان ما أذهبت الخمرة كل ذكرى لتلك المأثمة .

بعد أيام أخذ القط يتماثل إلى الشفاء تدريجاً . صحيح أنَّ تجويف العين الفارغ كان يشكّل منظراً مخيفاً ، لكن لم يبد عليه أنه كان يتألم . وعاد يخطو في البيت كسابق عهده ، غير أنَّه ، كما هو متوقَّع ، كان يندفع ، وقد استبدَّ به الذعر ، كلما اقتربت منه . كانت لا تزال لديَّ بقية من طيبة القلب بحيث ينتابني الحزن إزاء هذه الكراهية الشديدة يبديها لي كائن أحبَّني ذات يوم . لكن سرعان ما حلَّ الانزعاج محلّ الحزن . وأخيراً لبستني روح الانحراف لتدفعني إلى السقوط الذي لا نهوض منه . هذه الروح لا توليها الفلسفة أي اعتبار . مع ذلك لست واثقاً من وجود روحي في الحياة أكثر من ثقتي أن الانحراف واحد من النوازع الفطرية في القلب البشري ـ واحد من الملكات أو المشاعر الأصيلة التي توجه سلوك الإنسان . من منّا لم يضبط نفسه عشرات المرَّات وهو يقترف معصية أو حماقة لا لسبب غير كون هذا العمل محرَّماً؟ أليس لدينا ميل دائم ، حتى في أحسن حالات وعينا ، إلى الخروج على ما يعرف بالقانون لمجرد علمنا بأنه قانون؟ روح الانحراف هذه هي التي تحرَّكت تدفعني إلى السقوط النهائي . إنها رغبة النفس الدفينة لمعارضة ذاتها ـ لتهشيم طبيعتها عينها ـ لاقتراف الإثم لوجه الإثم ـ هذه

الرغبة التي لا يسبر غورها هي التي حثّتني على مواصلة الأذى ضد الحيوان الأعزل ، وأخيراً الإجهاز عليه . ففي صباح يوم ، وعن سابق تصميم وتصوّر لففت حول عنقه أنشوطة وعلقته بغصن شجرة ـ شنقته والدموع تتدفق من عيني ، وفي قلبي تضطرم أمرّ مشاعر الندم ؛ ـ شنقته لعلمي أنني بذلك أقترف خطيئة ـ خطيئة مميتة سوف تعرض روحي للهلاك الأبدي ، وتنزلها ـ إن كان أمر كهذا معقولاً ـ حيث لا تبلغها رحمة أرحم الراحمين والمنتقم الجبَّار ربّ العالمين .

في مساء اليوم الذي وقع فيه هذا الفعل الشنيع استيقظت من النوم على صوت اندلاع النيران . كان اللهب يلتهم ستائر سريري والبيت كله يشتعل ، ولم ننج أنا وزوجتي والخادم من الموت إلاّ بصعوبة كبيرة . كان الدَّمار شاملاً . . ابتلعت النيران كل ما أملك في هذه الدنيا ، واستسلمت مذ تلك الليلة للقنوط واليأس .

لم يبلغ بي الضعف مبلغاً يجعلني أعمد إلى إقامة علاقة السبب والنتيجة بين الفظاعة التي ارتكبتها والكارثة التي حلّت بي ، لكنني أقدّم سلسلة من الوقائع ، وآمل ألاّ أترك أي حلقة مفقودة في هذا التسلسل . في اليوم الذي أعقب الحريق ذهبت أستطلع الأنقاض . كانت الجدران جميعها قد تهاوت باستثناء جدار واحد ، وهذا الجدار الذي نجا لم يكن سميكاً لأنه جدار داخلي يفصل بين الغرف ، ويقع في وسط البيت ، وإليه كان يستند سريري من جهة الرأس . وقد صمد طلاء هذا الجدار وتجصيصه أمام غزو النيران ، وهو أمر عزوته إلى كون التجصيص جرى حديثاً . أمام هذا الجدار كان يتحلّق حشد من الناس ، وبدا أن عدداً كبيراً منهم كان يتفحَّص جانباً محدّداً منه باهتمام شديد . فحرّكت فضولي تعابير تصدر عن هذا الحشد من نوع «عجيب!» «غريب!» ؛ فدنوت ، لأشاهد رسماً على الجدار الأبيض كأنه حفر نافر يمثل قطاً عملاقاً . كان الحفر مدهشاً بدقّته ووضوحه ، وبدا حبل يلتف حول عنق هذا القط .

الحق أقول ، عندما وقع نظري لأول وهلة على هذا القط الشبح ـ إذ لم أكن أستطيع أن أعتبره أقلَّ من هذا ـ استبد بي أعجب العجب وأفظع

الذعر . غير أنَّ التفكير المعلل جاء ينقذني من هذا الوهم . لقد كان القط ، على ما أذكر ، معلّقاً بغصن شجرة في حديقة متاخمة للبيت ؛ فلمّا ارتفعت صيحات التحذير من النيران ، غصّت الحديقة بالناس فوراً ، ولا بدَّ أن شخصاً قد انتزعه من الغصن وقذف به عبر النافذة إلى غرفتي ، وربما كان القصد من ذلك تنبيهي من النوم . ولا بدّ أنَّ سقوط الجدران الأخرى قد ضغط ضحية وحشيتي على مادة الجصّ الحديث الطلاء ؛ فاختلط كلس هذا الطلاء بالنشادر المتصاعد من الجثة وتفاعل به بتأثير النيران فأحدث الرسم النافر الذي شاهدته .

ورغم أنني طلعت بهذا التفسير لأريح عقلي - إن لم أكن قد فعلت ذلك لأريح ضميري - فإن المشهد الغريب الذي وصفته لم يتوقف عن التأثير في مخيلتي . وعلى مدى أشهر لم أستطع أن أتخلّص من هاجس صورة القط ؛ وخلال هذه الفترة عاودني شعور بدا لي أنه الندم ، ولم يكن في الحقيقة كذلك . لم يكن أكثر من أسف على فقدان حيوان ، وتفكير بالحصول على بديل من النوع نفسه والشكل نفسه ليحل محله .

في إحدى الليالي ، وفيما كنت جالساً ، شبه واعٍ ، في وكر من أوكار الفسق - إذ إنني أدمنت الآن ارتياد هذه الأماكن الموبوءة - جذب انتباهي فجأة شيء أسود فوق برميل ضخم من براميل الجن أو شراب الروم ، البراميل التي تشكل قطع الأثاث الرئيسية في ذلك الوكر . كنت طوال دقائق أحدّق بثبات في رأس البرميل ، والذي أثار دهشتي هو أنني لم أتبيَّن للحال طبيعة الشيء الواقف فوقه . دنوت منه ولمسته بيدي . كان قطاً أسود - قطاً كبيراً جداً - في حجم بلوتو ويشبهه تماماً باستثناء شيء واحد ، إذ لم تكن في أي موضع من جسم بلوتو شعرة بيضاء واحدة ؛ وكانت لهذا القط بقعة بيضاء غير واضحة الحدود تتوزع على منطقة الصدر بكاملها .

حالما لمسته نهض وراح يموء بصوت مرتفع ويتمسَّح بيدي ، وبدا مسروراً لاهتمامي به . بدا أنَّ هذا هو بالضبط ما كنت أبحث عنه . للحال عرضت على صاحب الوكر شراءه ، لكنَّ هذا أجاب بأنه لا يملكه وأنه لا يعرف شيئاً عنه ولم يره من قبل هنا .

واصلت مداعبتي له ، ولـمَّا تهيأت للانصراف ، اتَّخذ وضعية تبيّن أنه يودّ مرافقتي ، فتركته يلحق بي ، وكنت بين الحين والآخر أتوقف وأربت على ظهره أو أمسح رأسه . ولـمَّا وصل إلى البيت بدا أليفاً ولم يظهر عليه أي استغراب . وعلى الفور صار أثيراً لدى زوجتي .

أمَّا أنا فسرعان ما شعرت المقت يتفجّر في أعماقي . وكان هذا عكس ما توقعته . ولم أستطع أن أفهم كيف تعلّق القط بي ولا سبب هذا التعلق الواضح الذي أثار اشمئزازي وأزعجني . وأخذ الانزعاج والاشمئزاز يتزايدان تدريجاً ، ويتحوّلان إلى كراهية مريرة ، فأخذت أتجنّب هذا الكائن . كان شعور ما بالعار ، وذكرى فعلتي الفظيعة السابقة ، يمسكان بي عن إلحاق الأذى الجسدي به . وامتنعت ، طوال أسابيع ، عن ضربه أو معاملته بعنف ؛ لكن شيئاً فشيئاً ـ وبوتيرة متسارعة ـ أخذت أنظر إليه بكره لا يوصف وأبتعد عن حضوره البغيض بصمت كما أبتعد عن لهاث مصاب بالطاعون .

وكان الذي أكَّد كرهي لهذا الحيوان هو اكتشافي ، صبيحة اليوم التالي لوصوله ، أنه مثل پلوتو قد فقد إحدى عينيه . غير أنَّ هذا زاد من عطف زوجتي عليه ، لأنها ، كما ذكرت ، تملك قدراً عظيماً من المشاعر الإنسانية التي كانت ذات يوم طباعي المميّزة ، ومنبعاً لأكثر المسرات براءة وصفاء .

كان تعلّق القط بي يزداد بازدياد بغضي له ، فكان يتبع خطواتي بعزم يصعب إيضاحه للقارئ . فحيثما جلست ، كان يجثم تحت مقعدي ، أو يقفز إلى ركبتي ويغمرني بمداعباته المقززة . فإذا نهضت لأمشي اندفع بين قدميّ وأوشك أن يوقعني ، أو غرز مخالبه الطويلة الحادة في ثيابي ليتسلّق إلى صدري . ومع أنني كنت أتلهّف في لحظات كهذه لقتله بضربة واحدة ، فقد كنت أمتنع عن إيذائه بسبب من ذكرى جريمتي السابقة إلى حدّ ما ، لكن بصورة أخص ـ ولأعترف بذلك ـ حالاً ـ بسبب الخوف من هذا الحيوان .

هذا الخوف لم يكن خوفاً من شرّ مادي مجسَّد ـ مع ذلك أحار كيف أحدده بغير هذا المعنى ! ويخجلني أن أعترف ـ أجل ، حتى في زنزانة

المجرمين هذه، يكاد يخجلني الاعتراف ـ بأن الرعب والهلع اللذين أوقعهما هذا الحيوان في نفسي ازدادا حدة بسبب من وهم لا يقبله العقل. كانت زوجتي قد لفتت انتباهي، أكثر من مرة، إلى طبيعة البقعة البيضاء على صدر القط، والتي أشرت إليها سابقاً، تلك البقعة التي تشكل الفارق الوحيد بين هذا الحيوان الغريب والحيوان الذي قتلته. ويذكر القارئ وصفي لهذه البقعة بأنها، على الرغم من اتساعها، لم تكن لها حدود واضحة؛ غير أنها، شيئاً فشيئاً وبتدرج يكاد لا يلحظ، تدرج صارع عقلي لكي يدحضه ويعتبره وهماً ـ اكتسبت شكلاً محدداً بوضوح تام. صار لها الآن شكل أرتعد لذكر اسمه ـ هذا الشكل هو ما جعلني أشمئز وأهلع، وأتمنى التخلص من الحيوان لو تجرأت ـ كان الآن صورة لشيء بغيض ـ شيء مروع هو المشنقة! أوّاه ـ أي أداة مقيتة جهنمية للفظاعة والجريمة ـ للنزع والموت!

والآن لقد انحدرت إلى درك ينحط بي عن صفة الإنسانية! كيف ينزل بي حيوان بهيم ـ قتلت شبيهه عن سابق تصوّر وتصميم ـ حيوان بهيم ينزل بي ـ أنا، الإنسان المخلوق على صورة الله العظيم ـ كل هذا الويل الذي لا يُحتمل! واأسفاه! ما عدت أعرف طعم الراحة لا في النهار ولا في الليل! ففي النهار لم يكن ذلك القط ليفارقني لحظة واحدة، وفي الليل كنت أهبّ من النوم مراراً يتملكني ذعر شديد لأحس لهاث ذلك الشيء فوق وجهي، وثقل جسمه الضخم ـ مثل كابوس متجسّد لا أقوى على زحزحته ـ يجثم أبدياً فوق قلبي!

وهكذا تقطّعت خيوط الخير الواهية فيّ تحت وطأة هذا العذاب، وصارت أفكار الشرّ ـ صديقة روحي ـ أشدّ الأفكار حلكة وشيطانية. ازدادت مزاجيتي السوداوية حتى تحوّلت إلى كراهية للأشياء كلها والجنس البشري بأسره. وأخذت نوبات غضبي المفاجئة المتكرّرة، التي لم أعد قادراً على التحكّم بها واستسلمت لها كالأعمى، أخذت تطال واأسفاه زوجتي، أعظم الصابرين على العذاب.

ذات يوم رافقتني لإنجاز بعض الأعمال المنزلية في قبو المبنى القديم حيث

أرغمتنا الفاقة على السكنى . تبعني القط على الدرج وكاد يوقعني ، فاستشاط غضبي الجنوني ؛ رفعت فأساً ، متناسياً ما كان من خوفي الصبياني الذي منعني حتى الآن ، وصوّبت ضربة إلى الحيوان كانت ستقضي عليه لو أنها هوت حيث تمنيت ، غير أن يد زوجتي منعت هذه الضربة . كان هذا التدخل بمثابة منخاس دفع بغضبي إلى الهياج الشيطاني ؛ انتزعت يدي من قبضة زوجتي ودفنت الفأس في رأسها ، فسقطت ميتة دون أن تصدر عنها نأمة .

عندما أدركت أنني ارتكبت هذه الجريمة الشنيعة ، جلست على الفور أفكر في التخلص من الجثة . عرفت أنني لا أستطيع إخراجها من البيت ، لا في الليل ولا في النهار ، دون أن أخاطر بتنبيه الجيران . مرت برأسي خطط عديدة . فكرت بأن أقطع الجثة إرباً إرباً ثم أتخلّص منها بإحراقها . وفكرت في حفر قبر لها في أرض القبو . كما فكرت في إلقائها في بئر الحوش ، وأن أحشرها في صندوق بضاعة وأستدعي حمّالاً لأخذها من البيت . وأخيراً اهتديت إلى أفضل خطة للتخلص منها . قررت أن أبنيها في جدار القبو ، كما كان الرهبان يبنون ضحاياهم في الجدران في القرون الوسطى .

كان القبو مناسباً لمثل هذه الخطة ، فقد كان بناء جدرانه مخلخلاً ، وقد تمّ توريق الجدران حديثاً بطين خشن حالت الرطوبة دون تصلّبه . وفوق ذلك كان في أحد الجدران تجويف على شكل المدخنة تمّ ردمه بحيث تستوي أجزاء الجدار . وتأكّد لي أن باستطاعتي انتزاع قطع الآجرّ من هذا التجويف وإدخال الجثة ، وإعادة بناء التجويف ليعود الجدار كما كان بحيث لا ترتاب العين في أي تغيير طرأ عليه .

ولم تخطئ حساباتي . استعنت بمخل لانتزاع قطع الآجرّ ، ونصبت الجثة بتأنٍ لصق الجدار الداخلي ودعمتها لتحتفظ بوضع الوقوف ، فيما كنت أدقق لأعيد كل شيء إلى ما كان عليه . كنت قد أحضرت الطين والرمل والماء ، فهيأت الخليط بمنتهى الدقة والعناية بحيث لا يميَّز من الطين السابق ، وأعدت كل قطعة آجر إلى مكانها . وعندما أنهيت العمل أحسست بالرضا عن النتيجة . لم يكن يبدو على الجدار أدنى أثر يدل على أنه قد لمس .

نظفت الأرض بمنتهى العناية ونظرت حولي منتشياً وقلت في نفسي : «لم يذهب جهدي سدى» .

كانت الخطوة التالية هي البحث عن القط الذي سبب لي هذه المأساة الرهيبة ، ذلك أنني كنت قد قررت الإجهاز عليه . لو كنت عثرت عليه في تلك اللحظة لما كان هنالك من شك في أمر مصيره ؛ لكن يبدو أن الحيوان الذكي أدرك عنف غضبي فاختفى متجنباً رؤيتي وأنا في ذلك المزاج السيّئ .

يستحيل عليّ أن أصف أو أن أتخيّل عمق الراحة والسكينة التي أتاحها لروحي غياب ذلك الحيوان . لم يظهر ثانية تلك الليلة . وهكذا ، ولأول مرة منذ وصوله إلى البيت نمت بعمق وهدوء . أجل ، نمت ملء عينيّ على الرغم من وزر الجريمة الرابض فوق روحي .

ومضى اليوم الثاني ، ثم الثالث ، ولم يظهر معذّبي . ومن جديد تنفست بحرية أكثر . لقد أُصيب الوحش الأسود بالذعر فنجا بنفسه نهائياً ! ولن يكون عليَّ أن أتحمَّله بعد الآن ! كانت سعادتي بذلك عظيمة ! ولم يؤرق مضجعي وزر الجريمة السوداء إلاّ لماماً . جرت في الواقع بعض التحقيقات ، وقدّمت للمستجوبين أجوبة جاهزة ، وكانت هناك تحرّيات ، غير أنهم لم يكتشفوا شيئاً . وأدركت بعد ذلك مستقبل سعادتي في أمان واطمئنان .

وفي اليوم الرابع بعد وقوع الجريمة دخلت فرقة من الشرطة إلى البيت بشكل لم أتوقعه ، وبدأت تحريات واستجوابات دقيقة ، ولكن بما أنني كنت مطمئناً إلى مكان الجثة لم أشعر بأي حرج . سألني ضباط الشرطة أن أرافقهم إلى القبو ، فلم ترتعد فيٍّ عضلة واحدة . كان قلبي ينبض بهدوء كقلب إنسان بريء نائم . رحت أذرع القبو جيئة وذهاباً عاقداً ذراعيٍّ فوق صدري . اقتنع رجال الشرطة بنتائج بحثهم واستعدّوا للذهاب . كانت النشوة في قلبي أقوى من أن أكتمها . كنت أتحرَّق إلى قول كلمة واحدة ، لفرط ما أطربني الانتصار ، ولكي أزيد يقينهم ببراءتي .

«أيها السادة» ، قلت أخيراً ، حين كانوا يصعدون الدرج ، «يسرُّني أن أكون قد بدَّدت شكوككم . أتمنى لكم تمام الصحة ومزيداً من النجاح . بالمناسبة ، أيها السادة ، هذا ـ هذا بيت مكين البناء» (في رغبتي العارمة

لقول أي شيء سهل، لم أجد ما أتلفظ به) ـ «إنه بيت مبني بشكل ممتاز. هذه الجدران ـ هل أنتم ذاهبون أيها السادة؟ ـ هذه الجدران متماسكة تماماً»؛ وهنا، وبنوع من الزهو المتشنّج، طرقتُ طرقاً قوياً على الجدار بعصا كانت بيدي، تماماً في الموضع الذي أخفيت فيه جثة زوجتي.

لكن! ليحمني الله من مخالب إبليس الأبالسة! لم تكد اهتزازات طرقي تغرق في الصمت حتى جاوبني صوت من داخل الجدار! صرخة مكتومة متقطعة بدأت كبكاء طفل، لكن سرعان ما أخذت تتعاظم وتتضخم لتغدو صرخة هائلة مديدة شاذة غريبة وغير بشرية أبداً ـ غدت عواء ـ عويلاً مجلجلاً يطلقه مزيج من الرعب والظفر، وكأنما تتصاعد من قيعان الجحيم تتعاون فيها حناجر الملعونين في سعير عذاب الجحيم والشياطين الذين يهلّلون للّعنات.

من الحمق أن أحدّثكم عن الأفكار التي تزاحمت في رأسي. إذ بعد ذلك ترنّحت منهاراً وتهاويت مستنداً إلى الجدار المقابل. للحظة واحدة ظلّ فريق الشرطة مسمّراً على الدرج بفعل الرعب والدهشة. وفي اللحظة التالية كانت بضع عشرة ذراعاً شديدة تهدم الجدار. وانهار الجدار قطعة واحدة. كانت الجثة قد تحلّلت إلى درجة كبيرة وغطّاها الدم المتجمّد، وهي تنتصب واقفة أمام أعين المشاهدين وعلى رأسها يقف القط الأسود الكريه بفمه الأحمر المفتوح وعينه النارية، القط الذي دفعتني أفعاله إلى اقتراف الجريمة، ثم أسلمني صوته المُعول إلى حبل المشنقة.

كنت قد بنيت الجدار والقط داخل الفجوة.

سفينكس

في أثناء انتشار وباء الكوليرا الوبيل في نيويورك ، قبلت دعوة أحد أقربائي لقضاء أسبوعين في ضيافته في كوخ عزلته ، المسمى بـ«كوخ أورنه» ، والواقع على ضفة نهر الهدسن . كانت تحيط بنا في ذلك المكان المنعزل كل وسائل الترفيه الصيفية ، إذ كُنّا نطوف في الغابات ، ونرسم ، ونجذّف في القارب ، ونصطاد الأسماك ، ونستحم في مياه النهر ، ونستمع إلى الموسيقى ، ونطالع الكتب . وكنا على الجملة نقضي الوقت في التسلية والمسرّات ، ولكنها مصحوبة بالأنباء المروّعة التي كانت تصلنا كل صباح من المدينة الآهلة بالسكان . . فلم يكن يمر يوم إلاّ ويحمل لنا في طياته أنباء عن وفاة عدد من معارفنا . ولـمّا تعاظمت المأساة بتنا نتوقع فقدان عدد من أصدقائنا يومياً . . وأخيراً صرنا نرتعد فرقاً لدى اقتراب كل قادم إلى كوخنا ، وكان يتراءى لنا جو الجنوب مشبعاً برائحة الموت . وقد استولى عليَّ إذذاك شلل فكريّ تماماً ، فلم أعد أستطيع الكلام أو التفكير ، أو الاسترسال في الأحلام . . أما مضيفي فكان أقل انفعالاً مني ، غير أنه كان في حالة نفسية مكبوتة ، يجهد نفسه لمساندة حالتي النفسي ، فعقليته الفلسفية الخصبة لم تتأثر بالأوهام في أي وقت من الأوقات ، وكان يدرك كنه الرعب بالقدر الكافي ، لكنه لم يكن يفقه المعنى من ظلال الرعب أبداً .

والواقع أنَّ جميع المساعي التي بذلها لانتشالي من وهدة الوحشة غير الطبيعية ، التي سقطت فيها ، باءت إلى درجة كبيرة بالفشل ، بسبب بعض الكتب التي عثرت عليها في مكتبته ، وكان من صفات هذه الكتب أنها عملت على تفتيح بذور الأوهام الكامنة في قرارة نفسي ، وقد طالعتها دون علمه ، ولم يكن ليدري ما تركته في مخيّلتي من انطباعات وتصوّرات .

كان من المواضيع المحبَّبة إلى نفسي الاعتقاد بالعلاقات التي تنذر بالمستقبل المشؤوم ، وهو اعتقاد دافعت عنه بقوة في تلك المرحلة من حياتي ، وكانت لي مع قريبي مجادلات طويلة نشيطة حول هذا الموضوع ، فمضيفي يتمسك

برأي لا يقوم على أساس بهذا الصدد ، وقد حاججته بأن هذا الرأي بحد ذاته ينطوي على حقيقة لا تقبل الخطأ ، وهو مدعاة للتقدير والاحترام .

وواقع الأمر أنه حدث لي بعد وصولي إلى ذلك الكوخ الريفي حادث عجزت عن تفسير أسبابه تماماً ، وهو يحمل الكثير من معالم الشؤم ، بحيث أعتبره مسوّغاً لنظرتي في النبوءات المشؤومة . . لقد أخافني هذا الحادث ، وأفحمني ، وشوَّش أفكاري ، بحيث مضت أيام عديدة وأنا في هذا الحال قبل أن أتمكن من سرد ما حدث لي على مضيفي .

في عصر أحد الأيام الدافئة ، جلست أطالع كتاباً عند نافذة مشرعة الدرفتين ، تطلّ ، من خلال منظر مديد لضفتي نهر الهدسن ، على الجزء المعرّى من أشجار التلال البعيدة ، وكانت أفكاري تعمى طويلاً بين صفحات الكتاب الذي أطالعه وبين المدينة المجاورة الكئيبة المنكوبة ، وإذ رفعت ناظريَّ عن الكتاب شاهدت على تلك الناحية المعرّاة مخلوقاً فظيع الشكل ، ينحدر بسرعة عظيمة من القمة إلى أسفل ، ثم يختفي في الغابة الكثيفة الأشجار .

فلمّا بدا هذا المخلوق لناظري لأول وهلة ارتبت في صحة عقلي ، أو على الأقل في صحة ما رأته عيناي ، وانقضت دقائق عديدة قبل أن أقنع نفسي بأنني أبله أو حالم ، وأخشى أيها القراء أنني عندما أصف لكم هذا الوحش ، وقد رأيته جيداً وأنعمت النظر فيه بدقة ، أن ترتابوا في حقيقته كما ارتبت أنا .

إنني أقدّر حجم هذا الوحش ، بالنسبة إلى قطر الأشجار العريضة التي مرّ بها ، وهي أشجار باسقة قليلة العدد تنتصب عند المنحدر ، بما يوازي حجم سفينة أو أكبر ، أقول حجم سفينة لأن شكل الوحش يوحي بذلك .

أمّا فمه فيقع في نهاية خرطوم يبلغ طوله بين الستين والسبعين قدماً ، ويبلغ حجم هذا الخرطوم حجم الفيل البالغ ، وهو على شكل دعامة مستندة إلى الأرض ! . . وكانت تحيط بهذا الخرطوم كميات هائلة من الشعر الأسود المشعث ، تُقدَّر بما يمكن أن يُجزّ من شعر عشرين جاموساً برياً ، ويتدلى من خلال هذا الشعر الكث نابان برّاقان ، أشبه بنابي الخنزير البري ، لكن بحجم أعظم وأضخم . . وكان يمتد إلى جانبي الخرطوم صاريان

هائلان يبلغ طول الواحد منهما ثلاثين أو أربعين قدماً ، ويبدو أنهما مكوَّنان من البلّور النقي ، وعلى شكل موشور مستوٍ في الهندسة ، إذ كانا يعكسان أشعة الشمس المائلة إلى المغيب بأبهى صورة .

وكان للوحش أربعة أجنحة هائلة ، يبلغ طول كل منها مائة ياردة على وجه التقريب ، وكلها مغطّاة بقشور معدنية ، وقطر كل قشرة من هذه القشور يبلغ عشرة أقدام أو اثني عشر قدماً . وقد لاحظت أن الصفوف العليا والسفلى من كل جناح متصلة ببعضها بسلاسل قوية . غير أن أهم ما يمتاز به هذا المخلوق المروّع هو جمجمته التي تغطي صدره بأكمله تقريباً . . ولصدره هذا لون أبيض برّاق ، يتصل بجسم أسود ، كأن ريشة رسّام قد رسمته بمهارة تامة .

وبينا كنت أنعم النظر في هذا الحيوان الرهيب في شكله عموماً ، وفي مظهر صدره خصوصاً ، وكلي شعور بالخوف والجزع ، مع إحساس عميق بشؤم مقبل لا قدرة لي على رده بالعقل والمنطق ، أجل ، بينما كنت في هذه الحالة النفسية أبصرت فكّي الوحش ، ولهما من الضخامة ما لخرطومه ، ينفرجان على حين غرة ، ويصدر عنهما صوت مدوّ وعويل مُرنّ ، فعلا في أعصابي ما تفعله وحشة الموت ، وما إن اختفى الوحش عند سفح التل حتى شعرت بخوَر وسقطت على الأرض متهالكاً .

كان أول ما أود فعله ، بعد أن ثبت إلى رشدي ، هو إطلاع مضيفي على ما رأيت وما سمعت ، غير أن شعوراً من الاستكبار ، يتعذر عليّ تعليله ، حال دون ذلك . وبعد انقضاء ثلاثة أيام أو أربعة على هذا الحادث ، وبينما كنت أتسامر في مساء يوم مع مضيفي في الغرفة ذاتها التي ظهر لي فيها الوحش ، وقد أخذت مقعدي بالقرب من النافذة نفسها ، وهو مستلق على الأريكة قريباً مني ، رأيت نفسي مدفوعاً بتأثير الاجتماع والمكان إلى أن أفضي إليه بما حدث . وأصغى إليّ حتى النهاية ، فما كان منه في بادئ الأمر إلاّ أن استغرق في الضحك ، ثم توقف عن الضحك وتحوّل إلى الجد التام ، كأنه اقتنع بأن جنوني لا يحتمل الشك قطعاً . . وفي هذه الأثناء رأيت الوحش من النافذة للمرة الثانية ، فصرخت جزِعاً ونبهت مضيفي

إليه ، فتطلع من النافذة باهتمام زائد ، وأفادني أنه لا يرى شيئاً ، في حين أنني كنت أرى الوحش وهو ينحدر من الناحية العارية من التل .

أمضّني هذا الأمر ، وبتّ أعتبر ما رأيته بمنزلة نذير بقرب موتي ، أو ما هو أسوأ ، بمنزلة مقدمة لنوبة جنونية . . فألقيت ظهري على المقعد ، وأخفيت وجهي براحتيّ إلى حين ، ولما رفعت رأسي وتطلعت من النافذة تلاشى المنظر تماماً .

وبعد أن استعاد مضيفي هدوءه ، راح يستجوبني عن المخلوق الذي رأيته ، فلمّا قدّمت له ما يرضيه من أجوبة ، تنهد بعمق ، كأنه قد ألقى عن كاهله حملاً ثقيلاً ، وأخذ يتكلم بهدوء تام عن الفلسفة التأملية ، والتي غدت محور نقاشنا ، وإنني لأذكر إصراره على القول (فيما عرضه من آراء) إن مصدر الخطإ الأول ، في جميع التحقيقات الإنسانية ، يكمن في قابلية المرء لأن ينقص من قيمة الأشياء ، أو أن يزيد في قيمتها ، بسبب سوء القياس التقريبي . ومّما قاله على سبيل المثال : «إن الجهود التي تبذل لنشر الديمقراطية في الإنسانية الحرة ، والعصر الذي يحتمل أن يتم فيه نشر هذه الديمقراطية ، يؤلفان موضوعاً للتقدير الصحيح . . فهل لك أنت أن تدلني على كاتب ، يعالج موضوع الدولة ، فكّر في جعل ما أشرت إليه موضوعاً جديراً بالنقاش؟ . .» .

وهنا توقف مضيفي لحظة ، وخطا نحو المكتبة ، وأخرج منها مجلداً في التاريخ الطبيعي ، وسألني أن نتبادل مجلسينا حتى يستطيع تمييز الحرف الصغير الذي طُبع فيه المجلد ، وجذب الكرسي ذا المسندين قرب النافذة ، وفتح الكتاب ، وتابع كلامه باللهجة ذاتها التي درج عليها سابقاً ، وقال : «لم يكن باستطاعتي ، خلال الدقائق التي وصفت لي فيها الوحش ، أن أعرض عليك ماهيّته ونوعه ، والآن دعني أقرأ عليك بياناً لتلميذ مدرسة في نوع حيوان يسمى «سفينكس» وهو من أسرة «كريبوسكولاريا» ، ومن فصيلة «ليپيدوپترا» ، التابع لطبقة «إنسكتا» - أو الحشرات ، وهذا البيان ينص على ما يلي :

«له أربعة أجنحة مغطاة بصوف ملوّن ، مظهره معدني ، وفمه يشكل

خرطوماً ملتفّاً يبرزه فكّان مديدان ، ويتدلى من على جانبيهما اللحي الأسفل ، المغطّى بالزغب ، وجناحاه الصغيران يتصلان بجناحيه الكبيرين بشعر كثيف ، وقرناه على شكل دبوسين طويلين موشورين ، وبطنه مخروطيّ الشكل ، وأبو الهول هذا صاحب «الجمجمة» كان يثير الهلع بين العامة بسبب ما يصدر عنه من أصوات سوداوية ، بالإضافة إلى شارة الموت التي يحملها على درعه» .

ولمّا بلغ مضيفي هذه العبارة أقفل الكتاب ، ومال بجذعه إلى الأمام ، متخذاً الوضع الذي اتخذته وأنا أروي له قصة «الوحش المروّع» .

وهتف على الفور قائلاً : أجل ، هذه هي القضية . . وإنني أقرك على أن هذا المخلوق العجيب كان ينحدر من على التل ، غير أنه ليس بتلك الضخامة ، أو على ذلك البعد ، كما صورّت لك مخيّلتك ، كل ما في الأمر أن هناك عنكبوتاً كانت تنسج خيوطها بين حافّتي النافذة ، وهي تعادل ستة عشر جزءاً من القيراط طولاً ، وتبعد عن بؤبؤي عينيٍّ مسافة تعادل ستة عشر جزءاً من القيراط أيضاً ! . .

جنّية الجزيرة

في معظم قصصه الأخلاقية يقول مارمونتيل(*) ، «إنَّ الموسيقى هي وحدها بين الفنون تستمتع بنفسها ؛ أمّا الفنون الأخرى فتحتاج إلى شهود» . وهو بقوله هذا يمزج بين لذة الإصغاء إلى ألحان عذبة والقدرة على إبداعها . لكن الموسيقى وحدها تعجز عن توليد متعة كاملة إن لم يكن هناك شخص ثان لكي يقدّر تنفيذها . ثم إنَّ القدرة على توليد تأثيرات نستلذّ بها مليّاً في الوحدة ليست وقفاً عليها ؛ إنها تأثيرات مشتركة بين المواهب الأخرى . والفكرة التي لم يستطع القاصّ أن يدركها بوضوح ، أو التي جعلها في تعبيره ضحيَّة الحب الوطني للقَّصّ المختصر ، هي دون شك الفكرة الأكثر توكيداً بأن الموسيقى الرفيعة هي التي نشعر بها في وحدتنا أكثر من غيرها . هذا الرأي سرعان ما يأخذ به هؤلاء الذين يحبون القيثارة حبّاً بالقيثارة وفوائدها الروحية . لكن هناك لذة هي دائماً في متناول الإنسانية الفانية ـ ربما كانت الوحيدة ـ ، والتي تعود ، حتى أكثر من الموسيقى ، إلى الشعور اللاحق بالوحدة . أقصد أن أتحدث عن السعادة التي نحسّ بها عندما نتأمل مشهداً من مشاهد الطبيعة . والواقع أن الإنسان الذي يريد أن يتأمل مجد الله على الأرض عياناً ، لا بدَّ له من أن يتأمل هذا المجد في الوحدة . الحضور ، بالنسبة إليّ على الأقل ، ليس حضور الحياة الإنسانية فحسب ، بل أيضاً حضور الحياة بجميع أشكالها الأخرى ، هو عارٌ بالنسبة إلى الطبيعة : إنه في حرب مع جنّي المشهد .

إنني في الحقيقة أحب تأمل الوديان المظلمة ، والصخور الدكناء ، والمياه التي تبتسم بصمت ، والغابات التي تتنهَّد في نعاس قلق ، والجبال المتكبّرة الحذرة الناظرة من علٍ ـ أحب تأمل هذه الأشياء من أجل ما هي : الأعضاء الضخمة لكلٍّ واسعٍ ، حيّ وحساس ، ـ كلٌّ ذي شكل (شكل الكرة) هو

(*) جان فرنسوا مارمونتيل (١٧٢٣ ـ ١٧٩٩) مؤرخ وأديب فرنسي ، وعضو حركة الأنسيكولوپيديا .

أكثر الأشكال كمالاً ووضوحاً ؛ حيث ترافق دربه الكواكب الأخرى ؛ وحيث القمر خادمه الوديع ؛ والشمس سيدته الوسيطة ؛ وحيث الأبدية حياته ، وفكر الكون فكره ؛ وحيث غبطته معرفة ؛ وحيث تضيع أقداره في اللاّمحدود .

يدلنا مقرابُنا(*) وأبحاثُنا أن الفضاء ، وبالتالي ، الحجم اللاّمتناهي شيء كثير الأهَمية في نظر الخالق القدير . الدوائر التي تتحرك فيها الكواكب هي الأكثر صلاحاً للتطور ، دون صراع ، ـ تطوّر أكبر عدد ممكن من الأجسام . ولقد اختيرت أشكال هذه الأجسام خصيصاً لكي تحتوي ، تحت مساحة معينة ، أكبر قدر ممكن من المادة ؛ والمساحات نفسها جاهزة بشكل يسمح باستقبال سكان أكثر عدداً مما يمكن أن تستقبلهم لو جُهِّزت بشكل مخالف . وبما أن الفضاء لانهائي ، فلا يمكن أن نستخرج أية حجة ضدّ الفكرة القائلة بأن للحجم قيمة في نظر الله ؛ إذ قد لا تملأ هذا الفضاء اللاّنهائي إلاّ مادة لانهائية . وحيث إننا نكتشف دوائر في دوائر دائماً بلا نهاية ـ تتحرك مع ذلك حول مركز واحد بعيد بلا نهاية ، والذي هو الألوهة ، ـ أفلا نستطيع أن نفترض ، بالمقارنة وبالطريقة نفسها ، الحياةَ في الحياة ، والأصغر في الأكبر ، والكلّ في الروح الإلــهي؟ الحق أننا نكون حمقى وأغبياء في تصورنا أن الإنسان ، في مصائره الزمنية أو المستقبلية ، هو أكثر أهمية في الكون من هذا التراب الفسيح في الوادي الذي يزرعه ويستقبحه ، والذي يرفض الإقرار أن له روحاً بحجة سطحية هي أنه لا يرى هذه الروح تمارس وظيفتها .

هذه الأفكار وما يماثلها لوَّنت دائماً تأملاتي بين الجبال والغابات ، قرب الأنهار والبحار ، بلون لم يفت الأشخاص العاديين أن يسمّوه وهمياً . كانت نزهاتي الشاردة وسط مشاهد من هذا النوع عديدة ، ولا مثيل لها ، ومنزوية غالباً ؛ وكان الاهتمام الذي يدفعني إلى الشرود خلال أكثر من واد عميق ومظلم ، أو تأمل سماء العديد من البحيرات الصافية ، اهتماماً تغنيه بقوة

(*) التلسكوب Telescope .

فكرة أنني كنت أشرد وحيداً وأتأمل وحيداً . من هو الفرنسي الثرثار الذي يقول ، مشيراً إلى كتاب زيمرمان(*) المشهور : «الوحدة شيء جميل ، لكن لا بدَّ من شخص يقول لكم إن الوحدة شيء جميل؟» هذا القول ، كهجاء ، في غاية الإتقان ؛ لكن هذه الضرورة في «لا بدَّ!» شيء لا وجود له .

وفي رحلة قمت بها إلى إحدى المناطق النائية ، ـ وهي عبارة عن جبال متشابكة متداخلة مع جبال أخرى ، ومنعرجات أنهر صفراء ، وبحيرات راكدة دكناء ـ شاهدت جدّولاً صغيراً يحيط بجزيرة . كنت وصلت إلى هناك فجأة في شهر حزيران/ يونيو ، شهر الأوراق ، واستلقيت على الأرض ، تحت أغصان شجرة عابقة بالأريج لا عهد لي بها ، بحيث أنني غفوت وأنا أتأمل هذه اللوحة الطبيعية ، فقد شعرت أنني لن أتمكّن من رؤيتها جيداً إلاّ بهذه الطريقة لكثرة ما تتّصف بخصائص الرؤيا .

كانت ترتفع من الجهات الأربع ـ باستثناء الغرب حيث كانت الشمس تشرف على المغيب ـ أسوار الغابة الخضراء . وكان الجدول الصغير ، الذي ينعطف بسرعة ويختفي هكذا فجأة عن النظر ، يبدو عاجزاً عن الإفلات من قيده ؛ لكنه كان يبدو من جهة الشرق مغموراً باخضرار الأشجار النّضر ؛ ـ وكان يسقط في الجهة المعاكسة (هكذا كان يبدو لي ، وأنا مستلق وعيناي إلى السماء) في الوادي ، دون وسيط ولا ضجة ، شلال رائع ، بلون الأرجوان والذهب ، تقذفه الينابيع الغربية في السماء .

وقريباً من وسط المشهد الذي كان نظري الرائي يعانقه ، كانت تجلس على حدود الجدول ، جزيرة صغيرة دائرية ، فاتنة الاخضرار . كان الشاطئ وصورته من التمازج البديع بحيث بدا المنظر كله معلّقاً في الهواء . وكان الماء الرائق الشفاف يمثل دور المرآة ، حتى إنه كان من المستحيل تقريباً أن نخمّن في أية نقطة من المنحدر الزمرّدي يبدأ حقله البلّوري .

كان وضعي يتيح لي أن أرى ، بنظرة واحدة ودفعة واحدة ، طرفي

(*) «مجموعة الأمم اليونانية The Greek Commonwealth» .

الجزيرة كليهما ، من الشرق والغرب ؛ وقد لاحظت فيهما اختلافاً واضحاً . كان طرفها الغربي حرماً مشعاً من جمال الحدائق ، يلتهب ويحمرّ تحت أعطاف الشمس المائلة ويبتسم منتشياً بأزهاره المتنوّعة . كان العشب قصيراً ، ليّناً ، عطرياً ، تلوّنه أزهار البَرْواق ، والأشجار ناعمة زاهية ، مستقيمة ، ـ متلألئة ، لطيفة ، رشيقة ، ـ شرقية بشكلها وأوراقها ، ذات قشر أملس ، لمّاع وذي ألوان عديدة ، كأنما كان إحساس عميق بالحياة والفرح يتدفق في كل مكان ؛ ومع أن السماء لم تكن تنفخ أية نسمة ، فقد كان كل شيء يبدو متحركاً بآلاف الفراشات التي كانت تبدو ، بانطلاقها الناعم وطيرانها الثّمل ، أزهار خزامى مجنّحة .

أما الطرف الشرقي فكان مغموراً بظل أسود كثيف . هنا ، تجلّت الكآبة القاتمة ، لكن المليئة بالهدوء ، تلفّ كل شيء . كانت الأشجار سوداء اللون ، حزينة بشكلها وهيئتها ، ترتفع كأشباحٍ رمادية ، موحيةً بالهموم والموت المبكر . وكان العشب حانياً كالصفصاف وكأنه في حداد . وكانت ترتفع هنا تلال صغيرة ، منخفضة ، قصيرة ، تبدو كالقبور ، مع أنها ليست قبوراً ، وإن كانت سيقان أزهار العَبَوْثُران والسَّذاب تتسلق فوقها وحواليها . وكان ظل الشجر يسقط ثقيلاً على الماء وكأنما يغوص فيه ناقلاً الظلمات إلى أعماقه . كان يُخيل إليَّ أن كل ظلٍّ ينفصل آسفاً ، بقبر ما تنخفض الشمس ، وتنخفض دائماً ، ينفصل عن الجذع الذي لفَّه ويختطفه الجدول في أحشائه ، بينما تولد ظلال أخرى في كل لحظة لتأخذ مكان الظلال التي غرقت وتلاشت .

أثارتني هذه الفكرة فغرقت حالاً في تخيّلاتي . كنت أقول في نفسي : إذا صحَّ أنَّ هناك جزيرة سُحرت ، فإن هذه الجزيرة مسحورة ، دون ريب . إنها ملتقى بعض الجنّيات الحسناوات اللواتي نجونَ من إبادة جنسهنّ . هل هذه القبور الخضراء قبورهنّ؟ هل يُسلمن أرواحهنّ الرقيقة على غرار البشر؟ أو بالأحرى أليس موتهنَّ نوعاً من الفناء الحزين؟ هل يُعدن إلى الله وجودهنَّ رويداً رويداً ، وهنَّ يستنفذن روحهنّ ببطء حتى الموت ، كهذه الأشجار التي تُسلم ظلالها واحداً بعد الآخر؟ ما تمثله الشجرة التي تتلاشى بالنسبة إلى

الماء الذي يبتلعُ ظلها ويُصبح أكثر ظلاماً بالضحية التي التهمها ، أفلا يصح على الجنّية بالنسبة إلى الموت الذي يطويها؟»

وبينما كنت أتخيّل هذه الصورة ، وعيناي نصف مطبقتين ، والشمس تهبط سريعاً نحو المغيب ، والريح تجري حول الجزيرة ، حاملةً قشوراً كبيرة ، مضيئة ، بيضاء مسلوخةً من جذوع شجر الجميّز ، بدا لي أن شبح إحدى هذه الجنّيات ، التي حلمت بها ، يقترب ، طالعاً من القسم الغربي المضيء في الجزيرة ، ويجري بطيئاً نحو الظلمات . كان الشبح منتصباً في قارب صغير مهلهل يحركه بمجداف شبح . وعندما كان لا يزال تحت آخر خيوط أشعة الشمس كان يبدو فرحاً ، ـ لكن الحزن أفسد ملامحه حين مرَّ في منطقة الظل . ثم دار بطيئاً حول الجزيرة ، وعاد إلى منطقة الضوء .

تابعت ، حالماً : «الدورة التي أكملتها الجنّية الآن هي دورة سنة قصيرة من حياتها . لقد اجتازت شتاءها وصيفها ، واقتربت سنة من الموت ، ورأيت جيداً ، وهي تدخل في الظلام ، كيف كان ظلها يُفلت منها ويبتلعه الماء الداكن لتزيد عتمته عتمة» .

ومرّة جديدة ظهر القارب الصغير ، بداخله الجنّية ، لكن كان في هيئتها الآن مزيد من الوساوس والهواجس ، وقليل من الفرح . كانت تجدّف من منطقة الضوء نحو الظلام - الذي كان يتكاثف كل لحظة - ومن جديد ، أفلت ظلها منها ، وسقط في الأبنوس السائل وابتلعته الظلمات . ودارت حول الجزيرة مرات عديدة ، بينما كانت الشمس تتهاوى إلى الغروب ، وفي كل مرة تبرز فيها من الضوء يزداد حزنها ، وتصبح أكثر وَهَناً وإرهاقاً ، وتغمض ملامحها ؛ وفي كل مرة تدخل منطقة الظلام كان يُفلت منها شبح أكثر سواداً يبتلعه ظلٌّ أكثر حلكةً . لكن أخيراً ، حينما غابت الشمس ، أصبحت الجنّية طيفاً خالصاً ودخلت مع قاربها في منطقة النهر الأبنوسي . ولا أستطيع القول إنها خرجت ، أو إنها ستخرج منها ، لأن الظلمات خيّمت على كل شيء ، ولم أعد أرى شكل الجنّية الساحر .

جنة ارنهايم

منذ ولادته حتى يوم مماته كان صديقي إليسون يعيش في رخاء . ولا أستعمل هنا كلمة رخاء بمعنى العيش الرغد ؛ إنما أستعملها كمرادف لكلمة السعادة . لكأن الصديق الذي أتحدث عنه لم يخلق إلاّ ليكون رمزاً لأفكار تورغو(*) وبرايس(**) وبريستلي(***) وكوندورسيه(****) ـ ويقدّم مثلاً فردياً عما سُمِّيَ «وهْم التكامليين» . ويُخيّل إليّ أنني أرى في حياة إليسون القصيرة دحضاً للفكرة التي تزعم أن في طبيعة الإنسان ذاتها ما يناقض السعادة . فقد اتضح لي ، من خلال دراسة وافية دقيقة لعمله ، أن شقاء النوع الإنساني يعود ، عموماً ، إلى خرق بعض القوانين الإنسانية البسيطة ؛ ـ وأننا نملك ، كنوع ، عناصر للقناعة والرضى لم تمارس وظيفتها بعد ، ـ وأنه ، حتى في هذا الوقت ، من الظلمات المحيطة بالفكر الإنساني وهذيانه ، فيما يتعلق بالمشكلة الكبرى للشروط الاجتماعية ، ليس مستحيلاً أن يكون الإنسان ، الفرد ، سعيداً في بعض الظروف العرضية الاستثنائية .

هذه الآراء ذاتها كانت توجه صديقي الشاب أيضاً ؛ ولا بأس أن نلاحظ أن السعادة الدائمة التي ميّزت حياته كلها كانت ، في معظمها ، نتيجة نهج مسبق . ومن الواضح الأكيد أن إليسون لن يصل ، جراء نجاحه الخارق في حياته ، إلى الانزلاق في دوّامة الشقاء المشترك ، التي تنفتح أمام جميع الأشخاص الذين أنعم القدر عليهم بشكل عجيب ، وذلك بفضل القليل من

(*) آن روبردو تورغو (١٧٢٧ - ١٧٨١) : اقتصادي فرنسي من محبّذي تشجيع الزراعة . مفتش المالية العام ووزير الحربية . عبّر عن نظرياته في كتاب «أفكار في تحقيق الثروات وتوزيعها» .

(**) تشارلز لورنج بريس (١٨٢٦ -١٨٩٠) مصلح اجتماعي أميركي .

(***) جوزف بريستلي (١٧٣٣ -١٨٠٤) : كيميائي وفيلسوف إنكليزي . اكتشف ظاهرة تنفس النباتات وأفرد الأوكسيجين .

(****) المركيز دو كوندورسيه (١٧٤٣ - ١٧٩٤) : رياضي وفيلسوف فرنسي لعب دوراً بارزاً في الثورة الفرنسية .

تلك الفلسفة الغريزية التي تغني ، في حالات كثيرة ، عن التجربة . غير أنني لا أهدف إطلاقاً إلى كتابة بحث في السعادة . إنَّ أفكار صديقي يمكن أن تلخص في بضع كلمات : لم يكّن يوافق إلاّ على أربعة مبادئ ، أو تحديداً ، أربعة شروط أولية للسعادة : الشرط الذي كان يراه الأكثر أهمية هو (وهذا شيء غريب) شرط الرياضة الحرة في الهواء الطلق ؛ كان يقول : «الصحة التي نحصل عليها بوسائل أخرى غير جديرة بهذا الاسم» . كان يذكر لذة صيّادي الثعالب ، ويرى أن الفلاحين هم الوحيدون الذين يمكن اعتبارهم ، كنوع ، أكثر سعادة من الآخرين . وكان الشرط الثاني حب المرأة ، وكان الثالث ، وهو أصعبها تحقيقاً ، احتقار الطموح كليّة ، أما الرابع فكان تكوين الجمال ، وهو مسألة سعي متواصل ؛ وكان يؤكد أن امتداد السعادة التي يمكن بلوغها متناسب مع روحانية هذه المسألة في هذا الشرط الأخير .

كان إليسون هذا متميزاً ، على نحو غريب ، باتساع النعم عليه ، أنيساً يفوق الجميع لطفاً ووسامة . وكان ذكاؤه من النوع الذي لا يشكّل اكتساب المعرفة ، بالنسبة إليه ، إنجازاً بقدر ما هو حدس وضرورة . كانت عائلته من أشهر العائلات ، وزوجته أكثر النساء جمالاً ووفاءً .

يبدو أنه كان قد توفي في مقاطعة بعيدة ، منذ حوالى قرن وقبل بلوغ إليسون سن الرشد ، شخص يدعى سيبرايت إليسون . جمع هذا الرجل ثروة طائلة ، وبما أنه لم يكن لديه أقرباء يرثونه ، ترك لثروته أن تتراكم طوال قرن كامل بعد موته . غير أنه كان قد عيّن هو نفسه طرق استثمار ثروته ، بدقة وحكمة بالغتين ، وأوصى بها كلها إلى أكثر الأشخاص قرابة دموية إليه بشرط أن يحمل اسم إليسون وأن يكون حيّاً في نهاية السنة المائة تماماً . وقد بذلت محاولات كثيرة لإلغاء شرط هذا الإرث الغريب ؛ لكنها فشلت جميعاً لأنها تعتمد على اعتبار القانون ذا مفعول رجعي . غير أن الحكومة تنبهت للأمر وسنّت قانوناً يمنع تجميع مثل هذه الثروة في المستقبل . لكن هذا القانون لم يمنع الفتى إليسون من أن يمتلك ، وهو في الواحدة والعشرين من عمره ، كوريث لسلفه سيبرايت ، ثروة تبلغ أربعمائة وخمسين مليون دولار .

حين اتضح هذا الرقم الخيالي ، جرت مناقشات كثيرة لمعرفة كيفية التصرّف فيه . كانت ضخامة الإرث وإمكانية استخدامه تذهل هؤلاء الذين يحلمون بالتركة . وكان سهلاً أن يفترض أن هذا الوارث ، الذي يملك ثروة تفوق جميع ثروات المواطنين الآخرين ، سيغرق في جنون الترف الاجتماعي الحديث ، ـ أو يستسلم للدسائس السياسية ، ـ أو يطمح إلى السلطة الوزارية ، ـ أو يشتري رتبة أعلى في درجات النبالة ، ـ أو يقتني مجموعات فنية نادرة ـ أو يلعب الدور العظيم الذي يلعبه راعي الآداب والفنون والعلوم ، ـ أو ينشىء مؤسسات خيرية عظيمة باسمه . لكن هذه الأمور ، وجميع الأمور العادية في الإنفاق ، كانت تبدو ، بالنسبة إلى ثروته التي لا تُحصر ، أنها لا تشكل إلاّ جزءاً بسيطاً . فقد تأكد أن عائداته السنوية ، حتى بنسبة ثلاثة بالمائة ، لا تقلّ عن ثلاثة عشر مليوناً وخمسة آلاف دولار ؛ أي مليوناً ومائة وخمسة وعشرين ألف دولار كل شهر ؛ أو ستة وثلاثين ألفاً وتسعمائة وتسعين دولاراً كل يوم ؛ أو ألفاً وخمسمائة وواحداً وأربعين دولاراً كل ساعة ؛ أو ستة وعشرين دولاراً كل دقيقة . هكذا تجاوزت الفرضيات كل الحدود ؛ واكتفى الناس بالتخيل . قال بعضهم إن السيد إليسون سيتخلّى ، في أقل تقدير ، عن نصف ثروته إلى أقربائه . وبالفعل ترك لهم ثروته الكبيرة التي كانت له قبل حصوله على هذا الإرث ،

رغم ذلك لم يفاجئني أن يكون قد اتَّخذ قراراً مسبقاً ، منذ وقت طويل ، فيما يتعلق بالقضية التي كانت تثير جدلاً كبيراً بين أصدقائه ، ولم يدهشني كذلك نوع هذا القرار . فلقد أراح ضميره ، بالنسبة إلى أعمال الخير الفردية . أما بالنسبة إلى إمكانية كمال ما ، بالمعنى الخالص ، يقوم به على نفسه في وضع الإنسانية العام ، فإنني أعترف بأسف أنه لم يكن يؤمن بذلك إلاّ قليلاً . فقد كان ، على الجملة ، وبشكل عام ، منطوياً على نفسه ، من أجل سعادته أو من أجل شقائه .

كان الفتى شاعراً بأوسع معنى وأشرفه . يدرك الصفة الحقيقية والهدف النبيل والجلال الأسمى والعظمة في العاطفة الشعرية . كانت غريزته تقول له إن الفرح المطلق ، إن لم يكن الوحيد ، الخاص بهذه العاطفة يكمن في خلق

أشكال جديدة من الجمال . وقد وسمت بعض الخصوصيات ، سواء في تربيته الأولى ، أو في طبيعة ذكائه ، تأملاته الأخلاقية بسِمات ما يدعى النزعة المادية ، وربما كان ذلك هو السبب الذي دعاه إلى الاعتقاد أن المجال الأمثل لتمرس الموهبة الشعرية ، إن لم يكن المجال الحقيقي الوحيد ، يكمن في خلق صيغ جديدة من الجمال الطبيعي الصرف . هذا ما حال دون أن يصبح موسيقياً أو شاعراً ، ـ إذا استعملنا الكلمة الأخيرة بمعناها المتداول . ولعلّه لم يهتم أيضاً بأن يصبح هذا أو ذاك ، بتأثير فكرته وحسب ، وهي رأيه أن أحد المبادئ الأساسية للسعادة ، على الأرض ، يقوم على احتقار الطموح . إذا كان لا بدّ لعبقريٍّ من طراز فريد ، أن يكون طموحاً ، فهل يستحيل حقاً أن نتصور أنّ هناك نوعاً من العبقرية أكبر أيضاً ، هو فوق ما نسميه طموحاً؟ ألا نستطيع هكذا أن نفترض أنه وجد كثير من العباقرة أعظم من ملتون(*) ، وارتضوا أن يبقوا «صامتين دون مجد»؟ أعتقد أن العالم لم يَرَ ، ولن يرى ، باستثناء حالة تشحذ فيها مجموعة من المصادفات العبقري الأكبر وتجبره على ممارسة ما لا يطيب له ، كمال التنفيذ ، الذي تقدر عليه الطبيعة الإنسانية حقاً في أغنى ضروب الفن .

لم يصبح إليسون إذاً موسيقياً ولا شاعراً ، وإن لم يكن هناك إطلاقاً أيّ شخص أكثر منه ولعاً بالموسيقى والشعر . لم يكن مستحيلاً أن يصبح رسّاماً لو سنحت له ظروف غير ظروفه الحاضرة . النّحت ، وإن كان بطبيعته شعرياً ، فنّ محدود الأفق والأثر ، فلم يكن يثير اهتمامه . عددت المجالات التي يمكن أن تعنى بها الروح الشعرية ، استناداً إلى خبرة العارفين . لكن إليسون كان يؤكد أن المجال الفنيّ الأغنى والأكثر طبيعيّة وصحّة ، إن لم يكن الأرحب إطلاقاً ، أُهمل بشكل غامض . فليس هناك أي تحديد للبستانيّ ـ الريفيّ ، كما حُدّد الشاعر ، وكان ، مع ذلك ، يبدو لصديقي أنّ خلق البستان ـ الريف يقدّم لإلـــهة شعرية خاصة أروع المناسبات . هنا ، في

(*) جون ملتون (١٦٠٨ - ١٦٧٤) : من مشاهير شعراء الإنكليز . فقد نظره فأملى على زوجته وابنتيه ملحمته الخالدة «الفردوس المفقود» .

الحقيقة ، أجمل مجال لامتداد خيال يهتم بالتآلف اللانهائي في أشكال الجمال الجديدة . إنه يتعرف ، في كثرة أنواع الزّهر والشجر وألوانها ، على أكثر جهود الطبيعة ذاتية وحيوية لخلق الجمال الطبيعيّ . وفي اتجاه هذا الجهد أو تمركزه ، أو بالأحرى في تكيّفه مع العيون المقدّر لها أن تتأمل روعته على هذه الأرض ، يشعر أنه مدعوٌّ إلى استخدام أفضل الوسائل ، والعمل بأفضل ما يمكن كي يكمل ليس مصيره الخاص كشاعر وحسب ، بل أيضاً أهدافاً عظيمة أصّلت الألوهة في الإنسان العاطفة الشعرية لأجلها .

«تكيّفه مع العيون المقدّر لها أن تتأمل روعته على هذه الأرض» ؛ كان إليسون يحلّ ، تقريباً بالتفسير الذي يُعطيه لهذه الجملة ، ما كان دائماً ، بالنسبة إليّ ، لغزاً ؛ أقصد الإشارة إلى هذه الواقعة التي لا يناقش فيها إنسان ، باستثناء الجاهل ، وهي أنه لا وجود في الطبيعة لأيّ تآلف تزييني بالشكل الذي يستطيع أن يحققه الرسام الفذّ . لا نعثر في الطبيعة على جنّات تشبه الجنّات التي تتلألأ في لوحات كلود لورّان(*) . في أكثر المناظر الطبيعية فتنة وسحراً ، نكتشف دائماً نقصاً أو إفراطاً . فليس هناك مكان على سطح هذه الأرض الطبيعية إلاّ وتلحظ فيه عين المتأمل النّابه خللاً ما في ما يُدعى تأليف المنظر . لكن كم يستعصي هذا على الفهم ! لقد تعلّمنا ، من ناحية أخرى ، أن نعتبر الطبيعة شيئاً تامّاً . وكنّا نرتعد ، فيما يتعلق بالتفاصيل ، من التجرؤ على منافستها . من يزعم تقليد ألوان الخزامى ، أو يكمل نسب الزّنبق؟ النقد القائل ، في معرض النحت أو التصوير ، بأنّ الطبيعة ينبغي أن تُشرّف أو تنسب إليها صفات الكمال ، نقد خاطئ . إنّ أيّ تآلف من عناصر الجمال الإنساني ، في التصوير أو النّحت ، لا يستطيع أن يفعل أكثر من الاقتراب إلى الجمال المتحرك الحيّ . يُصبح مبدأ النقد صحيحاً في الطبيعة وحدها ؛ لقد شعر بها جيداً من هذه الناحية ، ولم تدفعه غير الروح المأخوذة بالتعميم ، للاستنتاج أن هذا المبدأ صحيح في

(*) كلود لورّان ، لو لوران (١٦٠٠ - ١٦٨٢) : رسام فرنسي من رواد الانطباعية . عاش فترة في روما وتوفي فيها . يُعتبر مع صديقه پوسين من أعظم رسامي الطبيعة الفرنسيين .

جميع ميادين الفنّ . قلتُ ، شعر بها جيّداً من هذه الناحية ؛ ذلك أن الشعور ليس تصنُّعاً ولا وهماً . لا يقدم الرياضيون أدلة أكثر صوابية من الأدلة التي يستخرجها الفنان من الشعور بفنه . إنه لا يعتقد وحسب ، بل يعرف حقاً أن تنسيقات المادّة ، بشكل أو آخر ، والكيفية في الظاهر ، تشكل وحدها الجمال الحقيقيّ . إلاّ أن حججه لم تكن بعدُ قد نضجت نُضجَ التعبير ، كان ينقصها جهد التحليل ، ـ تحليل أعماق يجهلها العالم حتى اليوم ، لكي تصاغ ويعبّر عنها بشكل كامل . غير أن الفنّان مؤيد في آرائه الغريزية بصوت إخوته جميعهم . لنفترض تأليفاً مشوّشاً ؛ ولنفترض أنّ تصحيحاً تمّ في تآلف ، وأن هذا التصحيح خضع لحكم جميع الفنانين في العالم ، حينذاك تصبح ضرورة التصحيح مقبولة من الجميع . وأفضل أيضاً ! يقترح الجميع هذا التصحيح ذاته لهذا التوليف .

أعيد القول إن الطبيعة المادية ، في توليف المناظر وحسب ، قابلة للاطّراد ، وإنّ قابلية الكمال هذه في هذا الجزء الوحيد كانت سرّاً عجزتُ عن حلّه . كانت تأملاتي كلها حول هذا الموضوع تعتمد على الفكرة القائلة بأنّ القصد البدائيّ للطبيعة لا بدّ أن يكون قد نظم سطح الأرض بشكل يرضي من جميع النواحي الشعور الإنسانيّ بالكمال في الجميل والسّامي أو الفاتن ؛ وأن هذا القصد البدائي كانت قد أحبطته التقلّبات الجيولوجية المعروفة بالألوان والأشكال التي تكمن في مزجها وتصحيحها روح الفنّ . لكنّ قوة هذه الفكرة أضعفتها الضرورة الناتجة عن اعتبار هذه التقلّبات شاذة وليس لها هدف من أيّ نوع . إن إليسون هو الذي أوحى إليّ أنّها كانت توهُّم موت . وكان يوضح الأمر كما يلي : «لنقل إن خلود الإنسان الأرضي كان القصد الأول . هكذا نتصوّر ترتيباً أولياً لسطح الأرض صالحاً لحالة الإنسان السعيدة هذه ، حالة لم تتحقّق ، بل تُوهِّمت . ولم تكن التقلّبات إلاّ وسائط لشرطها المميت ، المدرك فيما بَعدُ» .

ويستطرد صديقي : «إذاً ، إن ما نراه تمجيداً للطبيعة قد يكون تمجيداً بالفعل ، لكن من وجهة النظر الأخلاقية أو الإنسانية فقط . كلّ تغيير في المنظر الطبيعي قد يحدث خللاً في اللوحة ، إذا استطعنا أن نفترض اللّوحة

منظورة ككلّ ، ككتلة ، من نقطة ما بعيدة عن سطح الأرض ، وإن لم تكن وراء حدود سمائها ، ندرك بسهولة أن كمال تفصيل ما ، مدروس عن كثب ، يمكن في الوقت ذاته أن يفسد تأثيراً عاماً ، تأثيراً يدرك من مسافة بعيدة . وقد تكون هناك طبقة من الكائنات الخاصة بالإنسانية قديماً ، ولا تراها اليوم ، تبدو فوضاناً لها ، في منطقتها النائية ، نظاماً ، وقبحنا جميلاً ؛ وبكلمة واحدة ، ربما أراد الله أن ينشر أمام عيون الملائكة الأرضيين ، الذين يملكون حساً بالجمال أرهفه الموت ، البساتين ـ الأرياف اللانهائية في أنصاف الكرة الأرضية» .

كان صديقي إليسون في سياق الحديث يستشهد ببعض ما قاله كاتب عالج موضوع البستان ـ الريف ، ويفترض أنه عالجه بدقّة .

«ليس هناك على وجه التدقيق غير أسلوبين للبستان ـ الريف ؛ الطبيعي والصُّنعي . أحدهما يحاول أن يحيي الجمال الأصيل في الريف ، فيطابق وسائله مع المنمق المحيط ؛ ويزرع أشجاراً تتناسق مع التلال أو السهول في الأرض المجاورة كلها ؛ ويكتشف هذه العلائق الدقيقة في الحجم والنسبة واللون ويطبقها ، وهي علائق تَخْفى على الملاحظ العادي وتتجلى في كل مكان لدارس الطبيعة الخبير . إن نتيجة الأسلوب الطبيعي ، فيما يتعلق بالحدائق ، تظهر في غياب كل شواذ وكل خلل ، في سيطرة النظام والتناسب ، أكثر مما تظهر في خلق فرائد وبدائع خاصة . ويتضمن الأسلوب الصُّنعي تنوعاً بقدر تنوع الأذواق . إن له نوعاً من العلاقة العامة مع مختلف الأساليب الهندسية . هناك الشوارع الضخمة ، وزوايا فرساي ؛ هناك الأرصفة الإيطالية ؛ ثم هناك أسلوب إنكليزي قديم ، مختلط ومتنوع ، ومتأثر بعض التأثر بالهندسة القوطية المنزلية والهندسة في العصر الإليزابيثي . إن إدخال الفن الخالص في مشهد بستان يضيف إليه جمالاً بديعاً ، على الرغم مما يمكن قوله ضد الأسلوب الصُّنعي في البستان ـ الريف . هذا الجمال أخلاقيٌ ، في جزء منه ، وهو مصنوع في بعض منه لكي يسرّ العين بنشر النظام والقصد الذي صار واضحاً . إن رصيفاً ، بدرابزين قديم تغطّيه الأشعة ، يعكس للعين مباشرةً الخلائق الجميلة التي عبرته في أزمنة أخرى .

إن أبسط الآيات الفنية شهادة اهتمام ورغبة إنسانيين» .

وأضاف إليسون قائلاً : «إنك تدرك ، استناداً إلى ملاحظاتي السابقة ، أنني أرفض الفكرة التي عبّر عنها المؤلف ـ فكرة بعث الجمال الريفي الأصيل . فهذا الجمال الأصيل لا يصل قط إلى مستوى الجمال الذي يستطيع الإنسان أن يدخله على الطبيعة . وطبيعي أن كل شيء يتوقف على اختيار مكان يوفر مجالاً كافياً . ما يتصل بفن اكتشاف العلائق الدقيقة في الحجم والنسبة واللون وتطبيقها ، ليس إلاّ أحد الأشكال الكلامية الغامضة التي تدل على خطإِ الفكرة . هذه الجملة قد تعني شيئاً ما ، وقد لا تعني شيئاً ، ولا يمكن أن تفيد في شيء . أن تظهر نتيجة الأسلوب الطبيعي ، فيما يتعلق بالحدائق ، في غياب كل شواذ وخلل أكثر مما تظهر في خلق فرائد وبدائع خاصة ، قضية يقتنع بها الذكاء البسيط العادي ولا تليق بالعبقري وأحلامه المتّقدة . الحق أن المزيّة القائمة على تجنّب الخلل تستدعي الذكاء مباشرة ، ولعلها ، بناء على ذلك ، محكومة بالقاعدة ؛ لكن المزية الأسمى التي تتأجّج في الخلق لا يمكن أن تُقدّر إلاّ في نتائجها . القاعدة لا تسري إلاّ على المزايا السلبية ـ المزايا التي تنصح بالامتناع . لا يستطيع فنّ النقد إلاّ أن يوحي فيما وراء هذه المزايا . يمكن أن نتعلّم تأليف دراما ، لكن لا يمكن أن نتعلّم بناء پارثينون(*) أو جحيم . مع ذلك حين يتمّ الشيء وتكتمل المعجزة تصبح القدرة على فهمهما كونيةً . السفسطائيون(**) ، من المدرسة السلبية ، الذين يستهزئون بالخلق ، لعجزهم عن الخلق ، هم اليوم أكثر الناس تصفيقاً له . فما كان ، في تكوّنه الجنينيّ ، يصدم عقلهم المتحفّظ ، ينجح دائماً ، عند اكتمال تنفيذه ، بانتزاع الإعجاب من غريزة الجمال فيهم» .

(*) پارثينون Parthénon : معبد الإلــهة أثينا على الأكروپول في أثينا . بناه فيدياس في عهد پركليس في القرن الخامس ق .م ، وزينه بالزخارف والتماثيل والنقوش . من روائع الفن الدوري .

(**) جماعة من الفلاسفة قبل سقراط كانوا يعلمون البلاغة والخطابة . أنكروا إمكان الوصول إلى حقائق موضوعية ثابتة ، إذ الحقيقة عندهم ذاتية نسبية تختلف باختلاف الأفراد . من أشهرهم جورجياس وپروتاجوراس .

أضاف إليسون قائلاً : «ملاحظات الكاتب ، على الأسلوب الصنعي ، هي أقل عرضة للنقد . إدخال الفنّ الخالص في منظر بستان ـ ريف يضيف إليه جمالاً أخّاذاً . هذا صحيح ، وصحيحة أيضاً الملاحظة المتعلّقة بشعور الاهتمام الإنساني . المبدأ كما عُبّر عنه لا جدال فيه ؛ لكن ربما كان وراءه شيء ما ، متطابق معه ، شيء لا تطوله الوسائل التي يمتلكها الأفراد عادة والذي يُدخل ، إذا طالته ، في البستان ـ الريف سحراً يتجاوز أشواطاً السحر الذي يمكن أن يُضفيه عليه شعور الاهتمام الإنساني بالمعنى الخالص . إن شاعراً تهيأت له موارد مالية ثرّة ، ليقدر ، مع احتفاظه بفكرة الفن الضرورية ، وفكرة الثقافة أو ، حسب تعبير الكاتب ، فكرة الاهتمام ، أن يُشرب جيداً مخططاته بالجمال الجديد الهائل بحيث توحي للناظر بشعور تدخّل روحي . ندرك أنه ينبغي على الشاعر أن يحتفظ ، في سبيل توليد نتيجة كهذه ، بكل منافع الاهتمام الإنساني أو المخطط ، أو يُخلّص نتاجه في الوقت نفسه من فجاجة الفن المبتذل وتقنيّته . في أقسى الصحارى ، في أكثر مناطق الطبيعة الصافية وحشية ، يتجلّى فنّ خالق ما ؛ لكن هذا الفن لا يظهر إلاّ لفكر عميق ؛ وليست له القوّة الواضحة في عاطفة ما في أية حال . لنفترض ، إذاً ، أن هذا المعنى لقصد الإلــه ، انخفض درجة واحدة ، سواء أتناسب مع عاطفة الفن الإنساني أم تطابق معها ، بحيث يشكل نوعاً من الوساطة بين الاثنين ؛ ـ لنتصوّر ، مثلاً ، منظراً يوحي فيه اجتماع الجمال والروعة والغرابة بفكرة العناية والثقافة والرقابة من قبل كائنات متفوقة غير أنها متصلة بالإنسانية ، حينذاك يُنزّه شعور الاهتمام ويضفي عليه الفن الجديد ملامح طبيعة وسيطة أو ثانوية ، ـ طبيعة ليست الخالق أو فيضاً من الله ، لكنها الطبيعة التي تخرج ، إذا خرجت ، من أيدي الملائكة الذين يحومون بين الإنسان والله» .

في رصد ثروته الضخمة لتحقيق رؤيا كهذه ؛ ـ في التدرّب الطبيعي الحرّ في الهواء الطلق مما تفرضه ضرورة المراقبة الشخصية لمخططاته ؛ ـ في الشيء الدائم الذي كانت تتجه إليه هذه المخططات دائماً ، ـ في الروحانية العالية لهذا الشيء ، ـ في هذا الاحتقار لكل طموح يتيح له الشعور حقاً ، ـ في

الينابيع الدائمة التي كان هذا الهدف يفجرها لعطشه إلى الجمال ، هذا الهاجس النفسي المسيطر الذي لا يقل ظمأً ؛ ـ وفوق هذا كله ، في التعاطف الأنثوي الحق ، تعاطف امرأة يغمر جمالها وحبها وجودَه بجوٍ فردوسي ؛ ـ في هذا كله ظن إليسون أنه يتحرر من الهموم الطبيعية للإنسانية .

والحق أنني يائس من إعطاء القارئ فكرة واضحة عن الفرائد التي توصّل صديقي إلى تحقيقها . أريد أن أصفها ، لكن صعوبة الوصف تثبط نشاطي ، وأتردد بين الجزئي والعام ، ولعل الطريقة الفُضلى تكمن في الجمع بينهما .

النقطة الأولى ، بالنسبة إلى إليسون ، كانت تتعلق بداهةً باختيار المكان ؛ من حين شرع يتأمّل في هذا الأمر ، سرعانَ ما لفتت انتباهه طبيعة الجزر الغنّاء في المحيط الهادئ . وفعلاً قرّر القيام برحلة صوب البحار الجنوبية أولاً ، لكن كفاه ليل من التأمل لكي يتخلّى عن هذا القرار . كان يقول : «لو كنت أكره الناس لكان هذا المكان يناسبني . العزلة والانطواء الكاملان وصعوبة الدخول والخروج تصبح في هذه الحالة سحر السحر ؛ لكنني لم أصبح بعدُ مثل تيمون(*) الأثيني . إنني أحلم بالسكون ، لا بوطأة الوحدة . أريد أن أحتفظ بنوع من السلطة نظراً إلى امتداد راحتي وبقائها . ستأتي غالباً ساعات أحتاج فيها إلى تعاطف أرواح شعرية في سبيل الأثر الذي سأحققه . دعني أبحث عن مكان إذاً لا يبعد كثيراً عن مدينة آهلة ، سيسهّل قربها ، من ناحية ثانية ، تنفيذ مخططاتي» .

رحل إليسون ، في سبيل البحث عن المكان وموقعه كما يشتهيهما ، طيلة سنوات عديدة ، وسمح لي أن أرافقه . رفض دون تردد آلاف الأمكنة التي أعجبتني ، لأسباب أقنعتني أخيراً أنّه على صواب . وأخيراً عثرنا على سهل عال ، جميل وخصب بشكل مدهش ، يطل على منظر شاسع كبير ، بحيث لا يُضاهى في روعته وسحره .

(*) انظر قصة تيمون الأثيني في مسرحية شكسبير المعروفة بهذا الاسم ، أو في قصته كما رواها تشارلز لام معربة في كتاب «قصص من شكسبير» لمحمد بدران .

بعـد سـاعـة تقـريبـاً من تـأمل هذا المنظر ، قـال لي ، وهو يتنهّد بغـبطة ونشـوة : «أعـرف أن مـعظـم الناس المرهفين يُسـرّون هنا ، في مـثل ظروفي الشخصية . هذا المنظر رائعٌ حقاً ، وأنا أتمتع به ، لا لسبب إلاّ لفرط الروعة . إن ذوق جميع المهندسين ، الذوق الذي أُتيح لي التعرّف إليه ، يدفعهم ، حباً بوجهة النظر ، إلى تشييد داراتهم على قمة الجبل . وفي هذا خطأ واضح . العظمة ، في جميع أشكالها ، خصوصاً في شكلها الرّحب ، تُوقظ وتثير ، لكنهـا سرعـان مـا تُتعب وترهق . ليس أفضل من ذلك بـالنسبـة إلى منظر المناسبة ، وليس أسوأ منه بالنسبة إلى منظر دائم . وأكثر ما يُعاب ، في منظر ثابت ، هـو الاتسـاع ؛ وأسوأ شكل للاتسـاع هو الفـضـاء . هذا يتناقض مع إحسـاس الوحـدة والحـاجة إليـهـا ، ـ وهمـا إحسـاس وحـاجة نعـمل على إشباعـهما باعتزالنا في الريف . إذا نظرنا من أعلى جبل فلا نقدر أن نمنع أنفسنا من أن نشعر أننا خارج العالم ، غرباء فيه . ومن يحضن الموت في قلبه يتجنب المناظر البعيدة كما يتجنب الطاعون» .

مع نهـاية السنة الرابعـة من بحثنا عـثرنا على مكان أعلن إليسـون أنه أرضـاه . لا شك في أن لا فـائدة في القـول أين يقع هذا المكان . لقد أضـفى موت صديقي ، منذ عهد قريب ، إذ فتح المجال لتقوم بزيارة هذا المكان فئاتٌ معينة من الزائرين ، ـ أضفى على أرنهايم نوعاً من الشهرة الخفية الخاصة ، إن لم أقل الطقوسية ، التي تشبه من ناحية ما ، على الرّغم من أنها أعظم بما لا يقاس ، الشهرة التي ارتبطت بفونثيل لزمن طويل .

كانت زيارة أرنهايم تتم عادة من طريق النهر . كان الزائر يغادر المدينة في الصباح البـاكر ، يعبر أولاً بين ضفاف ذات جمال هادئ وأليف ، ترعى فيها خراف عديدة يرقش صوفُها بالبياض العشب المتألق في السهول المتموجة . كـان انطباع المدنيـة يذوب تدريجاً في انطباع حيـاة ريفـيـة مـحض . وهذا الانطباع يغرق رويداً رويداً في إحساس بالعزلة ، يتحوّل ، بدوره ، إلى شعور مطلق بالوحدة ، وبقـدر مـا كـان المساء يقترب ، بقدر مـا كـان الممرّ النهريّ يضـيق ؛ والأجـراف تنحـدر وعـرة وتكتسي بأوراق أغـزر وأخصب وأكثر حلكة ، وشـفـافـيـة الماء تزداد ؛ وتزداد تعرجـات النهـر بحيث لا يكاد يُرى

سطحه البرّاق . وفي كل لحظة يبدو المركب سجيناً في دائرة مسحورة ، مرسومة بجدران من الورق ، لا يمكن عبورُها أو اختراقُها ، وسقف من حرير ما وراء البحار- وكأنما يتأرجح صدرُه على صدر مركب وهميّ آخر يبحر معه لكي يحفظه ويدعمه . هكذا كان الممرّ يتحوّل إلى مضيق ؛ وأستخدم هذه الكلمة مع أنها لا تصح هنا تماماً ، لأن اللغة لا تسعفني بكلمة غيرها تعبّر ، بشكل أفضل ، عما يتميّز به المنظر من المدهش البديع . ولم تكن تتجلّى خاصية المضيق هذه إلاّ بعلو الضفاف وتوازيها ؛ إذ إنها كانت تغيب في ملامح هذه الضفاف الرئيسية الأخرى . كانت جوانب المجرى العالي ، التي يجري بينها الماء صافياً هادئاً دون توقّف ، تعلو مائة قدم ، وأحياناً تصل إلى علو مائة وخمسين قدماً ، وينحني كل جانب نحو الآخر بحيث أنها كانت تسد المنافذ تقريباً على ضوء النّهار ؛ والطحالب الكثيفة الطويلة التي تتدلى ، كريش معكوس ، تضفي على الهاوية كلها جوّاً من كآبة الموت . وكانت التعرجات تزداد وتتعقّد وتبدو أحياناً أنها تعود على أعقابها ، بحيث يتيه المسافر ويضيع الاتجاه . ويبقى الممر فوق ذلك مغموراً بشعور ناعم من الغرابة . كانت فكرة الطبيعة لا تزال قائمة لكنها آخذة بالتحوّل ؛ ويهيّئ ذلك تناظراً خفياً ، ووحدة شكل مؤثرة ، وتصحيحاً سحرياً في هذه الآثار الجديدة . ما من غصن ميت ، أو ورقة يابسة ، أو حصاة تائهة ، أو تلة من التراب سمراء ، إلاّ كانت ظاهرة للعيان . كان الماء البلوريّ يتدفق على الصوّان الأملس أو على الطحلب النقي بخطوط حادة تخطف العين وتنعشها في آن واحد .

عبر منعطفات هذا الممرّ كان الزائرون يجرون خلال ساعات ، وفجأةً ينزلق المركب ، كما لو أنه يسقط من السماء ، في حوض دائريّ فسيح جداً بالقياس إلى عرض الممرّ . ويبلغ قطر هذا الحوض حوالى مائتي ياردة ، تحيط به من جميع جهاته ، باستثناء الجهة التي تواجه المركب لحظة دخوله ، تلال يتساوى علوّها عموماً بجدران الهاوية ، لكنها تختلف عنها تماماً . كانت أكنافها تعلو منحدرة من ضفة الماء ، بزاوية تبلغ خمساً وأربعين درجة ، مكسوة من قاعدتها إلى قمّتها ، دون فراغ بيّن ، بنسيج من طاقات

الزهر الساحر ؛ وقلما تبدو ورقة خضراء ، هنا وهناك ، في هذا البحر من الألوان ، المتموج العطر . وكان هذا الحوض ذا عمق سحيق ؛ غير أن ماءه كان من الشفافية بحيث أن القاع الجامد في كتلة كثيفة من الحصى الصغير المدوّر الرخامي ، يبدو واضحاً للعين كالبرق ، ـ أي كلما عجزت العين أن ترى ، في أعماق السماء المعكوسة ، ازهرار التلال المنعكس . ولم يكن هناك شجر في هذه التلال ، ولا حتى شجيرات صغيرة . كانت الانطباعات التي يتلقّاها المشاهد هي انطباعات الطفرة ، والدفء ، واللون ، والهدوء ، والتناسق ، والعذوبة ، والأناقة ، والرشاقة ، واللذة ، والثقافة الغريبة العجائبية التي تبعث على الحلم بجنس جديد من التوابع النشيطة الرائعة التي تملك ذوقاً كاملاً ، والتي يصعب إرضاؤها ؛ لكن ، حينما كان النظر يجول في مدى المنحدر المغمور بالألوان ، بدءاً من التقاته الناعم بالماء حتى نهايته الغامضة بين ثنايا الغيوم العالية ، كان يصعب ألا يتصورّ المرء حقاً أن شلالاً دائرياً من الياقوت الأحمر والأزرق ، والحجر الكريم المتعدّد الألوان ، والزبرجد ، يتساقط من السماء بهدوء .

وحين يصل الزائر فجأة إلى هذا الحوض ، مع تلاشي الظلمات من الممرّ ، تُنعشه وتذهله ، في آن واحد ، الدائرة الفسيحة للشمس الغاربة التي كان يظنّ أنها سقطت تحت الأفق ، وهي الآن ماثلة قبالته وتشكل السياج الوحيد لمنظر فسيح ينفتح عبر شق معجز آخر يفصل التلال .

في ذلك الوقت يترك المسافر المركب الذي أوصله إلى هنا ، ويهبط في زورق عاجيّ خفيف ، مزيّن برسوم آرابسكية ذات لون قرمزي حادّ ، في داخله وخارجه أيضاً . مؤخر هذا الزورق ومقدمه عاليان جداً عن سطح الماء وينتهيان بطرف حادّ ، ما يمنحه الشكل العام لهلال غير منتظم . وهو يرتاح على سطح الحوض بلطافة البجع وبهائه . الضيف هنا مدعوٌّ إلى ألاّ يفقد شجاعته ؛ ـ فسوف تعنى به إلـهات الجحيم الثلاث(*) . ويختفي المركب

(*) يُعرفن بربات القدر الثلاث : لاخسيس (لاكسيس) فاتي وكلوثور ، وهن بنات إريوس ونكس ، مهمتهن قياس المسافة الزمنية لعمر الإنسان . وقيل إنهن بنات زيوس : كلوثر ، لاخسيس ، وأتروپوس ، ويسمين مويراي وباللاتينية باركاي .

الكبيـر ويتـرك وحـده في الزورق الذي يرتاح دون حـركـة ظاهرة وسط البحيرة . لكنه ، حين يحلم بالطريق التي ينبغي عليه أن يسلكها ، ينتبه لحركة بالغة النعومة في المركب السحري . هذا المركب يدور على نفسه ببطء حتى يتجه صدره نحو الشمس ، ثم يتقدّم بسرعة لينة ، تزداد شيئاً فشيئاً ، في حين تبدو التموّجات الخفيفة التي يولّدها ، أنها تطلق حول الجوانب العاجية لحناً إلـهياً ، ـ وكأنها تقدّم التفسير الوحيد الممكن لهذه الموسيقى الكئيبة المؤنسة التي يبحث المسافر المندهش حوله عبثاً عن مصدرها الخفيّ .

ينطلق الزورق جريئاً ويقترب من الباب الصخري للمنفذ السائل ، بحيث تستطيع العين أن تقيس أعماقه بشكل أفضل . إلى اليمين ترتفع سلسلة من التلال العالية تغطيها غابات ذات وحشية فاتنة . مع ذلك ، يلاحظ الزائر أن ميّزة النقاوة العجيبة ، حيثما يغرق الجرف في الماء ، تسيطر باستمرار . ولا يبدو أي أثر لأنقاض الأنهار العادية . شكل الطبيعة ، إلى اليسار ، أكثر عذوبة وأكثر صنعة كما يظهر . هنا ، تنبثق الضفة من المجرى المنحدر ، وتعلو في منحدر ناعم عال ، يشكل مرجاً معشوشباً عريضاً ، يشبه شبهاً كاملاً نسيجاً مخملياً بخضرة متلألئة يمكنه أن يصمد لمقارنته بلون الزمرّد الخالص . عرض هذا المرج يتراوح بين عشر ياردات وثلاثمائة ياردة ، وهو ينتهي بجدار يبلغ علوه خمسين قدماً ، ويتطاول في لانهاية من التعرجات ، لكنه يتبع دائماً المجرى العام للنهر ، إلى أن يضيع في الفضاء باتجاه الغرب . هذا الجدار صخور متتابعة ، وقد تشكل بنتيجة قطع حاجز الهاوية عمودياً ، وهو حاجز وعر كان يشكل الشاطئ الجنوبي للنهر ؛ لكن لم يُترك أيّ أثر لهذا التشكّل . وللحجر المقطوع لون العصور السحيقة مغطّىً ومظلّلاً باللبلاب وزهر العسل والنسرين والياسمين البري . كان تشابه خطيّ الجدار ، في القمة والقاعدة ، ملطفاً بأشجار عالية جداً ، تعلو فُرادى أو مجموعات صغيرة ، قريبة من الجدار حتى لتلامس أغصانها الماء . لا يستطيع النظر أن يذهب إلى أبعد من ذلك ، إذ يحول دونه حاجز من الأوراق لا يمكن اختراقه .

هذه المشاهد كلها يلاحظها الزائر خلال اقتراب الزورق تدريجاً مما أسميتُه باب المنفذ السائل . ومع ذلك ، حين يقترب منه ، تختفي عنه ضفة الهاوية ؛ ويظهر للحوض مجرًى آخر إلى اليسار ، ويستمر الجدار جارياً في هذا الاتجاه ، مواكباً دائماً مجرى النهر . لا تستطيع العين أن تنفذ بعيداً ، عبر هذه الفتحة الجديدة ؛ ذلك أن النهار ، الذي يواكبه الجدار دائماً ، يزداد انعطافاً شيئاً فشيئاً إلى اليسار ، وسرعان ما يغيب كلاهما بين الأوراق .

غير أن الزورق ينزلق ثانية سحرياً في الممر المتعرّج ؛ وهناك تكاد الضفة الموازية للجدار تشبه الضفة التي تواجهه . ودائماً تسد المنظر تلال عالية تأخذ غالباً نسب الجبال وتتغطى بالنباتات الوحشية الغريبة .

يلحظ المسافر المبحر بتؤدة ، لكن بسرعة تزداد رويداً رويداً ، يلحظ بعد كثير من التعرجات المفاجئة ، أن طريقه مسيجة ظاهرياً بسياج ضخم ، أو بالأحرى بباب ذهبي ساطع مُتقن الصنع والنحت ، يعكس أشعة الشمس الآخذة بالهبوط السريع ، ويتوج بلهيبها الأخير الغابة المحيطة كلها . هذا الباب مندمج في الجدار الكبير الذي يبدو هنا كأنه يعبر النهر بزاوية مستقيمة . لكن الزائر ينتبه ، بعد عدة لحظات ، إلى أن المجرى الرئيسي للماء ينسلّ باستمرار في اتجاه اليسار ، في منحنىً طويل هادئ ، يواكبه الجدار أيضاً ، بينما يشق جدول آخر متوسط الاتساع ، منفصل عن الأول ، ـ يشقّ طريقاً تحت الباب بصوت خفيف ويغيب هكذا عن العين . ويسقط الزورق في الممر الصغير ويتقدم نحو الباب الذي يفتح مصراعاه الثقيلان ببطء وموسيقى . وينزلق المركب بينهما ، ويبدأ بالانحدار السريع في مسرح واسع تشكله الجبال الأرجوانية بكامله ، ويغمر قاعدته نهر متألق على امتداد محيطهما كله . وفي الوقت نفسه تتفجر أمام النظر جنّة أرنهايم بكاملها ، ويسمع الزائر انبعاث الموسيقى المحيية ؛ ويحس أن عطوراً ناعمة وغريبة تضغط عليه ؛ ويلمح ، كالحلم الطويل ، عالماً نباتياً تتمازج فيه الأشجار الكبيرة الآتية من الشرق ، والشجيرات الكثيفة ، والسوسن والخشخاش والياسمين ، وشباك الماء الطويلة التي تعقد شرائطها الفضية ، ـ وتنبعث بغموض ، وسط هذا كله ، كتلة من الهندسة ، نصفها قوطي ونصفها الآخر

إسلامي ، وتبدو أنها واقفة في الفضاء وكأنها واقفة بمعجزة ، ـ تاركة لنوافذها الناتئة ومنائرها وأبراجها أن تتوهج في ضوء الشمس الأحمر ، حيث تظهر كأنها نتاج سحري اشترك فيه العفاريت وشياطين الفضاء والخلائق غير الطبيعية والأبالسة .

لغز الغرفة الثالثة

لسنين مضت قمت برحلة بحرية بين شارلستون ومدينة نيويورك على متن سفينة اسمها «الاستقلال» بقيادة القبطان هاردي . كان من المقرر أن نبدأ رحلتنا في الخامس عشر من حزيران/ يونيو ، إذا كانت حالة الطقس مؤاتية . قبل موعد الرحلة بيوم واحد صعدت إلى السفينة لأتعرف على غرفتي وأجري فيها بعض الترتيبات . عرفت أنه سيكون على متن السفينة عدد كبير من الركاب بينهم كثير من السيدات خلافاً للمعهود في أمثال هذه الرحلات ، كما لمحت في لائحة المسافرين أسماء عدد من أصحابي . وقد سرَّني أن أجد اسم السيد كورنيلوس ويات على اللائحة . كان كورنيلوس الفنَّان الشاب صديقاً حميماً لي منذ أيام دراستنا الجامعية ، حين كنا نمضي معظم أوقاتنا معاً . كان يتميّز بصفات العباقرة ، وكان مزيجاً من الحماسة وتجنّب الناس ورهافة الإحساس ، وإلى هذه الميزات يجمع أخلص وأنبل قلب خفق في صدر إنسان .

عرفت أن ويات قد حجز ثلاث غرف ، وعندما استعرضت لائحة المسافرين وجدت أنه حجز الغرف لنفسه وزوجته وأختيه . كانت غرف السفينة واسعة ، في كلٍّ منها سريران الواحد فوق الآخر . ومع أن أسرة السفن تكون ضيّقة عادة بحيث يستحيل أن يتسع الواحد منها لأكثر من شخص ، لم أفهم تماماً حاجة الأشخاص الأربعة إلى ثلاث غرف . كنت آنذاك في حالة فضولية تجعل المرء يتساءل عن أتفه الأمور ، وأعترف بخجل ، أنني بذلت جهداً كبيراً وأساليب ملتوية لمعرفة السبب في حجز الغرفة الثالثة . لم يكن الأمر يعنيني ، بالطبع ، لكن ذلك لم يصرفني عن عزمي على معرفة السبب . وأخيراً توصّلت إلى نتيجة جعلتني أستغرب كيف أنني لم أكتشف السر بسهولة . قلت مخاطباً نفسي : «ترافقهم خادمة ، دون شك» . لكن حين عدت إلى اللائحة مرة ثانية ظهر لي خطأ اكتشافي . ويبدو أنهم اعتزموا بادئ الأمر أن يستصحبوا خادمة إضافية ولا ريب ـ شيء نفيس لا يريد صديقي أن يقع بين يدي سواه ، شيء يرغب في

الاحتفاظ به تحت بصره ـ آه ، «الآن عرفت ـ هي لوحة دون ريب ، وهذا ما كان يساوم عليه نيكولينو الإيطالي اليهودي» . أشبعت هذه النتيجة فضولي وصرفت النظر عن البحث .

كنت أعرف أختيّ ويات معرفة جيدة . كانتا فتاتين جميلتين ذكيتين . أما ويات فقد كان حديث العهد بالزواج ولهذا لم يتسنّ لي أن أتعرّف على زوجته . لكم تحدّث عنها في حضوري بطريقته الحماسية المعهودة ، كان يصفها بالجمال الخارق والفكر الثاقب والمهارة ، لهذا كنت شديد الرغبة في التعرّف عليها .

عندما كنت على المتن في ذلك اليوم (الرابع عشر من الشهر) أخبرني القبطان أن ويات وصحبه قادمون لزيارة السفينة أيضاً ، ولهذا انتظرت ساعة إضافية عمّا كنت نويت أن أصرفه هناك ، على أمل أن أرى العروس ؛ لكن القبطان أخبرني بعد قليل أنه تلقى خبراً يقول إن السيدة ويات ليست على ما يرام ولذا فإنها لن تزور السفينة قبل موعد الرحلة .

وحين كنت في طريقي من الفندق إلى المرفإ في اليوم التالي ، التقيت القبطان هاردي الذي قال «إنه بسبب الظروف (هذه العبارة السخيفة التي تطلق جزافاً) لن تبحر «الاستقلال» قبل يوم أو يومين ، وإنه عندما يكون كل شيء جاهزاً للرحلة سيعلمني بذلك» . أدهشني هذا التأجيل ، إذ إنّ الريح كانت أكثر ما تكون ملاءمة للسفر . وحاولت دون جدوى أن أكتشف «الظروف غير المناسبة» ! لم يكن أمامي سوى العودة إلى الفندق أكتم لجاجتي ببطء .

لم يرسل القبطان كلمته المنتظرة قبل أسبوع تقريباً . وحالما تسلمتها توجّهت على الفور إلى السفينة . وجدتها تعج بالركّاب ، وكل ما على متنها في حالة الضوضاء والفوضى التي تسبق الإبحار . بعد عشر دقائق من وصولي أطلّ ويات وأهله ـ الأختان والعروس و . الفنان ؛ وبدا لي أن صديقي يجتاز إحدى نوبات تجنّب الناس . كنت قد اعتدت مثل هذه الحالات منه ، لذا لم أعرها أيّ اهتمام . أما هو فلم يحاول أن يقدمني إلى زوجته ، فاستدركت أخته ماريان الأمر ، وكانت فتاة جميلة جداً وذكية ،

وعرّفتنا الواحد إلى الآخر بكلمات موجزة .

كانت السيدة ويات تضع على وجهها قناعاً محكماً ، وعندما رفعت القناع لترد على تحيتي لم أتمالك من إبداء الدهشة ، ولولا أن تجاربي علّمتني أنه ليس من الحكمة التسليم بآراء صديقي في كل ما يتعلق بجمال النساء ، لكان دَهَشي فوق هذا الحد . كنت على علم تام بأية حرارة يندفع صديقي في إغداق الأوصاف المثالية حين يكون الموضوع متعلّقاً بالجمال .

الحق أنني رأيت السيدة ويات امرأة عادية جداً ، إن لم أقل بشعة ، أو على الأقل قريبة من البشاعة . لكنها كانت ترتدي ثياباً أنيقة جداً ، ما جعلني أعتقد أنها قد أسرت قلب صديقي بجمال الفكر والروح . تفوّهت السيدة بعبارات قليلة جداً ، بعد ذلك أسرعت إلى غرفتها صحبة زوجها .

عاد فضولي القديم الآن يقلقني . لم تكن تصحبهم خادمة ؛ كان هذا جلياً أكيداً ، فرحت أترقّب الأمتعة الإضافية . بعد قليل وصلت إلى الميناء عربة تحمل صندوقاً من خشب الصنوبر ذا شكل مستطيل . وبدا لي أن هذا الصندوق هو الشيء الذي كنت أنتظر . . هو السرّ . بعد وصوله أقلعنا فوراً ولم يطل بنا الوقت حتى خضنا في عرض البحر .

كان الصندوق الذي وصل كما قلت ذا شكل مستطيل . كان طوله حوالى ستة أقدام وعرضه قدمين وعلوه نصف قدم . راقبته باهتمام لأني أحببت أن أكون دقيقاً في استنتاجي . كان شكل الصندوق غير عادي ، وحالما رأيته سرّني أنني أحكم على الأمور بدقة . كنت قد توصلت إلى نتيجة واضحة ، كما أشرت سابقاً ، وهي أن المتاع الإضافي لصديقي الفنّان كان عبارة عن لوحات فنية ، أو على الأقل لوحة فنية واحدة لأنني عرفت أنه كان قد تفاوض مع نيكولينو لعدة أسابيع خلت : ـ والآن هذا هو الصندوق الذي لا شك أنه يحتوي على نسخة من «العشاء الأخير» للفنان ليوناردو(*) . وكنت أعرف أن النسخة التي رسمها روبيني للعشاء الأخير

(*) ليوناردو دا ڤينتشي (١٤٥٢ - ١٥١٩) من نوابغ عصر النهضة ، تعاطى التشريح والهندسة والأدب والموسيقى والنحت ولا سيما الرسم الذي قامت عليه شهرته . أشهر لوحاته «الجوكوندا» و«العشاء الأخير» أو «العشاء السرّي» .

في فلورنسا ، هي في حوزة نيكولينو ، لهذا اقتنعت بيني وبين نفسي أن الأمر لم يعد سراً . وكم ضحكت في سري عندما تأملت مقدار دقة ملاحظتي . كانت هي المرة الأولى التي عرفت فيها أن ويات يخفي عليّ شيئاً من أسراره الفنية ، لكنه على ما يبدو كان ينوي أن يقوم بلعبة من خلف ظهري ويهرّب اللوحة إلى نيويورك تحت سمعي وبصري دون أن أعرف عن الأمر شيئاً . ولهذا قررت أن أستدرجه إلى إثارة المسألة في الحال أو في أية فرصة أخرى تسنح في المستقبل .

على أنه بقي سر واحد لم يشغلني بتاتاً ، وهو أن الصندوق لم يوضع في الغرفة الإضافية الفارغة وإنما وضع في غرفة ويات حيث احتلّ أرضية الغرفة تقريباً ـ ما يسبب إزعاجاً أكيداً للفنان وزوجته ، خصوصاً أن الدهان الذي استعمل لكتابة العنوان كان ينشر رائحة مزعجة ، لا بل رائحة أحسست أنها كريهة . لقد كتب على الغطاء بحروف كبيرة الكلمات التالية : «السيدة أديليد كورتيس ـ ألباني نيويورك ، بوساطة كورنيلوس ويات ، هذا الوجه إلى فوق ، الرجاء نقله بعناية» .

كنت على يقين بأن السيدة أديليد كورتيس ، التي تسكن في ألباني ، هي حماة الفنّان ، وأنَّ العنوان بكامله لم يخدعني ، إذ اعتبرت أنه كتب خصيصاً لتضليلي ، وهكذا أيقنت بأن الصندوق وما فيه لن يصل إلى مكان أبعد من ستوديو صديقي ، في شارع تشامبرز نيويورك .

خلال الأيام الثلاثة أو الأربعة الأولى ، كان الطقس رائقاً ، والريح هادئة جداً خاصة بعد أن استدرنا شمالاً حالما ابتعدنا عن الشاطئ . كان الركاب مرحين يميلون إلى الاختلاط والمفاكهة . أقول هذا مستثنياً ويات وأختيه الذين كانوا يتصرّفون بجفاء ، بل كان سلوكهم نحو الركاب أقرب إلى عدم الاحترام . لم أهتم كثيراً بتصرفات ويات ، فقد كان مكتئباً أكثر من عادته ـ في الحقيقة كان مغموماً ـ لكنني كنت مع ذلك على استعداد لتقبّل مثل هذا الشذوذ . أما الأختان فلم أجد لتصرّفهما أي عذر . لقد اعتزلتا في غرفتيهما معظم الوقت ، ورفضتا أي اختلاط مع أي مسافر آخر رغم إلحاحي المتكرر عليهما بفك عزلتهما .

كانت السيدة ويات أكثر انسجاماً من الثلاثة الآخرين ، أعني أكثر كلاماً ، وكثرة الكلام في عرض البحر ليست بالأمر المرغوب كثيراً . أصبحت بالتالي على علاقة وثيقة مع أكثر السيدات المسافرات ، وكانت دهشتي بالغة حين شعرت أنها لا تميل إلى التحدث مع الرجال . لقد آنستنا جميعاً ، أقول «آنستنا» ـ ولا أدري كيف أوضح ما أقول . الحقيقة هي أن السيدة ويات كانت أكثر الأحيان مصدر ضحك منها وليس لها . لم يكن الرجال يشيرون إليها كثيراً ، لكن النساء أخذن بعد فترة وجيزة يصفنها بأنها «مخلوقة طيبة القلب ، لا يثير مظهرها أي فضول ، جاهلة وعامية المستوى» . أمّا التساؤل الذي كان يتردد على الشفاه فهو كيف وقع ويات في هذه الورطة ـ الثروة ، كان هو الجواب الشائع ـ لكنني كنت قد عرفت من ويات أنها لا تملك دولاراً واحداً ، ولا تنتظر أن ترث أي دولار من أي مصدر . لقد تزوّج منها كما قال «للحب ، وللحب وحده ، وأن عروسه تستحق منه ما هو أكثر بكثير من الحب» . عندما تأملت في أقوال صديقي هذه وجدتني حائراً إلى حدّ كبير . هل فقد صديقي عقله؟ أي شيء كان يمكن أن يرد إليَّ ذهني؟ ويات الرجل المثقف ، المرهف الحس ، النافذ البصيرة إلى كل شائبة ، الذي يقدّس الجمال ! لم يكن هناك شك بأن السيدة كانت من جهتها مولعة به ـ خاصة في غيابه ، عندما كانت تضع نفسها موضع سخرية لكثرة ما تردد أقوال زوجها . كانت كلمة «زوجي» لا تفارق شفتيها ـ أو على حد تعبيرها الشيّق «زوجي دائماً على رأس لساني» . ومع الوقت أصبح الجميع يلاحظون أن زوجها يتجنّبها بشكل خاص ، إذ كان ينفرد في غرفته معظم الوقت ، ويغلق الباب على نفسه ، تاركاً لزوجته الحرية الكاملة في أن تتصرّف كما تشاء في البهو العام .

وأمّا الخلاصة التي توصلت إليها بعد كل الذي رأيت وسمعت ، فهي أن الفنّان ، بسبب إحدى زلّات المصادفات ، وربما بسبب نزوة هيام متّقد ، قد ربط بينه وبين مخلوقة هي أدنى ثقافة منه بكثير ، وأن النتيجة الحتمية لهذا الارتباط كانت كرهه السريع لها . لقد أثار شفقتي من أعماق قلبي ، لكن ، لهذا السبب بالذات ، لم أتمكن أن أغفر له كتمانه أمر «العشاء الأخير» وهذا

ما دفعني إلى أن أصمم على الانتقام .

في أحد الأيام صعد ويات إلى سطح السفينة ، فشبكت ذراعي في ذراعه كعادتنا ورحنا نتمشى جيئة وذهاباً . كان كئيباً ليس لكآبته قرار (الأمر الذي كنت أعلّله بعد أن عرفت أسبابه) . كان قليل الكلام ، والقليل الذي يتفوّه به كان يخرج من فمه بجهد وألم . حاولت أن أتندّر بفكاهة بين الحين والآخر ، فما كانت فكاهاتي لتلقى منه سوى ابتسامة صفراء . يا للمسكين ! حين فكرت بزوجته عذرته ، حتى ولو لم تنفرج شفتاه عن طيف ابتسامة . أخيراً قررت أن أقتحم صلب الموضوع . رأيت أن أبدأ بإيماءات واضحة إلى الصندوق المستطيل - لأجعله يدرك تدريجاً بأنني لم أكن ضحية سهلة لدعابته - العبارة الأولى التي بدأت فيها مخططي كانت تتعلق ببطارية موضوعة في صندوق ، ثم ذكرت شيئاً ما حول «الشكل الغريب لذلك الصندوق» وأتبعت قولي بلمسة خفيفة من أصابعي لخاصرته ، وغمزته كما لو أنني على علم بشيء هام .

الطريقة التي تقبّل ويات بها هذه الدعابة الخفيفة أقنعتني حالاً بأن الرجل مجنون . في البدء حدّق فيّ كمن يستحيل عليه فهم ما أعني ، لكن حين بدأت كلماتي تجد طريقها إلى رأسه ، أخذت عيناه تجحظان تدريجاً كأنهما تحاولان أن تقفزا من محجريهما ، ثم أصبح لونه شديد الاحمرار - ثم شديد الشحوب - أخيراً ، وكأنه سُرَّ كثيراً بما قلت ، انفجر بضحكة مدوّية استغرقت ، لفرط دهشتي ، حوالى عشر دقائق أو أكثر ، انكبّ بعدها على وجهه فوق ظهر السفينة . وعندما أسرعت لأرفعه بدا لي ميتاً .

طلبت النجدة ، وبعد جهد كبير استطعنا أن نعيده إلى رشده . حين أفاق نطق لبضع دقائق كلمات لا معنى لها . أخيراً حملناه ووضعناه في فراشه . في صباح اليوم التالي ظهر وكأنه استعاد جميع قواه ، الجسمانية منها على الأقل ؛ وبالطبع لا يمكنني أن أقول شيئاً عن قواه العقلية . تجنبته منذ تلك اللحظة حتى نهاية الرحلة نزولاً عند رغبة القبطان الذي كان ، على ما يظهر ، متفقاً معي كلياً فيما يتعلّق بجنونه ، لكنه نبهني كي لا أذكر شيئاً عن هذا الأمر لأي شخص آخر .

حدثت أشياء كثيرة أخرى بعد هذه النوبة أدّت إلى إثارة فضولي الذي كان يتملّكني في كل حال . من هذه الأشياء الحادثة التالية : ذات مساء كنت متوتّر الأعصاب ـ شربت شاياً أخضر قوياً قدّمه لي القبطان بكميات زائدة ، فلم أتمكن من النوع في أثناء الليل ـ بل لم يغمض لي جفن خلال ليلتين متتاليتين . كانت غرفتي متصلة بالقاعة الخارجية ، أو غرفة الطعام ، ككل الغرف الأخرى التي يحتلها غير المتزوجين . وكانت غرف ويات الثلاث في مكان متصل بالقاعة من الجهة الأخرى ، يفصل بينها وبين غرفة الطعام باب صغير لا يقفل أبداً حتى في أثناء الليل . كانت الريح شديدة ، تهب على السفينة بصخب ، ما جعلها تميل بهيكلها مع الريح . وفي مثل هذه الحالة ، حين يصير جانب السفينة الأيمن مائلاً أكثر من المعتاد ، كان الباب الذي يفصل الغرف ينفتح ويبقى كذلك دون أن يكلّف أحدٌ نفسه عبء النهوض من فراشه ليغلقه . كان وضع سريري يتيح لي أن أرى الجهة الثانية بوضوح ، إذ كان باب غرفتي مفتوحاً (كنت أتركه مفتوحاً بسبب الحر) ، فلمّا فُتح الباب المذكور استطعت أن أرى جيداً الجانب الذي توجد فيه غرف السيد ويات وأهله . النتيجة أنني خلال ليلتين (غير متتاليتين) ، وبينما كنت مستيقظاً في فراشي ، رأيت السيدة ويات بكل وضوح تخرج بحذر من غرفة زوجها حوالى الساعة الحادية عشرة ، تخطو ببطء على رؤوس أصابعها ، ثم تدخل الغرفة الإضافية الفارغة حيث تبقى حتى طلوع الفجر ، حين يأتي زوجها ويوقظها فتعود معه إلى غرفتين . وقد أكّد لي هذا الأمر أنهما منفصلان ولذا فهما يستعملان غرفتين مستقلتين . وليس أبلغ من هذا الدليل على انفصالهما . هكذا اكتشفت أخيراً لغز الغرفة الإضافية .

على أنّ هناك شيئاً آخر أثار اهتمامي إلى درجة كبيرة ، وهو أنه خلال الليلتين المذكورتين وفور خروج السيدة ويات من الغرفة إلى الغرفة الإضافية تناهت إلى سمعي أصوات غريبة ، حذرة مكبوتة صادرة من غرفة السيد ويات . وبعد أن أنصتّ طويلاً إلى هذه الأصوات ، وأنا غارق في التفكير ، نجحت أخيراً ، ولو جزئياً ، في معرفة طبيعتها . كانت ناجمة عن محاولات الفنان فتح الصندوق المستطيل بوساطة إزميل ومطرقة صغيرة ملفوفة كما

يظهر بشيء ناعم كالقطن أو الصوف كي يتلاشى صوتها عند الطرق .

تصوّرت بهذه الطريقة أنني سأتمكن من تحديد الدقيقة التي يتوصل بها إلى خلع غطاء الصندوق ، وأيضاً متى سيكون قد أزاحه كليّاً ، ومتى سيضعه على السرير السفلي في غرفته . هذه النقطة الأخيرة عرفتها من الصوت الذي يصدر عندما يصطدم غطاء الصندوق بحرف السرير الخشبي ، حين يحاول الفنان أن يضعه عليه بكل هدوء ، إذ لم يكن له مكان على أرض الغرفة . بعد ذلك سيطرت فترة هدوء عميقة ولم أعد أسمع شيئاً حتى طلوع الفجر ، ما عدا ـ بإمكاني أن أضيف هذا ـ صوت نحيب مكبوت ، أو تمتمة ضعيفة إلى درجة أنها تكاد لا تُسمع ، هذا إن لم تكن الأصوات الأخيرة من بنات خيالي . أقول إنها أصوات تشبه النحيب أو التأوه ، لكن ، بالطبع ، لم تكن شيئاً من هذا القبيل . أفضّل أن أعتبرها أصواتاً تخرج من أذنيّ . كان من عادة السيد ويات أن يترك العنان لميوله ، خصوصاً ما تعلّق منها بالحماسة للفن ، وهكذا فهو يفتح الصندوق كي يشبع عينيه من التحفة الفنية التي في داخله ؛ على أية حال لم يكن في هذا الصندوق ما يجعله ينتحب . لذا أكرر بأن تلك الأصوات كانت من نتاج خيالي الذي هيّجه شاي القبطان هاردي . قبل الفجر بقليل ، في تينك الليلتين المذكورتين ، سمعت السيد ويات بوضوح يعيد الغطاء إلى الصندوق ويعيد المسامير إلى أمكنتها بالمطرقة الملفوفة . وكان بعد أن ينتهي من كل هذا يندفع خارجاً بكامل ثيابه ويدعو زوجته من غرفتها .

مضت سبعة أيام ونحن في البحر . وكنا قد مررنا بمضيق هاتيراس عندما نزلت بنا ضربة قاصمة من الجنوب الغربي . وكنا إلى حدٍّ ما مستعدين لها ، إذ كان الطقس يسوء تدريجاً يوماً بعد يوم .

أبحرنا تحت هذا الجو بأمان لمدة ثماني وأربعين ساعة ، وقد برهنت السفينة خلالها على أنها مركب بحري ممتاز إذ لم يدخلها من الماء شيء يذكر . وفي الساعة الأخيرة انقلبت السكينة إلى إعصار مزّق الأشرعة وتركنا نتخبط بين الأمواج التي غمرت مياهها السفينة . أدى هذا إلى فقدان ثلاثة رجال كانوا في المطبخ السطحي ، وضياع كل المتاريس التي في الجهة

اليسرى . وما كدنا نسترجع وعينا ، بعد أن تمزّق الصاري الأمامي إلى نتف ، حتى ساد البحر سكون يتخلل العاصفة لفترات قصيرة ، فأمضينا بعض الوقت على حال جيدة . وأخذت السفينة بعد ذلك تطفو على الماء بثبات واتزان .

غير أن الإعصار لم يفتر ، وما كنا لنترقّب هدوءه بكثير من الأمل . لم تكن أحزمة الأشرعة محكمة الربط ، فضلاً عن أنها كانت قد توترت بشدة . وفي اليوم الثالث من العاصفة ، حوالى الساعة الخامسة بعد الظهر ، انقلع ، إثر دفعة قوية من الريح ، صاري المؤخرة وسقط على المتن . حاولنا خلال ساعة أو أكثر أن نتخلص منه لكن دون جدوى ، بسبب تأرجح السفينة ، وقبل أن ننجح في الخلاص منه ، أسرع النجّار يعلن لنا أن الماء في السفينة أصبح على علو أربعة أقدام ، وقد ازداد موقفنا حراجة حين وجدنا أن المضخات قد تعطلت ولم تعد صالحة للعمل .

ساد السفينة جوّ من اليأس والاضطراب ، لكننا رحنا نبذل قصارى جهدنا لتخفيف الأحمال ، فأخذنا نلقي في البحر كل ما تصل إليه أيدينا ، وقطعنا الصاريين الباقيين . أتممنا هذه المهمة لكننا لم نتمكن من القيام بأي عمل لإصلاح المضخات ، وأخذ تدفق المياه يزداد ارتفاعاً .

مع مغيب الشمس خفّت حدة الإعصار وهدأت معها ثورة البحر ، وهكذا احتفظنا ببعض الأمل في أن ننقذ أنفسنا باستخدام القوارب . وحوالى الثامنة مساء هبت الريح وبدّدت الغيوم فأطلّ القمر بتمامه وكأنه قطعة من الحظ السعيد ساعدت في رفع معنوياتنا .

على ضوء القمر وبعد جهد وعناء نجحنا في أن نسحب القارب الطويل من جانب السفينة وحشرنا فيه جميع البحّارة وغالبية الركاب . تحرّكت هذه الدفعة بسرعة ، وبعد عذاب ومشقات كثيرة وصل أفرادها إلى أوكراكوك في اليوم الثالث بعد الحادث .

كان قد بقي في السفينة أربعة عشر راكباً مع القبطان ، بعد أن قرروا استخدام قارب النجاة الصغير الموجود في المؤخرة . أنزلنا القارب دون صعوبة ، ومن العجيب أنه حين لمس وجه الماء لم ينقلب ، إذ كان فيه ،

عندما طفا ، القبطان وزوجته ، السيد ويات وأسرته ، ضابط مكسيكي وزوجته مع أطفالهما الأربعة ، وأنا وخادم زنجي .

لم يكن في القارب بالطبع أية فسحة تتسع لأي شيء سوى القليل من الأدوات الضرورية جداً ، وبعض الأجهزة والثياب المحزومة على ظهورنا . لم يفكر أحد مجرد تفكير بأن ينقذ أي شيء آخر . وكم كانت دهشة الجميع عظيمة حين وقف السيد ويات ، بعد أن ابتعدنا بضعة أمتار عن السفينة ، وطلب من القبطان بكل سذاجة أن يعود بالقارب إلى السفينة لإحضار صندوقه المستطيل .

ولكن القبطان صاح بدهشة :

ـ «اجلس يا سيد ويات . ستهلكنا إن لم تجلس بهدوء ؛ لقد بلغ الماء حافة القارب» .

«الصندوق !» صرخ السيد ويات وهو لا يزال واقفاً «لا يمكنك يا قبطان هاردي ، يجب أن لا ترفض طلبي . سيكون وزنه خفيفاً ـ لا شيء ـ مجرد لا شيء . بحق الأم التي حملتك ـ بحق السماء ـ بحق أمل نجاتك ، أرجوك أن نعود لنأتي بالصندوق !» .

بدا القبطان لبرهة وجيزة وكأنه تأثر بكلمات الفنان ، لكنه استعاد ملامح الجد ثانية وقال :

ـ أنت مجنون يا سيد ويات . لا أستطيع أن أصغي إليك . اجلس ، أقول اجلس وإلا ستغرق القارب بنا . قف ، أمسكوه ـ اقبضوا عليه ! ـ إنه على وشك أن يقفز إلى الماء ! هيا ، لقد توقعت ذلك . رمى بنفسه !» .

وفيما كان القبطان يقول هذا ، قفز السيد ويات إلى الماء فعلاً . وبما أننا كنّا لا نزال قريبين من مكان الحطام ، فقد تمكّن ، بعد جهد يفوق جهد البشر ، من أن يمسك بحبل ، يتدلّى من السلاسل الأمامية للسفينة . وبعد قليل أصبح على المتن واندفع إلى الداخل باتجاه الغرف .

في هذه الأثناء كانت المياه قد دفعتنا بعيداً عن السفينة وأصبحنا تحت رحمة أمواج البحر الهائج ، الذي كان لا يزال يهدر . حاولنا جهدنا أن نعود إلى الوراء لكن قاربنا الصغير كان كالريشة في مهب العاصفة . واتضح لنا

بلمح البصر أن مصير الفنان السيئ الحظ بات معروفاً .

وبينما كانت المسافة التي تفصلنا عن السفينة تتزايد رأينا الرجل المجنون (إذ كنا قد اعتبرناه مجنوناً لا أكثر) يظهر على السطح ، ويجر بقوة لا يملكها بشري صندوقه المستطيل ، ثم لفّ الحبل حول الصندوق أولاً ثم حول نفسه عدة مرات ، واندفع به إلى البحر الذي ابتلعهما معاً بسرعة فجائية وإلى الأبد .

ظللنا برهة ، أيدينا على المجاذيف وأعيننا مسمَّرة على مكان الفاجعة . وجمدنا في صمت استمر مدة ساعة ، صمت مثقل بالحزن . وأخيراً تجرأت أن أتفوه بشيء فقلت :

«هل لاحظت يا حضرة القبطان كيف غرقا فجأة؟ ألم يكن ذلك شيئاً غريباً؟ لقد خامرني بعض الأمل في نجاته عندما شاهدته يربط نفسه إلى الصندوق ويرمي بنفسه في الماء» .

«لقد غرقا دون ريب» قال القبطان «كما يغرق الرصاص . على كلٍّ لن يلبثا طويلاً حتى يطوفا على وجه الماء ، لكن ليس قبل أن يذوب الملح» .

«الملح» ! صرخت مندهشاً .

«اصمت» قال القبطان ، مشيراً إلى أختيّ المرحوم وزوجته . «ستتكلم عن هذا في وقت لاحق» .

نجونا أخيراً ، ولكننا قاسينا كثيراً . فقد حالفنا الحظ ، كما حالف رفاقنا في القارب الذي سبقنا . وحين نزلنا إلى البر كانت حالتنا أقرب إلى حالة الموتى منها إلى الأحياء . بعد أربعة أيام من الأهوال نزلنا على الشاطئ المقابل لجزيرة رواندك . بقينا هناك أسبوعاً ، وتسنّى لنا أخيراً أن نستأنف عودتنا إلى نيويورك .

بعد شهر من غرق الباخرة «الاستقلال» تقريباً التقيت القبطان هاردي مصادفة في برودواي . وتطرّق حديثُنا طبعاً إلى تلك المأساة ، وإلى المصير المؤلم الذي لاقاه المسكين ويات . وعندها عرفت التفاصيل التالية :

كان الفنان قد حجز الغرف الثلاث لنفسه وزوجته ولأختيه والخادمة . وكانت زوجته كما كان يحكي عنها تماماً . . سيدة رائعة الجمال حسنة

الإدراك مثقفة . في صباح يوم الرابع عشر من حزيران/ يونيو (اليوم الذي زرت فيه السفينة) مرضت السيدة فجأت وماتت ، فجُنَّ الزوج المسكين من فرط الحزن . لكن الظروف لم تسمح له بأن يؤخر سفره إلى نيويورك ، وكان من الضروري أن يحمل جثمان زوجته الحبيبة إلى أمها . والمعروف أنه يصعب على الركاب تقبّل مثل هذا الأمر ، إذ لو عرفوا به لكان معظمهم فضَّل مغادرة السفينة على السفر برفقة جثة مسجّاة في صندوق .

وإكراماً للزوج في هذا المأزق رأى القبطان هاردي أن يشحن الجثمان على أنه متاع عادي ، وذلك بعد أن يحفظ جيداً وتوضع معه مقادير كبيرة من الملح في صندوق متناسب الحجم . لم يكن قد شاع بعد خبر موت السيدة . وبما أنه كان معروفاً أن السيد ويات قد حجز مكاناً لزوجته ، فقد أصبح لزاماً أن يشغل شخصٌ ما مكانها . واستقرّ الرأي على أن تقوم بهذا الدور خادمة السيدة المتوفاة . ولذا فالغرفة الإضافية ، التي حجزت منذ البداية باسم الخادمة ، بقيت محجوزة ، وفي هذه الغرفة كانت تنام الزوجة البديل . وفي أثناء النهار كانت تقوم قدر ما تمكّنها مواهبها بتمثيل دور السيدة ، بعد أن تأكد الزوج أن أحداً من المسافرين لا يعرفها .

كان استنتاجي الخاطئ ناجماً عن فضول بالغ ، ولامبالاة ، ومزاج سريع التأثر . لكنني في الأيام الأخيرة لم أعد أستطيع النوم ملء عيني مطلقاً . كان طيف وجه صديقي يلازمني باستمرار أينما رحلت . وستبقى ضحكته الهستيرية تقرع أذنيَّ إلى الأبد .

النظرة الأولى

جرى الناس على أن يستخفّوا بما يعرف بـ«الحب من أول نظرة» . غير أن من يعمل فكره في الأمر ملياً ، ولا سيما مَن كان مرهف الحس ، لا يمكنه أن يشك أبداً في حقيقة هذا النوع من الحب . ثم إن الاكتشافات الحديثة ، التي تسمى «المغناطيسية ـ الشخصية أو المغناطيسية ـ الجمالية» أظهرت أن أسمى العواطف البشرية وأصدقها هي تلك التي تنشأ في القلب كما لو أنها تنشأ بفعل تفاعل كهربائي . وبكلمة أخرى إن أقوى الروابط الروحية وأبقاها هي التي تنشأ بفعل لمحة يتبادلها المحبان . وهذه القصة ، التي سأرويها الآن ، ستضيف دليلاً جديداً على صحة ما أقول .

تستدعي قصتي أن أروي تفاصيل كثيرة . لا أزال شاباً لم أتجاوز سنتي الثانية والعشرين ، وأنا ، في الوقت الحاضر ، أدعى باسم شائع جداً هو سمپسون . قلت ، في الوقت الحاضر ، ذلك لأنني اكتسبت هذا الاسم في العام الماضي من طريق المحاكم كيما أصبح الوريث الشرعي لنسيب ثري يدعى أدولف سمپسون . وقد اشترط أدولف هذا قبل وفاته أن أتخذ اسم عائلته اسماً شخصياً لي بينما في الواقع كان اسمي الشخصي هو نابوليون بونابرت .

اتخذت اسم سمپسون بحسرة كبيرة ، ذلك أنني كنت أعتز اعتزازاً بالغاً بالانتساب إلى حسب عريق هو «فرواسار»(*) ، ومن طريقه أتصل بنسب مؤلف «الحوادث» الخالد . وبمناسبة التحدث عن الأسماء يجدر بي أن أذكر بعض المصادفات الغريبة التي جعلت كثيراً من أسماء قاربي وأجدادي متشابهة إلى حد كبير . فوالدي من أهل باريس ، وكان يعرف باسم السيد فرواسار ، وزوجته ـ أي أمي ـ التي تزوجها صغيرة لم تتجاوز الخامسة عشرة ، كانت تدعى الآنسة كرواسار ، وهي الابنة الكبرى للمتموّل الكبير

(*) جان فرواسار Jean Froissart (١٣٢٧ - ١٤١٠؟) : كاتب حوليات وشاعر فرنسي . رسم قساً ولكنه أهمل الخدمة الدينية . أرخ لعصره في مذكراته التي شملت تاريخ أوروبا منذ أوائل القرن ١٤ حتى ١٤٠٠ ، أي النصف الأول من حرب المائة عام .

المعروف باسم كرواسار الذي تزوج بدوره فتاة صغيرة السنّ في عامها السادس عشر هي ابنة اليد ڤيكتور فواسار . وهذا السيد فواسار كان هو أيضاً قد تزوج فتاة صغيرة السن وذات اسم مشابه تدعى الآنسة مواسار ، وأم هذه الأخيرة تزوجت كذلك صغيرة ، أي في سنها الرابعة عشرة ، وأعني بها السيدة مواسار ، وهذه الزيجات من فتيات صغيرات السن طبيعية في فرنسا . المهم في الأمر أن مواسار وفواسار وكرواسار وفرواسار كانوا جميعاً يتحدرون من نسب واحد . أمّا أنا ، فقد ذكرت أن اسمي أصبح سمپسون ، ولكنني لم أذكر أنني تقبلت هذا الاسم على مضض ، وأنني فكرت كثيراً برفض الإرث ما دام مرتبطاً بهذا الشرط العجيب .

فيما يتعلق بالمزايا الشخصية ، أعتقد أنني أملك الكثير منها . فأنا ذو تركيب جسدي جيد ، ولي وجه ذو قسمات حسنة ، يتفق الكثيرون ، كما أعتقد ، على أنه وجه جميل . وأما قامتي فهي خمس أقدام وأحد عشر إنشاً ، وشعري أسود مجعَّد ، وأنفي متسق لا بأس بمنظره ، وعيناي كبيرتان رماديتا اللون ، ومع أنهما ضعيفتا النظر ، إلى درجة مشينة ، فإنّ أحداً لا يمكنه ، من ناحية الشكل ، أن يأخذ عليهما مأخذاً . كان هذا الضعف في نظري قد سبب لي بحد ذاته انزعاجاً بالغاً ، الأمر الذي ألجأني إلى كل علاج يخطر على البال بقصد تقويمه ، باستثناء النظارة ، فأنا لا أعرف شيئاً يشوه منظر شابٍّ ، ويطبعه بطابع الوقار الكاذب ، ويجعله يبدو أكبر من سنه أكثر من النظارة . أضف إلى ذلك أنَّ للنظارة سيئة أخرى هي أنها تسمُ من يستعملها بالتصنُّع ، وهذه من الصفات التي كنت أتجنّبها منذ صغَري . أكتفي بهذا القدر من التفصيل في أكثر مزاياي الشخصية التي ليست لها أهمية بالغة ، لكن يجب أن أضيف أنني ذو مزاج سريع الانفعال ، صريح ومندفع ، وأنظر إلى الأمور بحماسة شديدة . هذا بالإضافة إلى ميزة أخرى ـ في كل أيامي ـ كنت ولا أزال مولعاً بالنساء .

كنت أجلس في إحدى ليالي الشتاء الماضي مع أحد أصدقائي ، ويدعى تالبوت ، في مقصورة بدار الأوپرا . كان المكان مكتظاً بالنظّارة ، إذ إن إدارة الدار قامت بدعاية ضخمة ترويجاً لتلك الحفلة ؛ وكنا محظوظيْن ، أنا

وصديقي ، إذ وصلنا باكراً وتمكّنا من أن نشق طريقنا بين الحشود وأن نحتل المقعدين اللذين كنا حجزناهما مسبقاً .

كان صديقي مغرماً بالموسيقى ، لهذا بقي حوالى الساعتين مسمَّر العينين في المسرح . في هذه الأثناء رحت أتلهّى بالتفرج على الحضور الذين كانوا ، في غالبيتهم ، من نخبة سكان البلدة ، وبعد أن أشبعت فضولي وانتهيت من التفرج عليهمِ اتجهت بباصرتيّ إلى المسرح ، لكن فجأة لفتت نظري ، وأنا أستدير بعينيّ إلى المسرح ، امرأة تجلس في إحدى المقصورات التي فاتتني مراقبتها .

لو طال عمري ألف سنة لما قدرت أن أنسى المشاعر التي انتابتني حين رأيت تلك المرأة . كانت أروع وأجمل أنثى رأيتها في حياتي . كان وجهها منصباً بكليته نحو المسرح حتى أنني ، لبضع دقائق ، لم أتمكن من أن أراه بكليته ، غير أن القامة والشكل كانا شيئين إلـَـهيين ؛ أقول إلـَـهيين إذ لا أجد كلمة أخرى يمكنها أن تعبّر عما أعني ، وحتى هذه الكلمة تبدو كأنها تقصر عما أريد التعبير عنه .

كان سحر الجمال الأنثوي ـ سحر الرشاقة في المرأة ـ أمراً ليس باستطاعتي أن أصمد أمامه . وهنا في تلك المقصورة كان الجمال ماثلاً أمامي ، الجمال المثالي الذي يجسد أحلامي وطموحاتي الجامحة . كانت القامة ، التي استطعت رؤيتها بكمالها في المقصورة ، تبدو أطول من المتوسط قليلاً بحيث تقرب من الكمال . أمّا اكتنازها وأعطافها وثناياها فكانت ذات روعة مطلقة . وكان الرأس ، الذي لم يكن يبدو لي منه سوى مؤخرته ، ينافس أجمل الرؤوس التي عبرت لنا عنها الروح الإغريقية ، وكان مغطى ـ والأصح أن يقال كان مكشوفاً ـ بقبعة أنيقة أعادت إلى مخيّلتي إحدى لوحات أبوليوس ، والذراع اليمنى تتدلّى من حافة المقصورة برشاقة سحرت لبي ، والقسم الأعلى منها مغطى بذلك النوع من الأكمام الفضفاضة المشقوقة ، الذي ينسدل تحت المرفق ، وتحته كان كم آخر من النسيج الناعم المحبوك حبكاً دقيقاً ، ينتهي بشريط جميل ترك فوق ظاهر اليد بحيث تبدو الأصابع الدقيقة فقط ، وفي إحدى الأصابع يلمع خاتم ماسي تأكد لي على

الفور أنه ذو قيمة عالية جداً . وكان المعصم الجميل مطوقاً بسوار مطعّم بكثير من الجواهر البرّاقة ، وكل هذا يدلّ بما لا يقبل الشك على ثراء فاحش وعلى براعة في التأنُّق والذوق الرفيع .

طفقت أُحدق في هذا المشهد الملكي فترة لا تقل عن ثلاثين دقيقة كما لو أنني استحلت فجأة إلى حجر ، وفي هذه الأثناء انتابني شعور صارخ ، شعور بكل ما في الشعور من معنى ، بصواب كل ما قيل أو أكثر حول «الحب من أول نظرة» . كانت المشاعر التي انتابتني شيئاً لم أعهده أبداً من قبل ، حتى إزاء أجمل النساء وأكثرهن شهرة . إن شيئاً من تعاطف الروح مع الروح ، شيئاً لا يمكن وصفه بغير التعابير المغناطيسية ، كان يشدّ ليس عيني فقط ، بل جميع قواي الفكرية والباطنية إلى ذلك الشكل المحبَّب أمامي . رأيت ـ لا بل شعرت ـ شعرت أنني واقع في الحب بشكل عميق ، جنوني ، بشكل لا يُرد أبداً ، حتى قبل أن أرى وجه الشخص مصدر جميع هذه المشاعر . كان هيامي شديداً ، يتأكّلني بنهم ، إلى درجة أنني ظننت أنه لو تمت لي رؤية الوجه ، وبدا لي أنه وجه اعتيادي ليس على درجة من الجمال ، لما كان أصاب ذلك الهيام أي هوان . إن طبيعة الحب ، عندما يكون حباً حقيقياً وحيداً ـ الحب من النظرة الأولى ـ غير اعتيادية ، حتى أنها لا تتوقف كثيراً في الواقع على الحالات الخارجية التي تبدو كأنها تتحكم بها وتضبطها .

وبينا كنت مأخوذاً بهذه الرؤية الحبيبة ارتفعت بين الحضور جلبة مفاجئة جعلت المرأة تميل برأسها قليلاً باتجاهي ، فتمكّنت من رؤية ملامح الوجه جانبياً . كان جماله يفوق حدّ تصوّراتي وتقديري ، لكن كان هنالك شيء ما في تلك الملامح أصابني بنوع من خيبة الأمل يصعب تحديد أسبابها . قلت «خيبة أمل» مع أن هذه الكلمة ليست مناسبة تماماً . فترت عواطفي بسرعة وسكنت ، كأنما اكتفت بدل التجاوب أن تحظى بشيء من الاطمئنان العاطفي الثابت . لعل هذا الشعور نشأ بسبب سمات الوجه المتّشح بشيء من وقار الأمومة ، غير أنني توصلت بشكل مفاجئ إلى أن هذا الشعور لا يمكن أن ينشأ بكليته بسبب هذا فقط . كان هناك شيء آخر ـ غريب لا

أستطيع فهم تفاصيله - نوع من التعبير في الوجه والسلوك أدخل في روعي شيئاً من القلق وفي الوقت نفسه أثار اهتمامي إلى درجة كبيرة . في الواقع ، كنت أمر في تلك الحالة الذهنية التي تدفع بأي شاب إلى الإقدام على أي عمل مغامر وتقبُّل عواقب هذا العمل . لو كانت تلك السيدة وحدها لـمّا ترددت في أن أدخل مقصورتها وأتكلّم معها مهما تكن النتائج ، لكن - لحسن الحظ - كان برفقتها شخصان : رجل ، وامرأة رائعة الجمال تبدو أصغر منها بعدّة سنوات .

رحت أفكّر بيني وبين نفسي في عدة طرق تمكنني من التعرف إلى السيدة الكبيرة ؛ أو على الأقل تمكّنني ، في الوقت الحاضر ، من أن أراها بوضوح أكثر . لولا شدة الزحام لحاولت أن أنقل مكاني إلى موقع آخر بجوارها ، كما أن قواعد الذوق العام ، التي نشأت مؤخراً ، جعلت استعمال نظارات الأوبرا أمراً مستهجناً - هذا على افتراض أنه كان معي نظارات ، لكن على أية حال ، لم يكن ذلك متوفراً لدي ، ولهذا تهالكت يائساً .

بعد دقائق فكّرت أن أستنجد بصديقي ، قلت له :

- «تالبوت ، أعرني نظارتك التي تستعملها للمسرح ، لا شك أن معك واحدة» .

- «نظارة أوبرا - كلاّ ، وما الذي يجعلك تعتقد أنني أستعمل نظارة في دار الأوبرا؟» . ثم استدار نحو خشبة المسرح .

- «ولكن يا تالبوت» قلت مكملاً حديثي بعد أن جذبته من كمه ، «استمع إليّ ، هل ترى تلك المقصورة؟ هناك ، هل رأيت في حياتك أجمل من تلك المرأة؟» .

- «إنها رائعة الجمال دون شك» أجاب تالبوت .

- «تُرى مَن تكون؟» .

- «يا إلــهي ! ألا تعرف من هي؟ إن لم تعرفها فهذا يعني أنك لست من الوسط الاجتماعي . إنها السيدة «لالاند» التي يعرفها الجميع - إنها مثال الجمال الأسمى حالياً ومحور اهتمام البلدة كلها ، وهي ثرية جداً أيضاً ، وأرملة - وقد وصل خطيبها من باريس مؤخراً» .

ـ «هل تعرفها؟» .
ـ «نعم ، لقد سبق لي وتشرفت بمعرفتها» .
ـ «هل تقدمني إليها؟» .
ـ «بالتأكيد ، بمنتهى السرور ، متى ترغب في ذلك؟» .
ـ «غداً ، الساعة الواحدة . سألاقيك في المكان ـ ب» .
ـ «حسناً ، والآن احبس لسانك إن استطعت» .

كنت مرغماً ، بالنسبة إلى حبس اللسان ، على الأخذ بنصيحة تالبوت ، إذ إنه أولى أذناً صمّاء لكل التعليقات أو الأسئلة التي ألقيتها عليه بعد ذلك ، وانصب بكليته بقية السهرة يراقب ما يجري على المسرح .

في أثناء ذلك بقيت عيناي عالقتين بالسيدة لالاند ، وبعد وقت قصير حظيت بلمحة تمكنت معها من أن أشاهد وجهها كله . كانت رائعة الجمال ؛ لم يكن هناك مجال للشك في ذلك ، إذ إن قلبي قد سبق وأكّده لي ، غير أن ذلك الشيء الذي استعصى عليّ فهمه ظلّ يكدّرني . وأخيراً لم أجد مفراً من أن أستخلص ، بيني وبين نفسي ، أن مشاعري قد أصابها بلا ريب شيء من الحزن والأسى ، أو بالأحرى شيء من التعب ، ينزع عن معالم الجمال والشباب تألقها ويضفي عليها شيئاً من المهابة والشفقة . هكذا أضفت تلك الأفكار على الموقف اهتماماً وقلقاً لا يوصف بالنسبة إلى ما اتّصف به من طبيعة حماسية رومانسية .

وفي الوقت الذي كنت ألتهم بعينيّ المنظر الذي تملكني شعرت أن السيدة أحسّت فجأة باهتمامي بها . ومع هذا لم أتمكّن من أن أغض طرفي ولو لبرهة ، إذ كنت مأخوذاً كلياً بها . وحين مالت بوجهها جانباً تمكنت أن أرى ، مرة أخرى ، الثنايا الخلفية لرأسها البديع .

التفتت بوجهها نحوي تدريجاً كما لو أن شيئاً داخلياً قوياً يدفعها بإلحاح لتعرف إذا كنت لا أزال أنظر إليها ، والتقت عيناها بعينيّ المحدّقتين ، ولم يدم ذلك أكثر من لحظة أخفضت السيدة عينيها بعدها ، وبدا لي كأنّ احمراراً شديداً قد صبغ وجنتيها . وكم كانت دهشتي بالغة ، حين لم تكتف بالالتفات مرة أخرى نحوي ، بل وأكثر من ذلك ، حين تناولت من زنارها

نظارتين ورفعتهما ، ثم ثبّتتهما باتجاهي ، وأخذت تحدق فيّ طيلة دقائق باهتمام بالغ .

لو أن صاعقة سقطت بين قدميّ لما بلغت دهشتي ما بلغته آنذاك ـ أقول دهشتي ، إذ لم يساورني أي انزعاج أو تكدير ، هذا بالرغم من أن عملاً جريئاً كهذا لو قامت به أية امرأة ، لكان يؤدي إلى انزعاج دون شك ، لكنها قامت بذلك العمل بكل هدوء ، وبرودة ، واحتشام ، بشكل يدل على تربية أصيلة وثبات في النفس ؛ إنها ، باختصار ، لم تفسح في المجال ، بالطريقة التي اتبعتها ، لأي شعور بالفظاظة أو قلة الأدب ، ولهذا فإن مشاعري التهبت مجدداً بمزيد من الإعجاب والذهول .

لاحظت أنها في المرة الأولى ، عندما رفعت نظارتيها ، اكتفت بالنظر إليّ سريعاً ؛ لكنها فيما كانت تعيد النظارتين إلى مكانهما رفعتهما مجدداً وبحركة مفاجئة وسريعة إلى عينيها ، وكأنما تداعى إلى ذهنها خاطر جديد ، وعندها ثبتتهما عليّ وأطالت التحديق فيّ طيلة دقائق ـ طيلة خمس دقائق في أقل تقدير .

جذب هذا العمل ، غير المألوف في المسارح الأميركية ، انتباه الكثيرين من الحضور ، وسبّب حركة ودمدمة في القاعة أربكتني للحظات ، لكنها ، على ما ظهر لي ، لم تؤثر في شيء على مسلك السيدة لالاند .

بعد أن أشبعت السيدة لالاند فضولها ـ إذا كانت هذ التسمية ممكنة ـ رفعت نظاريتها وانصرفت إلى مشاهدة المسرح بهدوء ، وبدا لي وجهها جزئياً . وتابعت مراقبتها دون كلل رغم أني أعرف عدم لياقة تصرّفي ، ولم يطل الوقت حتى أخذ رأسها يميل بطيئاً باتجاهي ، حتى لم يعد عندي شك بأن السيدة ، وهي تتظاهر بمتابعة حركة المسرح ، كانت في الحقيقة تراقبني باهتمام . لا حاجة بي إلى القول كم كان وقع تصرّف كهذا ، ومن سيدة رائعة الجمال ، شديداً على ذهني السريع الانفعال .

بعد أن مضى على تفحّصها لي مدة لا تقل عن خمس عشرة دقيقة ، استدارت السيدة ، مصدر هيامي إلى الرجل الجالس بجانبها وأخذت تبادله بعض الكلمات ، التي لم أشك في أنها كانت تتعلق بي ، خصوصاً بعد أن

راح كلا الشخصين يرمقانني بنظراتهما بين الفينة والفينة .
وفور انتهائهما من الحديث استدارت السيدة لالاند بوجهها مرة ثانية نحو المسرح ، ولبضع دقائق ظهرت وكأنها مأخوذة بما يجري عليه . بعد انتهاء هذه الفترة ، أصابني هياج حاد كالحمى حين رأيتها تأخذ نظارتيها مرة ثانية وتتطلّع صوبي بكل جرأة كما فعلت من قبل ، ودون أي اكتراث لتذمر الحضور ودمدمتهم ، ثم أخذت تتفحصني بطريقة واثقة وبكل دقة ومهابة الأمر الذي سرّني كثيراً .
أوقعني هذا التصرّف غير العادي بين براثن حمى من التأثر ـ وفي أتون من مشاعر الحب . وبدل أن يقلقني ، ولو قليلاً ، شحن أعصابي بكثير من الجرأة ، في هذه الدوامة من الهيام الجامح ، نسيت كل شيء ما عدا حضور تلك المرأة وروعة الحب الذي غمر كياني بكامله . ورحت أترقب الفرصة ، حتى إذا ما خيّل إليَّ أن جميع الناس مستغرقون في الأوبرا ، وتمكّنت من أن التقط نظرات السيدة لالاند لبرهة عابرة ، قمت بانحناءة خفيفة من رأسي لم أشك ، رغم ضعفها ، بأنها أثّرت فيها .
علت وجهها حمرة الخجل ، ثم حوّلت عينيها عني ، وأخذت تجيل النظر فيما حولها بحذر وهدوء لتعرف ، على ما يظهر ، ما إذا كان تصرفي الجريء قد أثار انتباه شخص ما ، ثم مالت ناحية الرجل الذي يجالسها .
شعرت بفداحة الخطإ الذي اقترفته ، وكان أول ما خطر لي هو أن يُفتضح أمرنا بسرعة . وطافت أمام عينيّ ، فجأة ، صورة فوهات المسدسات ترتفع في صباح الغد الباكر . لكن سرعان ما تبدّدت مخاوفي عندما رأيت السيدة تمد يدها إلى مرافقها ببرنامج الأوبرا دون أن تتكلم . وبإمكان القارئ أن يتصور نوعاً ما شدّة دهشتي ـ دهشتي العميقة جداً ـ حيرة قلبي وروحي ، حين تطلّعت السيدة مجدداً نحوي بعد أن مرت برهة قصيرة ، وسمحت لعينيها البراقتين أن تلتقيا بعينيّ ، ثم حرّكت ـ وهي تبتسم ابتسامة خفيفة تكشف عن خيط برّاق من أسنان لؤلؤية ـ حركت رأسها بانحناءتين خفيفتين ، لا شك أنهما دليل على الموافقة .
لا طائل من الاستمرار في وصف فرحتي ، لا بل نشوة قلبي التي لا حدّ

لها . إذا كان هناك أي رجل أُصيب بالجنون جراء فرحة الحب ، فلا شك أنني كنت أنا هو ذاك الرجل في تلك اللحظة . لقد وقعت في الحب ـ إنه حبي الأول ـ وهكذا أسلمت نفسي للحب . كان حباً بأسمى معانيه ، لا يوصف ، كان «حباً من النظرة الأولى» ، ومن النظرة الأولى أيضاً وقع حبي في مكانه ، بل إنّ حبي قد استجيب أيضاً ، «من النظرة الأولى» .

أقول هنا إنني حظيت بالاستجابة من الانحناءة ، إذ كيف ولأي سبب يمكنني أن أشك بالأمر ولو للحظة؟ ثم ماذا يمكن أن يعني تصرف السيدة لالاند هذا ـ هذه السيدة الرائعة الجمال ـ الوافرة الثروة ، العالية الثقافة ، سليلة الأصل النبيل ، صاحبة المركز المرموق في المجتمع ، النبيلة في كل ناحية يمكن أن تخطر ببال؟ ماذا يمكن أن يعني هذا التصرف من السيدة لالاند غير الاستجابة للحب؟ نعم ، لقد أحبّتني ، لقد استجابت لحبي الكبير ؛ هذا الحب المندفع غير المتردّد الضارب عرض الحائط بكل التقاليد والأعراف . وبينما كنت سابحاً في هذه التخيّلات ، قطع عليّ أفكاري انسدال الستار وانتهاء الأوبرا . ونهض الحضور ، وعلت في القاعة جلبة اعتيادية تحدث بعد انتهاء كل حفلة . تركت تالبوت للتو دون استئذان ، وحاولت ، بكل ما أوتيت من قوة ، أن أشق طريقي إلى مكان أقرب من السيدة لالاند . لكن ، بعد أن فشلت في الاقتراب ، بسبب شدة الازدحام ، لم يبقَ أمامي إلاّ أن أوجه خطاي نحو منزلي معزّياً نفسي ، عن فشلي حتى في لمس طرف ردائها ، بأنني سأتعرف عليها رسمياً بوساطة تالبوت في الغد .

وأخيراً جاء الغد ـ أي أن نهاراً آخر بزغت شمسه بعد ليل طويل من القلق ـ ثم أخذت الساعة التي تفصل بين بزوغ الفجر وبين الواحدة موعد لقائنا تزحف زحفاً بطيئاً كالسلحفاة . لكن لكل شيء نهاية ، كما يُقال ، وحان الموعد المحدد . وحين دقت الساعة تعلن تمام الواحدة كنت أقفز فوق عتبة المكان المحدّد : وأسأل عن تالبوت .

ـ «ليس موجوداً» قال خادمه .

ـ «ليس موجوداً !» أجبت بدهشة كبيرة ! «استمع إليّ جيداً يا هذا . إنّ

الأمر لا يمكن أن يكون على هذه الصورة ! إن تالبوت لا يمكن أن يكون غير موجود ، ماذا تعني بذلك؟» .

ـ «لا أعني شيئاً يا سيدي ، أريد فقط أن أقول إن السيد تالبوت غير موجود . هذا كل ما في الأمر ؛ ذهب إلى ـ س مباشرة بعد الفطور قائلاً إنه لن يعود قبل أسبوع تقريباً» .

جمدت في مكاني تلسعني نيران الحنق . حاولت أن أقول شيئاً ، لكن عقلي لم يطاوعني . أخيراً استدرت على عقبي ولساني يقذف بالسباب المكبوت على تالبوت وعلى كل آل تالبوت . فكرت في نفسي أن صديقي قد نسي موعده معي ، نسيه حالما اتفقنا على الموعد ، إذ إنه لم يكن في حياته دقيقاً في مواعيده . وحيث أنه لم تكن لي في الأمر حيلة ، رحت أهدّئ من ثورتي مجرجراً قدميّ في الشوارع مستفسراً عن السيدة لالاند من كل شخص أعرفه في الطريق . وجدت أن الكثيرين يعرفونها ، أو بالأحرى قد سمعوا بها ، وأن بعضهم يعرفها بالنظر فقط . غير أنني لم أجد إلاّ قليلين جداً يعرفونها معرفة شخصية ، إذ لم يكن قد مرَّ على وجودها في البلدة غير أسابيع . ولهذا فإن أولئك الأشخاص الذين يعرفونها لا يستطيعون ، أو لا يريدون ، أن يعرّفوني عليها باعتبار أنهم ما زالوا هامشيين في علاقاتهم معها . وبينما كنت في تلك الحال من اليأس ، أتحدث مع ثلاثة أشخاص أعرفهم عن موضوع اهتمامي ، حدث أن السيدة لالاند مرت بنفسها .

ـ «يا إلــهي ، ها هي السيدة . .» .

ـ «ما أجملها !» ، أجاب الآخر .

ـ «إنها ملاك على الأرض» . قال الثالث .

ونظرت ، فإذا بعربة مكشوفة تقترب ناحيتنا تعبر الشارع ببطء ، وفي داخلها كانت تجلس السيدة وإلى جانبها السيدة الصغرى التي كانت معها في دار الأوبرا .

ـ «ومرافقتها أيضاً ترتدي ثياباً جميلة جداً» . قال أحد الثلاثة .

ـ «أمر مدهش» قال الثاني . «لا تزال تبدو كما كانت . إن التبرّج يصنع

العجائب . أقسم أنها تبدو أحسن حالاً مما كانت عليه منذ خمس سنوات في پاريس ، إنها لا تزال امرأة جميلة ! ألا توافق على ذلك يا فرواسار . . أعني سمپسون؟» .

- «نعم» قلت ، ولم لا تكون هكذا ! لكنها بالنسبة إلى رفيقتها تبدو كخفاش الليل أمام نجمة الصبح» .

- «ها ! ها ! ها ! ، يا لك من رجل يا سمپسون . إن لديك حاسة غريبة للاكتشاف ، أعني اكتشافات فريدة من نوعها» .

وتوقفنا عن الحديث عند هذا الحد ، بينما راح أحد الثلاثة يدمدم أغنية . . .

في أثناء ذلك حدث أمر أدخل إلى نفسي بعض العزاء ، رغم أنه كان بمثابة الزيت يُصبّ على نار هيامي ، إذ حينما مرت عربة السيدة لالاند بجوارنا ، ونحن نتحدث ، لاحظت أنها عرفتني من بين الجميع ؛ بل وأكثر من هذا ، فقد أنعمت عليَّ بابتسامة أروع من ابتسامات ملائكة السماء .

كان عليّ أن أفقد الأمل نهائياً فيما يتعلق بالتعرف إليها من طريق شخص يقدّمني إليها رسمياً ، أو على الأقل أن أقطعه إلى أن يتذكّر تالبوت وعده لي ويرى من المناسب أن يعود من سفرته . وكنت إلى أن يحدث ذلك أجهد في ألاّ أترك أي مكان يمكن أن تطؤه قدماها دون أن أذهب إليه عدة مرات في اليوم . وبعد وقت طويل ، وفي المكان الذي صادفتها فيه لأول مرة - في المسرح - حظيت بنعمة لقياها مرة ثانية ، كما حظيت بتبادل النظرات الخاطفة معها ؛ وكان قد مرَّ حوالى الأسبوعين على لقائنا الأول . وكنت خلال هذه المدة أذهب إلى مكان إقامة تالبوت وأسأل عنه ، وكل يوم كنت ألقى الجواب نفسه ، والذي يلقيني في جحيم الغضب - «لم يَعُدْ بعد» .

ذلك المساء الذي لقيتها فيه ، كنت ، ولهذه الأسباب ، قد شارفت حد الجنون . كنت قد علمت أن السيدة لالاند پاريسية وأنها وصلت من هناك مؤخراً . تُرى ، أفلا يعقل أن تعود إلى پاريس فجأة قبل أن يعود صديقي العزيز تالبوت؟ أولا يعقل أن أفقدها إلى الأبد؟ كانت هذه الأفكار تمضّني .

ولـمّا كـان مصير سـعادتي ومستقبلي بكامله متوقفاً على النتائج فقد قررت أن أتصرَّف برجولة ، إذ حالما انتهت المسرحية رحت أتتبع السيدة إلى مكان إقامتها ، ثم سجلت عنوان دارها عندي ؛ وفي الصباح التالي أرسلت إليها رسالة طويلة أنيقة حمّلتها كل ما في قلبي من حب جارف .

تبسّطت في تلك الرسـالة بحرية وجـرأة . تكلمت بدافع حب أثير . لم أخف شيئاً ، حتى ولا نقاط الضعف في شخصيتي . وأشرت إلى الطريقة الرومَنسية التي تمَّ بها لقاؤنا الأول مصادفة ، حتى إلى النظرات التي تبادلناها آنذاك . وتجرأت على القول أيضاً إنني واثق من حبّها لي ، واتخذت ذلك ، بالإضافة إلى ما أشعر به من جهتي ، كعذرين على تصرفي وكتابتي إليها بهذا الشكل غير المألوف ، وأضفت إلى ذينك العذرين عذراً آخر هو أنني كنت أخاف أن تترك البلدة قبل أن تسنح الفرصة لأحظى بمقابلتها رسمياً . وختمت رسالتي بأقصى ما يمكن لرسالة غرام أن تتحمّل من شجون ، واصفاً حالتي ، ومكانتي في هذا العالم ، ومقدماً قلبي ويدي على أمل الزواج .

ورحت أنتظر الجواب بكل عذابات الانتظار وحُرَقه . وبعد مرور ما بدا وكأنه قرن من الزمن ، جاء الجواب .

نعم ، لقد جاء الجواب ، ومع أن هذا يبدو أمراً بالغ الرومنسية فقد تسلّمت ، بالفعل ، جواباً من السيدة لالاند ـ السيدة الرائعة الجمال ، الثرية ، المعشوقة لالاند ؛ إنّ عينيها ، عينيها الجميلتين ، لم تخونا قلبها النبيل . وهي كامرأة فرنسية حقيقية استجابت لنداء قلبها ونوازع روحها الكريمة ، ضاربة بتقاليد العالم الجامدة عرض الحائط . إنها لم تسخر من كلماتي ، ولم تغلق على نفسها باب الصمت . هي لم ترجع رسالتي مغلقة ، وإنما أجابتني برسالة خطتها بأنامل يدها اللطيفة ، وهذه هي كلماتها :

«سيعذرني السيد سمپسون لجهلي عن التعبير بطلاقة عن أفكاري بلغته الجميلة . وصلت هذا البلد مؤخراً ولم تسمح لي الظروف بدراستها بعد .

بعد هذا الاعتذار عن طريقتي في الكتابة ـ لا أجد مفراً من القول ـ وأسفاه ! ! إن قلب السيد سمپسون قد أعطاه الخبر اليقين . وهل عليّ أن

أزيد على هذا . واأسفاه . ليس باستطاعتي أن أتكلم أكثر» .

«أوجيني لالاند»

مليون مرة قبّلت هذه الرسالة الطافحة بروح الحب ، وبنيت على كلماتها آلاف المشاريع والمغامرات التي غابت عن ذاكرتي في الوقت الحاضر . تالبوت هذا لم يعد بعد . واأسفاه ، هل يستطيع أن يتصوّر ولو شطراً بسيطاً من الآلام الهائلة التي سبّبها غيابه لروحي؟ إنه لو قدر لما شككت بأنه يطير لمساعدتي . لكن ، مهما تكن الحال ، فإنه لم يعد بعد . كتبت إليه ، وأجاب . قال إنه مضطر إلى التأخر بسبب أشغال ملحة ، وإنه سيعود قريباً ، ورجاني ألاّ أكون كثير الإلحاح ، وأن أصبر ، وأن أستعين بالقراءات المسلية المعزية ، وأن أستجير بالفلسفة . هذا المجنون ! إذا كان لا يقدر أن يأتي بنفسه فلماذا ، يا إلــهي ، لم يرسل لي على الأقل كتاب تعريف؟ كتبت إليه مرة ثانية راجياً منه أن يرسل لي كتاب تعريف للحال ، لكن رسالتي إليه عادت وعلى ظهرها كلمات كتبها خادمه بقلم الرصاص ، ذلك الخادم نفسه ! فلقد لحق بسيده حيث هو ، وكانت الكلمات على ظهر الرسالة كما يلي :

«غادر سيدي المكان يوم أمس إلى جهة مجهولة . لم يقل إلى أين ، ولا متى يعود . لهذا رأيت أن أفضل شيء هو إرجاع الرسالة إليك ، بعد معرفتي لخط يدك ، لعلمي أنك على عجلة كعادتك دائماً» .

المخلص ستبس

لست بحاجة إلى القول إنني ، بعد أن تسلّمت رسالتي المرتجعة ، أنزلت بالسيد وخادمه أشنع اللعنات وصببت عليهما جام غضبي ؛ لكن لم يكن من فائدة في الحنق ، ولا من تعزية في التذمر .

وهكذا بقي لي مخرج واحد يمكنني العبور منه ، وقد سبق لي أن لجأت إليه ، وقررت الآن أن أستخدمه حتى النهاية . فأي أمر خارج عن المألوف أكثر من المراسلة التي جرت بيني وبين السيــدة لالاند يمكنني أن أرتكبه وتعتبره هي غير لائق؟ منذ تلك المراسلة أخذت أراقب منزلها ، واكتشفت أنها كانت قد اعتادت الخروج كل يوم ، بعد غروب الشمس ، في نزهة إلى الحدائق العامة المجاورة لمنزلها برفقة خادم لها . وهناك بين ظلال الأشجار

الجميلة ، وفي إحدى أمسيات الصيف اللطيفة الهواء ، ترقّبت محبوبتي وتبادلت معها الحديث .

تقدّمت منها بكل جرأة ، لكي أتخلص من وجود الخادم ، وبدأت الحديث معها كصديق قديم . وبدا كأنها عرفت مقصدي ، كسيدة باريسية حقة ، فمدّت إليّ يدها البضّة لتصافحني . وبعد أن أسرع الخادم في الاختفاء ابتدأنا فوراً بتفريغ قلبين مفعمين بلواعج الهوى . وقد جرينا في الحديث طويلاً .

وبما أن السيدة لالاند كانت تجهل التحدّث بالإنكليزية بطلاقة أكثر من جهلها الكتابة بها ، فقد جرى حديثنا باللغة الفرنسية . وبهذه اللغة ، الملائمة طبيعياً لتعابير الحب ، أطلقت العنان لنوازع روحي ، وبكل ما أمتلك من فصاحة رحت أرجوها بأن توافق على زواجنا بسرعة .

أمام هذا الإلحاح ، ابتسمت ، وأخذت تنصح لي بضرورة التروّي ـ هذه الفزّاعة التي تحجب النعمة عن الإنسان حتى يفوت أوانها ـ وقالت إنني كنت متسرعاً حين أعلمت أصدقائي برغبتي في التعرف إليها ، ولهذا أصبح من الضروري أن نتظاهر أمام الناس بأن معرفتنا ليست قديمة العهد . وحين أشارت إلى أن تعارفنا حديث العهد فعلاً ، خيِّل إليّ أن حمرة قد صبغت وجنتيها . ولهذا فإن زواجنا السريع لن يكون لائقاً ، بل سيكون خارجاً عن المألوف ، ومبعثاً لتقولات كثيرة . كانت تقدّم كل هذه الاعتراضات بلهجة بسيطة تسحر القلب ، وفي الوقت نفسه تدخل إلى النفس شيئاً من الحزن ، ويجب أن أعترف ، شيئاً من القناعة كذلك . رجتني أن أتذكر بأنني في الحقيقة لا أعرف من تكون ، وما هي حالتها ، وعلاقاتها ، وارتباطاتها ، ومركزها الاجتماعي . ورجتني بكلمات تمتزج بتأوّهات الحسرة أن أعيد النظر في طلب الزواج ، قائلة إن حبي قد يكون نزوة هوى عابرة ، أو اختراع مخيلة خصبة ، وقد يكون وليد الخيال أكثر منه وليد القلب . كانت تبدي هذه الملاحظات بينما ظلال المساء الساكن تتجمع وتلفّنا بعتمة متزايدة ، ثم أتبعت أقوالها بلمسة خفيفة من يدها هدمت فيها كل ما بنته من قصور الحجج .

أجبتها بأحسن ما عندي ـ أعني ، كما يمكن للعاشق الحقيقي أن يفعل . تكلمت مطولاً وبإصرار عن حبي لها ، وعن هيامي ، وعن جمالها الخلاّب ، وعن إعجابي الذي لا حد له . وخلصت إلى الإشارة بأن طريق الحب مليء بالأشواك ، وأنَّ الحب الحقيقي لا يمكن أن ينتهي إلى ما نريد بسهولة ، وأنه لهذه الأسباب علينا اختصار طريق الأشواك بالزواج .

هذه الحجة جعلتها تلين أخيراً ، ولكنها قالت إن هناك عقبة أخيرة توحي بأنني لم أولها اهتماماً كافياً . وهذه نقطة حساسة يصعب على المرأة أن تتكلم عنها ، ولكنها قالت إنها ستفعل ذلك رغم مشاعرها ، وإن أي تضحية تتعلق بذلك تسعدها . هذه النقطة هي مسألة السن . فهل كنت أعلم ، علماً يقيناً ، بالفرق بين عمرينا؟ وهل كنت أعلم أن عمر الرجل يجب أن يزيد عن عمر المرأة ببضع سنين ، وأن الناس لا يرون مانعاً في أن يزيد عمر الرجل عن عمر المرأة بخمس عشرة أو عشرين سنة ، وأنها ، على أية حال ، كانت دائماً على يقين بأن عمر المرأة يجب أن لا يزيد عن عمر الرجل؟ إن فرقاً كهذا غالباً ما يؤدي ، يا للأسف ، إلى حياة تعيسة . كانت تعرف أنني لم أتجاوز الثانية والعشرين ، وأنني في الغالب أجهل أنها تكبرني بسنوات كثيرة .

كانت في كل ما قالته نبيلة القلب ، رفيعة الأسلوب ، الأمر الذي سحرني ، وأحكم قيود الحب حول قلبي . لهذا لم أتمكّن من أن أكبت مشاعري ، وصرخت : «يا أوجيني الحبيبة ـ ما هذا الذي تتحدثين عنه؟ أعلم جيداً أنك تكبرينني ببضع سنوات ، لكن ما أهمية ذلك؟ إنّ تقاليد العالم مجموعة من المعتقدات البالية . وماذا يمكن أن تعني للمحبين مثلنا السنة أكثر من ساعة واحدة؟ تقولين إنني في الثانية والعشرين ، والحقيقة أنه يمكنك منذ هذه اللحظة أن تقولي إني في الثالثة والعشرين ، وأما أنت يا عزيزتي أوجين فلا يمكن أن يزيد عمرك عن . . . لا يمكن أن يزيد عن . . . لا يمكن . . . عن . . .» .

تريّثت قليلاً على أمل أن تكمل السيدة لالاند عبارتي فتتذكر عمرها الحقيقي ، ولكن كما هي الحال مع النساء الفرنسيات ، اللواتي نادراً ما يشرن

إلى هذه الأمور بشكل مباشر ، ويفضلن عندما يجابهن بسؤال محرج أن يجبن عليه بشكل عملي ، راحت أوجيني تفتش في طيّات صدرها عن شيء كأنها أضاعته ، وبعد برهة سقطت من يديها صورة كانت قد خبأتها ، فسارعتُ إلى التقاطها وقدمتها إليها .

«احتفظ بها» ـ قالت وهي ترفق كلماتها بابتسامة عذبة . «احتفظ بها من أجلي ، من أجل من تمثّلها الصورة . ثم إنك تستطيع أن تجد على ظهرها المعلومات التي يبدو أنك ترغب في معرفتها . إنّ الليل أظلّنا الآن بعتمته ولهذا يحسن بك أن تتفحّصها مليّاً في الصباح . وفي هذه الأثناء أرجو أن توصلني إلى منزلي . إنّ أصدقاء لي يريدون إحياء أمسية موسيقية صغيرة هذا المساء . وأعدك بشيء من الغناء الجميل . إننا معشر الفرنسيين لسنا كثيري التقيّد بالتقاليد مثلكم أيها الأميركيون ، ولن يصعب عليَّ أن أختلي بك في الداخل كواحد من أصدقائي القدامى» .

وما إن أتمّت كلامها حتى أمسكت ذراعي وصمتت .

ذلك المساء أوصلتها إلى منزلها . كان مسكنها أنيقاً ، وأعتقد أنه كان مؤثثاً بشكل ينمّ عن ذوق مرهف . والحقّ أنني لست في موضع يمكنني أن أحكم على هذه الناحية الأخيرة بالتأكيد ، إذ كان الليل حالكاً حينما وصلنا . وفي منازل كهذه نادراً ما تستعمل الأضواء المُبهِرَة في ليالي الصيف الحارة كتلك الليلة . وبعد حوالى الساعة من وصولنا أضيء قنديل واحد مظلّل في قاعة الاستقبال ، ويمكنني أن أجزم بأن تلك القاعة كانت مفروشة بأثاث جميل ، حقّاً ، ومرتبة بشكل أنيق ؛ غير أن الضيوف لم يكونوا جالسين فيها وإنما في غرفتين مجاورتين لها ، وبقيت أضواؤها تبعث في أرجاء المكان ظلالاً خفيفة تضفي على الحضور جواً شاعرياً . هذا الترتيب في الإضاءة كان مناسباً حقاً ، وقد أعجبني كثيراً ، إذ إنّه يوفر للحضور أن يختاروا بين مكانين أحدهما مضاء بقوة والآخر ضوؤه خفيف .

كان ذلك المساء من أجمل أماسي حياتي ، ولم تقصّر السيدة لالاند عن اعترافها بمواهب أصدقائها الموسيقية ، ولم أسمع أمتع من الغناء الذي سمعته آنذاك ، في أي من الحلقات الخاصة خارج فيينا . كان العازفون كُثُراً ذوي

مواهب خارقة ؛ أمّا المغنون فكان أكثرهم من النساء وجميعهم أبدعوا في الغناء . وبعد مرور ساعة تقريباً أخذ الحضور يدعون السيدة لالاند للغناء ، وقد استجابت السيدة للدعوة فوراً . كانت تجلس بقربي ، فنهضت بدون تكلف ، وبرفقتها سيد أو سيدان بالإضافة إلى مرافقتها التي كانت معها في دار الأوپرا ، واتجهت إلى الپيانو في قاعة الاستقبال الرئيسية . حاولت أن أرافقها بنفسي ، لكنني شعرت أنه من الأفضل أن أبقى بعيداً عن الأنظار قدر الإمكان ، وذلك بالنسبة إلى حداثة تعارفنا ، وبقيت في مكاني حيث حرمت من مشاهدتها وهي تغني ، لكنني لم أحرم من سماع صوتها .

كان تأثيرها في المستمعين هائلاً - أما تأثيرها فيّ فكان أكثر من ذلك . وأنا أعرف كيف يمكنني وصف ذلك التأثير على حقيقته . لا شك أنه كان مرتبطاً ، بشكل ما ، بالشعور الذي كان يغمر قلبي ، لكنه في الغالب كان ناتجاً عن الحساسية الفائقة التي كانت تغني بها . يستحيل على بدائع الفنون أن تستنبط شفافية في التعابير أكثر ممّا عبرت عنه السيدة لالاند ، والطريقة التي أدت بها مقطوعة الهيام في «عطيل» والنغمة التي لونت بها الكلمات لا تزال ترن في أذنيّ حتى اليوم . كانت تؤدي النوتات المنخفضة في السلم الموسيقي بطريقة مدهشة ، وكان صوتها يجمع ثلاث جمل موسيقية كاملة تمتد من الكونترالدو الثالث إلى السوبرانو الثالث ، ورغم أنها كانت تحافظ في كل ذلك على قوة صوتية ممتازة ، فإنها ما كانت لتتجنّب المقاطع الصعبة ، بل كانت تغنيها ببراعة فائقة ، فيرتفع صوتها وينخفض من أعلى السلم الموسيقي حتى أسفله . وفي نهاية الأغنية أجادت إجادة لا يمكن وصفها .

حين نهضت عن كرسي الپيانو ، عادت إلى مقعدها بجانبي ؛ فلم أتمالك إلاّ أن أنقل إليها فرحتي الغامرة بغنائها الرائع . لم أذكر شيئاً عن دهشتي ، غير أنني ، في الحقيقة ، كنت كثير الانفعال ، إذ كنت قد كونت انطباعاً في نفسي ، من خلال أحاديثنا السابقة ، بأن طبيعة صوتها المائلة إلى الليونة لن تمكنها من أن تطلق أعنة صوتها بغناء قوي كالذي سمعت .

راحت أحاديثنا تمتد لفترات طويلة ، وكنّا نتكلم بجرأة وصراحة ودونما

توقف . جعلتني أسترجع كثيراً من ذكريات سنيَّ الماضية ، وكانت تستمع إلي كل كلمة أتفوّه بها وهي تحبس أنفاسها . لم أخف عنها شيئاً ـ شعرت أنني يجب أن أبوح بكل شيء ـ لتلك التي منحتني حبَها . ولـمّا كانت قد شجعتني بصراحتها فيا يتعلق بعمرها ، فقد رحت من جانبي بإخلاص كلي أتكلم ليس عن تفاصيل نزواتي حتى الصغيرة منها وحسب ، بل إنني قمت باعتراف صريح بكل مساوئي الخلقية وحتى نقائصي الجسمية التي يدل الاعتراف بها على إخلاص في مشاعر الحب أكثر من الاعتراف بأي شيء آخر . تكلمت عن سنواتي الدراسية ، وعن الحماقات التي كنت أرتكبها آنذاك ، تكلمت عن البذخ ، والمغامرات ، والغزوات التي قمت بها ، وعن ديوني ، وعن مغازلاتي . اعترفت لها بكل شيء حتى أنني تكملت عن سعال مزمن أصابني مرة ، وعن روماتيزم مؤلم ، وحتى عن ذلك الذي كنت أحاول أن أبقيه سراً عن الجميع . . عن ضعف نظري .

عند ذلك قالت السيدة لالاند ضاحكة : «فيما يتعلق بهذه النقطة الأخيرة ، فإنك لم تكن كثير الحكمة حين اعترفت لي بها ، إذ لولا اعترافك لما كان أحد يستطيع أن يتهمك بالجرم ، وعلى كلّ . . .» أكملت حديثها «على كل ، هل تتذكر . . .» وهنا تصوّرت أن احمراراً قد لوّن وجنتيها ، «هل تتذكر يا صديقي العزيز هذا الشيء الذي يتدلى من عنقي؟» وبينما كانت تقول ذلك ، كانت أصابعها تداعب نظارتيها ، تينك النظارتين اللتين سببتا لي ارتباكاً بالغاً في دار الأوبرا .

ـ «أتذكرهما تماماً ـ أواه ، كم أتذكر!» قلت ذلك وأنا أضغط بحنان على اليد التي امتدت إليَّ بالنظارتين لأراهما . كانتا كاللعبة المزركشة مطعّمتين بالجواهر التي ، رغم خفوت الضوء ، تأكد لي أنها نفيسة مرتفعة الثمن ، ثم أكملت حديثها بشيء من التأكيد : «حسناً يا صديقي العزيز ، لقد طلبت مني بصراحة أمراً قلت عنه إنه لا يقدّر بثمن . لقد طلبت مني الزواج في الغد ، فلو قبلت طلبك ـ ويمكنني أن أزيد هنا أن هذا لن يكون منافياً لنوازع قلبي ـ ألا يحق لي بأن أطلب منك طلباً صغيراً . . صغيراً جداً بالمقابل؟» .

ـ «هاته . . اطلبي» قلت بصوت لاهف كاد يُلفت انتباه الحضور إلينا .

وأكملت ، وقد منعني وجود الناس حولنا من أن أرمي بنفسي على قدميها ـ «اطلبي ما شئت يا حبيبتي ، يا أوجيني سميّه ، لكن ، واأسفاه ، إن طلبك مستجاب حتى قبل أن تتلفظي به» . قالت : «من أجل أوجيني ، التي تحبها ، ستتغلب على هذا الضعف الصغير الذي اعترفت به مؤخراً . هذا الضعف الذي هو معنوي أكثر ممّا هو جسمي ، خصوصاً أنه غير لائق بطبيعة نفسيتك النبيلة ، أو بالأحرى يجب أن أقول إنه مناقض للصراحة التي تتميز بها ، إذ أخاف أنك إذا أهملتها أن توقعك ، عاجلاً أم آجلاً ، في مآزق خطيرة . إنك ستتغلب على هذا التصنُّع الذي يؤدي بك ، حسب اعترافاتك ، إلى الهروب من هذا الضعف في نظرك ، إذ إن التهرب من استعمال الوسائل العادية لا يفيد في معالجة هذا الضعف الذي تصر على إخفائه ، أعني بكل هذا أنني أرغب إليك أن تستعمل نظارتين لعينيك . آه ، لقد وافقت مسبقاً على أن تستعملهما ، من أجلي ، وأرجو أن تتقبّل هذه القطعة التي في يدي ، فهي رغم أنها ليست مرتفعة القيمة في ما تحمل من جواهر ، تساعد كثيراً في النظر . ويمكنك بمجرد تركيز أقسامها على الشكل الذي تريد ، أن توافق عينيك كنظارتين ، أو بإمكانك أن تضعهما في جيب صُدرتك . ولقد قبلت من أجلي ، بأن تستعملهما كنظارتين» .

هل من الضروري أن أعترف بأن هذا الطلب قد أزعجني كثيراً؟ لكن الطريقة التي جاء بها لم تدع لي أي مجال للتردد .

ـ «طلبك مستجاب» صحت بكل ما تمكنت من قوة . سأفعل ما تريدين وبكل سرور . إنني أضحي بأي شعور من أجلك . هذه الليلة سأضع هاتين النظّارتين في جيبي ، بجوار قلبي ، وغداً ، عند بزوغ الشعاع الأول من صباح اليوم الذي يمكنني عندها أن أعتبرك زوجتي ، سأضعهما على . . . على أنفي . . وهناك ستبقيان إلى الأبد ، ولو لم تكونا جميلتين على الأنف ، لكنهما ستكونان هناك كما ترغبين» .

بعد هذا انتقلنا في حديثنا إلى ترتيبات الغد . لقد وصل تالبوت ، كما أخبرتني خطيبتي إلى البلدة منذ وقت قريب ، وكان يجب أن أراه حالاً ، وأن أؤمِّن عربة . قد لا تنتهي السهرة قبل الثانية صباحاً ، وفي هذا الوقت

يجب أن تكون العربة في الانتظار على الباب حيث يكون باستطاعة السيدة لالاند أن تستقلها دون أن ينتبه إليها أحد ، حين يكون الجميع خارجين . علينا ، بعد هذا ، أن نذهب إلى منزل كاهن سيكون في انتظارنا ، وهناك ستتم مراسم الزواج ، وبعدها نودّع تالبوت ونستمر في رحلة قصيرة إلى الشرق تاركين وراءنا الناس ليعلقوا على زواجنا كما يحلو لهم .

بعد أن انتهينا من هذه الترتيبات استأذنت بسرعة ، وذهبت أفتش عن تالبوت ، لكنني لم أتمالك في طريقي من أن أدخل إلى أحد الفنادق لأتفحص الصورة التي أعطتني خطيبتي ، ولم أتردد بأن أستعمل النظارتين من أجل ذلك . كانت ملامح الجمال في ذلك الوجه شيئاً يأسر القلب . تانك العينان الواسعتان المشعتان ، ذلك الأنف اليوناني الرفيع ، تلك الجدائل المجعّدة السوداء ـ «آه» قلت بنشوة «إنها حقاً صورة ناطقة لمحبوبتي !» وقلبت الصورة ووجدت على ظهرها الكلمات التالية :

«أوجيني لالاند : العمر ٢٧ سنة و٧ أشهر» .

وجدت تالبوت في البيت ، وأسرعت فوراً لإعلامه بتفاصيل سعادتي . ظهرت عليه دهشة بالغة ، دون شك ، لكنه هنأني من كل قلبه ، ووضع نفسه رهن كل خدمة ممكنة . وباختصار قمنا بتنفيذ خطتنا حرفياً ؛ وفي تمام الساعة الثانية صباحاً بعد انتهاء الحفلة بعشر دقائق فقط ، وجدت نفسي إلى جانب السيدة لالاند ـ السيدة سمپسون يجب أن أقول ـ منطلقَيْن خارج البلدة في اتجاه الشمال الشرقي .

كان تالبوت قد نصحنا بأن نجعل محطتنا الأولى في مكان يبعد حوالى عشرين ميلاً عن المدينة ، إذ نكون بذلك قد أمضينا الليل بطوله دون نوم ؛ على أن نتناول فطورنا هناك ، ونحظى بشيء من الراحة قبل متابعة السفر . ولهذا ففي الساعة الرابعة تماماً كانت العربة تقف أمام الحانة الرئيسية . أخذت بيد محبوبتي ونزلنا ، ثم طلبنا فطوراً لتونا . وفي هذه الأثناء قادنا صاحب الحانة إلى مكان استراحة حيث جلسنا .

كان الصباح قد أضاء ، وفيما كنت أحدق كالمأخوذ ، إلى الملاك بجانبي ، خطرت ببالي فجأة أن هذه في الحقيقة هي المرة الأولى منذ لقائنا تسنح لي

فيها فرصة التمتع بذلك الجمال عن كثب وفي ضوء النهار .

- «والآن يا صديقي» ، قالت ، وهي تأخذ بيدي قاطعة عليّ حبل أفكاري ، والآن يا صديقي العزيز ؛ بما أننا أصبحنا روحاً واحدة في جسدين ، وبما أنني استجبت لطلبك وقمت ، من جهتي ، بنصيبي من الاتفاق ، أتصور أنك لم تنس تعهدك بأن تقدم لي خدمة صغيرة ، وعداً صغيراً ، لا شك بأنك عازم على تحقيقه ، آه ، دعني أرى ، دعني أتذكر ! نعم ، إنني أتذكر كلماتك بسهولة حين أعلنت وعدك لأوجيني الليلة الماضية . اسمع ، تكلمتَ هكذا : «طلبك مستجاب . سأفعل ما تريدين وبكل سرور . إنني أضحي بأي شعور من أجلك . هذه الليلة سأضع هاتين النظارتين في جيبي بجوار قلبي ، وغداً عند بزوغ الأشعة الأولى لصباح اليوم الذي يمكنني فيه أن أدعوك زوجتي ، سأضعهما على ، على أنفي ، وهناك ستبقيان إلى الأبد ، ومع أنهما لن تكونا جميلتين على الأنف ، لكنهما ستكونان هناك ، كما ترغبين» . هذه هي الكلمات التي تفوهت بها بالضبط ، أليس كذلك يا زوجي العزيز» .

- «نعم إنها الكلمات نفسها» ، قلت ، إن لك ذاكرة ممتازة ، ولا ريب أنني ، يا أوجيني الجميلة ، لا أميل مطلقاً إلى نقض العهد الذي قطعته لك . «انظري ، ما رأيك ، هل تناسبان وجهي . . نوعاً ما . . أليس كذلك؟» وفي اللحظة نفسها ، وحالما وضعت النظارتين على عينيّ وركزتهما لبضع لحظات ، بينما السيدة سمپسون كانت تركز قبعتها على رأسها ، وتضم ذراعيها ، وتجلس بانتصاب في كرسيها بطريقة فيها شيء من الغرابة ، أو بالأحرى ، شيء من الفظاظة . . .

- «يا الله ارحمني» ، صرخت بذهول في اللحظة نفسها التي استقرت النظارتان فيها على عينيّ ! «يا ، يا رب . . يا الله ، ارحمني ماذا ، أية داهية هي هاتان النظارتان؟ !» وانتزعتهما بسرعة ومسحتهما بمنديل حريريّ ، ثم ركزتهما على عينيّ من جديد .

إذا كان ما حدث في اللحظة الأولى سبب لي استغراباً ، فإنَّ ما حدث في اللحظة التالية أوقعني في هوّة من الدهشة - وهذه الهوّة كانت عميقة -

كانت هائلة ؛ وفي الحقيقة ، يمكنني أن أقول إنها كانت هوّة مرعبة . هل أصدق عينيّ؟ هل يمكنني أن أصدق عينيّ؟ هذا هو السؤال . هل كان ، ذلك الشيء ، ذلك الشيء الذي يملأ وجهها بالحمرة صباغاً؟ ! وتلك الأشياء . . الأشياء . . . تلك الأشياء في الوجه ، هل هي تغضّنات؟ ! أفي وجه أوجيني لالاند هذه التجعّدات؟ أواه ، بحق جوپيتر وكل الآلهة ، الصغار منهم والكبار ، ما الذي حلّ؟ ما هو الشيء الذي أصاب أسنانها؟ ماذا حلّ بأسنانها؟ ورميت النظارتين على الأرض بغضب شديد وقفزت منتصباً على قدميّ في منتصف الغرفة مواجهاً السيدة سمپسون وفي كل جزء من جسمي يتفجر بركان من الحنق ، وفي وجهي ثورة من الهلع ، غير أني في الوقت نفسه لم أستطع أن أقول شيئاً ، كان الحنق والرعب قد لجما لساني .

ذكرت آنفاً أن السيدة لالاند ـ أعني السيدة سمپسون ـ كانت تتكلم الإنكليزية بصعوبة وركاكة ، ولهذا ففي أحاديثنا السابقة لم تحاول أن تتكلّم بها . غير أن الغضب يدفع بالمرأة إلى شواذات عجيبة ، وفي هذه الحالة دفع بالسيدة سمپسون إلى أن تتكلم بلغة لا تتقنها ولا تعرف كل معانيها .

ـ «حسناً أيها السيد» قالت بركاكة مؤلمة ، وهي تتفحّصني من رأسي إلى أخمص قدمي بدهشة بالغة ـ «حسناً ـ ثم ماذا؟ ما هي المشكلة الآن؟ هل تقلّد رقصات القديسين؟» .

ـ «أيتها اللعينة !» قلت وأنا أكافح لألتقط أنفاسي «أيتها العجوز الشمطاء !» .

ـ «آه ! ـ عجوز ، أوه ، أنا لست عجوزاً إلى هذه الدرجة ، إن عمري لا يزيد عن الثانية والثمانين بيوم واحد !» .

ـ «الثانية والثمانون ! !» صرخت وأنا أترنح من الغضب . «اثنتان وثمانون قردة ! لكن الصورة تقول سبعاً وعشرين سنة وسبعة أشهر؟ !» .

ـ «دون شك ، أيها السيد ، هذا صحيح ، لكن عمر الصورة خمس وخمسون سنة ، كان ذلك عندما تزوجت للمرة الثانية من السيد لالاند ، أخذت ذلك الرسم لابنتي من زواجي الأول بالسيد مواسار !» .

ـ «مواسّار!» قلت بدهشة لا تصدق .

ـ «نعم ، مواسار» قالت وهي تسخر من طريقة لفظي للاسم . «وماذا يعني هذا ، ماذا تعرف عن مواسار؟» .

ـ «لا شيء أيتها الفزّاعة العجوز ، لا أعرف عنه شيئاً ، لا شيء سوى أن أحد أجدادي كان يسمّى بهذا الاسم» .

ـ «هذا الاسم! وما رأيك فيه؟ إنه اسم جميل حقاً ؛ وكذلك فواسّار ، إنه اسم جميل جداً أيضاً . إن ابنتي الآنسة مواسار قد تزوجت من السيد فواسار ، وكلا الاسمين محترم جداً» .

ـ «مواسار؟» قلت ، «وفواسار» ، ماذا تعنين بحق السماء؟» .

ـ «ماذا أعني! مواسار وفواسار ، وإذا أحببت يمكنني أن أضيف أسماء أخرى إلى العائلة ، كرواسار ، وفرواسار . إنّ حفيدة ابنتي ، الآنسة فواسار ، تزوجت من السيد كرواسار ، ثم إن ابنة حفيدة ابنتي ، الآنسة كرواسار ، تزوجت من السيد فرواسار ، ولا أعتقد أن بإمكانك الادعاء أن هذا الاسم ليس بالاسم المحترم أيضاً» .

ـ «فرواسار!» قلت ذلك وأنا على وشك الاغماء ، «هل تعنين حقاً هذه الأسماء ، مواسار وفواسار وفرواسار؟» .

ـ «نعم» قالت ذلك وهي تستند إلى الكرسي بكل اطمئنان ، «نعم ، مواسار وفواسار وكرواسار وفرواسار . لكن السيد فرواسار كان معتوهاً ، مثلك ، إذ إنه ترك فرنسا الجميلة وجاء ليقطن هذه «الأميركا» القبيحة . ورغم أنني لم أحظ بمقابلته بعد ، لا أنا ولا رفيقتي السيدة ستيفاني لالاند ، فهو لا شك معتوه . لقد اتخذ لنفسه اسم نابوليون بونابرت فرواسار . ولا أعتقد أن بإمكانك أن تدعي أن هذا الاسم هو اسم غير محترم أيضاً!» .

اتّضح لي أن هذا الحديث العائلي الطويل قد أثار حفيظة السيدة سمپسون وأهاج عواطفها وشجونها إلى درجة كبيرة ، إذ إنها حالما أشرفت على الانتهاء من حديثها قفزت عن كرسيها كالممسوسة وأخذت تصر بأسنانها ، ثم شمّرت عن ذراعيها ، ورفعتهما وأخذت تهز بقبضتيها في وجهي ، وأنهت هذه التمثيلية بأن انتزعت قبعتها عن رأسها ، وانتزعت معها

كتلة من الشعر الأسود المجعد المستعار ، ورمت بكل ذلك إلى الأرض ، وهي تنتحب وتدوسها بقدميها بثورة غضب شديد . كانت تفعل كل ذلك ، بينما كنت أغرق في الكرسي الذي قفزت منه وأنا منهك القوى لا أقوى على الوقوف .

ـ «مواسار وفواسّار !» أخذت أردد لنفسي هذه الأسماء بينما كانت هي تقفز في رقصتها الخانقة ، «وكرواسار وفرواسار ـ مواسار وفواسار وكرواسار وأخيراً نابوليون بونابرت فرواسار ! أيتها الأفعى الرقطاء ـ هذا أنا ، أنا ، هل تسمعين ، هذا أنا ، أنا ، أنا» . ورحت أصرخ بأعلى صوتي ، «هذا أنا ، أنا نابوليون بونابرت فرواسار ، ولتلعنّي السماء إن لمن أكن قد تزوجت من جدة جدتي !» .

كانت السيدة أوجيني لالاند ـ وقبلاً السيدة مواسار وحالياً السيدة سمپسون !» ـ كانت في الحقيقة ودون مغالاة هي جدّة جدتي . لقد كانت في صباها جميلة جداً ، وحتى وهي في الثانية والثمانين لا تزال تحافظ على انتصاب قامتها ، ولا يزال جبينها مرتفعاً وعيناها برّاقتين وأنفها الإغريقي محافظاً على شكله . وهي بوساطة المساحيق ، والحمرة ، والشعر المستعار ، والأسنان الصناعية ، كل هذا بالإضافة إلى حيل التجميل الپاريسية ، استطاعت أن تحافظ على كثير من ملامح الجمال . كانت ثرية جداً ، وبما أنها بقيت بدون أولاد من زوجيها السابقين ، أخذت تسعى إلى لقائي في أميركا . ولكي تقيمني وريثاً لثروتها جاءت إلى أميركا برفقة سيدة رائعة الجمال هي السيدة ستيفاني لالاند قريبة زوجها الثاني .

لفت انتباهها شكلي ونظراتي في دار الأوپرا في ذلك اليوم ، وبعدما تفحّصتني بنظارتيها دُهشت لفرط الشبه بيني وبين أفراد عائلتها . ولما ازداد اهتمامها بسبب هذا التشابه ، ولعلمها بأن حفيدها الذي تفتش عنه هو في البلدة حيث وصلت ، التفتت إلى مرافقها وتساءلت عمن أكون . وكان السيد الذي برفقتها يعرفني ، ولهذا أخبرها عني . وهكذا فإن المعلومات التي جمعتها دفعتها إلى تحديد نظرها إليّ وتفحّصتني من جديد ، وكان اهتمامها هذا هو الذي جعلني أتجرأ على أن أتصرف بالطريقة العجيبة التي تصرفتُ

بها . ولقد أجابت على انحناءة رأسي ، إذ تصورت أنني بطريقة ما قد أكون لاحظت الشبه بيننا ، وعرفت من تكون . وعندما سألت تالبوت عمن تكون السيدة ، وقد خدعت بسبب ضعف نظري بمظهرها ولم أتمكن من أن أتحقق من سنّها ، ظن تالبوت أنني أعني السيدة الصغرى التي كانت معها ، ولهذا أجابني بالحقيقة ، وهي أنها السيدة لالاند الأرملة .

في صباح اليوم التالي ، وفي الشارع ، صادفت السيدة لالاند الكبرى صديقي تالبوت الذي كانت قد تعرفت عليه في پاريس ، وامتد الحديث بالطبع إليّ ، وهكذا عرفت السيدة لالاند بأمر ضعف نظري ، إذ كان هذا الموضوع مشهوراً عني ، وتحقّقت قريبتي العجوز بأنني في الواقع إنما خدعت ، ولم أفطن إلى التشابه بيننا وإلى النسب ، وأنني كنت أتصرف بتهور إذ أحاول أن أغازل امرأة عجوزاً علناً وفي مسرح يغصّ بالناس ، لهذا قررت أن تعاقبني على هذا التهوّر ، واتفقت مع تالبوت على الحيلة كلها . وكان أن غاب تالبوت عن عينيّ عمداً لكي لا يعرّفني إليها . وأما أسئلتي عن الأرملة الجميلة السيدة لالاند في الشوارع فقد كانت تؤخذ على أنها تعني السيدة الصغرى دون شك ؛ وهكذا فإن الحديث مع الرجال الثلاثة الذين صادفتهم في الشارع ، بعد مغادرتي مكان تالبوت ، يصبح أمراً واضحاً لا حاجة إلى تعليله . لم تسنح لي الفرصة لرؤية السيدة لالاند في ضوء النهار عن كثب ، وفي الأمسية الموسيقية لم أتمكن من التحقّق من عمرها وشخصيتها لأنني لم أضع النظارتين . وعندما دعيت «السيدة لالاند» للغناء كان المقصود السيدة لالاند الصغرى ، وهي التي قامت فغنّت ، وأما جدة جدتي فقد رافقتها إلى الپيانو حرصاً منها على عدم افتضاح الخطة . فلو كنت حاولت أن أرافقها إلى الپيانو ، لكانت نصحتني بالبقاء في مكاني ، لكن ترددي في الأمر مخافة أن يكتشف أمرنا جعل ذلك أمراً غير ضروري . وأما الأغاني التي سمعتها ، والتي أثارتني بإجادتها ، فلم تكن سوى أغاني السيدة ستيفاني لالاند ، وأما النظارتان فقد قدمتهما إليّ على سبيلِ إتمام الحيلة ، إذ إنها تمكّنت بذلك من أن تستفيض بوعظها لي عن التصنُّع . ولا حاجة إلى القول إنها كانت قد أبدلت عدستيّ النظارتين بحيث

جاءتا موافقتين لشاب في مثل سني . وهي في الواقع لم تخطئ كثيراً في اكتشاف مدى النقص في قوة باصرتيّ .

وأما الكاهن الذي مثل أنه يربط بيننا برباط الزواج الأبدي ، فهو في الحقيقة لم يكن سوى صديق لصديقي تالبوت ، وهو ليس كاهناً . لقد كان «حوذياً» مناسباً ليدفع بنا خارج المدينة ، إذ إنه بعد أن أبدل ثيابه ووضع ثياب الكهنوت المزركشة وأتم مراسيم الزواج المزّور سارع إلى ترحيل «الزوجين السعيدين» خارج البلدة ـ وكان تالبوت قد اتخذ لنفسه مقعداً إلى جانب صديقه الكاهن . كان هذان الشقيان ينتظران في غرفة خلفية من الحانة يستمتعان بهذه «الدراما» التي ألّفاها .

في أية حال ، لم أصبح في الواقع زوجاً لجدة جدتي ، وقد أزاح هذا الأمر عن كاهلي أحمالاً من الهم لا حد لها ؛ لكنني أصبحت بالفعل زوجاً للسيدة لالاند ـ أعني السيدة ستيفاني لالاند ، إذ إن نسيبتي العجوز ، لفرط طيبتها ، رتّبت لي أمر الزواج من السيدة ستيفاني ، بالإضافة إلى أنها جعلتني وريثها الوحيد بعد وفاتها ـ هذا إذا كان الله سيتوفّاها .

الخلاصة هي أنني نفضت يدي نهائياً من كتابة رسائل الحبّ ولم يعد أحد يراني بدون نظارتين فوق أنفي .

قناع الموت الأحمر

عَمَّ وباء «الموت الأحمر»(*) الوبيل البلاد بأسرها ، وكان مروعاً لا مثيل له في التاريخ . . فالدم القاني لحمته ، والاحمرار المخوف سداه(**) . . ومن مظاهر هذا الوباء الآلام المبرّحة ، والدوار الفجائي ، وتدفّق الدم على الجلد ، مع انحطاط مستمر إلى درجة الانهيار .

فإذا ما انتشرت البقع القرمزية على جسم الضحية عموماً ، وعلى وجهه خصوصاً ، ابتعد عنه الناس كما يبتعد السليم عن الأجرب ، وحرموه كل حنان وعطف . والمستغرب في أمر هذا الوباء أنه لا يتطلب للقضاء على المرء أكثر من نصف ساعة فقط .

بيد أن الأمير بروسبرو كان سعيداً ، وشجاعاً ، وحكيماً ، فحين رأى أن نصف سكان إمارته قد أصبحوا في عالم الفناء ، استدعى ألفاً من أصدقائه المعافين ، الخالين من الهموم ، وكلهم من فرسان البلاط وسيداته ، ولجأ معهم إلى دير شبيه بالحصن ، ضارباً عليه وعليهم حصاراً منيعاً . . وكان الدير هذا عظيماً في تخطيطاته ومتيناً في بنيانه ، لأنه من تصميم الأمير الشاذ ومن ابتكار مخيّلته . . جدرانه عالية وسميكة ، ولهذه الجدران أبواب حديدية منيعة . . فلمّا دخلت الحاشية الدير حملت معها الأفران لصهر الحديد ، والمطارق الضخمة ، وصنعت المتاريس المنيعة ، وأقامتها خلف الأبواب والنوافذ لتحول دون الخروج من الدير في حالات اليأس أو الجنون العارض ، ولتكون حاجزاً في وجه من تسوّل له نفسه اللجوء إليه . . وقد زوّد الدير بالمؤونة الوفيرة واتخذ من التدابير ما يجعل الحاشية تستخف بالمصابين وتسخر منهم . . فعلى العالم الخارجي أن يعنى بنفسه . . وقد عمد الأمير لكي يبعد الهموم عن نفوس حاشيته ، ويجلب لهم المتعة ، إلى تزويد الدير بجميع وسائل الترفيه ، فحشد المهرجين والمغنين ، والراقصين

(*) الطاعون .

(**) السّداة من الثوب خلاف اللحمة وهو ما مُدّ من خيوطه ، واللُّحْمة ما سُدّي به بين سدى الثوب أي ما نُسج عرضاً .

والموسيقيين ، وربّات الحسن والجمال ، وبراميل الخمرة المعتقة . . فكل شيء متوفر في الدير ما عدا «الموت الأحمر» .

بعد مرور خمسة أشهر على هذه العزلة ، وبينما كان الطاعون يفتك بالناس المقيمين خارج الدير فتكاً ذريعاً ، عقد الأمير النية على إقامة حفلة مقنّعة تكون آية في الأبهة والروعة .

كانت الحفلة المقنّعة هذه في الواقع مسرحاً للنهل من الملذّات . . ولكن عليّ أن أصف بادئ ذي بدء الغرف التي أقيمت فيها هذه الحفلة . . كانت هذه الغرف الملكية سبعاً ، والعادة المتبعة في كثير من القصور أن تكون شبيهاتها تتلو بعضها بعضاً على خط مستقيم ، وأن تكون أبوابها ، ذات المصراعين ، تنزلق إلى الخلف من الجانبين ، فتحول دون رؤية ما يجري في الغرف على امتدادها . . أما في الدير فقد كانت وضعية الغرف تختلف كل الاختلاف عن حالة القصور الملكية ، وهذا الاختلاف الشاذ ليس بمستغرب من أمير محب لخوارق العادات . . لقد كانت الغرف فيه مبنية على طراز غير مستقيم ، تكشف الواحدة على الأخرى في آن واحد . . وكان في الدير عطفات حادة الزوايا ، تقوم كل منها بعد عشرين أو ثلاثين ياردة ، وكل عطفة تكشف عن منظر جديد . . وفي جدران الغرف نوافذ ضيقة قوطية الطراز تطل على الممر المغلق ، وتفتح عند الاقتضاء للتهوئة ، ولهذه النوافذ زجاج ملوّن يختلف لونه بالنسبة إلى زخرفة كل غرفة . . فالغرفة الواقعة في الطرف الشرقي مزخرفة باللون الأزرق ، وزجاجها ملوّن باللون الأزرق ، والثانية طنافسها وردية اللون ، وزجاجها ورديّ أيضاً ، والثالثة خضراء ، والرابعة برتقالية ، والخامسة بيضاء ، والسادسة بنفسجية . . أمّا الغرفة السابعة فكانت متّشحة بالسواد ، وقد انسدلت على جدرانها الستائر المخملية السوداء حتى اتصلت أطرافها بطنافس سود فرشت على الأرض ، إلاّ أن لون زجاج نوافذها اختلف عن لون زخرفها ، لقد كان أحمر كالدم القاني . . وكانت الغرف كلها خالية من المصابيح أو من الشمعدانات ، لكنها تضاء بأشعة ترسلها النيران من مواقد صُفت في الممر وراء النوافذ ، فتخترق هذه الأشعة الزجاج وتخلع على الغرف المحلاة بالذهب ضوءاً مثيراً ، وأما الغرفة السابعة

التي كانت تتسرب إليها الأشعة الحمراء من خلال الزجاج الدامي ، فتترك في نفس من يدخلها أثراً مروّعاً وحشيّاً ، ولم يكن من الحاشية من يجرؤ على دخولها إلاّ بضعة نفر .

وكان في هذه الغرفة السوداء ساعة ضخمة ملبّسة بخشب الأبنوس ، يروح رقاصها ويجيء ثقيلاً ، متكاسلاً ، رتيباً ، وإذا ما دار عقربها وأتم ساعة من دوراتها ، فإن رنتيها النحاسيتين ترسلان صوتاً موسيقيّاً جليّاً ، عالياً ، وعميقاً ، يتسم بطابع خاص ، ويحمل الموسيقيين على التوقف عن العزف فجأة ويسمر الراقصين في أماكنهم ، وتكتنف القوم المرحين بلبلة إلى حين ، فالمصاب منهم بالدوار يمتقع وجهه ، والمسن يمسح حاجبيه كمن يهيم في تأملاته . . وعندما يتلاشى صدى الساعة تماماً ترسم على ثغور الحضور ابتسامات فاترة ، ويتطلع الموسيقيون في وجوه بعضهم بعضاً وهم يتبسمون ، وكأنهم يهزؤون بما هم عليه من عصبية وجنون . وتتكرر هذه الحالة كلما أعلنت الساعة الضخمة انسلاخ ساعة من الزمن .

وعلى الرغم من ذلك كله ، فقد استمرّ المرح والقصف . . . فللأمير ذوقه الخاص ، وله نظرته في الألوان وأثرها في النفس ، إنه لا يحفل بالزخرف المجرد ، ومشاريعه جريئة ملتهبة ، وأفكاره تتقد بلمعان همجي . . وهناك من الناس من يظنه معتوهاً ، في حين أن أتباعه يعتبرونه حكيماً ، وكل من يسمعه ، ويراه ، ويحتك به يثق بأنه سليم الذهن ، صحيح العقل .

والحقيقة أنَّ الأمير أوصى بنفسه صنع معظم الزخارف المتباينة ، الموجودة في الغرف السبع ، لمناسبة هذه الحفلة المقنّعة العظيمة . . وهو الذي اختار الألبسة المناسبة للمقنَّعين حسب مزاجه وذوقه . . وكانت هذه الألبسة تسطع بالضياء ، والبريق ، وفيها حذق وخيال واسع ، منها ألبسة متعددة الخطوط والألوان لكنها غير منسجمة مع الأجسام التي ترتديها ، ومنها ألبسة خيالية تشبه ثياب المهابيل ، ومنها ما هو جميل بديع ، أو فاسق خليع ، أو شاذ مستغرب ، أو مروّع مستهجن ، أو مثير للنفور والتقزّز ! . .

وفي الواقع ، كانت تهوّم في الغرف السبع أحلام جمّة ، جيئة وذهاباً . . تهوّم وهي تتلوّن بألوان الغرف ، جاعلة من الموسيقى الصاخبة التي ترقص

على أنغامها كأنها صدى وقع خطاها . . . وكانت الساعة الأبنوسية ترسل دقاتها بين حين وحين ، فيصمت الجميع إلاّ هي . . فتتجمّد الأحلام في رؤوس القوم الواقفين كالأصنام ، ولكن ما إن تتلاشى أصوات دقات الساعة حتى تشع الابتسامات على ثغور القوم ، وتصدح الموسيقى ثانية ، وتنتعش الأحلام من جديد ، وتأخذ في التخطّر المرح جيئة وذهاباً أكثر من ذي قبل ، وهي تقتبس الألوان من النوافذ الكثيرة التي تخترقها تيارات من أشعة المواقد . . أمّا الغرفة السابعة ، التي تقع في الجهة الغربية من الدير ، فلم يجرؤ أحد من المقنّعين على دخولها ، لأن الليل آخذ بالهبوط ، والأشعة الحمر تخترق زجاجها الدامي ، وسواد الستائر المنسدلة على جدرانها يوحي بالهلع . . فالمرء الذي تطأ قدماه طنافسها السود تبلغه قهقهات غامضة صادرة عن الساعة الأبنوسية ، لكنها أكثر وقاراً من قهقهات القوم المنغمسين في لذائذ الغرف الأخرى .

كانت تلك الغرف غاصّة بالحاشية ، ينبض فيها عرق الحياة قوياً ، والقصف فيها قائم على قدم وساق ، إلى أن أعلنت الساعة حلول منتصف الليل . . فتوقفت الموسيقى عن الصدح ، وكفّ الراقصون والراقصات عن الدوران ، وساد المكان سكون عميق . . واستغرق القوم في التأمل والتخيُّل .

ولـمّا أتمّت الساعة الدقة الثانية عشرة ، تنبّه معظم القوم إلى وجود شخص مقنّع بينهم ، فاستأسرتهم هيئته ، وراحوا يتهامسون بشأنه ويتمتمون ، ثم صاروا يعربون عن استقباحهم إياه حتى غمرتهم موجة من الفزع والهلع .

لقد كان من المتوقّع ألاّ يؤدّي ظهور هذا المقنّع غير الطبيعي إلى إثارة مجتمع كالمجتمع الذي أتيت على وصفه . . لكنه كان أكثر رعباً من الرعب ، وأهول من الزخارف التي ابتكرتها مخيلة الأمير . . ولم يبق وتر من أوتار قلوب أكثر الحاشية لامبالاة إلاّ وقد مسه الانفعال . . حتى إن أولئك الذين لا يكترثون للحياة أو الموت قد بادروا إلى إظهار فزعهم من هذا المقنّع الغريب ، فلباسه ومظهره يتركان في النفس أثراً عميقاً ، كان طويل القامة هزيلاً ، يرتدي لباساً يوحي بالوقار ، أمّا القناع الذي أخفى به وجهه فيشبه ملامح الميت المتشنّج العضلات ! . . وأمّا ثوبه فملطخ بالدماء ووجهه ينذ بالفزع القرمزيّ . .

وسرعان ما صار القوم يلهجون بعبارة «الموت الأحمر» ! . .

ولـمّا وقع نظر الأمير بروسبرو على المقنّع الغريب ، الذي كان يتخطّر بين الحضور ، وكله وقار وإصرار ، اضطرب ومسته رعشة من الفزع ، لكنه عاد فقطّب حاجبيه حانقاً ، وصاح في الحاشية القريبة منه : مَن هذا الذي تجرأ وأهاننا في عقر دارنا بمكره المُهين؟ . . أمسكوه وانزعوا القناع عن وجهه ! . . علينا أن نعرف من سنشنق على باب الدير عند طلوع الفجر ! . .

كان الأمير بروسبرو يقف في الغرفة الزرقاء الشرقية حين أرسل صيحته هذه . . وقد اخترقت كلماته الغرف السبع عالياً وبكل وضوح ، فهو رجل قوي ، شديد البأس . . وقد كفّت الموسيقى عن العزف بحركة من يده .

في البداية تقدّم نفر من الحاشية في اتجاه المقنّع الدخيل . . غير أنه لم يأبه بهم وسار من أمام الأمير بخطوات متئدة ثابتة . . فأوقع الهلع في قلوب الحضور ، وامتنعوا عن الاقتراب منه وآثروا الالتصاق بجدران الغرف . . أمّا هو فقد اجتاز الغرف السبع بخطواته المتزنة ، فاهتاج الأمير لهذا التحدّي السافر ، وخجل من جبنه المؤقت ، فاخترق الغرف كلها مسرعاً ، لاحقاً بالدخيل ، والحاشية ترمقه بنظراتها الجَزعة ، إلى أن اقترب منه وهو يدخل الغرفة السوداء ، واستل خنجره وحاول أن يطعنه به ، فاستدار الشبح المقنّع على حين غرة وجابهه وجهاً لوجه ، وإذا بالأمير بروسبرو يرسل صرخة حادة ، ويفلت الخنجر من يده ، ليسقط على الطنفسة السوداء ميتاً . . .

ولـمّا رأى القوم ما حلّ بأميرهم استجمعوا قواهم المشتّتة واقتحموا الغرفة السوداء . . وأمسكوا بالدخيل ، الذي كان يقف بقامته الطويلة ، إلى جانب الساعة الأبنوسية ، ثابت الجنان ، ولشدّ ما أدهشهم وأثار الهلع في قلوبهم حين رأوا أن ما يمسكونه إن هو إلاّ كفن يغطّي هيكلاً عظمياً شبيهاً بالقناع الذي يضعه على وجهه ، وأن أحداً من بني البشر لا يلبس ذلك الهيكل .

في تلك اللحظة فقط أيقن القوم أنهم ماثلون أمام «الموت الأحمر» . لقد جاءهم كما يجيء اللص في عتمة الليل ، وصار يصرع أفراد الحاشية اللاهية الواحد بعد الآخر . . وتوقفت الساعة الأبنوسية عن الحركة عند مصرع آخر فرد منهم . . وكفّت المواقد عن إرسال أشعتها عبر النوافذ . . وسادت المكان ظلمة حالكة وفناء دائم هو «الموت الأحمر» ! . .

موريلا.. الأم والابنة

كنت أشعر تجاه صديقتي موريلاّ بعاطفة عميقة فريدة، ومنذ تعرّفت عليها من طريق المصادفة. وقد مرّت على ذلك بضع سنوات، توهّجت نفسي بنار لم تعهدها من قبل؛ - لكنها لم تكن نار إيروس(*)، وصار اقتناعي المتزايد بأنني لن أستطيع توصيف مزاياها غير العادية، أو أضبط قوّتها المتغيّرة، عذاباً روحياً أليماً. غير أننا انسجمنا معاً وجمعنا القدر في رابطة الزواج. لم أكن أظهر أي تعلق بها، ولم أتحدث معها عن الحبّ. كانت رغم ذلك تهرب من النّاس وتتعلق بي وحدي فتجعلني سعيداً. ومن السعادة أن تتملكنا الدهشة! ثم أليس الحلم سعادة هو أيضاً؟

كانت موريلاّ على ثقافة واسعة. لم تكن مواهبُها عادية، وكانت طاقتها الروحية هائلة. أدركت ذلك وأصبحت مريدها في مناسبات عديدة. وسرعان ما اتضح لي أن موريلاّ، بسبب دراستها في بريسبورغ، كانت تعرض أمامي عدداً كبيراً من هذه الكتب الروحية المعتبرة بشكل عام خلاصة الأدب الألماني الأول. كانت هذه الكتب، لأسباب أجهلها، موضوع دراستها الدائمة المفضلة؛ ولئن أصبحت مع الزمن موضوع دراستي أنا أيضاً، فذلك عائد إلى تأثير الاتّباع والعادة.

لم يكن لفكري في هذه الدراسات كلها، إن لم أكن مخطئاً، أي فعل. ولم تكن قناعاتي مبنية على المثل الأعلى بأيّ شكل، ولم يكن أحد يستطيع أن يكتشف، إن لم أكن مخدوعاً، أيّ أثر للروحانية سواء في أفكاري أو في أعمالي. ولـمّا تيقنت من هذا الخواء استسلمت لاتجاه زوجتي ودخلت رابط الجأش في متاهات دراساتها. وحينما كنت أغوص في الصفحات اللعينة وأشعر بالفكر الرجيم يتأجج في داخلي، كانت موريلاّ تأتي، وتضع يدها الباردة على يدي، وتجمع من رماد فلسفة ميتة بضع كلمات غريبة

(*) Eros إلـه الحب في الأساطير اليونانية ابن أفروديت وأريس وأحياناً ابن أفروديت وهفاستوس. ويسمى في الأساطير الرومانية كيوبيد.

مهيبة كانت تنحفر، بمعناها الغريب، في ذاكرتي. إذاك، كنت أستلقي إلى جانبها، طوال ساعات، حالماً، وأغيب في موسيقى صوتها، حتى يسري الرعب أخيراً في هذا الصوت؛ ويسقط الظل فوق روحي، وأصفرّ وأرتعد من هذه الألحان التي هي من غير هذه الأرض. وهكذا كانت المتعة تتلاشى بغتة في الذعر، ويصبح مثال الجمال رمزاً للقبح.

من غير المجدي في اعتقادي أن أرسم الميزة الدقيقة للمشكلات، الناتجة عن الكتب الروحية التي أشرت إليها، والتي كانت تقريباً الموضوع الوحيد للحديث بين موريلاّ وبيني دائماً. ربما سيفهمها بسهولة الأشخاص الذين تثقفوا بما يمكن تسميته الأخلاق اللاهوتية، أما غير المثقفين فلن يفهموا منها إلاّ القليل في أي حال. كانت النزعة الغريبة لتأليه الكون عند فيشته(*)، وفكرة التقمّص عند الفيثاغوريين(**)، وفوق هذا كله، عقيدة الوحدانية كما أوضحها شيلنغ(***) ـ كانت هذه بشكل عام موضوع النقاش الذي كان يضفي مزيداً من السحر على شخصية موريلاّ الخيالية. أظنّ أنّ لوك(****) قال بحق إن قوام هذه الوحدانية الشخصية هو في استمرار الكائن العقلي. وبما أننا نفهم الشخص جوهراً مفكراً، مُنح العقل، وبما أن هناك وعياً يرافق الفكر دائماً، فإن هذا الوعي هو الذي يجعلنا نكوّنُ ما نسميه ذواتنا، ـ ويميزنا هكذا عن غيرنا من الكائنات المفكّرة، ويمنحنا وحدتنا الشخصية. لكن مبدأ الفردية كان بالنسبة إليّ مشكلة من أكثر المشاكل أهمية، ليس بسبب طبيعة نتائجه المقلقة والمشوشة فحسب، بل بسبب الطريقة الغريبة المنفعلة التي كانت موريلاّ تتكلم فيها عن ذلك المبدإ أيضاً.

(*) يوحنا فيشته (١٧٦٢ ـ ١٨١٤): فيلسوف ألماني تأثر أول الأمر بتعاليم كانت ثم مال إلى فلسفة مثالية محورها الأنا.

(**) أتباع الفيلسوف والرياضي اليوناني فيثاغوراس الذين يعتقدون بتناسخ الأرواح.

(***) فردريك شيلنغ (١٧٧٥ ـ ١٨٥٤): فيلسوف ألماني صاحب مذهب المثالية الموضوعية.

(****) جون لوك (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤): فيلسوف إنكليزي عُرف بتحرره وآرائه التقدمية. نبذ مذهب الأفكار الفطرية.

كان سرُّ طبيعة زوجتي في الواقع قد بدأ يضغط عليّ كالسحر . لم أعد أستطيع تحمّل لمس أصابعها الشاحبة ، أو النبرة العميقة لكلامها الموسيقي ، ولا بريق عينيها الكثيبتين . وكانت تعرف هذا كله ، دون أن تلومني ؛ كانت تبدو بصيرة بضعفي أو جنوني وتسمي ذلك وهي تبتسم : القدر . كما كانت تبدو عارفة بأسباب ضعف صداقتي المتزايد ، تلك الأسباب التي كنت أجهلها تماماً ؛ غير أنها لم تكن تقدم لي أيّ إيضاح أو أية إشارة إلى طبيعة هذه الأسباب . إلاّ أن موريلاّ لم تكن سوى امرأة ، وكانت تذوي يوماً بعد يوم . في النهاية ظهرت على خدّها بقعة أرجوانية لم تفارقه أبداً . وبرزت العروق الزرقاء في جبينها الشاحب . وكنت أحياناً أذوب شفقة عليها ، لكن بعد لحظة ، كان يفاجئني بريق عينيها المثقلتين بالأفكار ، وإذّاك كانت روحي تأسى وتعاني مثل دوار شخص غاصت عيناه في هاوية رهيبة لا قرار لها .

أقول إنني كنت أنتظر بلهفة حادة وحشيّة لحظة موت موريلاّ؟ هكذا كان الأمر ؛ لكن الروح الرقيقة تشبثت بمأواها الصلصالي ، خلال أيام عديدة ، بل أسابيع عديدة وشهور عديدة مملّة ، حتى أن أعصابي العذبة انتصرت في النهاية على عقلي وصرت مذعوراً من هذه التمهّلات كلها ، ولعنت بقلب شيطاني الأيام والساعات والدقائق المرة التي كانت تبدو أنها تتطاول وتتطاول دون حدّ ، بقدر ما كانت حياتها النبيلة تتوارى كالظلال في احتضار النهار .

ولكن موريلاّ دعتني إلى سريرها ذات مساء خريفيّ بدا فيه الهواء جامداً في الفضاء . كان ثمّة غطاء من الضباب على الأرض كلها ، ووهج حارٌّ فوق المياه ، وكان من ينظر إلى مباهج تشرين في أوراق الغابة يحسب أن قوس القزح الملوّن قد سقط من السماء .

قالت حينما دنوت منها :

ـ ها هو يوم الأيام ، أجمل الأيام للحياة أو للموت . هذا يوم رائع لأبناء الأرض والحياة ـ آه إنه لأكثر جمالاً كذلك لبنات السماء والموت !

قبّلت جبينها ، وتابعت تقول :

ـ سأموت ، ومع ذلك سأحيا .

ـ موريلاّ !

ـ لم تجئ مطلقاً الأيام التي سُمحَ لك فيها أن تحبّني ؛ لكن هذه التي كرهتها في الحياة ، سوف تعشقها في الموت .

ـ موريلاّ !

ـ أكرر أنني سأموت . لكن في أحشائي شهادة لهذه العاطفة ـ آه ، يا لها من عاطفة زهيدة التي شعرت بها نحوي أنا ، موريلاّ . وحينما ستذهب روحي سيعيش الطفل ، ـ طفلك ، طفلي أنا ، موريلاّ . لكن أيامك ستكون أياماً مليئة بالكآبة ، الكآبة التي هي أكثر المشاعر بقاءً ، كما هو الشربين أطول الأشجار بقاءً ؛ ذلك أنَّ ساعات سعادتك قد ولّت ، والفرح لا يُجتنى مرتين في العمر ، كما تقطف أزهار (بيستوم) مرتين في السنة الواحدة . لن تلعب بعد مع الزمن لعبة الإنسان في مرفإ تيوس ؛ ويصير الريحان والدالية شيئين مجهولين لك ، وتحمل معك كفنك أنّى رحلت على وجه الأرض .

فجأة أدارت وجهها نحو الوسادة ، وسرت رعشة خفيفة في أعضائها ، وماتت ولم أعد أسمع لها صوتاً .

مع ذلك فإنَّ ابنتها التي وضعتها وهي تموت ، والتي لم تتنفس قبل أن تلاشت أنفاس أمها ، هذه الطفلة عاشت كما تنبأت أمها . وكبرت بشكل عجيب ، قامة وذكاء ، وأصبحت الشبه الكامل لتلك التي ماتت . أحببتها أشد الحب الذي لا أعتقد أنني قادر على الشعور به نحو أي كائن فوق هذه الأرض .

ولم يمض وقت طويل حتى تلبّدت سماء هذه المحبة الصافية ، وغطتها سُحُب الكآبة والرعب والحسرة . قلت إن الطفلة كبرت بشكل غريب قامة وذكاءً . والحق أن سرعة نموها الجسدي كانت غريبة ، لكن الأفكار الصاخبة التي احتشدت في عقلي وأنا أراقب نمو هذا الكائن العقلي ، كانت رهيبة ، أواه ، رهيبة . هل كان يعقل أن تأتي أفكاري على غير هذه الصورة ، وأنا أكتشف يومياً في تصوّرات الطفلة مواهب المرأة الراشدة؟ حين كانت أمثال الخبرة تخرج من شفاه الطفولة؟ حينما كنت أرى في كل لحظة حكمة النضج وأهواءه تنبعث من هذه العين السوداء الدائمة التأمل؟ أقول حينما صدم هذا كله حواسي المرعوبة ، حينما استحال على روحي أن تخفيه وقتاً

أطول ، وعلى قـواي المرتجفـة أن تدفع هـذا اليـقين ، فـهل بقي لي مـجـال للاندهاش لأن شكوكاً مخيفة مقلقة انزلقت في أعماق فكري ، أو لأن أفكاراً تتصل بالقصص الغريبة والنظريات الروحية لموريلاّ الدفينة انتزعت من فصول العالم كائناً ألزمني القدر بتقديسه؟ وسهرت في عزلتي الشديدة بقلق مُضنٍ على كل ما كان يتعلق بالمخلوقة الحبيبة . وبينما كانت السنوات تعبر ، وأنا أتأمل ، يوماً بعد يوم ، وجهها الوديع الناطق ، وأدرس أشكالها الناضجة ، كنت أكتشف في كل مرّة نقاطاً جديدة من التشابه بين الطفلة وأمها ، بين الحيّة والميتة . وكانت هذه الظلال من التشابه تتكاثف لحظة بعد لحظة بامتلاء أكثر ووضوح أكبر ، وبلبلة أعظم ، ورعب هائل في مظهرها . أن تشبه ابتسامتها ابتسامة أمها ، ذلك ما أستطيع تحمّله ، لكن أن يكون هذا الشبه كاملاً فشيء كان يفجعني ويملؤني بالرعب ؛ أن تشبه عيناها عيني موريلاّ كنت أستطيع أن أتحمله ، لكنهما كانتا تنفذان غالباً في أعماق روحي مثقلتين بالمعاني نفسها التي كانت تحملها نظرات موريلا . وكنت أجد في خطوط جبينها العالي ، وفي خصلات شعرها الحريري ، وأصابعها الشاحبة التي كانت تغوص فيه عادة ، وفي نبرة كلامها الموسيقية الحزينة ، وفوق هذا كله - أوه - فوق هذا كله ، - في عبارات الميتة وكلماتها ، على شفتي الحبيبة ، الحية ، كنت أجد غذاء لفكر هائل ملتهم ، لدودة لا تريد أن تموت .

على هذا الحال مرت عشر سنوات من حياتها ، وظلت ابنتي بغير اسم على الأرض . كانت «طفلتي» و«حبي» النداءات التي تمليها العاطفة الأبوية عادة ؛ وكانت عزلة حياتها الصارمة تحول دون أي اتصال آخر . كان اسم موريلا قد مات معها . لم أتحدث قط مع البنت عن أمها ، فقد كان ذلك مستحيلاً عليّ . والحق أن هذه الأخيرة لم تتلقّ خلال فترة حياتها القصيرة أي انطباع عن العالم الخارجي باستثناء الانطباعات التي أمكن أن تتوفر لها في حدود عزلتها الضيقة .

وأخيراً بدا لذهني في حالته المنفعلة المتهيجة أن مراسم العماد خاتمة سعيدة لكل ما أحاق بمصيري من الرعب . ترددت في اختيار الاسم ، وتزاحمت على شفتي جموع الأسماء القديمة والحديثة ، من بلادي ،

والبلدان الغربية ، مع عدد كبير من الألقاب العذبة للنبل والسعادة والخير .

تُرى ، ما الذي أوحى إليّ إذاً بأن أثير ذكرى الميتة الدفينة؟ أي شيطان دفعني إلى أن أهمس بذلك الصوت الذي تكفي مجرد ذكراه لتدفع تيار الدم من صدغي إلى قلبي؟ أية روح شريرة تكلمت من أغوار روحي ، حين ، في تلك الردهات المعتمة وفي سكون الليل ، همست في أذني الرجل المقدس مقاطع اسم «موريلاّ»؟ من غير الشيطان جعل ملامح طفلتي تتشنَّج وصبغها بألوان الموت؟ حين سمعت ذلك الصوت ، الذي يكاد لا يُسمع ، أدارت عينيها الصافيتين عن الأرض نحو السماء وأجابت وهي تسقط فوق الرخام الأسود لضريح العائلة : ها أنا .

لقد سقطت تلكما الكلمتان البسيطتان في أذني بوضوح ، سقطتا بوضوح وهدوء باردين ، ثم نفذتا إلى دماغي كالرصاص المذوّب . السنوات ، السنوات الطويلة ، يمكنها أن تمر ، لكن ذكرى تلك اللحظة ، أواه ! أبداً ! الزهور وعرائش الكرمة لم تكونا بالنسبة إليّ شيئاً مجهولاً ؛ لكن أشجار السرو والشوكران بقيت تظللني ليلاً نهاراً . فقدت كل إحساس بالزمان والمكان ، وأفلت نجوم قدري من صفحة السماء ، وغدت الأرض مظلمة تمر بي وجوهها كالظلال المترنحة ، ولم أكن أجد بينها غير وجه واحد ، وجه موريلاّ! رياح السماء لم تكن تهمس لي إلاّ بصوت واحد ، وأمواج البحر كانت تتمتم بلا انقطاع : «موريلاّ!» ؛ لكن موريلاّ ماتت ، حملتها بيدي الاثنتين إلى المقبرة ، ثم ضحكت بمرارة وأنا أواري الثانية في الضريح حين لم أجد فيه أثراً لموريلاّ الأولى .

مخطوطة في قنّينة

لا أملك ما أقوله عن بلادي وأسرتي إلاّ النذر اليسير ، فتعاقب السنين جعلني غريباً عن الأولى ، وسوء تصرّفي حرمني من الثانية . . فثروتي الموروثة أمكنتني من الحصول على ثقافة عالية ، ونزعتي التأملية أفسحت لي في المجال لتنظيم ما تراكم في رأسي من معلومات اكتسبتها في سنيّ حياتي المبكرة . . وفضلاً عن ذلك كله فإن كتب الأخلاقيين الألمان حملت لي متعة عظيمة ، لا إعجاباً مني بجنونهم المفرط ، بل للجزالة التي كنت أجدها في تتبّع أكاذيبهم .

لقد عوتبت كثيراً على صلف ذكائي ، ونُسبت إليّ الجريمة لضعف خيالي ، والواقع أنني أخشى أن تكون الفلسفة الطبيعية ، التي كنت أجد فيها متعة ، قد أسبغت على فكري ضرباً شائعاً في أيامنا هذه ، وأعني به تفسير الحوادث ، مهما كانت ثانوية ، تفسيراً علميّاً . . وعلى العموم إنني أقلّ الناس عرضة للابتعاد عن دائرة الحقائق الصارمة . . والقصة الخارقة التي سأرويها هي خير دليل على ما أقول ، إنها ليست من نسيج خيالي الضعيف ، وإنما هي وليدة اختبارات لا بطلان فيها أبداً .

أمضيت سنين عديدة سائحاً في البلاد الأجنبية ، ثم أبحرت سنة ـ ١٨ من ميناء باتافيا ، من بلاد الجاوه ، إلى جزر الأرخبيل ، وليس من باعث على ذلك سوى الاضطراب العصبي الذي كنت أرزح تحت وطأته .

كانت سفينتنا التي أبحرنا بها جميلة الشكل ، متينة الهيكل ، حمولتها أربعمائة طن ، وقد صنعت في بومباي . . وهي محمّلة بالقطن ، والزيت من حاصلات جزر لاشاديف . . وكانت محملة أيضاً بجوز الهند وأليافه ، والسكر المستخرج من التمور ، وصناديق تحتوي على الأفيون . وهذه المشحونات كلها قد صُفّت دون ترتيب ، الأمر الذي جعل السفينة دائمة الالتفاف .

أقلعت السفينة في ريح هادئة ، وظلّت تتهادى بنا أياماً عدة عند شواطئ الجاوه الشرقية ، ولم يقع لنا في هذه الأثناء أي حادث يقطع علينا سبيل اتجاهنا الرتيب باستثناء ما كان يعترضنا من جزر صغيرة تابعة لجزر الأرخبيل .

وفيما كنت عصر يوم أستند إلى حاجز مؤخرة السفينة ، لمحت غمامة منفردة فريدة ، تتجه إلى الشمال الغربي ، وقد استرعت هذه الغمامة انتباهي بسبب اللون الذي تلوّنت به ، ولأنها أول غمامة نراها بعد مغادرتنا ميناء باتافيا . . وظللت أرقبها باهتمام زائد حتى غروب الشمس ، عندما انتشرت دفعة واحدة شرقاً وغرباً واستحالت في الأفق إلى تيار دقيق من البخار ، يشبه خطاً مديداً من شواطئ البحر . . ثم لفت انتباهي القمر بوجهه الأحمر القاتم ، والبحر وهو في حالة خاصة غريبة ، إذ غدت مياهه شفّافة أكثر من المعتاد ، حتى إنني كنت أرى قاعه بكل وضوح ، ثم أمسى الهواء حاراً لا يُحتمل ، محمّلاً بأبخرة شبيهة بالأبخرة الصادرة عن الحديد المحمّى . . وقد انقطع النسيم تماماً ، فلهيب القنديل القائم في مؤخرة السفينة لا يحرك ساكناً ، والشعرة الطويلة إذا ما أمسكتها بين إبهامي وسبابتي تظل منتصبة مثل القضيب . . . وبالرغم من ذلك كله فقد أعلن الربان ألاّ خطر من هذه الظواهر الطبيعية . ولما كنا نبحر بمحاذاة الشاطئ فقد أصدر أوامره بطي الأشرعة ، وإلقاء المرساة . . وكان معظم البحارة من أهل الملايو ، فاستلقوا على ظهر السفينة وهم يغطّون في نوم هادئ ، أمّا أنا فقد هبطت إلى الطابق السفلي يغمرني شعور بأن نكبة ستحلّ بنا قريباً ، وقد سبق لي أن أعربت للربان عن مخاوفي هذه لكنه لم يولها أي اهتمام . . وكان للقلق الذي اعتراني أن جفاني النوم ، فصعدت عند منتصف الليل إلى سطح السفينة ، وما إن وضعت قدمي على الدرجة العليا من سلم المؤخرة حتى سمعت عويلاً مدوياً يصم الآذان يشبه صوت الدوران السريع لحجر الطاحون ، فأجفلني ، ولم أدرك كنهه ، ورأيت السفينة تضطرب من وسطها ، ثم غمرتها على حين غرة موجة من الزبد ، واكتسحتها من أدناها إلى أقصاها .

وكان لهذه الموجة المفاجئة أن أنقذت السفينة من الغرق ، فبعد أن غمرتها المياه تمكّنت من مقاومة ضغط العاصفة الهائل . واعتدلت في وضعيّتها .

ثم أية معجزة أنقذتني من الهلاك ، إذ ما إن عاد إليَّ رشدي حتى وجدت نفسي محصوراً بين مؤخرة السفينة ودفتها . . ونهضت بكل مشقة ،

وتطلّعت إلى ما حولي مذهولاً . . وكنت أتصوّر أنني سأجد حطام السفينة متناثراً هنا وهناك ، غير أنني رأيت ما هو أشد هولاً ، رأيت السفينة واقعة في أسر تيّار من تيارات المحيط . . . وانقضت لحظات سمعت بعدها صوت رجل أسوجي مسنّ ، كان قد أبحر معنا من بتافيا ، فأسرعت إليه بكل ما أوتيت من قوة وأسرع هو إليّ ، وسرعان ما اتضح لنا أننا ، نحن الاثنين ، كل مَن بقي على متن السفينة من أحياء ، فالموجة العاتية جرفت كل مَن كان عليها من بحارة وألقتهم في الدُّردور ، أما الربّان ومساعدوه فقد غمرتهم المياه وهم نيام في غرفهم ، وهلكوا غرقاً ، ومن البدهي أن نعجز وحدنا عن إنقاذ السفينة ، وقد تلاشى كل ما بذلناه من جهد ونحن نتوقّع السقوط في الهوة لحظة بعد لحظة . . وخطرت السفينة مسرعة وهي تتخبّط في كل اتجاه ، ونحن بين يأس ورجاء ، وبقينا على هذه الحال خمسة أيام بلياليها ، والأعاصير لا تنفك تتلاعب بنا على نحو لم أعهده في حياتي أبداً ، وكنا نقتات طوال الوقت بمخلّفات حمولة السفينة ، ففي الأيام الأربعة الأولى اتجهت بنا إلى الجنوب الشرقي ، ثم إلى الجنوب في اتجاه شواطئ هولاندا الحديثة . . وفي اليوم الخامس اشتدّ البرد فوق المعتاد ، وعصفت الرياح في اتجاه الشمال ، وامتقع لون الشمس التي كانت ترسل أشعتها الخافتة من فوق الأفق مباشرة ، ولم تكن هناك سُحُب مع أن الرياح كانت آخذة في الازدياد وهي تزمجر وتتضرب .

وحلّ اليوم السادس ودخلنا في ظلمة حالكة ، وأصبحنا لا نرى شيئاً على بُعد عشرين خطوة ، وظلّ هذا الليل السرمديّ يلفنا بردائه من كل جانب ، وإشعاعات البحر الفوسفورية المشهورة في الخط الاستوائي هي النور الوحيد الذي يداعب أعيننا . . وتعاظمت العاصفة ، واشتد الظلام ، وكنّا أنّى أدرنا وجهينا لا نرى إلاّ صحراء من الأبنوس الأسود اللامع ، وقد استولى الرعب على صديقي الأسوجي ، أما أنا فقد عقدت الدهشة لساني ، فأهملنا شأن السفينة تماماً وانصرفنا إلى الاهتمام بروحينا ، فتشبّثنا ، قدر إمكاننا ، بقاعدة الصارية ونحن نجيل الطرف في المحيط ، والغمّ يعصر قلبينا ، ولم يكن لدينا من آلات ما يدلنا على الوقت أو يفيدنا بموقعنا وفي أي اتجاه

نتخبّط . وكنا نتصور أننا نسير جنوباً ، غير أن ما حيّرنا هو عدم اصطدامنا بقطع الجليد العائمة . . وكان رفيقي يحدّثني عن قلة حمولة السفينة وعن متانتها ، وأنا قد قطعت كل أمل بالنجاة وهيأت نفسي لمواجهة الموت في كل لحظة . . وكنّا أحياناً نتنفس الصعداء عندما نلمح طير الباتروس البحري ، وأحياناً نشعر بدوار شديد ونحن نغوص في هوة جهنمية حيث المياه الآسنة والسكون الشامل .

وذات مرة بلغنا قعر هوّة ، وإذا برفيقي يصرخ جَزعاً : انظر . . يا إلـهي ! . . فلمحت نوراً أحمر يشع من جنبات الهوة الواسعة التي رسونا في قعرها ، ورفعت ناظري إلى أعلى فرأيت منظراً جمّد الدم في عروقي ، رأيت سفينة ضخمة الهيكل ، لعل حمولتها تبلغ أربعة آلاف طن ، وقد رفعتها الأعاصير إلى علو مئات الأمتار في السماء ثم هوت بها إلى قعر البحر .

في هذه الأثناء استحوذ على مشاعري أمل لا أدري مصدره ، فمشيت إلى مؤخرة السفينة متأرجحاً ، وانتظرت الموت دون خوف . . وكانت سفينتنا قد فترت عن المقاومة وغاصت في الماء ورأسها إلى أسفل . . فجاءت السفينة الثانية وصدمتها بعنف ، وكانت النتيجة أن قذفت بي الصدمة إلى ما فوق سطح البحر وسقطت على متن السفينة الضخمة ! . .

وما إن حططت عليها حتى ارتفعت من المياه ثانية وسارت في طريقها ، فاضطربت وصرت أحاول الاختفاء عن أعين البحارة ، وتسلّلت فيها مختلساً خطواتي إلى أن اقتربت من كوة واسعة عبرت منها إلى الداخل واختبأت . . وأنا أجهل السبب الذي كان يحملني على هذا التستر ، ولعله يرجع إلى الخوف من رؤية بحارة هذه السفينة الغريبة على حين غرة .

ما كدت أستريح في مخبئي حتى سمعت جلبة تقترب مني ، فلمحت رجلاً يمر بخطوات ضعيفة مضطربة . . ولم أستطع تمييز وجهه ، ولكنني رأيت ملامحه على الجملة ، فهو مسنّ معتلّ ، وركبتاه ترتجفان تحت أعباء السنين ، وهيكله كله يرتعش تحت رزء الحياة ، وكان يتمتم بصوت خافت وبلغة لا أفهمها ، ثم تلمس في الزاوية بعض الأدوات والخرائط البحرية

القديمة . . كان مسلكه على العموم مزيجاً من رعونة الطفولة الثانية ووقار الرجل الطيب . . ثم غادر المكان وصعد إلى ظهر السفينة .

*

استولى على نفسي شعور لا أعرف كيف أصفه ، إنه إحساس لا يخضع لأي تحليل ، ولا أعرف له مثيلاً في عبَر السنين الغابرة ، وأخشى الاّ أجد له تفسيراً في المستقبل أيضاً . . فهذا الشَعور بالنسبة إليّ هو مصدر شؤم ولا ريب ، وإنني لن أرضى أبداً عن طبيعة أفكاري . . ومن المستغرب أن أفكاري هذه غير واضحة بعد ، لأن مصادر أصولها مستحدثة تماماً ، وعلى ذلك فإن الشعور الجديد قد أضفى على نفسي كياناً جديداً .

*

مضى وقت طويل قبل أن أخرج من مخبئي في أسفل هذه السفينة المروّعة . . وقد خُيل إليّ أن إشعاعات مصيري قد تركزت في مصدر واحد . . فمَن هم هؤلاء البحّارة الذين لا أدرك لهم كنهاً؟ . . لقد كانوا يمرّون بي غارقين في التأملات لا يلحظون وجودي . . وقد بدا لي أن اختفائي لا معنى له بتاتاً لأن القوم لا يرونني على كل حال . . . وفعلاً خرجت من مخبئي ، وأخذت أتجول بين البحارة ، ثم تجرأت ودخلت غرفة ربّان السفينة بالذات ، وهناك كتبت ما كتبت ، وصرت أوالي زيارة تلك الغرفة بين حين وحين وأدوِّن مذكراتي فيها . حقاً ، لقد جال في خاطري أنني لن أجد وسيلة لإيصال هذه المذكرات إلى العالم ، وأخيراً عزمت على وضع مخطوطاتي في قنينة وإلقائها في البحر .

وجرى لي بعد ذلك حادث حملني على التأمل من جديد . . فهل تقع لنا هذه الأمور يا ترى في نطاق حظوظ لا سلطة لنا عليها؟ . . وصعدت ذات يوم إلى ظهر السفينة ، ثم نزلت إلى الطابق الأسفل منها دون أن أسترعي انتباه أحد ، وهناك وجدت كومة من سلالم الحبال ، وأشرعة قديمة ، وتعثّرت من غير عمد بفرشاة للدهان ، هي حزمة من الأشرطة الطويلة ، كانت ملقاة إلى جانب برميل ، ولطّخت ثيابي بها . . وقد نبهتني

حزمة الأشرطة هذه إلى أن أغمسها في الدهان وأضعها على ظهر السفينة فربما يمسها أحد عرضاً كما مسستها أنا فيعرف مصيرنا .

وقمت فيما بعد بفحص هيكل السفينة فكانت متينة جيّدة التسليح ، مع أنها غير حربية . لم يكن من المتعذّر عليَّ معرفة ما ليست مهيّأة له هذه السفينة ، ولكن استحال عليَّ معرفة ما هي له ! . . فهي غريبة الشكل والحجم ، وأجد لها شبهاً في طيات الذكريات القديمة ، شبهاً غير واضح لكنه يرجع إلى العصور الغابرة .

وأنعمت النظر في المواد التي صُنعت منها فكانت غريبة جداً ، والذي أثار دهشتي بصورة خاصة هو الخشب الذي صُنعت منه ، فقد تبادر إلى ذهني أنه لا يصلح أبداً للاستعمال في بناء السفن . . . إذ كان هشّاً ذا مسام ، ولعل السوس قد نخره في سنيّ الملاحة الطويلة . . وعلى كل حال فإن متابعة البحث في هذه الناحية حملتني على الظن أن السفينة مصنوعة من خشب الصنوبر الإسباني ، وأن هذا الخشب قد مُطَّ بطرق غير طبيعية .

ولقد ذكّرني منظر هذه الأخشاب بما كتبه أحد البحارة الهولانديين القدامى في مذكراته قال : «وإن ما أقوله هو صحيح كصحة انتفاخ السفن في بعض البحار ، وصيرورتها ضخمة الهيكل ، كضخامة أجسام البحارة الذين يعملون فيها !» .

وتجرأت واختلطت بالبحارة لكنّهم لم يعيروني أدنى التفاتة . . وكانوا كلهم مثل ذلك البحّار الذي رأيته من مخبئي ، طاعنين في السن ، ترتعش ركبهم لعدم وثوقهم من أنفسهم ، وقد قوّس الهرم أكتفاهم ، وجلودُ أجسامهم المشنّجة تطقطق في الهواء ، وأصواتهم خافتة متهدّجة ، تشع أعينهم ببريق السنين ، وشعورهم الطويلة الموخوطة بالشيب تتطاير في العاصفة . . . وقد تبعثرت حواليهم أدوات حسابية قديمة عجيبة الشكل .

كنت مذ وضعت فرشاة حزمة الأشرطة على السفينة والأعاصير تتقاذفنا وتهدّدنا بالهلاك ، والتيارات البحرية المروّعة تسعى إلى ابتلاعنا في كل حين ، فلم أعد أقوى على الوقوف على قدميّ ، أمّا بحارة السفينة فلم يبدوا عظيم اهتمام بالأخطار المحدقة بهم ، والذي بلبل فكري أننا كنا نطوف على

حافة الهاوية السحيقة ، وهذه تأبى اختطافنا ، وكانت أعجوبة الأعاجيب إذ انزلقت السفينة إلى الدوّار كما ينزلق طير النورس على سطح الماء ، والأمواج تزمجر فوق رؤوسنا كما تزمجر الأبالسة ، إلاّ أن قوة غامضة حالت دون هلاك السفينة وانحطامها ، وإنني أعزو هذه القوة إلى التيّار في اندفاعه الجارف .

والتقيت بالربّان مرّة في غرفته وجهاً لوجه ، لكنه لم يكترث بي ، وهو رجل طاعن في السن ، له قامة مثل قامتي على وجه التقريب ، أي خمسة أقدام وثماني بوصات ، جسمه نحيل ، تنعكس على محيّاه آثار السنين الطوال ، وشعره الأبيض سجل حافل بالماضي ، وعيناه المتقدتان تخترقان حجب المستقبل . . وكانت غرفة الربّان مليئة بأدوات علمية غريبة الأشكال وخرائط قديمة العهد . . وقد أسند رأسه إلى راحتيه وهو يتصفّح رسالة تحمل توقيع الملك . . . وكان يتمتم في لغة أجنبية تصل إلى أذني وكأنها آتية من مسافات نائية .

فالسفينة ، ومن عليها ، توحي بالقدم . . والبحارة ينسلون جيئة وذهاباً مثل الأشباح المطوية في أحقاب الدهور ، وتنعكس في نظراتهم معاني الشوق والقلق معاً ، وإذا ما رأيت أصابعهم تحت ضوء المصابيح داخلني شعور موحش عجيب ، مع أنني قضيت معظم حياتي وأنا أتاجر بالتحف القديمة ، وأتشرب ظلال أعمدة بعلبك ، وخرائب تدمر ، وبرسيبوليس الفارسية ، حتى أضحت نفسي ذاتها أطلالاً من الخرائب .

وتطلّعت إلى ما حولي والسفينة تمخر نحو الجنوب ، وكان ظلام دامس ، وزبد هائل يطوّقنا من كل جانب ، ثم ألقيت نظرة إلى مسافة أبعد ، فشاهدت خيالات كتل الجليد تنتصب في الماء الكثيب وكأنها أسوار الكون .

واتّضح لي على الفور أن تيّاراً قوياً يسير بنا سريعاً إلى منطقة الجليد بنحيب وصخب مروّعين . كنّا نتّجه نحو القطب الجنوبي ذاته . . فيا لهول هذا الاتجاه .

وكان البحارة على متن السفينة يسيرون بخطى قلقة مرتعشة ، لكن ملامحهم كانت تنبئ عن الأمل الكبير أكثر مما كانت تنبئ عن اليأس القاتل .

وتلاعبت العواصف بالسفينة المحمّلة بأكياس الخيش ، ورفعتها إلى ما فوق سطح البحر . . فيا إلــهي . . ! أرعب على رعب؟ . . ها هي جبال الجليد ، المختفية قممها في سماء الظلمة الحالكة ، تتجمع إلى يميننا وإلى يسارنا ، والسفينة تدور بنا بسرعة هائلة في دائرة مركزة . . وها أنا لم يبق لي إلاّ القليل من الوقت لأفكر في المصير الذي ينتظرني ! . .

وأخذت الدائرة تضيق شيئاً فشيئاً ، فالتيّار الضاري ممسك بنا بإحكام ، وهو يجذبنا إلى أسفل . . وتخلخلت السفينة وسط زمجرة أعاصير المحيط ورعوده ، وفتحت الهوة شدقيها وابتلعتنا . . فيا إلــهي . . إننا نندفع إلى الأعماق ! . .

انهيار منزل أوشر

في يوم من أيام الخريف الكئيبة قضيت نهاراً رمادياً ساكناً ، وأنا أمتطي صهوة جواد أجول عبر الريف النائي . كانت السُّحُب الداكنة المنخفضة متلبّدة في السماء تضغط على كياني وتنقضه ، وما إن أرخى المساء سدوله حتى رأيت نفسي أمام منزل «أوشر» الموحش . . لا أدري كيف بلغت ذلك المكان ، غير أنني ما إن ألقيت أول نظرة على المنزل حتى استولى عليَّ شعور مغمّ لا يطاق ، أقولُ لا يُطاق لأنني لم أجد من يؤانسني في ذلك المكان النائي ، فهو منعزل ، مثير للحساسية ، والنفس عادة تقبل على المشاهد الطبيعية مهما كانت عزلاء أو مروعة .

نظرت إلى المشهد الماثل أمامي ، وهو مؤلّف من البيت المنتصب ، والمنظر الطبيعي البسيط لأملاك أسرة «أوشر» ، والجدران العتيقة ، والنوافذ الصغيرة ، وسيقان النباتات القليلة ، وجذوع الأشجار البيضاء الهرمة ، تطلعت إلى ذلك كله بنفس كئيبة لا أجد لها شبيهاً في أي إحساس زمني ، إلاّ ما يحس به المدمن على الأفيون بعد صحوته منه ، أو ما يحس به المرء بعد انقضاء يوم مزعج ، أو بعد أن يسقط الخمار القبيح عن الوجه .

كنت أحس بأنَّ قلبي يتجمّد ، ويغور ، ويخفق ، وأن خواطر مرعبة تتملكني ولا تتيح لي سبيلاً للخلاص منها ، فما الذي حلّ بي؟ . . وما هو هذا الذي وتّر أعصابي لدى تفكيري في منزل أوشر؟ . . إنه لغز طلسميّ غير قابل للحل ، ولم أستطع التغلّب على الخواطر الخفيّة التي احتشدت في رأسي وأنا أُعمل الفكر فيها . . . وهكذا اضطررت إلى التقهقر إزاء النتيجة غير المرضية التي توصلت إليها ، في حين أن هناك ، دون ريب ، عوامل تؤثر فينا ، وهي على غاية من البساطة الطبيعية ، لكن تحليلها يدخل في عداد الاعتبارات الخارقة الخارجة عن نطاق تفكيرنا . . وقلت لنفسي من المحتمل أن تكون هذه المشاهد المختلفة التي تؤلف خصائص المسرح المحيط بي ، وما تشتمل عليه الصورة العامة من جزئيات ، هي التي تترك في النفس انطباعاً كئيباً ، وعملاً بهذا الرأي قدت جوادي إلى منحدر يؤدي إلى بحيرة آسنة ،

متغيّر لونُها ، ذات لمعان ساكن ، تقع عند حافة المنزل ، وتطلّعت فيها فرأيت انعكاس صفوف الحشائش ، وأشباح جذوع الأشجار ، ونوافذ المنزل الصغيرة ، فأخذتني رعشة أعنف من الرعشة الأولى .

وإضافة إلى ذلك كله ، فقد جئت إلى هذا المنزل لأقضي فيه بضعة أسابيع ، وصاحبه هو رودريك أوشر ، أحد خلاّني في سني الحداثة ، وقد ولّت سنون عديدة منذ أن التقينا لآخر مرة ، إلى أن تلقيت منه مؤخراً رسالة ، وأنا في مكان قصيّ من البلاد ، تلحّ على أن أكون أنا ذاتي الردّ . . فخطُّ الرسالة يشهد على أن كاتبها يعاني حالة عصبية ، وهو يقول فيها إنه يشكو مرضاً حاداً يصيب جهازه العقلي ، وإنه لفي شوق شديد ليراني ، لأنني في الواقع صديقه الشخصي الوحيد المفضل ، وإنه يأمل من وجودي إلى جواره أن أنعشه قليلاً ، وأخفف عنه وطأة الألم . فالأسلوب الذي كتبت به الرسالة ، والرجاء الصادر عن القلب في الدعوة ، لم يدعا لي مجالاً للتردّد في قبولها ، على اعتبار أنها شخصية بحتة ، ولذا توجّهت إليه من فوري .

منذ أن كنا صديقين حميمين في سني الحداثة وأنا لا أعرف عنه إلاّ الشيء اليسير ، لقد كان دائماً مغرقاً في الانطواء على نفسه ، وقد تمكّنت منه هذه العادة ، ومع ذلك كنت على بيّنة من أن أسرته القديمة ، ولا أذكر الزمن ، قد اشتهرت بحساسية في الطباع ، وقد امتهنت ، خلال أزمنة طويلة ، الكثير من الأعمال الفنية النفيسة ، واتّسمت بالكرم والقيام بأعمال الخير المتواضعة ، كما كرّست نفسها بإخلاص متناه لخدمة الحسن ، والجمال ، والعلوم الموسيقية . كما علمت أيضاً أمراً له أهميته ، وهو أن شجرة عائلة أوشر لم تنبت فروعاً ، وبعبارة أخرى علمت أن الأسرة كلها تنحدر من صلب واحد ، ولم تعرف التقلب في الاختلاط إلاّ فيما ندر ، وقلت في نفسي هذا هو النقص في المسألة ، فالمنزل يحافظ على صفاته القديمة ، كما تحافظ الأسرة على سلالتها ، ويرث الأبناء هذا النقص عن الآباء ، إلى أن اندمج اسم الأسرة باسم المنزل وما يحيط به من أملاك ، كما هي الحالة عند أهل القرى ، وحملا اسماً مشتركاً هو اسم «منزل أوشر» .

إنّ تجارب الطفولة هي التي دفعتني إلى التطلّع في مياه البحيرة ، ونتج عن هذا التطلّع أنه قوّى الانطباعات الأولى في نفسي ، ومما لا شك فيه ، أن الشعور بالوهم قد عمل على مضاعفة هذا الوهم ، والتعجيل بتفاقمه ، وإنني لأعرف جيداً ، منذ أمد بعيد ، أن الرعب هو أساس السفسطائية(*) ، وعلى ذلك فإنني حين رفعت ناظري عن البحيرة ، وتطلعت ثانية إلى المنزل ، داخلني وهم غريب ، مضحك ، أتيت على ذكره لأدلل على الشعور الداهم الذي كنت أرزح تحت وطأته .

لقد حاولت إقناع مخيّلتي بأن المنزل ، والأملاك المحيطة به ، يكتنفها جو يناسب خصائصها وخصائص المنطقة المجاورة لها ، وأنْ ليس لهذا الجو علاقة بحالة الطقس ، وأن السبب في كآبته يرجع إلى الأشجار الهرمة ، والجدران الداكنة ، والبحيرة الصامتة ، وما يحيط بها من أبخرة غامضة خبيثة ، ووحشة منفِّرة ، ولون باهت شبيه بلون الرصاص .

وبعد أن أبعدت هذا الحلم عن نفسي ، أخذت أنعم النظر في المنزل عن قرب ، فلاح لي على الجملة أنه منزل أثري ، وأن العصور قد غيّرت من معالمه كثيراً ، ولاحظت أن الكمأ الصغير يغمر الساحة الخارجية بأسرها ، ويتدلى قسم منه ، على شكل عقود بديعة ، من الحافة الأمامية للسطح . ولم يكن هناك أي مظهر من مظاهر الدمار ، إذ لم يتداع أي قسم من المنزل ، وكل ما يستلفت النظر وجود تناقض بين سلامة بعض أقسامه ، وحالة التلف التي أصيبت بها بعض حجارته . . وفي هذا ما يذكرني كثيراً بالمصنوعات الخشبية القديمة ، التي انقضت عليها سنون عديدة وهي مهملة في الأقبية ، تزعجها أنفاس الجو في الخارج . ولعل المراقب ، الدقيق الملاحظة ، يكتشف صدعاً يمتد من السطح ومن ناحية المنزل الأمامية إلى أسفل ، على شكل متعرّج ، إلى أن يضيع أثره في مياه البحيرة الداكنة .

بُعَيْدَ أن لاحظت هذه الأشياء اجتزت معبراً قصيراً يؤدي إلى المنزل ،

(*) السَفْسَطة والسفْسطة والنسبة سَفْسَطي وسوفِسْطائي : الاستدلال والقياس الباطل أو الذي يُقصد بهِ تَموِيه الحقائق .

فاستقبلني خادم وقاد الجواد ليُعنى به ، وأمّا أنا فقد دخلت المنزل ماراً بقنطرة قوطية الهندسة . . ثم تقدّمني خادم آخر بخطوات خفيفة صامتة ، وأرشدني إلى مكتب سيده بصمت تام ، عابراً ممرات معتمة كثيرة .

كنت قد قاومت كثيراً الشعور الغامض الذي تحدّثت عنه ، غير أن الأشياء التي كانت تحيط بي في المنزل ، وسقوفه المزخرفة ، وستائره القاتمة التي تغطي جدرانه ، وبلاطه الأبنوسي الأسود ، وسمات الشرف والنسب ، والألبسة الحربية المصنوعة من الحديد والزرد ، التي أخذت تقرقع على وقع خطاي ، كل هذه كانت تفعل في مخيلتي فعلها ، وأتصورها جديدة عليّ مع أنني اعتدت رؤية مثيلاتها منذ طفولتي . والتقيت وأنا أصعد درجاً بطبيب الأسرة ، وتبيّن لي في محيّاه تعابير التشويش والمكر الخسيس ، فدنا مني مرتعشاً ثم ذهب في سبيله ، وأخيراً قادني الخادم إلى الغرفة التي يرقد فيها سيده .

كانت الغرفة ، التي دخلت إليها ، واسعة جداً ، وعالية السقف ، ونوافذها مستطيلة وضيّقة ، ومخروطية الشكل ، ومرتفعة عن أرض الغرفة الصنوبرية ، وليس من السهل الوصول إليها . . وقد تسرب شعاع ضئيل من خلال مشبك الزجاج ، ما ساعدني على تمييز الأشياء النفيسة التي تحيط بي ، ومع ذلك فعيناي كانتا تحاولان عبثاً رؤية زوايا الغرفة الشاسعة ، أو رؤية عقد السقف المجوف ذي النقوش المشتبكة . . . فالستائر الداكنة منسدلة على جدران الغرفة ، التي تضيق بما حوته من أثاث ، لكنه قديم بالٍ ، وغير مريح . . وكانت الكتب والآلات الموسيقية الكثيرة مبعثرة هنا وهناك ، ولكنها لا تخلع على هذا المسرح أي لون من ألوان الحيوية ، فأحسست أنني أتنفس في جو حزين كئيب صارم ، تكتنفه الظلمة من كل جوانبه .

ما إن دخلت الغرفة حتى نهض أوشر عن الأريكة التي كان مستلقياً عليها ، وحيّاني بكثير من الشوق والحرارة ، وتبادر إلى ذهني لأول وهلة أنه يبالغ في ترحيبه بي ، وأن الباعث إلى ذلك الضجر ، غير أنني ما كدت ألقي على محياه نظرة حتى اقتنعت بصدقه وإخلاصه . وجلس كل منّا على كرسي ، ومرّت فترة من الوقت التزم فيها مضيفي الصمت ، فتطلعت إليه

وفي نفسي مزيج من الإحساس بالشفقة والهلع . والواقع أن الإنسان لا يتبدّل على هذا النحو المروع ، خلال حقبة قصيرة من الزمن ، مثلما تبدّل رودريك أوشر . . . فقد تعذّر عليّ أن أرى في شخصية هذا الكائن ، الماثل أمامي ، ما يدل على أنه هو نفسه رفيق الحداثة المبكرة . . . مع أن في وجهه ملامح بارزة تلازمه في كل حين ، إنها ملامح شبيهة بملامح الأموات ، عينان واسعتان ، دامعتان ، برّاقتان جداً . . . وشفتان رقيقتان ، ممتقعتان ، لكنهما منعقفتان انعقافاً جميلاً ، وأنف دقيق من الطراز العبري ، لكن لا مثيل لمنخريه . . وذقن نحيفة تدل على القوة المعنوية ، وشعر كالحرير في نعومته ورقته . . هذه الملامح ، يضاف إليها بروز جبهته ، تظل عالقة في ذهن من عرفه ، وليس من اليسير عليه أن ينساها . . فلمّا تفرّست فيه هذه المرة وجدت أن ملامحه المميّزة ، وتعابيره المعروفة ، قد تضاعفت ، فصرت أشك في شخصية مضيفي ، فما كان للون بشرته الممتقع المنكر ، وبريق عينيه العجيب ، إلاّ أن أجفلا نفسي وأرعباها . . . ثم إن شعره الحريري ، الشبيه بخيوط الشمس ، قفّ في رأسه مشوّشاً ، واسترسل على وجهه ، فبدا لي أوشر في مجموعة تعابيره ، الشبيهة بالنقش العربي ، غامضاً لا مثيل له بين البشر إطلاقاً .

هكذا ما إن رأيت صديقي هذا حتى أُصبت بصدمة من الارتباك والتشوّش ، ورحت أكافح هذا الشعور بضعف وفتور ، مستهدفاً التغلب عليه ، أو بعبارة أخرى التغلب على ما بي من إفراط في التوتّر العصبي ، وكنت تهيّأت لملاقاة هذا الرجل ، لا بالرسالة التي تلقيتها منه فقط ، وإنما بذكريات الحداثة أيضاً . . وبالاستنتاجات التي أحملها في مخيّلتي عن خصائص تكوينه ومزاجه . . . وكانت حركاته مزيجاً من الحدة والعناد ، وصوته يتردد بسرعة بين الارتعاش الحائر (الذي يشلُّ الحيوان على حين غرة) ، وبين الإيجاز الحازم المتقطّع ، البطيء ، الثقيل ، والبيان ذي الطنين الأجوف ، واللفظ الحلقي الجيد التنغيم ، الذي يجيده السكارى أو المدمنون .

وتحدّث أوشر عن موضوع دعوته لي ، وعن شوقه لرؤيتي ، وما يتوقعه من ضروب التسلية التي سأوفرها له . . . ثم تحدث عمّا يظن أنه طبيعة

مرضه ، فقال إنه داء وراثي ملازم لا علاج له ، تظهر عوارضه في حالات من الانفعالات العصبية غير الطبيعية . ولـمّا روى لي بعض تفصيلات الداء أخذت بها وانفعلت ، ويلوح لي أن الطريقة التي روى لي بها قصته كان لها فعلها في إثارة نفسي وهياجها . . إنه يشكو حساسية حادّة ، فهو لا يحتمل وطأة الطعام مهما كان تافهاً ، ولا يرتدي من الألبسة إلاّ نوعاً خاصاً ، وعبير الزهور يضغط على نفسه ، وعيناه تتألمان من الضوء مهما كان خافتاً ، والآلات الموسيقية ، باستثناء الوترية منها ، توحي له بالرعب والجزع .

أجل ، لقد ألفيته أسير أنواع شاذة من الفزع . . ومما قاله لي : «إنني لا محالة هالك ؛ وأنا في هذه الحالة من الرعونة المحزنة . . وعلى هذا النحو فقط سألاقي حتفي . . إنني أخشى حوادث المستقبل ، أنا لا أخشاها بحد ذاتها ، وإنما أخشى عواقبها . . . إن جسمي كله يرتعش ، وروحي تضطرب لدى أية فكرة تجول في خاطري مهما كانت تافهة . . وإنني في الواقع لا أمقت الخطر المحدق بحد ذاته ، وإنما أمقت أثره المطلق ، ألا وهو الرعب . . . وقد بت أشعر ، وأنا في هذه الحالة العصبية الممضّة ، أنه لن يمضي زمن طويل إلاّ وأتخلى عن عقلي وحياتي معاً وأنا في كفاح مع هذا الشبح القاتم ، شبح الرعب» .

وعلمت ، من خلال تلميحات عرضية ، أن هناك عاملاً آخر يؤثر في حالته العقلية . . . لقد كان يخضع لأوهام لها صلة بالمنزل الذي يقطنه منذ سنين طويلة ، ولم يجرؤ على تركه تحت تأثير قوة افتراضية طيفية ، قوة تعكس في ذاتها خصائص منزل الأسرة في شكله وجوهره ، فطبيعة جدران المنزل ، وأبراجه المعتمة ، والبحيرة الآسنة ، التي ينعكس المنزل على صفحاتها ، تركت كلها أثراً عميقاً في كيانه المعنوي .

وقد سلّم مضيفي ، بحيرة أيضاً ، أن الكثير من خصائص هذه الكآبة ، التي تعتريه ، ترجع في أساسها إلى عوامل طبيعية ملموسة ، فشقيقته الرقيقة ، الحبيبة إلى نفسه ، وهي كل ما تبقى له من أسرته ، تعاني مرضاً مزمناً حاداً ، وتهوي إلى الفناء شيئاً فشيئاً . . وقال لي بمرارة : «لن أنساها ما حييت . . إن موتها سيتركني وحيداً في هذا العالم ، أنا اليائس الضعيف ،

آخر حلقة في أسرة أوشر العريقة» . وبينما كان صديقي يتحدّث إليَّ مرَّت بنا «الليدي مادلين» ، إذ بهذا الاسم كانوا يدعونها ، وهي تسير ببطء نحو القسم البعيد في المنزل ، ثم اختفت دون أن تلحظ وجودي مع شقيقها ، ولقد نظرت إليها وأنا في دهشة مشوبة بالخوف ، فاعتراني شعور من السبات وأنا أقتفي أثرها بناظري . . . ولما أغلقت الباب وراءها لمحت شقيقها وقد أخفى وجهه بين راحتيه ، والدموع العاطفية الغزيرة تنساب من بين أصابعه الهزيلة .

لقد احتار طبيب «الليدي مادلين» في تعليل مرضها ، ومن مظار هذا المرض الجمود الدائم ، وتلاشي الشخصية التدرّجي ، وحالات من الإغماء . . . وكانت السيدة الرقيقة تتحمّل مظاهر مرضها هذا بجلّد ، ولم ترضَ بالتزام الفراش ، غير أن قواها خارت بفعل عامل الفناء ليلة وصولي إلى منزل أوشر ، كما تنبأ شقيقها ، وكانت النظرة التي استرقتها منها هي النظرة الأولى والأخيرة .

وانقضت أيام ومادلين في حالة التلاشي دون أن نأتي على ذكرها ، وانصرفت في تلك الفترة من استضافتي إلى تشجيع صديقي ، ورفع روحه المعنوية ، فكنّا نقضي الأيام في الرسم والمطالعة ، أو كنت أستمع إليه ، كنائم في حلم ، وهو يعزف على القيثارة عزفاً موحشاً . . وكنت كلما زدت تقرّباً منه كلما تعمقت في روحه دون تحفظ ، وزاد يقيني ببطلان كل ما أبذله من مساع لبعث النشاط في نفسه المظلمة ، تلك النفس التي لا تنفث على ما حولها ، من عالم روحي ومادي ، إلاّ شعاعات من الظلام الأسود .

هذه الأوقات العصيبة التي قضيتها مع رب منزل أسرة أوشر سأذكرها دائماً ، لكنني أقر بإخفاقي في كل محاولة بذلتها لتكوين فكرة صحيحة عن ماهية الدراسات أو الأعمال التي استدرجني إليها ذلك الصديق . . . فكل ما كان في ذلك المنزل هو بمثابة مثالية على درجة رفيعة من الانفعال والاضطراب الذي يغمره إشعاع كبريتي من كل جانب . . فترتيله الحزين المديد سيظل يطنّ في أذني إلى الأبد ، ومن الأشياء المؤلمة التي لا تزال عالقة في ذاكرتي ذلك اللحن المنفرد الرديء الذي كان يستفيض أوشر في عزفه ،

لحن «والسن فون ويبر» . . . أمّا الرسوم الزيتية التي أوحاها بها إليه خياله فكانت كلها غموض وإبهام ، ولا أدري لماذا كانت نفسي تضطرب لمرآها ، وعبثاً حاولت فلم أستخلص منها إلاّ النذر اليسير . . فهي في بساطتها وتجرّدها تستأثر بانتباه المرء وتروعه ، فإذا كان هنالك مخلوق رسم فكرة فهو ولا ريب رودريك أوشر . . . غير أنني كنت أرى في رسومه ، بالنسبة إلى الظروف التي أحاطت بي في منزله ، مجرد غموض مروّع أوحت إليه به سويداؤه ، ولو أنها في بعض ظلالها تتفق مع ظلال الرسام هنري فوزيلي .

وكان لصديقي رسم طيفي ، لكنه لا يحمل الكثير من الغموض ، وبوسعي تعريفه في كلمات تعريفاً موجزاً ، فقد صوّر فيه قبواً ، أو نفقاً طويلاً مستقيم الزوايا ، جدرانه منخفضة مَلِسة وبيضاء . . وبعض النقاط الثانوية في هذا الرسم ترمي إلى الإيحاء بأن هذه المغارة تقع عميقاً تحت سطح الأرض ، وأن لا مخرج لها على طول امتدادها ، وليس فيها شعلة مضيئة ، أو أي ضوء من الأضواء الاصطناعية ، لكن يغمرها فيض من الإشعاع ، وتستحم كلها في ضياء مروّع يفتقر إلى التناسق .

لقد تحدثت سابقاً عن حالة السقم وتوتر الأعصاب التي لازمت صديقي ، وجعلته لا يحتمل سماع أي لحن من الآلات الموسيقية باستثناء بعض الآلات الوترية . . ويبدو لي أنه حصر نفسه في دائرة ضيقة من العزف على القيثارة ، كان عاملاً مهماً في خلع الخصائص الخيالية الوهمية على معزوفاته ، ولا يسعني أن أدرج هنا ما كان يرتجله من ألحان أو كلام خيالي ملتهب ، دوّنه بالنوتات والكلمات (وكان غالباً ما يحملها معه) ، وهي تتضمن تركيزاً لما يعانيه من توتر الأعصاب . . وإنني لأذكر إحدى هذه القصائد المُغنّاة ، فقد تأثرت بها حين قدّمها لي لما انطوت عليه من معان غامضة ، وخيّل إليَّ أنني لحظت ولأول مرة ما يعانيه أوشر من حساسية ، ولمحت الأفكار السامية التي تتأرجح على سدة عقله . . . فقصيدة «القصر الذي تتردّد إليه الأرواح» تتلخّص بما يلي :

كان في وادينا الأخضر ، الذي تسكنه الملائكة ، قصر
جميل مشع ، يخفي رأسه في السحب . . وهو ينتصب

في مملكة الفكر، ولم ترفّ عليه أجنحة الملائكة أبداً . .
وكانت أعلام المجد الصفراء تخفق على سطوحه، وكلما
هبَّ النسيم على أسواره كلما فاحت الروائح العطرة .
وكان المارّون في ذلك الوادي السعيد يرون، من خلال
النوافذ المضيئة، أرواحاً كأنها ألحان موسيقية تطوف
حول العرش الذي جلس عليه المالك «بروفيروغن»،
سيد البلاد وصاحب المجد والعظمة .
أمّا باب القصر فكان مزيّناً بالحجارة الكريمة، وتمرّ به
فيالق الصدى سابحة ولا عمل لها إلاّ أن تنشد إنشاداً
عذباً، وبأصوات تفوق الجمال، مشيدة، برجاحة عقل
ملكها وسداد رأيه .
غير أن الشرور، وهي في أردية الأسى، هاجمت الملك
في مملكته العظيمة (ويا ليتنا متنا قبل أن يطلع عليه
الصباح ميئوساً)، وكان المجد يطوف حول بيته نَضراً
مشوباً بحمرة الخجل . . . إنها لقصة قاتمة، دُفنت في
الأزمان الغابرة .
والمارّون اليوم بذلك الوادي يرون، من خلال النوافذ
المضيئة باللون الأحمر، أشكالاً رهيبة، تطوف فيه
بشكل عجيب، على لحن النشوز، بينما أحدهم، وهو
قبيح الشكل، يمرق من باب القصر سريعاً، كجريان
النهر المروع . . وهو يضحك ملء شدقيه . . لكنه لم
يعرف الابتسامة أبداً فيما بعد ! . .

*

ولا أزال أذكر جيّداً أن النقاش الذي ابتدأ حول هذه الأسطورة قادنا إلى سلسلة من الأفكار، أعرب فيها أوشر عن رأي ليست له أهمية في جدّته (لأن غيره كان قد أعرب عنه أيضاً)، وإنما في التمسك به والإصرار عليه . . ولهذا الرأي على الجملة حساسية كحساسية النباتات، غير أنه اتخذ شكلاً

جريئاً، نتيجة لاضطراب خيال أوشر، وتعدّى في حالات معلومة على مملكة الفوضى . . . والواقع أنه لتنقصني الكلمات لأعرب عن مقدار ما بذلته من مجهود لإقناعه بخطل رأيه، أو عدم إقناعه . . فاعتقاده كان متّصلاً (كما ألمحت سابقاً) بحجارة منزل أسلافه، فهو يتصوّر أن الحساسية متصلة بالطريقة التي بُني فيها هذا المنزل، وبفطر الغراب النابت عليه، وبالأشجار الهرمة القائمة حوله، وببقاء كل هذه الأشياء على ما كانت عليه منذ أقدم العصور، وبانعكاسها في مياه البحيرة الآسنة الكالحة . . وفي رأيه أن الحساسية المشار إليها متجمّعة في الجو الذي تشكّله الجدران والمياه . . وقد توصّل إلى نتيجة مفادها أن السكون اللجوج المرعب، الذي يسود جو المنزل، كان له أثره الفعّال في صوغ الأسرة بقالب خاص، وصوغه في هذا القالب الذي رأيته فيه . . فآراء كهذه لا تحتاج إلى تفسير، ولن أحاول تفسيرها هنا .

أما الكتب، أي الكتب التي كانت تشكّل جزءاً من كيان الرجل المقعد، خلال سنين طويلة، فهي تتفق بدقة تامة مع تصوّراته وخيالاته . . فقد طالعنا معاً كتب «فرفرت وشارتر روز» لكريسه، و«بلفيغور» لمكيافيلّي، و«الجنة والنار» لسويدنبورغ، و«رحلة نيقولا كليم تحت الأرض» لهولبرغ، و«شيرومانس روبرت فلود» لمؤلفيه جان داندجينه ودلاشامبر، و«رحلة في الأبعاد الزرقاء» لتيك، و«مدينة الشمس» لكامبانيلا . . ومن الكتب المحببة إليه أيضاً كتاب «إدارة التفتيش» لأميريك دي جيرون الدومينيكاني، وكانت هناك فقرات من كتاب «بومبونيوس ميلا» بصدد قصة «ساتيرس وأجيبانس» الإفريقية، ينصرف أوشر إلى مطالعتها الساعات الطوال . . غير أن الكتاب الذي كان يجلب له المتعة بصورة خاصة والمطبوع بالحرف الغوطي هو «دليل الكنيسة المنسيّة» .

لم أكن أتوقّف عن التفكير في هذه الطقوس التي يقيمُ عليها صديقي السوداوي المزاج وما يحتمل أن تتركه في نفسه من أثر، حتى إنه أخبرني في مساء يوم فجأة أن «الليدي مادلين» قد فارقت الحياة، وأنه عقد النية على الاحتفاظ بجثمانها مدة أسبوعين (قبل دفنها نهائياً) في أحد أقبية

المنزل ، ولم يكن بوسعي أن أناقشه في السبب الذي حمله على اتخاذ هذه الإجراءات الفريدة في بابها . . وقد أفادني أنه اتخذ هذا القرار بداعي نوع المرض غير العادي الذي كانت شقيقته تعاني منه ، وكنتيجة لإلحاح أطبائها في ذلك ، ولبعد مقبرة العائلة عن المنزل . . ولا أخفي بأنني التزمت جانب الصمت تجاه هذه الاحتياطات غير الطبيعية وغير المسيئة في آن واحد ، بعد أن تذكرت ذلك الوجه الشرير الذي التقيت به وأنا أصعد درج المنزل يوم وصلت إليه .

وهكذا عمدت نزولاً عند رغبة أوشر إلى مد يد المعونة إليه ، فوضعنا شقيقته في نعش ، حملناه إلى قبو صغير عفن معتم ، كان الجو فيه ضاغطاً حتى ضؤلت فيه أضواء مشاعلنا ، ولم نتبيّن ما حولنا تماماً ، وكان يقع على عمق سحيق من المنزل ، وتحت الجناح الذي أقيم فيه مباشرة . . ويلوح لي أنه كان يستعمل في أيام الإقطاع البعيدة كمخزن للقصر أو كمستودع للبارود وغيره من المواد القابلة للاشتعال ، والقبو هذا مصفّح بالنحاس ، وله باب حديدي ثقيل يحدث صريراً عظيماً كلما دار على محوره .

بعد أن وضعنا حملنا على أرض القبو المرعبة ، كشفنا غطاء النعش قبل أن يُسمَّر وألقينا نظرة على المسجّاة فيه ، فاسترعى انتباهي ذلك الشبه الصارخ بين الشقيق وشقيقته الراحلة ، فأدرك أوشر ما يجول في خاطري وتمتم بضع كلمات أدركت منها أنهما توأم ، وأنهما كانا يعطفان الواحد على الآخر عطفاً شديداً . . ولم نطل النظر إلى المسجّاة في النعش بسبب ما كان يعترينا من هلع . . فالمرض الذي لازم السيدة ، وهي في ريعان صباها ، وأجهز عليها ، قد ترك على محياها ، كما هي حالة المصابين بداء الإغماء ، مسحة من السخرية ، وابتسامة مريبة خفيفة ، تثير الرعب في نفس الناظر إليها . . أعدنا غطاء النعش وسمّرناه ، ثم أغلقنا باب القبو الحديدي ، وصعدنا ونحن منهكان إلى القسم الأعلى من المنزل .

مضت أيام مريرة من الحزن ، وإذ بي ألحظ تغيّراً مقيتاً في حالة صديقي العقلية ، فقد تبدّلت حالاته الطبيعية وصار يهمل ما كان يشغل به نفسه ، أو ينساه ، ويتنقّل مسرعاً من غرفة إلى غرفة ولا هدف له ، واتخذ امتقاع

ملامحه لوناً بغيضاً ، كما أن البريق الذي كان يشع من عينيه قد تلاشى ولم أعد أسمع صوته الخشن المرتعش .

وكنت أتخيّل أحياناً أن أفكاراً خفيّة تتصارع في رأسه ، ولكن تنقصه الجرأة الكافية كي يبوح بها . كما كنت أتصوّر أحياناً أخرى أن ليس هناك ما يفسّر حالته هذه ، فمردّها نزوة جنونية ، لأنني شاهدته يوماً وهو يسدّد نظره إلى الفراغ ، الساعات الطوال ، مركزاً انتباهاً عميقاً إلى شيء ما ، كأنه يستمع إلى أصوات وهمية . . وهكذا لم أعد أرتاب في أن حالته غدت مخيفة ، وأن عدواه قد أخذت تنتقل إليَّ شيئاً فشيئاً .

رحت أحسُّ بعدوى أوشر الوهمية بعد انقضاء أسبوع على وضع جثمان «الليدي مادلين» في القبو . وحدث في الليلة الثامنة من دفنها أن كنت في فراشي أحاول النوم عبثاً ، فقضيت الساعات الطوال مسهداً دون أن أعرف النوم ، وسعيت جاهداً لإبعاد الحالة العصبية التي تسيطر عليّ ، كما حاولت إقناع نفسي بأن حالتي هذه ناتجة عن تأثير أثاث الغرفة القاتم ، وعن الستائر الداكنة التي كانت الرياح تنفذ إليها من خلف النوافذ وتؤرجحها على الجدران ، ثم عن وسوسة زخارف السرير الذي أنام عليه . . غير أن محاولتي هذه لم تجدني نفعاً ، فالتزمتني رجفة متزايدة ، وجثم الرعب على صدري ، فرفعت رأسي عن الوسادة ، ورحت أنعم النظر في الظلمة الحالكة بدافع غريزي لا أفقه له معنى ، وأرهف سمعي إلى أصوات تتخلل الرياح ، وإذ تملكني الجزع نهضت من فراشي مسرعاً وارتديت ثيابي لاقتناعي بأنه لن يغمض لي جفن في هذه الليلة ، وأخذت أروح وأجيء مسرعاً في الغرفة التي أقيم فيها .

وما هي إلاّ لحظات حتى صخَّ سمعي وقع خطوات خفيفة ، فعرفت فيها على الفور أنها خطوات أوشر نفسها ، ثم توقف عند باب غرفتي وفتحه برفق وهو يحمل المصباح في يده . . كانت ملامحه كالعادة تشبه ملامح الميت باصفراره ، يضاف إلى ذلك ملامح الجنون في عينيه ، والهستيريا في حركاته . . والحق يقال إنني ذعرت لمرآه ، غير أنني رأيت فيه منقذاً لي في وحدتي وانقطاع نفسي .

وقطع أوشر حبل الصمت قائلاً : هل رأيته أنت أيضاً؟ . . ألم تره حقاً؟ . . ولكنك ستراه الآن! . . قال ذلك وأظلَّ القنديل جيداً ، وفتح النوافذ أمام العاصفة التي كانت تولول في الخارج .

كانت العاصفة من الشدة بحيث كادت تطرحنا أرضاً ، حقاً إنها ليلة عاصفة رائعة ومتجهّمة ، ليلة فريدة في ما رافقها من هلع وجمال ، ويلوح لي أن الرياح قد جمعت قواها في ضاحيتنا ، وغيَّرت مجراها العاصف ، كما يحدث في كثير من الأحيان . وكانت الغيوم المتلبّدة منخفضة ، تضغط على أبراج المنزل ، وتحوم حول النوافذ مسرعة متنقّلة ، من مكان إلى مكان ، مصطدمة الواحدة بالأخرى . . تحجب عن أنظارنا القمر والنجوم ، أو أي ضوء قريب أو بعيد ، غير أن الأبخرة والغازات المترنحة على وجه الأرض ، بل على جميع الجمادات التي تحيط بنا ، كانت تتألق ببريق خافت عجيب ، وتخلع بريقها على كل شيء تمر به بما في ذلك المنزل الذي نسكنه .

أبعدت أوشر برفق عن النافذة المفتوحة إلى المقعد ، والرعدة لا تفارقني ، وقلت له : «هذا شيء لن تعانيه ، ولن تمسه يدك . . فهذه الظواهر التي أقلقتك إنما هي أطياف كهربية معروفة . . ولعلها ناشئة عن الأبخرة المنتنة المتصاعدة من البحيرة الآسنة . . فلنغلق النافذة ثانية ، فالهواء بارد ، وهو خطر على جسدك . . وهاك رواية من الروايات التي تحبها ، وسأقرؤها عليك ، وهكذا نقضي ما تبقى من ساعات من هذه الليلة المروعة . .» .

وكانت الرواية هي «بطل تريست» لمؤلفها «سير لونسيلو كايننج ، وقد ذكرت أنها الرواية المحببة إلى أوشر ، بالمعنى الحزين لا بالمعنى الجدي ، لأنها في الواقع لا تتضمن إلاّ الشيء اليسير مما يتفق وعقلية صديقي وأنفته . . أجل لقد كان أول كتاب وقعت يدي عليه ، واعتقدت دون جدوى أنه سيخفف من حدة هياج صديقي السوداوي المزاج ، (وفي الأمراض العقلية أنواع مشابهة كثيرة) ، وسيجد فيه ما يهدئ أعصابه رغم ما يتضمّنه من صور متطرّفة في عقمها ، وإنني لأهنئ نفسي على نجاح هذه الخطة اعتماداً على ما كان يبديه أوشر ، أو يتظاهر أنه يبديه ، من اهتمام زائد في الإصغاء إلى هذه الرواية .

وبلغت المقطع الشهير منها حيث أخفق إثارد ، بطل تريست ، في دخول مسكن الناسك سلمياً ، وعمد إلى اقتحامه عنوة . . والمقطع هذا ينص على ما يلي :

«كان إثارد شجاعاً بطبيعته ، وقد زادت الخمرة من شجاعته ، فلم يشأ انتظار مفاوضة الناسك ، الذي كان في الواقع خبيثاً وعنيد الجانب ، فشعر بالمطر يتساقط عليه ، وخشي هبوب العاصفة ، فضرب الباب بصولجانه ، واقتحم المسكن وراح يحطم كل شيء يعترض سبيله ، ويمزق كل شيء تقع عليه يده . . . وكانت أصوات الغابة المروعة تنذر بالحدث وتتجاوب في كل مكان» .

ولما انتهيت من تلاوة هذا المقطع ، تريّثت قليلاً ، إذ تبادر إلى ذهني أنني أسمع في مكان بعيد من المنزل أصواتاً مبهمة ، شبيهة جداً بالأصوات التي صورها سير لونسيلو في روايته ، لكنني سرعان ما أدركت أن خيالي يخونني ، وأن ما أسمعه إن هو إلاّ قرقعة إطار النافذة ، وعزيف العاصفة ، وقد وقعا اتفاقاً مع ما كنت أطالعه في الرواية من هذا القبيل .

وتابعت قراءة ذلك الفصل حيث يقول : «ولما اقتحم البطل إثارد الغرفة لم يجد للناسك الخبيث أثراً ، وإنما وجد هناك تنّيناً هائلاً ، له لسان من نار ، يحرس قصراً من ذهب ، رصفت أرضه بالفضة ، وعُلّقت على جداره درع شرف من النحاس البرّاق ، كُتبت عليها هذه العبارة : «مَن يدخل هذا المكان يكن فاتحاً . . ومن يذبح التنين يفز بالدرع . .» . فرفع إثارد صولجانه وأهوى به على رأس التنين ، فسقط أمامه وهو يلفظ نفسه الكريه ، ويصدر صيحات مروّعة منكرة اضطرت إثارد إلى أن يصم أذنيه عن سماعها .

وتمهّلت هنا قليلاً أيضاً ، وقد استحوذت عليّ دهشة مخيفة ، إذ سمعت صوتاً خافتاً منكراً وغليظاً ، يشبه الصوت الذي يصدر عن التنين ، فعزوت ذلك إلى خيال الرواية ، كما عزوته إليها في المرة الأولى .

والحق أنني قلقت لهذا التوافق الذي يقع المرة تلو المرة ، وانتابتني انفعالات كثيرة وأحاسيس جمة للرعب في المكان الأول ، لكنني كبحتها حتى لا أؤثر في أعصاب صديقي المنهارة بطبيعتها ، وكنت على يقين تام بأن أوشر سمع هذه الأصوات أيضاً ، وقد أدركت ذلك من تبدّل طرأ على

ملامحه ، ثم رأيته يغيّر من جلسته ، فيجعل وجهه في اتجاه باب الغرفة ، وكانت شفتاه ترتعشان كأنهما تتمتمان بكلام غير مسموع . . ثم لحظت أنه أسند رأسه إلى صدره ، كما تبيّن لي من جهة جانبية أنه غير نائم ، بدليل أن عينيه الكليلتين مفتوحتان ، ثم إنه كان دائم الحركة فلا يكاد يهدأ على جانب حتى يميل إلى الجانب الآخر . . . وبعد أن تنبهت إلى هذا كله ، تابعت قراءة رواية سير لونسيلو حيث تقول :

«وما إن تخلّص البطل من التنين ، الذي هاجته ضربة الصولجان ، حتى انصرف إلى التفكير في درع الشرف النحاسية ، وفي تحطيم السحر الملازم لها ، ثم تقدّم وأزال جثة التنين من طريقه ، وسار ببسالة على أرض القصر الفضيّة ، واقترب من الدرع المعلقة على الجدار ، إلاّ أن هذه الدرع لم تنتظر وصوله إليها وسقطت على الأرض الفضيّة عند قدميه ، محدِثة دوياً مروّعاً هائلاً» .

وما كادت شفتاي تلفظان هذا المقطع من الرواية ، حتى سمعت صوت درع تسقط في الواقع وتحدث دوياً هائلاً ، يشبه الصوت الذي أحدثه سقوط الدرع في الرواية . . فتوتّرت أعصابي جملة ، ونهضت واقفاً على حين غرة . . أمّا أوشر فلم ينقطع عن اهتزازاته المتّزنة . .

وجريت إلى حيث كان يجلس ، فوجدته يسدد نظره إلى الأمام وقد ارتسمت على ملامحه قسوة صخرية ، ولـمّا وضعت يدي على كتفيه ارتعش من رأسه حتى أخمص قدميه ، والابتسامة الضعيفة تفترّ على شفتيه ، ولحظت أنه يتكلم بصوت خافت سريع كأنه لا يشعر بوجودي ، فالتصقت به ، وسمعته يتمتم بهذه الكلمات المتقطّعة المريعة : «ألم تسمع ذلك . . أجل سمعته منذ دقائق عديدة ، بل منذ ساعات أو أيام عدّة . . ولكنني لم أجرؤ . . أنا المخلوق الحقير المسكين . . لم أجرؤ على الكلام . . . لقد وضعناها في النعش وهي على قيد الحياة . . ألم أقل إن مشاعري كانت ثائرة . . أجل لقد سمعت أولى حركاتها الضعيفة وهي مسجّاة في النعش المرعب . . لقد سمعت تلك الحركات منذ أيام عديدة ، لكنني لم أجرؤ على الكلام . . وهذه الليلة أستمع إلى إثارد ها . ها . . وتحطيمه باب غرفة الناسك ، وأنين التنين في نزعه ، وقعقعة الدرع ، بينما هي تسعى إلى شق

النعش، وتحطيم قضبان سجنها، والفرار من القبو النحاسي . . وآه إلى أين المفر . . ألا تكون هنا عما قريب . . ألا تأتي إليّ على عجل لتوبّخني؟ . . ألم أصغ إلى وقع خطاها على الدرج؟ . . ألم أسمع دقات قلبها ثقيلة مرعبة؟ . . أمجنون أنا؟ . .» . وهنا انتفض أوشر واقفاً وصاح صيحة منكرة قائلاً : «أمجنون أنا؟ . . يقيني أنها تقف خارج باب هذه الغرفة !» .

كان في تلفّظ هذه العبارة قوة خارقة للطبيعة البشرية . . . وفي هذه الأثناء فتح الهواء باب الغرفة الأبنوسي الضخم رويداً رويداً . . وإذا بالليدي مادلين أوشر تقف عند العتبة ! كان الدم يلطخ ثوبها الأبيض، وعلى جسمها النحيل شواهد أخرى على ما بذلته من مجهود في سبيل الخروج من النعش، وظلّت لحظات ترتعش وتتمايل يمنة ويسرة، ثم صدرت عنها آهة نحيب خفيفة، وسقطت على الأرض بشدة أمام أخيها، وهي تلفظ النفس الأخير، كما هوى أوشر إلى الأرض جثة هامدة، ضحية الرعب الذي كان يتوقعه .

وهربتُ أنا من الغرفة ومن البيت معاً، وأنا لا ألوي على أحد . . وكانت العاصفة في الخارج لا تزال على أشدّها، وما إن حاولت الخروج من ساحة المنزل إلى الطريق العام، حتى سطع أمامي فجأة بريق خاطف، فالتفتّ إلى الخلف لأرى مصدر هذا البريق، ولم يكن ورائي سوى المنزل الخاوي وظلاله الواسعة . . فتبيّن لي أن البدر، ولونه أحمر قانٍ، قد شطر المنزل ونفذ من الصدع الممتد على شكل متعرج من سطح البيت إلى أسفله، والذي كنت قد تحدثت عنه سابقاً . . فابتعدت عن المنزل على عجل، ورأيت الصدع يتسع بسرعة أكثر فأكثر، والرياح تخترقه بقوة، ويطل منه البدر التمّ، فمادت الأرض بي، وأنا أرى جدران المنزل تنهار، وتحدث دوياً هائلاً، أشبه بما يحدثه دوي آلاف الشلالات مجتمعة، ومياه البحيرة العميقة الرطبة الآسنة، وهي على بعد خطوات مني، تبتلع أنقاض منزل أوشر بهدوء .

برميل أمونتيلادو الخشبي

لقد أنزل بي فورتوناتو القدر الكبير من الأذى ، لكنه حين تجرأ وأهانني آليت على نفسي أن أنتقم منه . . ولن يتصوّر مَن يعرف طباعي أني اكتفيت بالتهديد ، لقد عقدت العزم على الانتقام وليس في ذلك أدنى ريب . . فما أطمع إليه هو الانتقام مع تفادي العقاب . . فالإثم لا يقوَّم إذا ما تناول العقاب الشخص المنتقم ، أو إذا لم يشعر هذا المنتقم بما كان يشعر به المعتدي عند اقتراف الإثم .

كان من الجليّ أنني لم أدع لـ«فورتوناتو» أي مجال للريبة في حسن نيّتي ، لا بالقول ولا بالعمل ، ولم أفتأ أبتسم في وجهه ، وهو لا يلحظ أن ابتسامتي هذه تخفي وراءها فكرة القضاء عليه .

كان لفورتوناتو هذا ناحية ضعف ، وكانت له نواح أخرى تجعله محترماً مهيب الجانب . . فهو يتباهى دائماً بخبرته في الخمور ، وقليل هم الإيطاليون الخبيرون بالمشروبات الروحية ، لأن الأمر الذي يثير حماستهم أكثر من أي شيء آخر هو انتهاز الوقت والفرص للتغرير بأصحاب الملايين من الإنكليز والنمساويين .

وكان فورتوناتو في الرسم ، وغيره من الفنون الجميلة ، كاذباً مثل مواطنيه ، لكنه كان صادقاً في تمييز الخمور المعتّقة . . ولم أختلف أنا عنه في هذا المضمار جوهرياً ، إذ كنت خبيراً في شؤون الكرمة الإيطالية ، وأشتري المساحات الشاسعة منها حيثما استطعت .

وحدث أن التقيت صديقي هذا في إحدى أماسي عيد المرافع(*) ، والحفلات المقنّعة قد بلغت أعلى درجة من درجات الجنون ، فرحّب بي ترحيباً حاراً لكثرة ما احتساه من خمرة ، وكان يرتدي أشتاتاً من الألبسة الضيقة ، ويضع على رأسه قبعة مخروطية الشكل مزيّنة بالأجراس ، وقد سررت لمرآه بعد أن ظننت أنني لن أتمكن من عصر يده بيدي في يوم من الأيام .

(*) المرافع عند المسيحيين أيام معلومة تتقدّم الصوم .

قلت له : إنني سعيد برؤياك يا عزيزي فورتوناتو . . حقاً إنك تبدو مرحاً مبتهجاً . . وأحيطك علماً بهذه المناسبة أنني تلقيت الغليون الذي كان بحوزة أمونتيلادو ، لكنني في الحقيقة أرتاب فيه .

قال : ما هذا الذي أسمعه . . أمونتيلادو؟ . . الغليون؟ . . هذا أمر مستحيل . . وفي منتصف عيد المرافع؟ . .

قلت : إنني أرتاب في أمر الغليون ، وقد ارتكبت حماقة ، إذ نقدت أمونتيلادو الثمن كاملاً دون مراجعتك في الموضوع . . لقد بحثت عنك ولم أجدك ، وخشيت أن أخسر الصفقة .

قال : أمونتيلادو؟

قلت : إني أرتاب فيه .

قال : أمونتيلادو؟

قلت : وعليّ أن أرضيهم .

قال : أمونتيلادو؟ . .

قلت : وما دمت أنت الآن على موعد . . فإنني ذاهب إلى لوكريسي ، فهو الشخص الوحيد الذي يستطيع الإدلاء برأي في الموضوع . . وأظن أنه سيقول لي . . .

قال : لوكريسي لا يستطيع التمييز بين أمونتيلادو وشري .

قلت : وهناك بعض الحمقى يظنون أن ذوق لوكريسي يتفق وذوقك .

قال : هلمّ بنا .

قلت : إلى أين؟

قال : إلى أقبيتك .

قلت : كلاّ يا صديقي . . لا أريد أن أعكر عليك صفو مزاجك ، ويلوح لي أنك على موعد . . أمّا لوكريسي . .

قال : أنا لست على موعد مع أحد . . هيّا بنا .

قلت : كلاّ يا صديقي ، فإن لم تكن على موعد ، فإنني أخشى عليك من رطوبة الأقبية وهي عبقة بملح البارود .

قال : دعك من هذا الكلام . . هيّا بنا إلى الأقبية ، فالرطوبة لا تؤثر

فيَّ . . أمونتيلادو لعب لعبته . . أما لوكريسي فلا يستطيع التمييز بين شري وأمونتيلادو .

قال فورتوناتو هذا واستند إلى ذراعي ، وأسدل قناعاً من الحرير الأسود على عينيه ، وذهبنا معاً إلى قصري الذي كان خالياً من ساكنيه وقتئذ ، إذ كانوا خرجوا كلهم ليلهوا في عيد المرافع ، وقد أخبرتهم بأنني لن أعود إلى القصر قبل طلوع الفجر ، وأصدرت لهم أوامر صارمة بألاّ يغادروه ، لكنني كنت على يقين بأنني ما كدت أدير لهم ظهري حتى فرّوا منه جميعاً دفعة واحدة .

حين وصلنا تناولت من على جدار القصر مشعلين حملت أحدهما ، وأعطيت الثاني لفورتوناتو ، وسرنا في أروقة القصر ودهاليزه ، ثم اجتزنا قنطرة ، وانحدرنا على درج لولبي الشكل . . إلى أن بلغنا الأقبية المؤدية إلى سراديب مونتريزوررس .

كان القلق قد حلّ محلّ المرح في نفس صديقي ، وكانت الأجراس ترن على رأسه كلما خطا وتقدّم ، وقال : أجل الغليون ! . .

قلت : علينا أن نتوغل أكثر . . ولكن ألا ترى هذا النسيج الأبيض اللون الذي يشع على جدران الأقبية؟

فالتفت نحوي ورمقني بعينين تدمعان بزكام الخمرة ، وقال : أهو ملح البارود؟

قلت : أجل ، هو ملح البارود . . ومنذ متى أصبت بالزكام؟

وراح صديقي المسكين يسعل سعالاً متواصلاً ، وأجاب : هو زكام بسيط لا يستحق التوقّف عنده .

فقلت له بحزم : علينا أن نعود الآن من حيث أتينا ، وليس من موجب لتعريض صحتك للخطر . . فأنت رجل ثري ومحترم ومحبوب ، كما أنك رجل سعيد ، مثلي أنا في وقت مضى . . وفي فقدانك خسارة ولا ريب ، أما أنا فلا شأن لي . . فلنعد أدراجنا وإلاّ فستقع طريح الفراش ، ولا أود أن أتحمل أية مسؤولية تجاهك . . أضف إلى ذلك أن لوكريسي . . .

فقال : كفى . . لا ضير عليّ من الزكام . . وثق بأنني لن أموت بسببه .

أجبته : إن ما تقوله حق ، وإنني لا أقصد التهويل عليك بلا مسوّغ ، ولكن ألا يجب أن تحتاط للأمر؟ . . فالقليل من هذا المشروب سيدرأ عنا أخطار الرطوبة .

وجذبت زجاجة من الخمر المعتّق من أحد رفوف القبو وحطمت عنقها ، وقدّمتها إليه قائلاً : اشرب ! . .

قال : أشرب نخب المدفونين في هذا القبو ! . .

قلت : ونخب حياتك المديدة .

وتأبط ذراعي ثانية وتابعنا المسير في السرداب .

قال لي : هذا السرداب واسع جداً !

قلت : إن أسرة مونتريزورس كانت كثيرة العدد .

قال : لقد نسيت شعار أسلحتكم الغابرة؟

قلت : إنه يمثل قدماً بشرية ذهبية ، في حقل لازوردي ، تطأ ثعباناً أنشب نابيه في كعب القدم ! . .

قال : شيء جميل .

وأشرقت الخمرة في عينيه ، ورنّت الأجراس فوق رأسه . . أمّا أنا فقد عمل النبيذ على مضاعفة مخيّلتي . . واجتزنا عبر جدران طويلة احتشدت عليها الهياكل البشرية التي تحمل الخوذ والنقوش ، وتوقفت عن المسير قليلاً ، وأمسكت بذراع فورتوناتو ، وقلت : ألا ترى أن ملح البارود يزداد كمّاً كلما أوغلنا المسير في السرداب . . إنه يتدلى فيه مثل الطحلب . . ونحن الآن تحت مجرى النهر تماماً . . وها هو الندى يتقطر على العظام هنا وهناك . . فهيّا بنا نعود الآن من حيث أتينا ، فقد طال مكوثنا في السرداب ثم إن زكامك . .

قال : لا تعر زكامي اهتماماً ، فلنتابع المسير ، وعليّ أن أتجرع القليل من النبيذ مجدداً .

فجذبت زجاجة أخرى من النبيذ المعتّق المعروف بـ«دو غراف» وقدمتها له فأفرغها في جوفه دفعة واحدة ، وقدحت عيناه شرراً ، ثم أخذ يقهقه ، وألقى بالزجاجة الفارغة بعيداً ، بحركة لم أفقه لها معنى .

فنظرت إليه دَهِشاً . . وكرّر الحركة بطريقة أكثر خشونة من سابقتها وقال : ألا تفهم ما أعني؟ . .

قلت : كلاّ .

قال : أنت لست من الأخوية إذاً !

قلت : لا أفهم ما تعنيه .

قال : أنت لست ماسونياً؟ !

قلت : أجل . . أجل ! . .

قال : يستحيل أن تكون ماسونياً .

قلت : ولكنني ماسونيّ .

قال : وما هي الإشارة؟

قلت : ها هي . . وأظهرت له ملعقة البنائين .

قال : أنت تهزل . . وعلينا أن نتابع المسير إلى أمونتيلادو .

فقلت له وأنا أعيد الملعقة إلى جيبي : ولكن هذا هو الواقع . . وأسندته إلى ذراعي ثانية ، وواصلنا البحث عن أمونتيلادو ، فمررنا من تحت أقواس وطيئة وهبطنا أدراجاً عديدة ، واجتزنا ممرّات شتى ، حتى وصلنا إلى ناووس بعيد الغور ، قد فسد فيه الهواء بحيث راح مشعلانا يتألّقان ولا لهيب لهما .

وقد برز في قاع الناووس متسع آخر ، وكانت العظام البشرية مكدّسة فيه تكديساً على نحو ما كانت عليه سراديب باريس . . ثم استرعى انتباهنا أن في هذا الناووس ، البعيد الغور ، هوة ثالثة عمقها حوالى أربعة أقدام وعرضها ثلاثة أقدام ، وعلوّها يتراوح بين ستة أو سبعة أقدام ، وهي لا تخلو من رفات بشرية . . وحاول فورتوناتو إضاءة الناووس العميق بمشعله ، وأنا أرقبه باهتمام زائد ، ثم قلت له : ها هنا يرقد أمونتيلادو ! . . أما لوكريسي . . .

فقاطعني صديقي قائلاً : إنه رجل جاهل ! . .

وهبط فورتوناتو في الناووس العميق ، وهبطت في إثره ، إلى أن اعترضته صخرة من الصوان ، فيها وتدان من الحديد الخام ، تصلهما الواحد بالآخر سلسلة حديدية متينة ، وقد أُثبت إلى أحد طرفيها قفل ثقيل . . فجذبت

صديقي الثمل وقيدته بهذه السلسلة ، ثم طوّقته بها ، وأدخلت القفل في الوتد وأطبقته . . وصعدت إلى حافة الناووس .

وقلت لفورتوناتو من علٍ : أمررْ يدك على جدران الناووس فلن تجد لملح البارود أثراً . . . إن الرطوبةَ فيه َشديدة حقّاً . . وعلى كل حال ، أتوسل إليك أن تعود ! . . كلاّ ، كلاّ . . عليٍّ أن أتركك في هذا المكان ، بعد أن أوليك ما تستحقه من عناية .

فصرخ صديقي ، الذي لم يعد في وعيه ، قائلاً : وأمونتيلادو؟ !

فأجبته : أجل ، وأمونتيلادو . .

قلت ذلك وتطلّعت حولي فوجدت حجارة قديمة ، وجرناً ، وعظاماً بشرية ، فعكفت على العمل بمساعدة ملعقة البنائين التي أحملها ، وأخذت أرفع جداراً على مدخل الناووس ، فلمّا انتهيت من بناء الصف الأول سمعت نواحاً صادراً من الأعماق ، لا يصدر عن رجل ثمل . . ثم أعقبه سكون طويل ، فأقمت الصف الثاني من الحجارة ، وألحقته بالصف الثالث والرابع . . وسمعت صلصلة السلاسل ، واستمرت هذه الصلصلة عنيفة بعضاً من الوقت ، وكنت أصغي إليها وتغمرني نشوة من الرضا ، وأقمت الصف الخامس ، والسادس ، والسابع حتى صارت الفوهة في مستوى صدري ، وتوقّفت قليلاً ، ورفعت المشعل فوق البناء وألقيت شعاعاً ضئيلاً على الشخص الجاثم على الصخرة في أسفل الهوة . . فأرسل فورتوناتو زفرة حادة دفعتني عن الفوهة بعيداً ، فوقفت حائراً مرتعشاً ، ثم عدت إلى حافة الفوهة وأخذت أردّ على صرخات صديقي ، وأكررها المرة تلو المرة وهو في صمت مطبق .

وانتصف الليل ، وأصبحت على وشك الانتهاء من العمل ، فوضعت الصف الثامن والتاسع والعاشر ، ولم يبق علي إلاّ أن أضع الصف الحادي عشر والأخير ، وأن أغلق الفوهة بحجر واحد كبير وأجصّصه ، ليكون بمثابة غطاء أبدي .

وما كدت أضع الحجر على الفوهة حتى سمعت قهقهة صادرة عن الهوة قَفَّ لها شعر رأسي ، وأعقبها صوت حزين عرفت فيه على الفور صوت

فورتوناتو النبيل . . قال الصوت : ها ، ها ، ها . . هي ، هي ، هي ، حقاً إنها لممازحة طيبة ، إنها طُرفة الطُرَف ، وسنضحك لها كثيراً في القصر .

فقلت له : وأمونتيلادو؟

قال : هه هه هه . . . وأمونتيلادو ، ولكن ألم نتأخر عنهم . . . ألا تنتظرنا السيدة فورتوناتو والأصدقاء في القصر؟ . . هيّا بنا يا عزيزي لنعود إليهم .

فقلت له : أجل ، هيّا بنا . .

قال : ناشدتك حب الله . . يا مونتريزور ! . .

قلت : أجل ، ناشدتك حب الله .

وكفّ صديقي عن الكلام ، فناديته عالياً : فورتوناتو . . فورتوناتو . .

فلم يحر جواباً . . ثم أدخلت الشعلة في الفوهة ، وكان الرد رنين أجراس لا غير ، فاغتمّ قلبي من شدة رطوبة السرداب ، وأسرعت لإنهاء العمل ، فوضعت الحجر الأخير على الفوهة وجصّصته . . وهكذا أقمت بناء حديثاً تجاه سور من العظام البشرية التي لم يقلق راحتها مخلوق منذ قرن تقريباً .

جرائم شارع مورغ

تجري معالجة المصابين بالمظاهر العقلية عادة من الوجهة التحليلية ، في حين أن هذه المظاهر قلّما تخضع للتحليل بحد ذاتها . . . ولكننا نقدر هذا التحليل بما يتركه من أثر في النفس . وإننا نعرف ، فيما نعرف من أمور ، أنه عندما يكون التحليل مفرطاً فإنه يجلب لصاحبه متعة ما بعدها متعة . . . وكما أن الرجل القوي يفرح لما هو عليه من مقدرة جسمانية ، ويلتذ بتنمية عضلاته ، فكذلك المحلل يفخر بتحليل العقد المعنوية . . . وينتزع الفرحة من أتفه الأمور التي يشغل بها فكره . . فهو يحب الألغاز والطلاسم ، والعقد الهيروغليفية ، ويعرض في تحليله درجة من الحذق تبدو للفهم العادي أنها خارقة للطبيعة . . . فالنتائج التي يتوصل إليها المحلل هي في الحقيقة وليدة حسه وإدراكه . . . أما مقدرته على تقرير الأمور فتتوقف على دراسات حسابية يطلق عليها اسم «التحليل النفسي» . . ومع ذلك فإن العمليات الحسابية ليست تحليلاً بحد ذاتها . . . فلاعب الشطرنج مثلاً يخطو خطوة دون أن يسعى إلى الخطوة التي تليها ، وبالتالي يساء فهم الأثر العقلي الذي تحدثه لعبة الشطرنج في اللاعب .

أنا لا أكتب الآن بحثاً ، ولكنني أُقدّم لقصة غريبة بملاحظات عرضت لي اتفاقاً . . . وعلى ذلك فإنني أغتنم الفرصة لأدلل على أن قوى التفكير تكون أشد يقيناً ، وأكثر فائدة ، في لعبة بسيطة كلعبة (الداما) بدل أن تكون في لعبة الشطرنج وما تقتضيه من براعة وإحكام . . . ففي اللعبة الأخيرة ترى القطع منوّعة ، وتقوم بحركات غريبة ، لها قيم شتى ، والتشابك فيها يتّصف بالعمق خطأً . . وهي تتطلّب الانتباه الزائد ، وإذا ما سها اللاعب لحظة واحدة تعرض للفشل أو الهزيمة . . . والحركات فيها ملتوية وعديدة ، ومجال السهو فيها واسع ، وتسعة أعشار اللعب فيها تهدر في التركيز والتأمّل . . . أمّا لعبة الداما فهي على النقيض منها ، إنها موحدة الحركات ، وقليلة التعقيد ، ومجال السهو فيها محدود ، والانتباه فيها نسبي ، فالرابح فيها هو الماهر . . . ولكي نقصي الغموض نفترض أن هناك لوحة للداما

وقد أُنقصت قطعها إلى أربع ، فغدت ولا مجال للسهو فيها قطعاً ، فمن الواضح أن الفوز فيها تقرره بعض حركات تفتيشية ناتجة عن الاجتهاد في التفكير .

وكذلك هو الأمر في ورق اللعب فإنه لا يتطلب الكثير من الحساب ، وترجع المهارة فيه إلى التخمين ، وقوةُ الملاحظة في هذه اللعبة تعتمد على قوة الذاكرة ، فاللاعب هنا يراقب أوضاع خصمه فيلاحظ في أي يد يحمل الورق ، ويقرأ تعابير وجهه من دهشة ، وانتصار ، وحزن ، ويراقب الطريقة التي يلقي فيها أوراقه ، ومدى هدوئه أو اضطرابه في تقليب تلك الأوراق ، وما يرافق ذلك من لجوء إلى الحيلة ، أو الوقوع في البلبلة والحيرة ، أو الإعراب عن النشاط والقلق .

فجميع هذه المظاهر والأوضاع تدله على الخطوات التي سيخطوها خصمه ، أو أخصامه ، وتوقفه على الوضع الراهن لسير اللعب ، فلا يلبث حتى يسيطر عليه ، ويأخذ في إلقاء أوراقه ، كأن خصمه أو أخصامه يلاعبونه على المكشوف .

لذلك فإن قوة التحليل لا ترتكز على البراعة المجرّدة ، والمحلل هو على الجملة بارع ، في حين أن البارعين من الناس قلّما يجيدون التحليل . . . وهناك اختلاف بين القدرة على التحليل والبراعة ، أعظم من الاختلاف القائم بين الوهم والتصوّر ، مع أن التشابه بين هذه الحالات بارز جداً ، وإنك لتلاحظ دائماً أن المرء البارع واهم ، وأن المرء التصوّري محلل حقاً .

هذه المقدمة ـ وهي ليست بحثاً كما ذكرت ـ ستلقي شعاعاً من الضوء على القصة التي سأعرضها على القارئ :

كنت أقيم في پاريس في ربيع سنة ـ ١٨ وأسابيع من صيفها ، وهناك تعرفت إلى السيد س . أوغست دوپان ، وهو شاب رقيق الحاشية ، يتحدر من أسرة عريقة ، غير أن الأحداث التي تعاقبت عليه انحدرت به إلى مستوى الفقر والحاجة ، وداسته بنعالها ، فصار يتجنّب الظهور في المجتمعات ، ويعزف عن بذل أية محاولة لاستعادة ثروته . . وقد أشفق عليه دائنوه وتركوه يتصرف ببعض ماله وما يدره عليه هذا المال القليل من

دخل ، فاتبع سياسة اقتصادية صارمة تقوم على التوفير والتقتير ، لكنه لم يحرم نفسه من الكتب أبداً ، وهذه الكتب موجودة في باريس بوفرة وسهلة المتناول .

التقيت به للمرة الأولى في مكتبة تقع في شارع مونمارتر ، وكنا ـ أنا وهو ـ نبحث عن كتاب واحد نادر الوجود ، وتعارفنا على هذا الهدف ، ثم اجتمعنا المرة تلو المرة ، فروى لي سيرة أسرته بكل ما يتسم به الفرنسي من صراحة في القول ، فأثار فيّ اهتماماً بالغاً في مصير هذه الأسرة . . . لقد أدهشتني كثرة مطالعاته ، ووجدت أن نفسي تستعر إزاء همّته النشيطة ، وتصوّراته الفتيّة الحيّة ، ورأيت في عشرة هذا الرجل فائدة جليلة ، وأعربت له عن شعوري هذا صراحة . . . فاتفقنا معاً على أن نسكن تحت سقف واحد طوال مدة إقامتي في باريس ، ولـمّا كانت ظروفي أقل اضطراباً منه فقد استأجرت لنا بيتاً مهجوراً من بيوت ضاحية سانت جرمان .

فلو علم الناس بهذا النمط من العيش ، الذي اختاره كلانا ، لحسبوا أننا ولا ريب من البُله ، أو من المجانين المسالمين . . . فقد أحكمنا العزلة ، ولم نستقبل ضيوفاً ، وضربنا حول بيتنا نطاقاً خفياً ، وانقطعنا عن معارفنا في باريس انقطاعاً تاماً . . . وبعبارة أخرى لقد قرّرنا أن نعيش معاً وكل واحد للآخر فقط .

كان من نزوات خيال صديقي أن يتعشّق الليل من أجل الليل . . . وقد وقعتُ تحت تأثير شذوذه هذا ، بل تحت تأثير كل ما يصدر عنه من شذوذ ، مستسلماً لنزواته ، متخلّياً عن كل معارضة أو مناقشة .

ولم يكن الليل ليقيم معنا دائماً ، غير أننا كنّا نحتال عليه ونأتي به . . . فما إن يرسل الفجر تباشيره حتى نقفل مصاريع النوافذ الثقيلة ، ونضيء بعض الشموع ذات الرائحة النفّاذة ، فترسل علينا إشعاعات ضئيلة خافتة . . ومن ثمّ ننهمك في إشباع أحلامنا النهمة فنطالع ، ونكتب ، ونتذاكر ، إلى أن تعلن الساعة وقت حلول الظلام من جديد . . . فنتسلّل إلى الشوارع يتأبط أحدنا ذراع زميله ، ونوالي التحدث في المواضيع الحسّاسة ، أو نطوف هنا وهناك بأفكارنا المهتاجة ، وسط الأضواء الزائغة ، وفي ظلال المدينة المأهولة .

ولا يسعني هنا إلاّ أن أبدي إعجابي بمقدرة دوپان على تحليل الأمور ، حتى إنه هو نفسه كان يسر بهذا الضرب من الممارسة الفكرية ، ويعترف به ، فيتباهى أمامي ، والضحكة الخفية على ثغره ، أن أغلب الرجال بالنسبة إليه هم عبارة عن «نوافذ بالية» . كان يتحدث عن نفسه وفي ملامحه جمود وغموض ، وفي عينيه تيهان ، وفي صوته ارتعاش . . . وإذ كنت أراه على هذا الحال أنصرف على الفور إلى التأمل الفلسفي بالروح الثنائية ، وأمتع نفسي بتحليل شخصية صديقي المزدوجة ، دوپان الخلاّق ودوپان المحلل .

إنني لا أرمي فيما أتيت على ذكره الدخول في تفصيلات روائية غامضة ، فحالة دوپان ، التي وصفتها ، ناتجة عن قلق أو عن اضطراب في الجهاز التفكيري وليس عن شيء آخر .

كنا مساء يوم نجوب شارعاً قذراً بالقرب من «باليه رويال» بپاريس ، وكلانا منهمك بالتفكير في أمر ما ، وانقضت حوالى خمس عشرة دقيقة ونحن في صمت مطبق ، وإذا بدوپان يقول فجأة : «إنه شخص قصير جداً . . . ويصلح ولا ريب للتمثيل في «تياترو دو ڤاريته» ! . . فأجبته وأنا في غمرة من التأمّل ، ومن غير أن ألاحظ الحالة الخارقة للعادة التي كان عليها : «لا شك في ذلك ! . .» . وما هي إلاّ لحظات حتى عدت إلى نفسي ، وقلت له برزانة : إنني أعجز عن فهم هذا كله . . . إنني مندهش ولا أستطيع الوثوق بمشاعري . فكيف عرفت أنني كنت أفكر بـ . . .؟ وتوقفت عن الكلام قليلاً لأتأكد فيما إذا كان صديقي قد أدرك ما يدور بخلدي .

قال : أجل ، كنت تفكر بشانتيلي . . فلماذا توقفت عن الكلام . . لقد كنت تتصوّر أن هذا القزم أعجز من أن يمثّل تلك المأساة .

وقد كنت في الواقع أفكر في هذا الشخص . إنه إسكافي سابق يعمل في شارع دينيز ، ثم استهواه المسرح وصار يمثل دور أغرنسيس بن داريوس ملك الفرس في مأساة كريبيون .

فقلت له بجزع : حدّثني بربك ، ما هي الأساليب التي اتبعتها في معرفة ما كنت أفكر فيه؟

قال : إن بائع الفاكهة هو الذي أوحى لك أن الإسكافي لا يصلح لتمثيل دور أغرنسيس .

قلت دَهِشاً : بائع الفاكهة ! من هو هذا؟ . . إنني لا أعرفه ! . .

قال : إنه الشخص الذي اصطدم بك ونحن نعبر الشارع منذ خمس عشرة دقيقة .

لقد تذكرت فعلاً أن بائع فاكهة ، وكان يحمل التفاح في سلة كبيرة على رأسه ، قد طرحني أرضاً بالمصادفة ونحن نعبر شارع (س) . . . ولكن ما علاقة هذا الرجل بشانتيلي؟ . . إنني لا أفهم شيئاً ! !

فأجابني دوپان ، وإنني أنزهه عن الكذب : سأوضح لك الأمر وستدرك كل شيء بلا مواربة ، فلنمض في إثر تفكيرك مرحلة فمرحلة ، أي منذ أن تحدثت إليك ، حتى لحظة اصطدامك ببائع الفاكهة . . . فالخطوط العامة تتجه على هذا النحو ـ شانتيلي ، وأوريون ، والدكتور نيكولس ، وأپيقورس ، وستريوتومي ، وحجارة الشارع ، وبائع الفاكهة .

هناك عدد قليل من الناس لم يمتّعوا أنفسهم بتتبّع مراحل تفكيرهم ، في حين أن هذا العمل كله طرافة ، وكل شخص يقوم بهذا التتبع لأول مرة يأخذه العجب لبعض الشقة بين نقطة الانطلاق وبين الهدف الذي توصل إليه . . . فأي عجب استولى عليَّ حين سمعت من صديقي الفرنسي حقائق لا يمكن إنكارها؟ قال :

«لقد كان الموضوع الذي تطرقنا إليه قبل أن نترك شارع (س) هو موضوع الخيل . . . ثم التقينا ببائع الفاكهة وهو يحمل سلة كبيرة على رأسه ، وكان يحث خطاه ، فاصطدم بك وألقاك على كومة من الحجارة معدّة لتعبيد رصيف الشارع ، فتعثرت بحجر ، وانزلق كعبك ، والتوى التواء طفيفاً ، فامتعضت وتجهّمت وتمتمت ببضع كلمات ، وألقيت نظرة على الحجر الذي تعثرت به ، ثم تابعت سيرك ساكناً . . . أما أنا فلم أبدِ كثير عناية بما فعلته أنت ، غير أن ما لحظته قد تحوّل فيما بعد إلى ما يشغل فكري ويكدّه .

أجل يا صديقي . . . لقد سدّدت نظرك إلى الحفر والأخاديد المحدّثة في

الرصيف إلى أن بلغنا زقاقاً ضيقاً يدعى زقاق لامرتين ، عُبِّد طريقه بكتل من الحجارة المتراصة المتماسكة . . . وهنا سطع وجهك وتحركت شفتاك ، ولا أشك في أنك كنت تتمتم بكلمة «ستريوتومي» التي تنطبق على مثل هذه الطرق . . . وإنني لأعلم جيداً أنك لا تستعمل كلمة «ستريوتومي» إلاّ وأنت تفكر بالذرّة ، وبالتالي بنظريات أبيقورس(*) . . ولعلّك تذكر أننا عندما تناقشنا في هذه النظريات منذ أمد غير بعيد ، بيّنت لك أن ما أبداه ذلك النبيل اليوناني من نظريات أثبتها علم تكوين المخلوقات في وقت متأخر . . . وقد لمحتك في ذلك الوقت وأنت تسدّد نظرك إلى الكوكب أوريون ، فزاد يقيني بأنني لا أزال أتتبع مجرى تفكيرك . . . لقد أدركت أنك تقارن بين ذلك الممثل الإسكافي القزم وكوكب أوريون المتألّق ، وهناك قطعت عليك حبل تأملاتك وقلت لك «إنه شخص قصير جداً . . . ويصلح ولا ريب للعمل في مسرح ڤاريته» .

ولم تمض فترة من الوقت حتى كنا نتصفح جريدة «غازيت دو تريبون» وقد استرعى انتباهنا الخبر التالي :

«جريمة فوق العادة» . . . لقد حدث في الساعة الثالثة من صبيحة هذا اليوم أن استيقظ سكان حي «سانت روش» على أصوات مروّعة ، صادرة من بيت في الطابق الرابع في شارع مورغ ، تسكنه السيدة لاسباناي وابنتها الآنسة كاميل لاسباناي . . . فأسرع ثمانية أو عشرة من الجيران ودركيان إلى الدار التي صدر منها الصراخ المفزع ، وفتحوا بابها عنوة وصعدوا على عجل إلى الطابق الرابع ، وفي هذه الأثناء انقطع الصراخ ، ولكنهم ما كادوا يقتربون من الشقة حتى سمعوا صرخات غضب عنيفة وانقطعت ثانية . . وحاول القوم دخول الشقة لكنها كانت مقفلة من الداخل ، فاقتحموها وإذا بهم يقفون أمام مشهد مثير للعجب والهلع .

كانت غرفة النوم في حالة لا توصف من الفوضى ، فالأثاث محطّم

(*) أبيقورس Epikourous (٣٤١ - ٢٧٠ق م) : فيلسوف يوناني دعا إلى الاستمتاع باللذات المعنوية .

ومبعثر هنا وهناك ، والفراش ملقى على الأرض . . . وقد عُثر على موسى حلاقة ملطّخة بالدماء ومطروحة على المقعد . . كما عُثر على كتلة شعر أشيب عالقة بحافة الموقد ، وهي ملطخة بالدماء أيضاً ، ويبدو أنها اجتُثّت من الرأس اجتثاثاً . . . وقد نشرت على الأرض أربع ليرات ذهبية وقرط ، وثلاث ملاعق فضية ، وثلاث قطع نقدية معدنية جزائرية ، وكيسان يتضمنان حوالي أربعة آلاف فرنك ذهباً . . . أما أدراج الخزانة المنتصبة في زاوية الغرفة فقد فُتحت بينما الكثير من محتوياتها لم تمسها يد . . . واكتشف القوم صندوقاً حديدياً صغيراً موضوعاً تحت الفراش (وليس تحت السرير) وقد فُتح بمفتاح ، ولم يكن فيه سوى رسائل قديمة وأشياء عادية أخرى . . .

أمّا السيدة لاسباناي فلم يُعثر لها على أثر ، ولكن القوم لاحظوا أن كمية غير عادية من سواد الدخان قد تجمّعت في الموقد ، فأقدموا على فحص المدخنة ، فإذا بهم ، ويا للهلع ، يجدون جثة ابنتها محشورة فيها ورأسها إلى أسفل ، فأنزلوها وكان جسدها لا يزال دافئاً ، وقد سُلخ جلدها في أكثر من موضع بسبب سحبه من المدخنة بقوة . . . أمّا وجهها فقد تخدّش كثيراً بشكل وحشي ، كما رُضّت رقبتها ، وآثار الأظفار العميقة ظاهرة فيها ما سبّب لها الوفاة .

وبعد البحث في كل جزء من أجزاء البيت بحثاً دقيقاً توجّه القوم إلى الفناء الواقع خلف الدار ، فعثروا على أمها وقد قُطع حلقها قطعاً . . . فلمّا حاولوا رفعها انكفأ رأسها إلى الوراء . . . وكان جسمها ورأسها مشوّهين تشويهاً شنيعاً .

وختمت الجريدة الخبر بقولها : «ونحن لا نزال في حيرة تامة إزاء هذه الجريمة المروّعة الغامضة» .

وطالعتنا الجريدة ذاتها في صباح اليوم التالي على التفصيلات التالية : «فاجعة شارع مورغ» لقد استُمع إلى شهادة عدد كبير من الناس بصدد هذه الجريمة الغامضة ، ولكن لم يصل المحققون إلى أية معلومات تلقي بعض الضوء عليها ، وها نحن نورد أقوال بعض من حُقّق معهم :

قالت الغسّالة «پولين دو بورغ» : كنت أغسل للسيدة لاسباناي وابنتها مدة

ثلاث سنوات على التوالي . وقد تبيّن لي أنهما كانتا على وفاق تام ، ولم أصادف عندهما أي شخص غريب ، ولم يكن في خدمتهما أحد .

ويقول بائع التبغ «بيير مورو» إنه كان يبيع التبغ والسعوط من السيدة لاسباناي . . وإنه يعرف السيدة وابنتها منذ أن انتقلتا إلى شقتهما هذه قبل ست سنوات . وهو يدّعي أن السيدة وابنتها كانتا منطويتين على أنفسهما ، وهو يظن استناداً إلى ما يشاع أنهما كانتا تدّخران أموالاً . . . ولا يذكر أنه رأى غرباء يدخلون البيت باستثناء حمّال جاءه مرة ، أو مرتين ، وطبيب زاره ثماني أو عشر مرات .

وشهد كثير من جيران الضحيّتين ، لكن أحداً منهم لم يكن يتردّد إلى الدار ، ولا يعرفون فيما إذا كان بعض الناس يزور السيدة وابنتها . . . أمّا درفات النوافذ الأمامية للشقة فقلما كانت تفتح ، وكانت درفات النوافذ الخلفية مغلقة دائماً باستثناء درفات نوافذ القاعة الكبرى .

ويقول الدركي «إيسدور موسيت» إنه استُدعي إلى بيت السيدة لاسباناي حوالى الساعة الثالثة صباحاً ، وإنه وجد عند الباب الخارجي ما يقارب العشرين أو الثلاثين شخصاً ، وفتح الباب عنوة بحربته ، فما إن دخل الدار حتى انقطع الصراخ فجأة ، ولـمّا صعد إلى الطابق الرابع سمع مع من رافقه من الناس صوتين صاخبين غاضبين ، أحدهما خشن فظ والثاني عال حاد . . . فالأول صوت فرنسي ، ولم يُسمع منه إلا هاتين الكلمتين : «مقدس» و«شيطان» ، أمّا الصوت الثاني فيغلب على ظنه أنه أجنبي تماماً ، بل يعتقد أنه إسباني .

ويقول «هنري دوفال» جار القتيلتين ، وهو جوهريّ ، إنه كان أحد الأشخاص الذين دخلوا الدار حين سمع الصراخ ، وإنهم أغلقوا الباب وراءهم في وجه الجمهور المحتشد ، وفي رأيه أن الصوت العالي الحاد كان يتحدث بالإيطالية . . . وهو يجزم أنه لم يكن صوت الأم أو ابنتها ، لأنه يعرفهما جيداً ، وسبق له أن تحدث إليهما كثيراً .

ويقول المعماري «أودنهيمر» ، وقد تطوّع للشهادة وهو لا يتكلّم الفرنسية ، إنه هولندي من أمستردام ، وكان يمر بالبيت عندما سمع الصراخ الذي

استمر حوالى عشر دقائق ، وكان صراخاً متتابعاً عالياً ، وفي رأيه أن صاحب الصوت الحاد فرنسي ، أما صاحب الصوت الخشن فكان يردد كلمات «مقدس» ، «شيطان» و«يا إلــهي» .

ويقول المصرفي «جول مينود» ، أحد أصحاب مصرف «مينود إخوان» في شارع ديلوراين ، إن السيدة لاسباناي فتحت عنده حساباً جارياً منذ ثماني سنوات ، غير أنها جاءت البنك قبل الجريمة بثلاثة أيام ، وسحبت مبلغ أربعة آلاف فرنك ذهباً ، وُضعت في كيسين ، وقد رافق السيدة أحد موظفي البنك المدعو «أدولف لوبون» حتى شقتها ، وهنالك كانت ابنتها تنتظر في الباب ، فاستلمت منه الكيسين من يد إلى يد . . . ويقول هذا الموظف إنه لم يلحظ أي شخص في الجوار .

ويقول «ويليام بيرد» ، وهو خياط إنكليزي يقيم في باريس منذ سنتين ، إنه كان في عداد من دخل الدار ، وإنه سمع صراخاً متوالياً ، أما صاحب الصوت الخشن فإفرنسي ، وأمّا صاحب الصوت الحاد فهو أقرب إلى القساوة ، ويعتقد أنه ألماني وليس إنكليزياً ، وربما يكون صوت امرأة . . . لكنه لم يفهم الكلمات التي كان يرددها لأنه يجهل اللغة الألمانية .

ويقول «ألفونسو غارسيو» وهو متعهّد يقيم في شارع مورغ ، ومن مواليد إسبانيا ، إنه كان في عداد من دخل الدار ، وفي رأيه أن صاحب الصوت الخشن هو فرنسي ، أمّا صاحب الصوت الحاد فهو سريع اللهجة فوق العادة ، ويعتقد أنه إنكليزي ولا ريب ، وهو يحكم بذلك من اللهجة فقط .

ويقول «ألبرتو مونتاني» ، صاحب محل الحلويات ، إنه دخل الدار وسمع الأصوات ، وهو يوافق على أن صاحب الصوت الخشن فرنسي وكأنه يكلم شخصاً في غير لباقة ويعاتبه ، أمّا صاحب الصوت الحاد السريع النبرات فهو روسي ولا شك في ذلك ، ولـمّا كان هو إيطالي الجنسية فلم يفقه ما كان يتمتم به الروسي .

وقد أجمع هؤلاء الشهود على أن مداخن غرف الدار كانت ضيقة حتى ليستحيل أن يمرَّ عبرها إنسان ، أمّا الآنسة لاسباناي فقد حُشرت في المدخنة بعنف زائد ، بحيث تضافرت جهود أربعة رجال لإنزالها من جوفها .

ويقول الدكتور «پول دوماس» إنه استُدعي لفحص الجثتين في الصباح ، وكانت جثة الفتاة أكثر تشويهاً من جثة أمها ، إذ ضُغط حلقها بشدة ، وخُدشت ذقنها بعمق ، وأعملت الأظفار في رقبتها ، وشوّه وجهها بشكل مخيف ، ونتأت عيناها ، وقُرض قسم من لسانها . . . وفي رأي الطبيب دوماس أن عدة أشخاص قد تعاونوا على قتل الآنسة لاسباناي . . . أما الأم فقد شُوّهت تشويهاً مروّعاً ، فعظام ساقها اليمنى وذراعها الأيمن قد خُلعت من أماكنها . . . وحُطمت بعض ضلوعها اليسرى . . ويلوح أن رجلاً قوياً قد قضى عليها بضربات هراوة ثقيلة أو بقضيب حديدي أو بأي شيء آخر من هذا القبيل .

وأكّد الجراح «ألكسندر إتيين» تشخيصات زميله الدكتور دوماس ولم يزد عليها شيئاً .

ولم تؤدِّ هذه الشهادات إلى كشف ملابسات الجريمة الغامضة التي أقامت پاريس وأقعدتها . . . وطالعتنا الصحيفة المذكورة في طبعتها المسائية بأنباء تقول إن القلق لا يزال يسود حي سانت روش ، وإن الشرطة جددت البحث والتحقيق دون جدوى ، لكنها اعتقلت موظف البنك أدولف لوبون دون أن تتمكن من توجيه التهم إليه .

وقد بدا لي أن صديقي دوپان أظهر اهتماماً بالغاً في هذه الجريمة ، ولم يعلق عليها شيئاً ، لكنه لما قرأ الخبر الخاص بتوقيف لوبون التفت إليّ وسألني رأيي في مقترفي هذه الجريمة .

قلت : إنني أشارك پاريس بأسرها رأيها في غموض الجريمة وتعذّر اقتفاء آثار القتلة .

قال : إنني أرتاب في حذق الشرطة الپاريسية ، إذ ليس لها أسلوب خاص تتبعه في مثل هذه الحالات ، إنها تتبع الطرق السطحية التظاهرية في التحليل لا أكثر ، أمّا النتائج التي تتوصل إليها فلا تثير دهشة قط . . . بل تعرب عن خيبة أمل مريرة ، فمفتش الشرطة فيدوك مثلاً هو مخمّن جيد ، لكنه غير ثاقب الفكر ، ويقع في سلسلة من الأخطاء في تحقيقاته ، إنه يتفحّص الأشياء عن كثب أكثر مما يتطلّب الأمر ، فيتبيّن نقطة أو أكثر لكنه

لا يتبيّن معالم القضية . . . فهناك حالات تتطلب البحث المعمّق ، والحقيقة تبدو سطحية ، لكنها في الواقع تكمن في أعماق الوديان وليس على قمم الجبال .

ولعل الأجسام السماوية تكون خير مثل في إدراك هذا الموضوع ، فإذا ما ألقينا على الكوكب نظرة بمؤخر العين ، أي إذا ما حولنا نحوه الأقسام الخارجية لشبكية العين ، نراه شديد التألق ، ولكننا إذا ما حولنا نظرنا كاملاً إلى هذا الكوكب نراه يأخذ بالقتام شيئاً فشيئاً . . فالإكثار من تسديد النظر إلى الشيء يمنعنا من سبر كنهه ! . .

وعلى ذلك أقترح أن نقوم كلانا بتحقيقات بصدد هذه الجريمة قبل أن نكوّن لنا رأياً فيها ، والتحقيقات هذه ستجلب لنا متعة ولا ريب ، وأعتقد أن مدير الشرطة السيد (ج) ، وهو أحد معارفي ، سيسهل لنا مهمتنا .

وحصلنا في الواقع على الإذن المطلوب ، وتوجّهنا من فورنا إلى شارع مورغ الواقع عند مفرق شارعي ريشيليو وسانت روش ، وما إن اقتربنا من المنزل الذي وقعت فيه الجريمة حتى شاهدنا جمعاً غفيراً من الناس يتطلعون إلى نوافذه المغلقة بكثير من الفضول . . . لقد كان المنزل عادياً مثل بقية المنازل الپاريسية . . . وتجوّلنا حوله قليلاً ودوپان يتفحص كل ما يراه في الجوار بدقة تامة . . . ثم دخلنا وصعدنا الدرج إلى الشقة التي وقعت فيها الجريمة ، وكانت الجثتان موضوعتيْن في غرفة الآنسة لاسباناي .

انصرف دوپان إلى فحص غرف المنزل وفنائه ، ثم عاين الجثتين باهتمام زائد . . . وظللنا على هذه الحال من بحث وتدقيق إلى أن حل المساء ، فعدنا أدراجنا إلى بيتنا ، وقد عرج زميلي في الطريق على مكتب صحيفة يومية ، وظل فيه مدة من الزمن ، ثم خرج وتابعنا المسير .

امتنع صديقي عن التحدّث بصدد الجريمة حتى ظهر اليوم التالي حين سألني فجأة : ألم تلحظ شيئاً خاصاً في مسرح الجريمة؟

قلت : كلاّ ، لم ألحظ شيئاً خاصاً زيادة على ما قرأناه في الصحيفة .

قال : يبدو لي أن هذه الصحيفة لم تتطرّق إلى صلب الجريمة . . . وفي رأيي أن هذا الحادث المروع قابل للحل بقدر ما هو معقّد . . والشرطة مبلبلة

في تفسير القساوة التي ارتكبت فيها الجريمة ، ومما يزيدها بلبلة أن القوم الذين هرعوا على أصوات الاستغاثة لم يلتقوا أي شخص يهبط على درج المنزل ، وجميع معالم الفاجعة كانت في وضع من التعقيد بحيث بلبلت أفكار الشرطة الحذقة وأوقعتها في أخطاء فاحشة . . . فالسؤال الذي يجب أن يتبادر إلى الذهن في هذه القضية هو : ما السر في هذا الحادث الذي لم يقع له مثيل من قبل؟

وتابع دوپان كلامه وهو ينظر إلى باب دارنا وقال : إنني أتوقع الآن قدوم شخص علينا أعتقد أنه ليس مدبراً للجريمتين ولكنَّ له ضلعاً فيها . . أجل إنني أتوقع أن أرى هذا الرجل في هذه الغرفة في كل لحظة ، والواجب يتطلب منا أن نعتقله في حالة قدومه . . وهاك مسدسك ، وهذا هو مسدسي ، وإننا نعرف كيف نلجأ إليهما عند الضرورة .

فتناولت المسدس منه ، وأنا لا أفقه أي معنى لما أرى وأسمع . . . كان دوپان يوجّه كلامه إليَّ بصوت عال ، حتى ظننت أنه يخاطب شخصاً بعيداً ، أمّا عيناه فكانتا خاليتين من كل تعبير ومسدّدتين إلى الجدار . قال :

إنَّ الأصوات التي سمعها القوم وهم يصعدون الدرج لم تكن صادرة عن القتيلتين ، والتحقيق أثبت ذلك نهائيّاً . . وهذه النتيجة قد أبعدت كل ظن في أن الأم هي التي مثّلت بابنتها ثم انتحرت . . . أذكر ذلك على سبيل المثال فقط ، لأن الأم الضعيفة أعجز من أن تزج ابنتها في جوف المدخنة ، ثم إن الجراح العميقة ، والتشويهات الشنيعة ، التي حلّت بالأم لا تصدر عن منتحر أبداً ، لذلك فإن مرتكبي الجريمة هم من خارج المنزل . . . وقد تضاربت الآراء في الأصوات الصادرة عنهم أو عنهما . . . فهل استرعى انتباهك شيء خاص في شهادات الشهود بصدد الأصوات؟

قلت : لقد أجمعوا كلهم على أن صاحب الصوت الخشن هو فرنسي ، ولكنهم اختلفوا في صاحب الصوت الحاد .

قال : هذه شهادة الشهود بحد ذاتها ، لكنها ليست الدلالة الخاصة التي تمتاز بها شهاداتهم ، لقد اتفقت آراؤهم في صاحب الصوت الخشن ، لكنها تضاربت في صاحب الصوت الحاد ، وصار كل منهم ينفيها عن لغة

قومه . . . ولعلك تقول ربما يكون صاحب هذا الصوت آسيوياً أو إفريقياً ، لكنني أستبعد ذلك لندرة الآسيويين والإفريقيين في باريس . . . وعلى ذلك فإنني أُلفت انتباهك إلى ثلاث نقاط : فأحد الشهود يقول إن الصوت الحاد كان أقرب إلى القساوة ، واثنان منهما يقولان إن الصوت كان سريعاً فوق العادة . . . ثم إن الشهود كلهم لم يميّزوا في الصوت كلمات محدّدة .

إنَّ تضارب الآراء في الصوت الحاد يثير فينا الشك ، ويقودنا إلى الاستقراء الجائز ، ويدفعنا إلى متابعة التحقيق في هذه الجريمة الغامضة ، فالاستقراء هو الطريقة الوحيدة لحل اللغز ، أما الشبهة فهي نتيجة حتمية للقضية .

فلننتقل إلى الغرفة التي وقعت فيها الجريمة ، فما هو الشيء الذي نود الاهتداء إليه؟ . . إنه المخرج الذي فرّ منه الجناة ولا ريب . . إذ ليس من المعقول أن تكون الأرواح هي التي فتكت بالأم وابنتها . . . فالقتلة كانوا من الأحياء ، وقد لاذوا بالفرار من غرفة الفتاة أو من الغرفة المجاورة لها . . . والشرطة قد طوّقت المنزل من كل جهاته ، ولم تدع منفذاً إلاّ وحرسته ، فبابا الغرفتين موصدان بالمفتاح من الداخل ، والمدخنة ضيقة لا تسمح لإنسان أن يمر منها ، أمّا النافذتان فلا يمكن لامرئ أن يخرج منهما دون أن تراه جموع الناس المحتشدة في الشارع . . . ثم إن النافذتين كانتا مغلقتين من الداخل بإحكام ، بل قد سُمّرتا جيداً بمسمارين كبيرين .

وافترضت أن يكون القتلة قد نزعوا مسمار إحدى النافذتين وخرجوا منها ، ولكن من أعاد المسمار إلى مكانه؟ . . فانتزعته على سبيل التحقّق ، ثم حاولت فتح النافذة فلم أفلح ، لأن هناك رفاصاً خفياً يمسك بإطار النافذة ، وقد اهتديت إليه وفتحتها ، ولكن كيف يعاد الرفاص إلى مكانه بعد إغلاق النافذة ، وهو لا يحدث إلاّ بالضغط من الداخل؟ . . وهكذا تيقنت أن القتلة لم يخرجوا من هذه النافذة ولعلهم خرجوا من النافذة الثانية . . وافترضت أن يكون الرفاص فيها شبيهاً برفاص الأولى ، ولكن من يدري أن المسمار المثبت فيها يختلف عن تلك في طريقة غرزه ، فصعدت على السرير العاري وأخذت أتفحص النافذة إلى أن عثرت على الرفّاص

الشبيه برفاص النافذة الأولى ، ثم تطلعت إلى المسمار فوجدته شبيهاً بمسمار تلك . . . وتابعت البحث إلى أن تبيّن لي أن السر يكمن في هذا المسمار بالذات . . لقد لحظت أن وضعه هنا يختلف قليلاً عن ذاك ، كان مرفوع الرأس قليلاً ، فلمسته بيدي وإذا به مكسور وخارج من مكانه ، فأنعمت النظر بالكسر فاتضح لي أنه قديم العهد ، وقد أجهز عليه بضربة مطرقة ، فأعدته إلى مكانه فاختفى الكسر ، وكان لا يختلف بشيء عن المسمار المثبت في النافذة الثانية . . . ثم ضغطت على الرفاص ، ورفعت درفة النافذة بلطف ، وإذا بالجزء الأعلى من المسمار يرتفع معه ، ثم أغلقتها فعاد المسمار إلى وضعه الطبيعي .

واستنتجت على الفور أن القاتل قد فرَّ من هذه النافذة القريبة من السرير ، ثم أغلقها وراءه ، فأطبق الرفاص على جزءيه بحكم سقوط درفة النافذة العليا ، الأمر الذي ضلّل الشرطة ، وزاد في غموض الجريمة .

وننتقل الآن إلى كيفية هبوط القاتل . . . لقد تبيّنت في أثناء جولاتنا في المنزل وحواليه أنه على بُعد خمسة أقدام من النافذة المعنيّة يقوم قضيب للصواعق ، وكانت درفات النافذة الخارجية من النوع الذي يسميه الفرنسيون (فرّاد) وهو قليل الاستعمال في أيامنا هذه ، لكننا لا نزال نراه بكثرة في ليون وبوردو ، وهو شبيه بالباب العادي لكن الجزء الأعلى منه مصنوع على شكل صفوف مستقلة من العوارض ، ما يجعلها خير ممسك لليدين . . . وكان عرض درفتي النافذة حوالى ثلاثة أقدام ونصف القدم ، ولما تطلعنا إليهما من الخارج ظهر لنا وكأنهما شبه مغلقتين ، الأمر الذي ضلّل الشرطة أيضاً فلم تعرهما كثير أهمية . . .وقد استنتجت أن هاتين الدرفتين لو فتحتا إلى الخارج تماماً تصلان إلى بعد قدمين من قضيب الصواعق ، وبوسع المرء مع شيء من النشاط والجرأة أن يتسلق القضيب ، ثم يضع قدمه على الجدار ويمد ذراعيه إلى الدرفتين فيمسك بهما ويندفع معهما إغلاقاً ، فيجد نفسه وقد صار على حافة النافذة ، وإذا صادف وكانت هذه مفتوحة من الداخل ، يلج الدار على الرحب والسعة .

لقد أردت من الإشارة إلى «النشاط والجرأة» اللذين يتطلبهما هذا العمل

أن ألفت نظرك إلى أمرين : أولاً إلى كيفية إنجازه ، وثانياً إلى بشاعة الجريمة الخارقة للعادة .

والهدف الذي أرمي إليه من هذا التفصيل كله ، هو الوصول إلى الحقيقة . . . أما غايتي المباشرة من ذلك فلأعرض عليك التّماسّ القائم بين «النشاط غير الطبيعي» الذي تحدثت عنه الآن ، والصفات الخاصة بالصراخ «الحاد القاسي» والذي لا شبيه له . . . الصراخ الذي لا جنسية له ، ولا يتفق عليه اثنان ، وليس له لفظ أو مقاطع .

وحين بلغ دوپان هذه النقطة من حديثه بدأت بعض الخواطر تتوارد إلى ذهني ، وكنت على وشك أن أفهم ولو أنني عاجز عن الفهم ، ومثلي في ذلك هو مثل الإنسان عندما يبلغ حافة الذكرى لكنه يجد نفسه لا يستطيع تذكر شيء بتاتاً .

ثم تابع صديقي حديثه وقال : فلنوضح الآن الوضع الذي وجدت فيه الغرفة ، كانت أدراج الخزانة مكتسحة مع أن يداً لم تمس محتوياتها . . ولكن من يدري ما الذي كانت تحتويه هذه الأدراج؟ . . وإذا كان اللص قد أخذ شيئاً فلماذا ترك الباقي؟ . . بل لماذا انصرف إلى سرقة الأصواف وترك كيسين من الذهب كانت القتيلة الأم قد سحبتهما من المصرف كما أفاد السيد مينود في شهادته؟

إنَّ ما أريده منك هو أن تنزع من فكرك أي بحث في الدافع إلى ارتكاب الجريمة ، والشرطة مضللة في هذا الأمر ، لأن المصادفة دفعت موظف المصرف إلى أن يرافق السيدة إلى بيتها ، وشاءت المصادفة أيضاً أن تُقتل الأم وابنتها ، بعد استلام الذهب بثلاثة أيام . . . والمصادفة على الجملة هي العائق الكبير الذي يعترض سبيل المفكرين الذين لا يعتقدون بنظرية الاحتمال ، هذه النظرية التي تقول بأن معظم الأهداف العظيمة التي بلغها الإنسان مدينة إلى التفاسير العظيمة . . . فالذهب والحالة هذه ليس الدافع إلى الجريمة ، إذ ليس من المعقول أن يقترف الجاني جريمته ويتخلى عن الدافع ، ألا وهو الذهب !

فلنحتفظ في ذاكرتنا إذاً بما توصّلنا إليه من تحقيقات ، وهي الصوت

الذي له طابع خاص ، وبشاعة الجريمة ، وافتقار الدوافع إلى اقترافها ، ولننظر الآن في المجزرة بحد ذاتها . . فالفتاة جُذبت إلى مدخنة الموقد عنوة وخُنقت فيها ، ورأسها متدلّ إلى أسفل ، فهذه حالة خارقة للعادة وغريبة عن أفعال البشر ، ولك أن تتصور مبلغ القوة التي حشرت الفتاة في المدخنة حتى اقتضى إخراجها إلى توحيد جهود عدة أشخاص معاً ! . .

ولنتحول الآن إلى نقطة ثانية لها علاقة بوحشية الجريمة ، لقد عثر المحققون عند الموقد على خصلة كثّة من الشعر الأشهب وقد اقتلعت مع جذورها اللحمية اقتلاعاً ، ويا له من منظر مروع ، فتصوّر مبلغ القوة البدنية التي اقتلعت نصف مليون شعرة مع جذورها بجذبة واحدة ! . . أما الجرح البليغ الذي أُحدث في رقبة الأم فقد أدّى إلى انفصال رأسها عن جسمها تقريباً وكأنها ذبحت بموسى حلاقة . . . أمّا الجراح التي أصيبت بها السيدة لاسباناي فقد كانت بليغة ، الأمر الذي حدا بالطبيب دوماس والجراح إتيين إلى القول إنها متسببة عن آلة كليلة . . . وهما على حق في هذا الاستنتاج ، أمّا الآلة الكليلة هذه فهي حجارة فناء الدار ، لأن الضحية ألقيت من النافذة القائمة فوق السرير ، فسقطت على أرض الفناء مهشمة تهشيماً ، وهذه النقطة قد خفيت عن محققي الشرطة لأنهم لم ينتبهوا أبداً إلى حال النافذة ومسمارها ، واحتمال دخول القاتل منها وخروجه منها أيضاً .

فإذا ما أضفنا إلى هذه الأشياء كلها الفوضى التي عمّت الغرفة وصلنا إلى نتيجة مهمة وهي أن الجريمة اقترفت بأيد تفوق الطاقة البشرية ، وقد رافقتها وحشية مروعة ، وفظاعة مرعبة ، لم تعرف البلاد لها مثيلاً ، ومذبحة لا مسوّغ لها ، مقترنة بألفاظ مبهمة ليس لها علاقة بأية لغة من اللغات ! . . فما الذي نستنتجه من هذا كله؟ . . وما هي الانطباعات التي تركتها هذه الاستقراءات في نفسك؟

وجدت نفسي في حيرة وذهول إزاء هذا السؤال وقلت : لعل مقترف الجريمة مجنون مزمن فرّ من مستشفى المجانين؟

قال : ولكن المجنون ينتمي إلى أمة من الأمم ، ويلفظ كلاماً له مقاطع . . . أضف إلى ذلك أن شعر المجنون لا يشبه هذه الشعرات التي

عثرت عليها في راحة السيدة لاسباناي . . فما رأيك فيها؟

فتفحّصت الشعرات بخوف وقلت : هذا شعر غير طبيعي . . إنه شعر غير بشري . .

قال : والآن ألق نظرة يا صديقي على هذا الرسم للبقعة السوداء ولأثر الأظفار التي وُجدت على رقبة الآنسة لاسباناي ، والتي أشار إليها الشهود في شهاداتهم . . . فحاول أن تضع يدك عليها وتبيّن بنفسك ما إذا كانت تشبه اليد البشرية !

ففعلت ما طلبه مني دوپان ، فرأيت الفارق الكبير بين يدي والرسم وقلت له : إن اليد التي رسمتها ليست يداً بشرية !

قال : فاقرأ الآن هذه الفقرة التي كتبها العالم الطبيعي جورج كوڤيه(*) .

فقرأتها ، وهي تتحدّث عن نوع من قرد الأورانغ أوتان(**) المستوطن جزر الهند الشرقية ، قوامه هائل ، وقوته خارقة ، ووحشيته مروعة . . . فأدركت على الفور فظاعة مقترف الجريمة .

وقلت لدوپان : إن الوصف الذي سجّله كوڤيه عن هذا النوع من الأورانغ ـ أوتان ينطبق تماماً مع ما رسمته أنت . . . والشعرات التي في حوزتك تشبه شعر الحيوان الذي تحدث عنه العالم الطبيعي الفرنسي . . . غير أن الأمر الذي لا أفقهه في هذه القصة سماع صوت شخص فرنسي .

قال : الحق فيما تقوله . . . لقد أجمع الشهود على أنهم سمعوا صوتاً يقول بالفرنسية «يا إلـهي» . . واتهموا صاحب هذا الصوت باقتراف الجريمة . لكنني أفترض أن هذا الرجل بريء . . فهو صاحب الأورانغ ـ أوتان ، وقد فرّ منه هذا الوحش وتعقبه حتى غرفة السيدة لاسباناي وابنتها ، لكنه لم يتمكّن من الإمساك به . . . وفي رأيي أن الأورانغ ـ أوتان لا يزال طليقاً !

(*) جورج كوڤيه Cuvier (١٧٦٩ - ١٨٣٢) : عالم فرنسي درس الحيوان والمتحجّرات . عارض بشدة مذهب النشوء والارتقاء .

(**) Orangutan أو Orangoutan ويُعرف بإنسان الغاب ، ضرب من القردة العليا الشبيه بالإنسان يقطن في بورنيو وسومطرة .

فالذي أقوله بصدد براءة الرجل إن هو إلاّ افتراض ، ولكي أتأكد من افتراضي هذا عرّجت على صحيفة «موند» ، وهي صحيفة تهتم بشؤون السفن والبحارة ، وسألتها نشر إعلان سيحمل الرجل على الحضور إلى منزلنا هنا .

وسلّمني دوپان عدد الصحيفة التي نشرت الإعلان ، وقرأت فيه ما يلي : «لقد قُبض في هذا الصباح الباكر على أورانغ ـ أوتان ، وهو يجوب غابة پولونيا . وبوسع صاحبه ، وهو نوتيّ يعمل في سفينة مالطية ، أن يستلم الحيوان ثانية بعد أن يدفع ما يترتب عليه من مال أُنفق للقبض على الحيوان والاحتفاظ به . اطلب تلفون رقم . . . شارع . . ضاحية سان جرمان» .

قلت : وكيف عرفت أن صاحبه نوتيّ ويعمل في سفينة مالطية؟

قال : عثرت على قطعة من شريط يعقده بحارة السفن المالطية على ضفائرهم الطويلة ، عالق على قضيب الصواعق ، فاستنتجت من ذلك أن الفرنسي يعمل في سفينة مالطية . . . فإذا ما صحّ استنتاجي هذا فإن البحار الفرنسي البريء سيتردّد في تلبية الدعوة الخاصة بالأورانغ ـ أوتان ، وسيخاطب نفسه قائلاً : «إنني بريء ومسكين ، ولحيواني قيمة كبيرة ، وهو بالنسبة إليّ ثروة هائلة ، فما الذي يحملني على أن أخسره؟ . . لقد أصبح في قبضتي ثانية . . . إنهم عثروا عليه في غابة پولونيا ، وعلى بعد شاسع من مسرح الجريمة . . ومَن من الناس سيتصوّر أن هذا الحيوان الضاري هو الذي قضى على الأم وابنتهـا؟ . . والشرطة قد أخفقت في سبر كنه ما حدث . . . ولو افترضت أن الشرطة قد اهتدت إلى أثر الأورانغ ـ أوتان لكنها لا تستطيع اتهامي بالقتل . . وفوق هذا وذاك إنني رجل «معروف» . . والإعلان يشير إليّ صراحة كمالك للحيوان ، فإذا ما أحجمت عن المطالبة به فإنني أعرضه للشبهة ، وليس من مصلحتي أن ألفت الأنظار إليّ وإلى حيواني . . فعليّ إذاً أن ألبّي الدعوة» .

وفي هذه الأثناء سمعنا وقع خطوات على الدرج . . فقال دوپان : استعد . . اقبض على مسدسك ، ولكن حذار من أن تظهره أو أن تستعمله قبل أن أعطيك الإشارة .

كان دوپان قد ترك باب الدار شبه مغلق ، فدفعه الزائر دون أن يقرع الجرس ، وصعد على الدرج وهو يبدي تردداً ، فسمعناه يهبطه ، ثم يرتقيه ثانية ، ثم توقف عند باب غرفتنا وطرقه .

فأجابه دوپان مرحّباً : تفضل وادخل ! . .

فدخل الرجل ، وكان نوتيّاً شديد البأس ، جريئاً ، قمحيّ اللون ، وقد ستر شارباه وشعر وجنتيه نصف وجهه ، وكان يحمل هراوة ضخمة لكنه بدا غير مسلح ، فانحنى بقليل من اللياقة وقال بالفرنسية : أسعدتم مساء !

فقال له دوپان : اجلس أيها الصديق . . أظن أنك قد أتيت تطلب الأورانغ ـ أوتان؟ . . أقسم أنني أحسدك على امتلاكه ! . . إنه حيوان نفيس . . ولا ريب في أن قيمته عظيمة . . فكم له من العمر حسب رأيك؟

فتنفّس النوتيّ الصعداء ، كمن يطرح عن نفسه عبئاً ثقيلاً ، وأجاب بلهجة الواثق : أظنه في الرابعة أو الخامسة من عمره . . فهل هو عندكم هنا؟

فقال له دوپان : إننا لم نرَ من المناسب الاحتفاظ به في منزلنا ، ولقد وضعناه في مزود في شارع دو بورغ القريب من حيّنا هذا ، وبوسعك استلامه غداً صباحاً . . فهل أنت مستعد للتعرّف على هذا الحيوان خاصتك؟

فأجاب : طبعاً يا سيدي .

فقال : يؤسفني أن أفارقه !

فأجابه النوتي : إنني أقدر المتاعب التي سببها لك الأورانغ ـ أوتان ، وتجدني على استعداد لأن أكافئك في حدود المعقول .

فقال : أجل ، دعني أفكر قليلاً في المكافأة التي أريدها . . إن أفضل مكافأة تقدّمها لي هي إطلاعي على تفاصيل جريمة شارع مورغ !

لفظ دوپان هذه الكلمات بهدوء تام ، وسار نحو الباب بهدوء أيضاً ، وأقفله وأودع المفتاح في جيبه ، ثم أخرج المسدس ووضعه على الطاولة .

أمّا النوتيّ فقد تدفّق الدم إلى وجهه ، وأمسك بالهراوة ، لكنه سرعان ما ارتمى على مقعده وهو يرتعش بشدة ، وقد ارتسمت على محياه أمارات

الموت ، فأشفقت عليه فعلاً .

قال له دوپان بلهجة رقيقة : إنك تحاول عبثاً إزعاج نفسك ، فنحن لا نضمر لك شراً . . . إنني أعرف تمام المعرفة أنك بريء من جريمة شارع مورغ ، ولديّ من المعلومات التي تثبت براءتك هذه . . كما أنك غير متهم بالسطو والسرقة ، وعلى ذلك ليس من موجب لأن تخفي عنا حقيقة هذه الجريمة . . . ولا تنسَ أن الشاب البريء المتهم في هذه القضية لا يزال خلف القضبان .

فهدأت أعصاب النوتيّ ، لكن مظاهر شدة بأسه كانت قد تلاشت تماماً . . قال : أسأل الله العون . . وسأفضي لك بكل ما حدث . . ولك أن تصدقني أو لا تصدقني . . إنني بريء وسأرفع عن ضميري كل عبء فيما إذا مت بسبب هذه القضية .

وروى لنا قصة خلاصتها أنه سافر إلى جزر الهند الشرقية ، ونزل في بورنيو ، ثم قام برحلة في داخل البلاد مع صديق له ، وهناك التقيا بالأورانغ ـ أوتان وأسراه . . . أمّا صديقه هذا فقد مات فيما بعد ، وانتقلت ملكية الحيوان إليه . . وأخيراً تمكّن من نقله إلى بيته في پاريس . . وقد بذل جهده كي لا يسترعي انتباه جيرانه ، واحتجزه في الحمّام ، حتى إذا ما شفي من جرح أصابه وهو على متن السفينة عرضه للبيع .

وعاد النوتي ذات ليلة من سهرة في وقت متأخر ، ووجد الحيوان في غرفة نومه ، وهو يجلس إلى المرآة وبيده موسى الحلاقة يمرّرها على خدّيه مقلداً بذلك صاحبه ، فارتعد البحار لهذا المنظر ، ولجأ إلى تهدئة الحيوان بطريقته الناجعة المعتادة ، وهي ضربه بالسوط ، غير أن الأورانغ ـ أوتان ما إن رأى السوط بيد صاحبه حتى أسرع إلى باب الغرفة ، وهرب منه والموسى بيده .

وبدأت الملاحقة والمطاردة ، فالحيوان يعدو ويتلفّت بين الفينة والفينة ، والبحار الفرنسي يدعوه ويجري في إثره في شوارع خالية من المارة ، إذ كانت الساعة تقارب الثالثة صباحاً . . . وأخيراً اندفع الحيوان إلى شارع مورغ ، وقد أغراه نور كان يشع من الطابق الرابع الذي كانت تسكنه السيدة

لاسباناي وابنتها ، فصعد إليه بخفة القرد ، أمسك بقضيب الصاعقة ، ثم أمسك بدرفتي النافذة المفتوحتين وقفز منهما إلى داخل الغرفة مباشرة . . ويبدو أن الأم وابنتها كانتا في ذلك الوقت تتدثران في لباس النوم ، وتجلسان وظهراهما إلى النافذة ، وهما منهمكتان في ترتيب بعض الأوراق في الصندوق الحديدي الذي شوهدت محتوياته مبعثرة على الأرض .

ولحق البحار بالحيوان وتسلّق القضيب ، وتطلّع من النافذة فوجد القرد الضخم يمسك السيدة لاسباناي من شعرها وهو يمرر الموسى على وجهها ذهاباً وإياباً . . . وكانت ابنتها ممددة إلى جانبها فاقدة الوعي . . أمّا اجتثاث كتلة الشعر من رأس السيدة والجراح العديدة المصابة بها فتدل على أن الحيوان انتقل من حالة الهدوء إلى حالة الوحشية . . . فقد أثاره منظر الدم ، وكشّر عن أنيابه ، وصارت عيناه تقدحان شرراً ، فضرب رقبة السيدة ضربة شديدة أدَّت إلى فصلها عن جسمها تقريباً ، ثم تحوّل إلى الفتاة وأطبق على عنقها حتى أجهز عليها ! . . والتفت الحيوان إلى النافذة فلمح صاحبه يتطلع إليه جزعاً والسوط في يده ، فخشي العقاب ، وراح يسعى إلى إخفاء معالم أعماله الدامية وصار يقفز في الغرفة هنا وهناك ، ويعيث فيها فساداً ، ثم حمل جثة الفتاة وحشرها في المدخنة محاولاً إخفاءها ، وانقلب بعدئذ إلى الأم وقذف بها من النافذة .

وما إن رأى النوتي صاحبه ما فعله الأورانغ أوتان حتى انزلق على القضيب مسرعاً ، وعاد إلى بيته وهو لا يلوي على أحد خشية العاقبة .

وليس لديّ ما أضيفه إلى هذه القضية ، فالأورانغ ـ أوتان فرَّ من النافذة التي دخل منها قبل دخول القوم الغرفة ، وكان صراخه مختلطاً بنداءات صاحبه الفرنسي ، ويحتمل أن يكون الحيوان قد أغلق درفتي النافذة بعد خروجه منها . . . وأخيراً اهتدى النوتي إلى مكان الأورانغ ـ أوتان ، وقبض عليه وباعه بثمن باهظ إلى «حديقة الحيوان» ، أمّا الشاب لوبون فقد أطلق صراحه على الفور بعد التوضيحات التي قدّمها دوپان إلى مدير الشرطة . . غير أن هذا المدير كان يخفي في نفسه استياءً من التحوّل الذي اتخذته القضية ، وراح يسخر من الناس الذين يتدخّلون في شؤونه ! . .

ولم يجبه دوپان بكلمة واحدة ولسان حاله يقول : «دعه يتكلم ، فالكلام يرفع العبء عن ضميره ، أمّا أنا فيرضيني أنني انتصرت عليه في عقر مكتبه ، وعيبه أنه لا يتعمّق في تحقيقاته ، وبعبارة أخرى : إن حكمته خالية من اللقاح ! . . إنه رأس بلا جسم مثل صورة الإلـهة لاڤيرنا(*) ، أو هو رأس وكتفان فقط مثل الحوت . . وعلى كل حال إنني معجب به ، لأنه اكتسب سمعة طيّبة مبنية على قول روسو في روايته (هلويز)(**) : «إنه ينكر ما هو ثابت ، ويفسّر ما هو منفي ! . .» .

(*) لاڤيرنا Laverna : إلـهة المغانم والفوائد في الأساطير الرومانية . كان مذبحها عند بوابة لاڤيرنا في روما ، تصوّرها الآثار الفنية عادة في هيئة رأس بلا جسد .

(**) هلويز أو «إلويز الجديدة» قصة أتمها جان جاك روسو سنة ١٧٦١ .

الرسالة المختلسة

في ليلة عاصفة من ليالي خريف سنة ـ ١٨ كنت أمتع نفسي بمسرة مزدوجة من التأمل وتدخين الغليون في محل بيع الكتب الخاص بصديقي أوغست دوپان ، الواقع في الطابق الثالث رقم ٣٣ شارع دونو في ضاحية سان جرمان بباريس . كنّا التزمنا الصمت التام خلال ساعة من الزمن ، حتى ليخال للناظر إلينا ، ونحن على تلك الحال ، أن ليس لنا من عمل سوى إطلاق حلقات الدخان في الهواء . . أما أنا فقد كنت في الواقع أفكر في المواضيع التي تناقشنا بها عند حلول المساء ، والتي لها علاقة بجريمة شارع مورغ ، والغموض الذي يكتنف مقتل ماري روجيه ، وانفتح باب المكتب فجأة ، ودخل علينا رئيس شرطة باريس السيد (ج) فرحّبنا به ترحيباً حاراً ، إذ لم نكن رأيناه منذ أعوام ، وهو الرجل الذي نتفكه به أكثر مما نزدريه ، وقال لنا إنه إنما جاء ليستطلع رأي صديقي في أمور رسمية سببت له الكثير من العناء والشقاء .

فأجابه دوپان : ألا ترى يا حضرة الرئيس أن ندرس الموضوع في العتمة؟

فقال له الرئيس : إنها لفكرة غريبة هذه التي تقترحها . وكان من عادة رئيس الشرطة أن ينعت كل شيء يعجز عن إدراكه بـ«الغريب» ، فأصبح يعيش في جو من «الغرائب» .

وأجابه دوپان : إنك على صواب فيما تقوله يا حضرة الرئيس . . وقدم له مقعداً مريحاً وغليوناً .

وسألتُه : هل اعترضتكم صعوبات جديدة في قضية الجريمة؟

قال : لا شيء من ذلك . . . فالقضية أبسط ممّا تصوّرت ، وبوسعنا معالجتها وحدنا ، غير أنه قد تبادر إلى ذهني أنك تود سماع بعض تفصيلات هذه الجريمة الغريبة .

فقال دوپان : أجل ، بسيطة وغريبة ! . .

فأجابه رئيس الشرطة : المحيِّر في هذه القضية أنها بسيطة لكنها تحبط مساعينا في آن واحد .

فقال صديقي : يلوح لي أن بساطة هذه القضية هي التي توقعكم في الخطإ دائماً؟ . .

فأجابه رئيس الشرطة وهو يضحك : ما هذه الترهات؟

فقال دوپان : ربما تكون الجريمة قليلة الغموض .

فأجابه الرئيس : يا للسماء . . ما هذا الكلام؟ . .

فقال دوپان : والقلة في الغموض شاهد على وقوع الجريمة !

فقهقه رئيس الشرطة عالياً وقال : في الحقيقة يا دوپان أنت ستقضي عليّ بمزاحك .

فسألته : وما وراءك بعد هذا كله؟

فعدل الرئيس من جلسته ، وأرسل الدخان من غليونه في الفضاء ، وقال : سأقول لكما كل شيء في كلمات معدودات ، وعليّ أن أحيطكما علماً مقدماً أن هذه القضية تتطلّب كتمان السر الشديد ، وإنني أعرِّض نفسي لضياع وظيفتي إذا ما عُلِم أنني أفضيت بها إلى أحد الناس .

فقلت له : تكلم ولا بأس عليك .

فقال دوپان : أو امتنع عن الكلام إذا شئت . .

فأجاب : سأقص عليكما ما حدث . . لقد تلقّيت معلومات من مصدر رفيع جداً تفيد أن وثيقة مهمة قد سرقت من القصر الملكي . . وقد عُرف السارق إذ رُئيَ وهو يدسها في جيبه ، وهي لا تزال في حوزته حتى الساعة .

فسأله دوپان : وكيف عرفتم ذلك؟

فأجاب : لقد استنتجنا الأمر من طبيعة الوثيقة بحد ذاتها ، ومن عدم ظهور النتائج التي سرقت من أجلها .

فقلت له : أفصح ما تقول .

فأجاب : إن الوثيقة هذه تخوِّل حاملها سلطة نافذة المفعول في بعض الأوساط الرسمية البارزة .

فقال دوپان : لا أزال أتخبط في بحر من الغموض .

فأجاب : إن البوح بسر الوثيقة إلى شخص ثالث ، وليس من داع

للتعريف باسمه ، سيمس شرف شخصية تشغل أرفع المراكز . . وهذه الحقيقة تجعل للرجل الحائز على الوثيقة سلطة بعيدة الأثر في أشخاص مرموقين وتعرض شرفهم وسعادتهم إلى كثير من الأخطار .

فقاطعته قائلاً : ولكن هذه السلطة رهينة بمعرفة المسروق منه لشخصية السارق و . . .

فقال رئيس الشرطة : إن السارق هو الوزير «د» ، والأسلوب الذي اتبعه في السرقة كان جريئاً . . والوثيقة المعنية ـ وهي في حقيقتها رسالة ـ قد تلقتها الشخصية السامية وهي في المخدع الملكي ، وبينما كانت تحاول الاطلاع على مضمونها دخلت عليها شخصية سامية أخرى على حين غرة فعمدت إلى إخفائها عنها ، لكن الشخصية السامية أمرتها بأن تضع الرسالة مفتوحة على الطاولة . . وفي تلك اللحظة دخل المخدع الملكي الوزير «د» ولاحظ ارتباك الشخصيتين الساميتين ، ثم وقع نظره على الرسالة الملقاة على الطاولة ، وعرف من خطها أنها السر في هذا الوجوم السائد ، فأخذ يحدّث العاهل في مواضيع مختلفة ، ثم أخرج من محفظته رسالة تشبه في مظهرها الرسالة التي على الطاولة ، وفتحها كمن يحاول تلاوتها ثم وضعها إلى جنب تلك . . ثم تحدّث ثانية في مواضيع عامة شتى ، ولـمّا انتهى من حديثه تناول الرسالة المعنية وخرج تاركاً على الطاولة الرسالة التي أخرجها من محفظته وهي عديمة الأهمية .

فقال لي دوپان : إذاً ، هذا ما عنيته يا صديقي بقولك إن المسروق منه يعرف السارقُ شخصيته؟ . .

فأجاب رئيس الشرطة : أجل ، وقد استخدم السارق السلطة التي غدت في حوزته في مهام سياسية على درجة عالية من الخطورة . . والشخصية المسروقة منها تزداد اقتناعاً يوماً بعد يوم بضرورة استعادة الرسالة . . وهي لا تستطيع المطالبة بها صراحة ، وقد أوكل إليّ أمر استعادتها .

فقال دوپان : فلمن تحوّلها الشخصية إن لم يكن لك ، وأنت رئيس الشرطة القدير؟

فأجابه الرئيس : أتمازحني؟

فقلت له : من الواضح أن الرسالة لا تزال في حوزة الوزير ، وقد تضاعفت سلطته لمجرد وضع يده عليها قبل أن يستعملها في تحقيق مآربه . . أمّا إذا خطر له واستعملها فسيفقد هذه السلطة التي يتمتع بها . . أليس كذلك؟

فأجاب : إن ما تقوله هو عين الصواب ، وإنني أعمل وفاقاً لهذا الرأي . . وأول ما سأسعى إليه هو تفتيش منزل الوزير دون علمه ، وقد حُذرت من الأخطار التي ستسفر عن اشتباهه بالخطة التي رسمناها .

فقلت له : إنني لا أرتاب في إتقانك أعمال التفتيش ، وللشرطة الپاريسية شهرة في هذا الميدان .

فأجاب : أجل ، ولهذا السبب تراني غير يائس . . فعادات الوزير تساعدني في مهمتي ، فهو كثيراً ما يتغيّب عن منزله ليلاً ، وخدمه ينامون في مخادعهم البعيدة عن غرفته ، ومعظمهم من أهالي ناپولي السكّيرين . . وإنني أحمل مفتاحاً كما تعلم ألج به أية غرفة أو أي مكتب في پاريس . . وها هي ثلاثة أشهر تنقضي وأنا لا أترك ليلة تمر دون تفتيش منزل الوزير . . فالقضية تمس شرف منصبي . ثم إن هناك مكافأة ضخمة تنتظرني .

قلت : ولكن ألا تظن أن الوزير ربما يخفي الرسالة خارج منزله؟

فأجاب : إنني أرتاب في هذا الأمر ، فقضايا البلاط الراهنة ، والدسائس التي تحاك فيه ، تجعل الفائدة الملحة من الوثيقة ـ أي قابليتها لأن تبرز إلى الوجود في الوقت المناسب ـ أمراً يتساوى مع أهمية الاحتفاظ بها .

قلت له : أتقول قابليتها لأن تبرز إلى الوجود في الوقت المناسب؟

فأجاب دوپان : أعني قابليتها لأن تكون عرضة للتلف! . .

فقلت له : أنت محق فيما تقول . . فالوثيقة هي في بيت الوزير ولا يحتمل أن يحملها في جيبه .

فعلّق رئيس الشرطة على ذلك قائلاً : وإنني أصادق على هذا الرأي . . فقد رصدته متخفّياً مع رجالي مرتين وفتشته بكل دقة لكنني لم أعثر على الوثيقة .

فقال دوپان : لا ريب في أن الوزير ليس أحمق ، فهو يتوقع السقوط في الكمين .

فأجاب الرئيس : الوزير ليس أحمق ، لكنه شاعر ! . .

فقال دوپان وهو يرسل الدخان من غليونه : أجل ، لقد اختبرت هذا الأمر بنفسي ، إذ كنت أنظم الشعر في يوم من الأيام ، أي أنني كنت أرتكب إثماً ! . .

فقلت للرئيس : وهل لكم أن تحدثونا عن أعمال التفتيش التي قمتم بها بدقة وتفصيل؟

قال : لقد فتشت كل مكان ، ولي خبرة طويلة في هذا الشأن ، فطفت البيت مع رجالي غرفة غرفة ، وفحصنا الأثاث بدقة تامة ، وفتحنا الأدراج . وليس بخافٍ عليك أن الشرطة تعرف الأدراج الخفية حق المعرفة ، ثم قلبنا المقاعد والمساند ، ورفعنا أوجه طاولات الطعام .

قلت : ولماذا رفعتم أوجه هذه الطاولات؟ . .

قال : لأن بعض الناس يرفعون أوجهها ويخفون في قوائمها ما يودون إخفاءه ، ثم يعيدون الأوجه إلى أماكنها .

فسألته : ولكن ألا تستطيعون فحص هذه القوائم بالطرق عليها؟

قال : كلاّ ، فهي لا تُحدث صدى لأنها تكون مبطّنة بالقطن . . أضف إلى ذلك أننا نقوم بعملنا دون إحداث أية ضجة .

قلت : ولكن ليس من العسير على الوزير أن يخفي الرسالة في أي جزء من مقعد ما ، ويتعذر عليكم ولا ريب أن تحطموا المقاعد لكي تعثروا على الرسالة .

وقال : ومع ذلك فإننا لم نترك جزءاً من مقعد ، أو أي قطعة من أثاث ، إلاّ فحصناها بدقة ، حتى إننا استعملنا المُجْهر في كثير من الأحايين لتقصّي أي أثر في الدبق أو في المفاصل ، فإذا ما اشتبهنا بأي عبث بها أعملنا يد التفتيش على الفور .

قلت : ويبدو لي أنكم فحصتم جدران المرايا الداخلية ، والفراش وألبسة النوم والستائر والطنافس .

قال : طبعاً . . فنحن لم نترك ناحية في المنزل إلاّ وفتشناها بدقة تامة . . وأذكر لك على سبيل المثال أننا قسمنا المنزل إلى أقسام عدة ، وسبرنا غور

كل مربع منها ، بما في ذلك المنزلان المجاوران لمنزل الوزير .

قلت مستغرباً : وهل امتد التفتيش إلى المنزلين المجاورين أيضاً؟ ! حقاً إنه لجهد كبير بذلتموه .

قال : أجل إنه جهد كبير ولكن المكافأة مغرية .

قلت : وهل فحصتم الطرقات التابعة لتلك المنازل؟

قال : إن تلك الطرقات معبّدة بالآجر ، وقد فحصناها بالرغم من المتاعب ، اليسيرة نسبياً ، التي اعترضت سبيلنا . . ثم إننا لم نهمل الطحالب النامية بين قطع الآجر ، فقد قلبناها جيداً في البحث عن الوثيقة .

قلت : ولعلكم دققتم أيضاً في أوراق الوزير وكتبه؟

قال : لا شك في ذلك ، فقد فضضنا كل رزمة ، وتصفحنا كل كتاب ، وقسنا كثافة جلد كل مؤلف مستعملين في ذلك المُجهِر . . أمّا الكتب المجلدة حديثاً فقد أعرناها اهتماماً خاصاً وفحصناها بالإبر ! . .

قلت : وهل فحصتم أرض الغرف؟

قال : وهل من شك في ذلك . . لقد رفعنا الطنافس وفحصنا أرض الغرف بالمجهر .

قلت : والورق الملصق على الجدران؟

قال : أجل .

قلت : وأقبية المنزل؟

قال : والأقبية أيضاً .

قلت : لعل الرسالة مخبأة خارج منزل الوزير إذاً ، وأنتم قد أخطأتم التقدير .

قال : أخشى أن تكون على حق في هذا الافتراض . . . والآن ما هي نصيحتك يا دوبان؟

فأجابه دوبان : عليك أن تعيد تفتيش المنزل .

قال : ولكني لا أرى أية فائدة في ذلك !

فأجابه : لا أستطيع إسداءك أية نصيحة أخرى . . ولكن قل لي يا حضرة الرئيس أيمكنك إعطائي وصفاً دقيقاً للرسالة المسروقة؟

قال : طبعاً . . . وأخرج دفتر مذكراته وقرأ وصفاً للرسالة في مظهريها الداخلي والخارجي . . وغادرنا وهو في غم شديد .

*

بعد انقضاء شهر زارنا رئيس الشرطة مرة أخرى ، فوجدنا ندخّن هادئيْن كالمرة السابقة ، فجلس على المقعد وتناول الغليون وراح يحدثنا في أمور عامة . . ثم فاجأته أنا بهذا السؤال : وهل من جديد بصدد الرسالة المسروقة؟

قال : لقد أعدت تفتيش المنزل كما اقترح دوپان ولكن دون جدوى .

فسأله دوبان : وما هو مقدار المكافأة المخصصة لمن يعثر على الرسالة المسروقة؟

قال : إنني أقدم شيكاً بخمسين ألف فرنك لمن يعيد الرسالة .

فأجابه دوپان بعد أن عدل من جلسته : أخرج دفتر الشيكات أيها الرئيس ، وحرّر لي شيكاً بخمسين ألف فرنك لأسلمك الرسالة !

فأخذتني الدهشة لهذه المفاجأة التي لم أكن أتوقعها أبداً ، أمّا رئيس الشرطة فقد صُعق تماماً ، وظل دقائق معدودات عاجزاً عن الكلام ، وهو يتفرّس في وجه صديقي غير مصدق ما سمعته أذناه ، وقد فغر فاه ، وجحظت عيناه من محجريهما . . وبعد أن ثاب إلى رشده ، أخرج دفتر الشيكات وحرّر شيكاً بخمسين ألف فرنك باسم دوپان وسلمه إياه ، فأسرع صديقي وناوله الرسالة المسروقة ، فقلّبها رئيس الشرطة بيد مرتجفة ، ثم هب كالمذعور وخرج من المكتب دون أن يفوه ببنت شفة .

ولـمّا ابتعد السيد (ج) رئيس الشرطة أخذ دوپان يشرح لي قضية هذه الرسالة . قال : إن الشرطة الپاريسية قديرة وماكرة ، وقد اقتنعت تماماً بالتحريات التي قام بها رئيسها من أجل الحصول على الرسالة المسروقة . . . بقدر ما بذله من جهد .

قلت : وماذا تعني بقولك بقدر ما بذله من جهد؟

قال : إن التدابير التي اتخذها رئيس الشرطة ورجاله جيدة بحد ذاتها ، ولو كانت الرسالة في نطاق تحرياتهم لعثروا عليها بكل تأكيد .

فضحكت لملاحظته هذه ، لكنه تابع حديثه قائلاً : أجل ، إن التدابير التي

اتخذت للبحث عن الرسالة كانت موفقة، لكنها لا تنطبق على هذه القضية ولا على السارق.. وعيب رئيس الشرطة أنه كان كثير العمق أو كثير السطحية في تحرّياته.. بل إن تلميذ المدرسة يفضُلُه في نمط تفكيره.. كنت أعرف تلميذ مدرسة في الثامنة من عمره يجيد لعبة (مفرد أو مزدوج) ويخرج منها رابحاً على الدوام، أمّا الطريقة التي كان يتبعها في ذلك فهي إنعام النظر في وجه خصمه، فإن كان يتصنّع البلاهة، أو المكر، أو التعقّل، أو طيبة القلب، جاراه في ذلك ورجع إلى أحاسيسه لتنبئ بما يشعر به خصمه!.. وطريقة هذا الحدس هي أساس العمق المزيف المعزى إلى روشفوكو(*)، ولابوجيف(**)، وماكيافللي(***)، وكامپانيلا(****).

قلت: وعلى ذلك فإن تشخيص ذهنية الخصم تتوقف على الدقة التي تقاس بها هذه الذهنية!

قال: أجل، ومن هنا أستنتج أن رئيس الشرطة ومساعديه قد أخفقوا في التشخيص أولاً، ولم يحسنوا قياس ذهنية خصمهم ثانياً.. وقد اعتمدوا على مهارتهم لا أكثر.. وعيبهم في هذه القضية أنهم لم يحاولوا تغيير المبادئ التي يتبعونها في تحقيقاتهم، فهم إذا اضطرتهم الأحداث الطارئة أو المكافأة المغرية، يعمدون إلى توسيع نطاق أبحاثهم دون أن يمسوا مبادئهم الأساسية، فما الذي فعلوه في قضية الوزير؟.. لقد فحصوا الأشياء ودققوا فيها، ولمسوها، وقسموا الغرف إلى مربعات واستعملوا المجهر.. أي أنهم بالغوا في تطبيق مبدإ واحد مبني على الحذق البشري، في حين أن البحث عن الرسالة يتطلب عناية، وصبراً، وحزماً... فالرسالة كانت مخبأة ضمن النطاق الذي كان يبحث فيه رئيس الشرطة، فلو كيّف هذا الرئيس مبادئه

(*) فرنسوا دو لا روشفوكو (١٦١٣ ـ ١٦٨٠): سياسي وأديب فرنسي.

(**) La bougive لم أعثر على ترجمة له في المراجع التي عدت إليها.

(***) نيكولو ماكيافللي (١٤٦٩ ـ ١٥٢٧): سياسي وأديب وفيلسوف إيطالي. اشتهر بكتابه «الأمير» عرض فيه مذهبه السياسي وآراءه في الحكم.

(****) تومازو كامپانيلا (١٥٦٨ ـ ١٦٣٩): فيلسوف وشاعر إيطالي وراهب دومينيكي. قاوم الفلسفة المدرسية وانتقد تسلط الكنيسة. قضى ٢٧ سنة في السجن.

وفقاً للمبدإ الذي أُخفيت فيه الرسالة لعثر عليها . . والأمر الذي قاده إلى الإخفاق التام افتراضه بأن الوزير أحمق لأنه ينظم الشعر . . واقتناعه بأن جميع الحمقى هم من الشعراء ! . .

قلت : وهل الوزير شاعر حقاً؟ فالذي أعرفه عنه وعن شقيقه أنهما يتمتعان بشهرة أدبية . . لكنه هو شخصياً ينزع إلى الرياضيات وليس إلى الشعر !

قال : إنه ينزع إلى الاتجاهين معاً . . ويكون صائب التفكير إذا ما فكر كشاعر ورياضي معاً ، لكنه يتخبط في تفكيره إذا ما نظر إلى الأمور نظرة رياضية بحتة ! . .

قلت : إن رأيك هذا مستغرب حقاً ، فالمعروف دائماً أن العقل الرياضي هو العقل الممتاز !

قال : يذكرني اعتراضك هذا بقول شامفور(*) : «يبدو أن الأفكار العامة ، والمواثيق الشاملة ، هي ضرب من السخافة لأنها تصلح لعدد كبير من الناس» . . فثق يا عزيزي أن الرياضيين قد بذلوا كل ما في وسعهم لنشر الأخطاء العامة على اعتبار أنها حقائق ، ومن ذلك دسّهم كلمة «التحليل» في علم الجبر . . والفرنسيون هم واضعو أصول هذه الخدعة .

فقلت له : يبدو لي أنك تشاجرت مع علماء الجبر في باريس . . وعلى كل حال ، تابع حديثك .

قال : لقد ناقشت قيم البراهين التي لا تقوم على المنطق المجرد . . وناقشت بصورة خاصة العلة المستخرجة من الدراسة الرياضية . . فالرياضيات هي علم الأشكال والكمّيات ، والتعليل الرياضي هو منطق مجرد يلجأ إليه عند النظر إلى هذه الأشكال والكميّات ، وحقائق الجبر هي حقائق غامضة وعامة ، ونسبية الشكل والكمية لا تنطبق على نسبية المعنويات .

فالذي أريد قوله هو أن الوزير لو لم يكن رياضياً لما اضطر رئيس الشرطة

(*) (١٧٤١ ـ ١٧٩٤) أديب ومسرحي فرنسي ، كان مرضيّاً عنه في البلاط لكنه شارك في اقتحام الباستيل ، وعندما رأى نفسه مهدداً بالقبض عليه ضرب نفسه بالرصاص وطعن نفسه ، ثم مُدّ في أجله حتى ١٣ نيسان/ أبريل ١٧٩٤ .

إلى أن يمنحني المكافأة . . وإنني أعرف هذا الوزير كشاعر ورياضي ، كما أعرفه كأحد رجال الحاشية الذين يجيدون حبك الدسائس ، وهو شخص لا تغيب عنه الأساليب البوليسية ، وكان يتوقع ، ولا ريب ، أن تنصب له الفخاخ ليلاً ، وأن تجري الشرطة التفتيش في منزله بين حين وحين . . وقد تعمّد التغيّب عن البيت كل ليلة حتى يوهم رئيس الشرطة بأن الرسالة ليست في منزله وإنما في مكان آخر .

وهكذا فقد استنتجت أنا شخصياً بأن الرسالة لم تخرج من دار الوزير ، فهو يريدها أن تكون تحت متناول يده للاستفادة منها في الظروف المواتية .

ثم خرجت بنتيجة منطقية ثانية وهي أن الوزير يرى أن عدم إخفاء الرسالة هو أفضل طريقة لإخفائها !

وإذا تشبّعت بهذه الآراء توجهت إلى منزل الوزير ذات صباح ، وقد وضعت على عيني نظارة خضراء ، فوجدته مستلقياً على كرسي طويل يتثاءب ويشغل نفسه بأعمال تافهة ، ويتظاهر بأنه في أقصى حالات السأم والملل .

ورحّب بي كصديق قديم ، وتحدثت إليه في مواضيع مختلفة دون أن أرفع النظارة عن عينيّ بداعي التعب ، ثم أخذت أفحص حذراً كل شيء يقع تحت نظري . . وقد استرعت انتباهي بصورة خاصة طاولة الكتابة التي كان يجلس إلى جانبها ، والأوراق والرسائل الكثيرة المبعثرة عليها ، إلى جانب آلتين موسيقيتين وبعض الكتب .

وأخيراً ، وبينما كنت أجيل النظر في الغرفة ، رأيت شبكة مخرمة من المعدن معلقة على الجدار تستعمل لحفظ البطاقات ، وعليها خمس بطاقات أو ست ، ورسالة متلبّدة وقذرة معنونة باسم الوزير ، يستدل من خطها أنها كتبت بيد امرأة . . واستقر رأيي على الفور أن هذه الرسالة المهملة والمعروضة تحت النظر إنما هي الرسالة المسروقة نفسها . لكنها كانت تختلف في مظهرها عمّا وصفه رئيس الشرطة ، فهي هنا موجهة إلى الوزير ، وهي هناك موجهة إلى شخصية ملكية . . ثم إن قذارة الرسالة ، وحالة التلف التي هي عليها ، لا تتفق مع ما عرف عن الوزير من ميل إلى حسن الترتيب . .

فوضع الرسالة الشاذ هذا قد أكد لي صحة استنتاجي السابق وهو أن عدم إخفاء الرسالة أفضل طريقة لإخفائها .

ولـمّا أنعمت النظر في الرسالة تبيّن لي من طياتها البارزة أنها مقلوبة إلى الداخل ، وأن العنوان المخطوط عليها إنما هو عنوان جديد ومصطنع . . فاكتفيت بهذه النتيجة وودعت الوزير تاركاً على طاولته علبة سعوطي الذهبية .

وزرته في اليوم التالي بحجة البحث عن علبة السعوط ، وفيما كنا نثرثر في أمور شتى سمعنا صوت طلق ناري صادر من تحت شرفة المنزل وجلبة نساء وأطفال ، فأسرع الوزير إلى الشرفة ليستطلع الخبر ، فاغتنمت الفرصة وانتزعت الرسالة من مكانها واستبدلتها برسالة مزيفة شبيهة بها . . ولـمّا عاد الوزير سألته عما حدث فقال إنه رجل معتوه وسكّير قد أطلق عياراً في الهواء ، وأفزع النسوة والأطفال ثم سار في دربه ، وواقع الحال أنني كنت قد استأجرت هذا الرجل ولقنته ما عليه أن يفعله .

فقلت له : ولكن ما الذي حملك على وضع رسالة مزيفة بدلاً من الأصلية وكان بوسعك أن تستولي عليها في زيارتك الأولى للوزير؟

فأجاب دوپان : الوزير «د» رجل عصبي ، فلو اغتصبت الرسالة لما تركني أخرج من منزله حياً . . ثم إنني أهدف من استعادة الرسالة إلى إسداء خدمة سياسية للشخصية الملكية وأنا شخصياً من أنصارها . . وبينما كانت هاته الشخصية تذعن للوزير خلال ثمانية عشر شهراً أصبح هو الآن يذعن لها دون علمه . . فهو يعتقد أن الرسالة لا تزال في حوزته وهي تسخر منه وتكشف الستار عن دسائسه إلى أن تقضي عليه سياسياً قضاءً مبرماً .

قلت : وهل كتبت شيئاً في الرسالة المزيفة؟

قال : إن ترك الرسالة بيضاء يعد إهانة للوزير الخطير . . وأذكر بهذه المناسة أنه قد أساء إليّ مرة ونحن في ڤيينا ، فقلت له ممازحاً سأحفظ هذه الإساءة دائماً ! . . . ولما كان يعرف خطي جيداً فقد رأيت أن الفرصة سانحة لأن أكتب له في الرسالة المزيفة هذه العبارة : «إن لم تلائم النية المشؤومة (إثره) فإنها تلائم ولا شك تييست» ! .

وأنت تجد هذه العبارة في كتاب كريبيون (إثره وتييست) .

القلب الواشي

أعترف لكم أنني عصبيٌّ جداً ، هذا صحيح ! عصبيٌّ بشكل مرعب ! نعم ، كنت هكذا دائماً ؛ لكن لماذا تزعمون أنّني مجنون؟ لقد شحذَ المرض حواسي ـ لكن لم يدمّرها ـ لم يفلّ من حدّتها . صارت حاسّةُ سمعي أكثر رهافةً من حواسي الأخرى . سمعت همسات السماء والأرض كلّها . سمعت همهمات كثيرة من الجحيم . كيف أكون ، إذاً ، مجنوناً؟ انتبهوا ؛ ولاحظوا بأية دقة ، بأيّ هدوء ، أستطيع أن أروي لكم الحكاية كلها .

يصعب عليّ أن أقول لكم كيف خطرت لي الفكرة أوّلاً ؛ لكن ، منذ أن خطرت ، لم تفارقني ليلَ نهار . لم يكن لها هدف . لم يكن جموحها بلا غاية . كنت أحبّ ذلك الشيخ البسيط . لم يؤذني قط . لم يوجّه إليّ أيّة إهانة . لم يكن يغريني ذَهَبُهُ بأي حال من الأحوال . أظنّ أنها عينه ! بلى عينه . كانت إحدى عينيه تُشبه عينَ العُقاب ـ عين زرقاء كامدة ، وعليها غشاوة . كان دمي يجمد كلّما نظرت إلى هذه العين ، وهكذا ببطء ـ وبالتدرّج ـ صممت أن أقضي على حياة هذا الشيخ وأتخلّص من عينه بهذه الوسيلة إلى الأبد .

وهذه هي العقدة الآن ! تحسبونني مجنوناً . المجانين لا يفقهون شيئاً . لكن ، لو أنّكم رأيتموني ! لو أنكم رأيتم بأية حكمة تصرّفت ! بأي حذر ، بأي تبصر ، بأيّة مداهنةٍ باشرت العمل !

لم أكن عزيزاً على الشيخ يوماً كما كنت طوال الأسبوع الذي سبق مقتله . في كلّ ليلة ، حوالى منتصف الليل ، كنت أرفع مزلاج بابه وأفتحه ـ أوه ـ بهدوء تامّ ؛ وحينذاك عندما أكون قد فتحته ، بما يسمح لرأسي بالعبور ، أدخل مصباحاً خافتاً ، محكم الإغلاق ، بحيث لا يتسرّب منه أيّ شعاع ؛ ثم أدخل رأسي ، أوه ! كنتم ستضحكون لو رأيتم بأيّة مهارة أدخل رأسي ! كنت أحركه ببطء ـ بمنتهى البطء ـ كي لا أفسد على الشيخ نومه . كانت تلزمني ساعة كاملة لكي أُدخل رأسي كله من خلال فتحة الباب ، قبل أن أتمكّن من رؤيته نائماً في سريره . ها ! هل للمجنون مثل هذه

الفطنة؟ وحينذاك عندما يكون رأسي قد ولج إلى الغرفة، كنت أفتح كوّة المصباح بحذر! لكن، أي حذر، أي حذر! لأنَّ مفصّلة بابه كانت تصرف. كنت أفتحها بحيث تسقط شبكة دقيقة جداً من الضوء على عين العقاب. وهذا ما فعلته على مدى سبع ليال طويلة ـ تماماً في منتصف كل ليلة ـ غير أنني كنت دائماً أجد العين مطبقة؛ وهكذا كان يستحيل عليَّ أن أكمل المهمّة؛ إذ لم يكن الشيخ هو الذي يغيظني، بل عينه العقابية. وفي كل صباح، عندما يأتي النهار، كنت أدخل غرفته بشجاعة، وأتحدَّث إليه بجرأة، أناديه باسمه بلهجة ودية، سائلاً إيَّاه كيف أمضى ليلته. لو ظنَّ أنني كنت أراقبه في منتصف كل ليلة، في أثناء نومه، لكان شيخاً بعيد النظر.

في الليلة الثامنة كنت أكثر احترازاً من ذي قبل في فتح الباب. كان عقرب الساعة ينبض أسرع ممّا تنبض يدي. لم أشعر قط قبل هذه الليلة بكل اتساع مواهبي ـ وعلمي ـ كدت لا أضبط شعوري بالظفر. أتصوَّر، أنني هناك، أفتح الباب رويداً رويداً، وأنَّ الشيخ لم يكن يحلم حتى بما أفعله، ولا بأفكاري المبيّتة! ثم أطلقت لهذا التصوُّر ضحكة صغيرة؛ ولعلَّه سمعني، إذ إنَّه تحرَّك فجأة في سريره، كما لو أنه يستيقظ. لعلّكم الآن تظنّون أنني عدت أدراجي؛ ـ أبداً. كانت غرفته على حالها سوداء كالزفت، ما دام هذا الظلام كثيفاً، لأنَّ المصاريع كانت مغلقة بعناية، خوفاً من اللصوص، فلمّا عرفت أنه لم يكن يستطيع أن يرى فتحة الباب تابعت دفعه شيئاً فشيئاً.

أدخلت رأسي، وكنت على وشك أن أفتح كوّة المصباح، حينما انزلق باهمي فجأة على قفل التنك، وانتفض الشيخ في سريره صارخاً: «مَن هناك»؟.

لبثت جامداً ولم أتفوه بكلمة. لم أحرِّك عضلةً طيلة ساعة كاملة، ولم أشعر طيلة هذه الساعة أنه عاد إلى النوم. كان لا يزال في جلسته يصغي تماماً كما فعلت طيلة ليال كاملة، أصغي إلى ساعات الموت في الجدار.

وفجأة إذا بي أسمع أنيناً ضعيفاً، وتبيَّن لي أن هذا أنين رعب مميت. لم

يكن أنين ألم أو حزن ـ أواه! كلاً ـ كان صوتاً مخنوقاً يرتفع من أعماق روح مثقلة بالذُّعر. كنت أعرف هذا الصوت جيداً. كثيراً ما تصاعد من أعماقي أنا، في ليال عديدة، في منتصف الليل تماماً، والعالم كله ينام ـ تصاعد نابشاً بصداه الرهيب الأهوال التي كانت تختلج في داخلي. أقول كنت أعرفه جيداً. كنت أعرف أي شيء يعانيه الشيخ، وكنت أشفق عليه على الرغم من أنني كنت أضحك في سري. كنت أعرف أنه بقي متيقظاً، منذ الصوت الضعيف الأول عندما تحرَّك في سريره. كانت مخاوفه تتزايد باستمرار. حاول أن يقتنع أنها كانت بدون سبب، لكنه فشل. كان يقول في نفسه: «لا شيء غير الريح في المدخنة، لا شيء غير فأرة تعبر فوق السطح الخشبي»؛ ـ أو «إنه جدجدٌ صَفَر ولا شيء غيره». نعم، لقد اجتهد أن يتحصّن بفرضياته؛ إلاّ أن هذا كله كان عبثاً، كان كلّ شيء عبثاً. لأن الموت الذي كان يقترب عبر أمامه بظله الأسود الكبير، ولفَّ ضحيته. كان الأثر المأتمي للظل غير المرئيّ هو الذي جعله يشعر ـ وإن كان لا يرى ولا يسمع شيئاً ـ جعله يشعر بوجود رأسي في الغرفة.

ولـمّا طال انتظاري وصبري، دون أن أشعر أنه عاد إلى النوم، قرّرت أن أزيد نور المصباح قليلاً، لكن بأقل مقدار ممكن. فتحته إذاً ـ خفيةً، خفيةً بحيث تعجزون عن تصوّر ذلك ـ إلى أن نفذ أخيراً من الشق شعاع وحيد واهن، واهن كخيط العنكبوت، وسقط على عين العقاب.

كانت مفتوحة ـ مفتوحة تماماً. دخلت مذعوراً حالما لمحتها. رأيتها بوضوح تام ـ زرقاء كامدة تستتر بغطاء شنيع جمّد اللبّ في عظامي؛ غير أنني لم أستطع أن أرى غير ذلك من وجه الشيخ أو شخصه، لأنني وجهت الشعاع، غريزياً، فوق المكان المقيت تماماً.

والآن، أما قلت لكم إن ما كنتم تحسبونه جنوناً ليس إلاّ إفراطاً في الحساسية؟ ـ الآن، أقول لكم، طرق أذنيّ صوت أصمّ، مخنوق، متواتر، يشبه الصوت الذي تحدثه ساعة محاطة بالقطن. عرفت هذا الصوت جيداً. كان نبض قلب الشيخ. لقد زاد في رعبي كما تزيد دقات الطبل في شجاعة الجندي.

بيد أني تمالكت نفسي أيضاً ، وبقيت دون حراك . حبست أنفاسي تقريباً . كان المصباح ثابتاً في يدي . كنت أجتهد أن أبقي الشعاع باتجاه العين . وفي الوقت ذاته كان نبض القلب الجهنمي يخفق بوتيرة متزايدة . كان يتسارع شيئاً فشيئاً ، ويتعالى في كل لحظة . لا بدّ أن ذعر الشيخ كان في ذروته . قلت إن هذا الخفقان كان يزداد شدة في كل دقيقة ! ـ هل تتابعونني جيداً؟ قلت لكم إنني كنت عصبيّاً ، وأنا عصبي في الواقع . والآن ، في هدأة الليل ، وسط السكون المريع في هذا البيت القديم ، يملأ هذا الصوت الغريب روحي برعب لا يقاوم . تمالكت نفسي أيضاً بضع دقائق وبقيت هادئاً . غير أن الخفقان كان يشتدّ ، يشتد باستمرار ! كنت أعتقد أن القلب سينفجر . وها هي حسرة جديدة تستولي علي : ـ يستطيع الجار أن يسمع الصوت ! كانت ساعة الشيخ قد جاءت ! بزعقة هائلة فتحت المصباح فجأة ودخلت إلى الغرفة . لم تصدر عنه إلاّ صرخة ـ صرخة واحدة . في لحظة واحدة ألقيته أرضاً ، ورميت فوقه السرير بأثقاله الساحقة كلها . إذّاك ابتسمت مسروراً ، وأنا أرى مهمتي تكتمل بسرعة . غير أن القلب خفق بصوت ضعيف خلال بضع دقائق . ومع ذلك لم أنزعج ، لأنه لم يكن يسمع عبر الجدار . ثم توقف . مات الشيخ . رفعت السرير وتفحّصت جسمه . بلى ، كان جثة ، جثة هامدة . وضعت يدي على قلبه وأبقيتها عدة دقائق . لا نبض فيه . كان جثة هامدة ولن تعذّبني عينه بعد هذه اللحظة .

إذا كنتم تصرّون على اعتباري مجنوناً ، فإن هذا التصوّر سيتلاشى عندما أصف لكم الاحتياطات الحكيمة التي قمت بها لإخفاء الجثة . كان الليل يتقدم ، فعملت بنشاط ، لكن بصمت . قطعت الرأس ثم الذراعين ثم الساقين .

انتزعت ثلاث خشبات من أرض الغرفة ، دفنت هذه القطع ، وأعدت الخشبات إلى مكانها ببراعة وحذق لا تفسحان في المجال لأي عين ، حتى عيني أنا ، أن تشكّ بأي شيء . لم يكن هناك أي شيء لأغسله ـ لا لطخة ، لا بقعة من الدم . فطنت جيداً لهذا . وعاء صغير امتص كل شيء ـ ها ! ها !

عندما أنهيت هذه الأعمال كلها ، كانت الساعة تقارب الرابعة ، وكان الظلام لا يزال مهيباً كما في منتصف الليل . وبينما كانت الرابعة تدقّ ، كان الباب يقرع من الخارج . نزلت لأفتح غير مكترث ـ إذ ماذا أخاف الآن؟ دخل ثلاثة رجال وقدّموا أنفسهم بمنتهى الأدب كضباط في الشرطة . كان أحد الجيران قد سمع صرخة خلال الليل ولّدت لديه الشك بوقوع حادث سيئ ، ونقل الخبر إلى مركز الشرطة ، وهؤلاء السادة الضباط كانوا مرسلين لتفقّد المكان .

ابتسمت ـ إذ ماذا يدفعني إلى الخوف؟ رحّبت بهؤلاء السادة . قلت إن الصراخ صدر عني وأنا أحلم . وأضفت أن الشيخ المسكين مسافر . طفت بالضباط في البيت كله . قلت لهم أن يفتشوا ، وأن يفتشوا جيداً ! أخيراً قدتهم إلى غرفته . أريتهم خزائنه في حرز حريز ، كاملة غير منقوصة . وفي نشوة اطمئناني ، جلبت كراسيّ إلى الغرفة ، ورجوتهم أن يرتاحوا ، بينما وضعت كرسيّي أنا ، بجنون الانتصار الكامل ، فوق المكان ذاته حيث أخفيت جثة الشيخ القتيل .

كان الضباط الثلاثة مقتنعين . أقنعهم تصرّفي . كنت أشعر بالرّاحة على نحو غريب . جلسوا ، تحدثوا عن أشياء عادية كنت أجيبهم عليها بسرور . غير أنني شعرت ، بعد قليل من الوقت ، أنني شحبت ، وتمنّيت أن يذهبوا . كان رأسي يؤلمني . وكان يخيل إليّ أن أذنيّ تدوّيان ، لكنهم ظلوا جالسين ، يتابعون حديثهم . أصبح الدويّ أكثر وضوحاً ؛ استمر وازداد وضوحه ؛ أكثرت من الكلام لكي أتخلص من هذا الشعور ؛ لكن الدويّ اتضح وصار حاسماً . اكتشفت في النهاية أنّ الصوت لم يكن في أذنيّ .

لا ريب أن اصفرار وجهي ازداد آنذاك كثيراً . غير أنني لا أزال أتحدث بمزيد من السرعة وبصوت عالٍ . كان الدويّ يعلو باستمرار . وماذا كنت أستطيع أن أفعل؟ كان صوتاً أصمّ ، مخنوقاً متواتراً ، يشبه الصوت الذي تحدثه ساعة مبطّنة بالقطن . تنفّست بصعوبة . لم يكن الضباط قد سمعوا شيئاً بعد . تكلمت بسرعة أكثر . بمزيد من الحماسة ؛ لكن الصوت كان يشتدّ دون انقطاع . نهضت ، جادلت في تفاهات كثيرة بصوت عالٍ جداً

وحركات عنيفة. لكن الصوت كان يعلو، يعلو باستمرار! لماذا لم يكونوا يريدون الذهاب؟ سرت في أرض الغرفة. هنا، وهناك، ببطء وخطوات مديدة كأنما أغضبتني ملاحظات هؤلاء الذين كانوا يجادلونني. غير أنّ الصوت كان يتزايد بانتظام. يا إلـّهي! ماذا كان بوسعي أن أفعل؟ كنت أرغي ـ أهذر ـ أشتم! كنت أهزّ الكرسي الذي كنت أجلس عليه، وأجعله يصرّ فوق أرض الغرفة، لكن الصوت كان يسيطر دائماً، ويقوى دون توقّف. كان يغدو أقوى أقوى ـ دائماً أقوى! والرجال لا يزالون يتابعون حديثهم، يهزلون ويضحكون. هل كان ممكناً أنهم لا يسمعون؟ أيها الرب القدير! ـ كلاّ، كلاّ! كانوا يسمعون ـ كانوا يشكّون! ـ كانوا يعرفون ـ كانوا يسخرون من رعبي! ـ اعتقدت ذلك، ولا أزال أعتقده. لكن، أيّ شيء كان أهون من هذا العذاب؟ كان باستطاعتي أن أتحمّل كل شيء ما عدا ذلك الهذيان. ما عدت أستطيع أن أتحمّل المزيد من تلك الابتسامات الخبيثة. شعرت أنني يجب أن أصرخ أو أموت! ـ والآن أيضاً هل تسمعونه؟ ـ أصيخوا السمع! إنه أعلى! ـ أعلى! ـ دائماً أعلى! ـ دائماً أعلى!

وصرخت:

« ـ أيها الماكرون! لا تطيلوا كتمانكم أكثر من ذلك! سأعترف بالجريمة! ـ انزعوا هذه الخشبات! إنه هنا! إنه هنا! ـ إنه نبض قلبه المرعب».

الحفرة ورقّاص الساعة

كنت مقيّداً إلى الفراش، أعاني سكرات الموت، فلمّا حلّوا أربطتي رأيت نفسي قادراً على الجلوس، وشعرت أن أحاسيسي تغادرني إلى الأبد.. أمّا الكلمات المخيفة التي نطقوا بها، ووعتها أذناي جيداً، فهي الموت أو الحكم بالموت.. ثم غابت أصواتهم في دويّ متعاقب حالم، أوحى إليّ بأن فكرة الانقلاب مشتركة بالوهم مع الضوضاء الذي تحدثه رحى الطاحون.. ثم ساد السكون ولم أعد أسمع شيئاً.. ورأيت القضاة في أرديتهم السود، وشفاههم الرقاق أكثر بياضاً من الورق الذي أخط عليه هذه الكلمات، لكنها توحي بالعزم والحزم، وهي تتمتم في تقرير مصيري، وتنطق باسمي مقطعاً إثر مقطع.

ورأيت ـ ويا لجزعي ـ الأقمشة السود تخفق على جدران الغرفة.. كما رأيت سبع شمعات تشتعل على الطاولة، فلاحت لي كأنها ملائكة الرحمة تسعى إلى خلاصي.

ثم شعرت روحي بغثيان خانق، وأصابتني رعشة عنيفة كرعشة الذي مسّه سلك كهربيّ، واستحالت أشكال الملائكة إلى أطياف رقيقة وعلى هاماتها شعلات متّقدة، فقطعت الأمل من معونتها تماماً، وبدأت تراودني أحلام عن حياة القبر هي أعذب من ألحان الموسيقى، ثم تلاشت شخوص القضاة، وانطفأت الشموع واختفت، وساد الغرفة ظلام دامس.. وراحت مشاعري تهوي مسرعة إلى أعماق الجحيم. وكان سكون، وجمود، وليل مطبق بهيم.

وأغمي عليَّ لكنني لم أفقد شعوري تماماً.. لا أفقه ماهية الحالة التي كنت فيها، هي ليست هجوعاً، ولا هذياناً، ولا غشياناً، ولا هلاكاً.. فالموت لا يعني أننا فقدنا كل شيء، وإلاّ لما خلد الإنسان... وإذا ما استيقظنا من نوم عميق فإننا نخترق شبكة أحلامنا ولا نذكر ما كنا نحلم به... فبنهوضنا من النوم إلى حال اليقظة نجتاز مرحلتين: الأولى، أننا نستعيد إدراكنا وروحنا، والثانية أننا نستعيد وجودنا الحسّي... ويغلب

على ظني أننا عندما نبلغ المرحلة الثانية نستدعي الانطباعات التي أحدثتها المرحلة الأولى، وعلينا أن نجدها بليغة في خليج الذكريات . . . ولكن ما هو خليج الذكريات هذا؟ . . وكيف نميّز بين ظلاله وظلال القبر؟ . . وإذا ما رفضت انطباعات المرحلة الأولى تلبية الدعوة، حين نرغب فيها، أفلا تأتينا بعد فترة طويلة من الزمن غير مدعوّة ونُسرّ بقدومها؟ . . فالمرء الذي لا عهد له بحالات الإغماء لا يرى القصور العجائبية، ولا يلمح الوجوه الوحشيّة المتقلّبة في نار السعير . . ولا ينفذ ببصره إلى الرؤى الحزينة الحائمة في الجو . . ولا يشم عبير زهور فريدة في نوعها . . ولا تبلغ مسامعه ألحان موسيقية عذبة لا عهد له بها أبداً .

كنت أجهد نفسي لأتذكّر . . كنت أكافح بشدة لأجمع بعض القرائن عن حالة العدم التي سقطت روحي في غيابتها، وكانت هناك لحظات حلمت فيها بالفوز في هذا المضمار، لحظات قصيرة جداً استدعيت فيها ذكريات حالات فقدان الشعور . . وحدثتني أطياف الذكريات هذه عن شخوص مديدة القامة حملتني واجتذبتني إلى الأعماق . . الأعماق البعيدة التي لا نهاية لها حتى أصبت بدوار مروّع . . وحدثتني عن الرعب الذي حلَّ بقلبي حين مسَّه ذلك الجمود غير الطبيعي . . ثم أحسست بسكون مطلق، وكأن الشخوص التي حملتني قد اخترقت حدود اللانهاية، وتوقفت لتشكو السأم من هذا العمل الذي تقوم به . . وكان هناك استواء ورطوبة . . إنه جنون، جنون الذكريات التي تتعثّر بين الأشياء المحرّمة .

ثم عادت الحياة إلى جسدي فجأة، وأخذ قلبي ينبض مضطرباً، وكانت أذناي تردّد صدى نبضه . . وتوقفت الحياة ثانية، ثم عادت وكلها طنين . . وكان شعوراً بلا إدراك، ثم جاء الإدراك يصحبه الروع والفزع، وتملكتني رغبة ملحة لأدرك الوضع الحقيقي لكياني، ثم تشوقت للقفز في عالم اللاشعور، وأحسست بجنوح إلى النشاط والحركة . . . والآن أجدني أذكر جيّداً تلك المحاكمة وأولئك القضاة، والأقمشة السود، والحكم الذي صدر بحقي، والمرض، والإغماء . . . ثم نسيت كل شيء حدث بعد ذلك .

شعرت وأنا مغمض العينين أنني مستلقٍ على ظهري، فأطلقت يدي وإذا

بها تقع على شيء رطب صلب ، ورحت أفكر في المكان الذي حلمت به ، وفي الوضع الذي صرتُ إليه . . وكنت أرغب في فتح عيني والتطلع إلى ما حولي دون أن أجرؤ على ذلك . . ثم تجرأت وألقيت نظرة هنا وهناك فلم أرَ ما يخيفني ، بل لم أرَ شيئاً مطلقاً ، فاستولى عليَّ يأس قاتل وأغمضت عينيَّ ثانية ، وكانت ظلمة الليل السرمدي تضغط عليَّ وتقهرني وأنا أجاهد لأتنفس ، والجو من حولي يشدّد عليّ الخناق ، وبقيت مستلقياً في سكون ، وأنا أحاول جهد المستطاع تحكيم عقلي في حالتي هذه ، فعدت بالذاكرة إلى ساعة التحقيق ، ثم إلى صدور الحكم ، وانقضت فترة طويلة دون أن أعتبر نفسي ميتاً . . فافتراض كهذا لا يتفق مع الحقيقة والواقع ، بالرغم ممّا نطالعه في الروايات من صور شبيهة . . . ولكن ما هذه الحالة التي كنت أعاني منها؟ . . فالذي أعلمه أن المحكوم عليه بالموت يهلك عادة عند تنفيذ الحكم به ، ولقد شاهدت تنفيذ حكم الإعدام بأحد المحكومين في الليلة التي عُقدت فيها محاكمتي تماماً . . فهل أعدت إلى قبوي لأشهد تنفيذ حكم الموت بشخص آخر بعد شهور عديدة؟ . . هذا ما أرتاب فيه لأن الآلة تتطلب المزيد من الضحايا ، أضف إلى ذلك أن أرض قبوي صلدة ، مثل أرض صوامع جميع المحكوم عليهم بالموت في سجن توليدو ، والنور فيه خافت .

وسيطرت عليّ فجأة فكرة مفزعة ، جعلت الدم يتدفق في قلبي تدفّقاً سريعاً ، وغُيِّبت عن الوعي إلى حين . . ولما أفقت من إغمائي نهضت على قدميّ المرتعشتين ، ودفعت ذراعيَّ بانفعال ، ورحت أحركهما في كل اتجاه ، فلم ألمس شيئاً ، لكنني لم أجرؤ على نقل قدمي خطوة واحدة حتى لا أرتطم بجدران القبو ، فتصبب العرق مني غزيراً ، وأمضّتني الحيرة ، فخطوت إلى الأمام حذراً ، ناشراً ذراعي يمنة ويسرة ، وعيناي جاحظتان تبحثان عن بصيص من القبس الضئيل . وسرت بضع خطوات في ظلمة محلولكة ، وفراغ مديد . . . وتنفست الصعداء إذ تيقّنت أنني لم ألقَ المصير المروع .

وتابعت الخطوَ حذراً ، وتزاحمت في مخيّلتي للتوّ الشائعات الخاصة بالرعب السائد في سجن توليدو ، وهناك حكايات عجيبة تروى عن قبو ذلك السجن ، وإنني لأشعر بالتقزّز في ترديدها إلاّ همساً . . . فهل قُدّر لي

أن أهلك من الجـوع والبرد في هذا القبـو المظلم ، أو أن هناك مصـيراً آخر أشد ضراوة ينتظرني؟ . . أما النتيجة الحتمية فهي الموت الأليم . . إنني على علم تام بصفات قضاتي . . وكل ما يشغل فكري هو الحال الذي سأهلك فيه ، والساعة التي سيتم فيها هلاكي .

وأخيراً لمست يداي المنشورتان شيئاً صلباً ، وكان هذا الشيء جداراً حجرياً رطباً ناعم الملمس . . وسرت بمحاذاته حذراً كما أوحت إليّ بذلك بعض القصص القديمة ، غير أنني لم أتأكد من سعة القبو ، فكنت أدور فيه وأعود إلى النقطة التي انطلقت منها . . وتحسّست ثيابي فوجدتها قد أُبدلت بأسمال من الصوف الخشن . . وبحثت عن السكين التي كنت أحملها ، وأنا في غرفة التحقيق ، فلم أجدها ، لأنني كنت أود إدخالها في شق الجدار لأتبيَّن نقطة الانطلاق . . . ثم عدت إلى قطع أجزاء من كفافة ثوبي ، ووصلتها ببعضها في الطول وجعلتها مقياساً لجدران السجن . . وسرت على هذا النحو على أرض رطبة زلقة ، وتعثّرت ، وسقطت أكثر من مرة ، ولم أبلغ غايتي بسبب ضعفي أو بسبب وساع القبو ، وفي النهاية انهارت قواي ، وسقطت على الأرض ، واستسلمت إلى سلطان النوم .

ولما استيقظت ثانية أخذت أتلمّس ما حولي فوقعت يدي على رغيف وإبريق فيه ماء ، فأكلت بنهم وشربت ، ثم نهضت وتابعت قياس القبو ، وكنت قبل سقوطي قد قست اثنتين وخمسين خطوة ، ثم قست ثمانياً وأربعين خطوة جديدة ، وخطوتين أخريين للفناء ، فكانت في مجموعها مائة وخطوتين ، أي ما يعادل خمسين ياردة لدائرة القبو ككل .

لم أرم إلى أمر مهمّ من هذا البحث ، وإنما هو الفضول الذي دفعني إليه . . فلمّا انتهيت من قياس دائرة القبو عزمت على أن أعبره للتو ، وسرت بحذر شديد خشية الانزلاق على أرضه الصلدة . . وما إن تقدمت بضع خطوات حتى تعثّرت قدماي بأجزاء كفافة ثوبي ، وانكفأت على وجهي بعنف .

مضت ثوان معدودات وأنا مضطرب الفكر من أثر السقوط ، قبل أن ألحظ شيئاً عجيباً . . كانت ذقني قد مست أرض القبو ، وأمّا شفتاي والقسم

الأعلى من رأسي فلم تمس شيئاً . . . وأمّا جبيني فكان يستحم في بخار لزج ورائحة كما عفن تعبق في منخريّ . . فمددت ذراعي إلى الأمام ، فأصابتني رعشة إذ وجدت نفسي على حافة حفرة لم أدرك مدى عمقها لأول وهلة . . وانتزعت قطعة الجص قبل أن يرتد صداها وهي تسقط في الماء الآسن . . وسمعت في اللحظة عينها وكأن باباً قد فُتح فوق رأسي وأغلق على عجل ، وقد تسرب منه شعاع وضّاء واختفى فجأة .

وأدركت على الفور ماهية الميتة التي أُعدَّت لي ، فهنأت نفسي على خلاصي من الهلاك في الوقت المناسب . . فلو خطوت خطوة أخرى لسقطت في الهوة ، واختفيت إلى الأبد . . فالميتة التي تحاشيتها ذكّرتني بأساليب محاكم التفتيش وفظائعها . . فقد كانت تفرض على ضحاياها إحدى ميتتين : إمّا الموت مع الألم الجسماني الشديد ، وإمّا الموت مع الفزع المعنوي الهائل . . وكان عليّ أن أموت وفقاً للطريقة الثانية ، فانهارت أعصابي ، وصرت أرتعش من صدى صوتي ، وتحوّلت إلى مادة ملائمة للعذاب الذي ينتظرني .

وتقهقرت وأنا أرتعد فرقاً ، وقد آثرت الهلاك عند الجدار بدلاً من أن أموت في غيابة الحفرة المروعة . . وقد خيّل إليّ أن أمثال هذه الحُفَر كثيرة في القبو . . والحق يقال إنني لو كنت في غير هذه الحالة المعنوية التي أعانيها لوجدت في نفسي الجرأة لأن أقفز إلى الحفرة ، وأضع حداً لبؤسي دفعة واحدة . . لكنني كنت أكثر جبناً من جبان . . زد على ذلك أنني لم أنسَ ما طالعته عن حفر محاكم التفتيش ، حيث الحياة لا تنطفئ فيها مرة واحدة .

وظللت مستيقظاً الساعات الطوال من شدة الانفعال ، ثم غفوت ، ثم استيقظت ثانية فوجدت إلى جانبي رغيفاً وإبريقاً فيه ماء ، فأفرغت الماء في جوفي المتهب ، والنعاس يغالبني ، ونمت كالميت ، وأنا لا أدري كم استغرق هذا النوم من وقت ، ثم استيقظت للمرة الثالثة ، وإذا بشعاع فوسفوري ، خفيّ المصدر ، يضيء قبوي ، ويوضح شكله واتساعه .

وأول ما اتّضح لي هو خطئي في قياس دائرة القبو ، لقد كانت لا تزيد

على خمس وعشرين ياردة ، والسبب في هذا الخطإ أنني أحصيت خمساً وعشرين ياردة وأنا أدور حول جدران السجن ، ثم زلقت قدمي وغفوت ، ولـمّا صحوت عدت أدراجي من حيث بدأت وأحصيت الذي أحصيته مرة أخرى .

ولقد خدعت أيضاً بشكل القبو فكان مربعاً ، ورأيت هناك زوايا عديدة تتخلّلها فجوات ، أما جدرانه التي تصورتها حجارة فلم تكن سوى حديد ، أو نوع آخر من المعدن ، وعلى شكل صفائح ضخمة ، فتراءى لي السجن والحالة هذه مروعاً منفراً . . وكانت هناك شخوص الشياطين المخوفة ، وهياكل الموتى ، وغيرها من الهيئات المرعبة ، تنتشر عند الجدران وحول الزوايا ، جلية الصورة ، لكن ألوانها باهتة كأن عليها غشاوة ناتجة عن الجو الرطب . . أما أرض القبو فكانت من الحجر ، تتوسطها الحفرة المستديرة التي نجوت منها ، ولم يكن من حفرة سواها .

فكل ما رأيته إذاً كان غامضاً مستغلقاً . . وجدت نفسي مستلقياً على ظهري . . وقد قُيّدت بالسيور إلى سرير خشبي ، وهي ملتفة حولي أكثر من مرة ، ولم يتحرّر منها سوى رأسي ويدي ، حيث أستطيع ، بعد إجهاد شديد ، تزويد نفسي بالطعام من صحن فخاري كان إلى جانبي ، لكن ـ ويا لرعبي ـ لم أجد إبريق الماء وأنا أكاد أهلك من العطش ، ومعذبيَّ قد تعمّدوا ذلك لأنهم قدموا لي لحماً مدهناً يستدرّ العطش .

وتطلّعت إلى سقف سجني فكان علوه ثلاثين أو أربعين قدماً تقريباً ، ومادته المعدنية مثل مادة الجدران ، واسترعت انتباهي إحدى صفائح السقف بصورة خاصة ، فقد رُسم عليها الشخص الذي يمثل الموت لكنه لم يمسك بيده المنجل وإنما رقّاص ساعة ضخماً ، فسددت نظري إلى هذا الرقّاص ، أو الذي تراءى لي أنه رقاص ، ورحت أتفحصه باهتمام زائد ، وإذ بي أراه ، وهو فوقي مباشرة ، يتحرّك جيئة وذهاباً ، فداخلني الرعب ، إلى أن سئمت من حركاته البطيئة المملة ، فحولت نظري عنه إلى الأشياء الأخرى التي يحتويها السجن .

وسمعت أصواتاً خافتة ، فإذا هي صادرة عن جرذان عديدة تخرج من

الحفرة في جماعات ، وهي تسرع الخطى ، وفي عيونها بريق ، وقد أثارتها رائحة اللحم المتصاعدة من الصحن .

وانقضت نصف ساعة ، أو ساعة ، إذ لم يكن بوسعي تحديد الوقت قبل أن أتطلع إلى السقف ثانية ، فرأيت ما يدهشني ويذهلني ، رأيت هزة رقاص الساعة تشغل مساحة باردة في الهواء ، وأن هذا الرقاص ، وطوله من القرن إلى القرن قدم واحدة ، آخذ بالانحدار نحوي ، وقد انعقف طرفاه إلى فوق على شكل هلال معدنيّ براق ، ومسنون كالسكين الثقيلة ، تقبض عليه يد من النحاس الثقيل أيضاً .

لم أعد أرتاب في نوع العذاب الذي أعدّه لي رجال محاكم التفتيش ، فالحفرة هي المكان المخصّص للهراطقة(*) من أمثالي ، هو أنموذج لجهنم ، هو «الحد الأقصى» لعقوبات محاكم التفتيش . . ولم أنجُ منه إلاّ من طريق المصادفة ، لأن الهلاك في هذا القبو يرافقه عذاب نفسي دائم ، وتتخلله مباغتات ومفاجآت ، فعدم سقوطي في الحفرة يعني في الواقع أن الشياطين قد أعدّوا لي ميتة أخرى ألطف من هذه الميتة . . . قلت ألطف وأنا أبتسم لاستخدامي هذه الكلمة بالرغم من حالة النزع التي كنت أغالبها .

وأي عذاب أفظع من تلك الساعات المميتة التي قضيتها وأنا أعد اهتزازات الرقّاص المروع . . كنت أعدها بوصة فبوصة ، خطأ فخطأ ، وهي تنحدر إليَّ شيئاً فشيئاً . . وانقضت الأيام والرقاص يتأرجح فوقي ، وهو يرسل نفثاته المعدنية المروعة ، فتنفذ إلى خياشيمي شرسة وحشية . . وكنت أتوسل إلى السماء أن تسرع في إنزال الرقّاص عليّ ، ولقد مسّني عارض من الجنون فصرت أجهد نفسي لأرتفع نحو الرقاص ، أو السيف المعقوف ، وأحتك به . . وأخيراً خارت قواي ، واستسلمت إلى الدعة ، وأنا أبتسم لهذا الموت المتلألئ ، كما يبتسم الطفل لدمية جديدة يُهداها .

وأعقب ذلك كله فترة من فقدان الشعور التام ، ولكنها فترة قصيرة ، ثم تلتها العودة إلى الوعي ، وأول ما استرعى انتباهي أن الرقّاص قد توقف عن الانحدار . . وإني لأعزو ذلك إلى معذبِيَّ الذين لحظوا وقوعي في الغيبوبة ،

(*) الهَرْطَقة عند النصارى البدعة في الدين والنسبة إليها هَرْطوقي .

فأوقفوا الرقّاص القاتل إلى حين . . . أجل عدت إلى وعيي ، وكنت مريضاً خائر القوى . . ولما كان الإنسان بطبيعته لا يتخلى عن الطعام ، حتى في حالات النزع ، فقد مددت ذراعي بقدر ما يسمح به وثاقي وأخذت ما أبقته لي الجرذان من بقيّة ، ولما وضعته بين شفتي داخلني شعور من الفرح والأمل . . ولكن ما هو هذا الأمل الذي يداخلني؟ . . وسرعان ما تلاشى هذا الشعور وعبثاً حاولت استعادته . . فالآلام المتعاقبة قد أوهت قواي العقلية ، وأمسيت أبله معتوهاً .

واستمرّ الرقاص في حركته ، وقد كان مسدَّداً إلى قلبي مباشرة ، على أن يمزّق لباسي الخشن ، ويروح ويجيء ليحز جسمي حزاً ، إنه يتمتع بقوة هائلة ، فلو أصاب جدران القبو الحديدية لشطرها نصفين .

وتدلّى الرقاص أكثر فأكثر ، وكان يعتريني سرور جنوني وأنا أرقب انحداره بسرعته الجانبية . . وهو يتجه يمنة ويسرة ، بُعداً واتساعاً ، وصرخاته الشيطانية تمزق قلبي ، وكأنها نمر يسترق خطاه ويتحفز للانقضاض على فريسته ، وأنا أرد عليه ضاحكاً حيناً ومنتحباً حيناً آخر .

ثم تدلى الرقاص أيضاً بتؤدة وثبات ، وكان يهتز على بعد ثلاث بوصات من قلبي . . وجاهدت بشدة لإطلاق ذراعي الأيسر ، فتمكنت من تحريره من القيد من ناحية الكوع إلى الكف ، فيا ليتني استطعت إطلاق ذراعي كله لأوقف الرقاص عن التدلي ، ولكن هذه المحاولة أشبه بمحاولة من يريد إيقاف كتل الثلج المنهارة من جبل جليدي .

ثم إنه تدلّى دونما إبطاء . . ونت ألهث محتضراً إزاء اهتزازاته ، وأنكمش أمام اندفاعاته ملتاعاً يائساً ، وبودي لو يجيئني الموت مسعفاً منقذاً . . وظللت أرتعش وأنا أرى السكين تقترب من قلبي رويداً رويداً ، لكنني لم أفقد الأمل ، الأمل الذي يتردد إلى نفس المرء وهو على عجلة سحق أضلاع المجرمين ، الأمل الذي يهمس في أذن المحكوم عليه بالموت حتى ولو كان رهين سجن محاكم التفتيش .

وما هي إلاّ عشر ، أو اثنتا عشرة ، اهتزازة ويكون الرقاص قد مسّ ثوبي ، واستولى عليّ سكون اليأس ، وأخذت أعمل الفكر لأول مرة ، ووجدت

نفسي مقيّداً بقيد واحد . . خيّل إليّ أن أول ضربة من الرقاص الحاد ستقطع وثاقي ولا تصيبني بمكروه ، ولكن اقتراب السكين مني روّعني ، وإن أية مقاومة أبديها ستسرع في القضاء عليّ . . أيحتمل أن يكون معذبيَّ قد أخذوا بعين الاعتبار أصغر التفاصيل أيضاً؟ أيحتمل أن يكونوا قد جعلوا وثاقي بعيداً عن سقوط الرقاص؟ . . ورفعت رأسي قليلاً لألقي نظرة على صدري ، فرأيت السيور تطوّقني من كل جانب ، باستثناء الطريق الذي يمر منه الرقاص القاتل ! . .

وما إن أعدت رأسي إلى حالته الأولى ، حتى راودتني فكرة الخلاص التي لمحتها حين وضعت اللقمة بين شفتي الملتهبتين ، فالفكرة هذه ضعيفة الاحتمال ، غير محدودة ، لكنها لا تزال قوية في مخيلتي ، ورحت أسعى إلى تنفيذها بعصبية يائسة .

كان السرير الخشبي الذي قُيِّدت إليه مزدحماً بالجرذان الجريئة الضارية ، وهي تسدد إليَّ نظراتها البرّاقة ، وكأنها تنتظر خمود الحياة في جسدي لكي تجعلني طعامها المستساغ . . طعامها الذي اعتادت عليه في الحفرة المروعة .

لقد التهمت الجرذان كل ما تبقّى من طعام في الصحن ، وكنت أحاول جاهداً إبعادها عني ، إلاّ أنها كانت تتغلب عليّ وتقرض أصابعي بأسنانها الحادة . . ومع ذلك فقد تمكّنت من تلويث وثاقي الجلدي بما علق على أصابعي من دهن اللحم ، ثم رفعت يدي عن الأرض ، واستسلمت إلى الدعة التامة .

فلمّا أحسّت الجرذان بسكوني المطلق خافت وارتدت إلى الخلف مسرعة ، وكثير منها قفز إلى الحفرة ، إلاّ أن اعتمادي على شراهتها لم يكن ضرباً من العبث ، فما إن اطمأنت إلى سكوني حتى عاد أضخمها جرماً ، وأشدها جرأة ، وراح يشم قيودي ، وكان ذلك إيذاناً بهجوم عام شنّته عليّ مئات الجرذان ، غير عابئة بحركات الرقاص ، وجثمت على صدري وهي تقرض الوثاق ، ثم تقاطرت على رقبتي ، وأخذ بعضها يضع خطمه البارد على فمي ، فاقشعر جسمي ، وتقززت نفسي ، وانقبض قلبي ، وما هي إلاّ لحظات حتى بدأت أشعر أن نضالي قد تكلّل بالنجاح ، فالجرذان قد قرضت

وثاقي في أكثر من مكان وحلّته .

وهكذا أصبحت طليقاً من القيد ، غير أن الرقاص كان لا يفتأ يضغط على صدري ، وقد شق ثوبي الخشن ونفذ إلى القميص الداخلي ، وأحسست بحزّاته الأليمة ، غير أن ساعة الخلاص كانت قد حانت . . ولما هززت يدي نفر الجرذان بعيداً ، ونزعت عني بقايا الوثاق ، وانزلقت من تحت الرقاص حذراً ، ووجدت نفسي طليقاً إلى حين .

وهل للمرء من حرية وهو في قبضة رجال محاكم التفتيش؟ . . وغادرت سريري الخشبي المرعب ، وسرت على أرض القبو الصلدة ، فتوقفت الآلة الجهنمية عن العمل ، وارتفعت إلى السقف ثانية بقوة غير منظورة . . أجل لقد نجوت من الموت ، ولكن لأعاني ميتة أبشع من تلك . . فأجلت نظري ، مضطرب الأعصاب ، في سجني الحديدي ، فلحظت أن تبدّلاً غير واضح المعالم قد وقع فيه . . وقد تبينت لأول مرة المصدر الذي يشع منه الضوء الفوسفوري ، إنه يشع من شق عرضه نصف بوصة ، يمتد حول جدران القبو من أطرافها السفلى . . وعبثاً حاولت أن أرى شيئاً من خلال هذا الشق .

ثم أدركت سر ذلك التبدُّل الذي طرأ على القبو ، ولقد بدت لي الصور الملتصقة بالجدران جلية المعالم في ألوانها ولمعانها ، إنها صور أشباح وشياطين توقع الرعب في قلب أشد الناس بأساً . . وكانت هذه الأشباح والشياطين تسدد أنظارها الجهنمية الكريهة إليّ من ألف اتجاه وتتألق ببريق عجيب غير طبيعي .

أقول غير طبيعي لأن هذا البريق أخذ يبثّ حرارة تحمي صفائح الحديد ، والبخار الساخن يعبق في خياشيمي ويكاد يقضي عليّ خنقاً . . فالأنظار العميقة الضارية ترمقني بأعينها النارية ، وأنا في حالة نزع جديد . . واللون القرمزي الشبيه بالدماء يسقط ظله على المكان . . فبدأت ألهث من شدّة الحر . . وبدأت أحس بأن نفَسي يضيق ، ولم أعد أرتاب في الطريقة الجديدة التي أعدّها لي معذبيّ ، وهم غلاظ الأكباد ومن أشد الناس ضراوة . . وابتعدت عن الجدار الحديدي المحمّى إلى وسط القبو ، وأنا أبغي الطراوة الموجودة في الحفرة ، فأسرعت إلى حافتها وألقيت نظرة إلى أسفل ، وكان

الوهج الذي يرسله السقف يضيء أعماق تلك الحفرة المروّعة . . ويا لهول ما رأيت ! . . يا لرعبي وعذابي ! . . فابتعدت عن الحافة مسرعاً ودفنت رأسي بين راحتي وطفقت أبكي وأعول .

وارتفعت درجة الحرارة ، ورحت أرتعش كما يرتعش المرء وهو يعاني أعلى درجات الحمى . . وطرأ على القبو تغيّر جديد في الشكل . . فلمّا رآني رجال محاكم التفتيش قد نجوت من الهلاك مرتين ، وهم أناس لا يحبون التسويف مع ملك الموت ، فقد عمدوا إلى تضييق الحجرة التي أنا فيها ، وجعلوا لها زاويتين حادتين ، فروعت لهذا التضييق ، وأدركت القصد منه ، وقد رافق عملهم هذا صدور أصوات كثيرة مضنية أشبه بالعواء ، ثم جعلوا الحجرة فجأة على شكل قرص تضيق حلقاته النارية شيئاً فشيئاً ، فصرت أتحرق شوقاً لملاقاة السلام السرمدي على جدرانه المحمية . . وقلت لنفسي : «الموت . . مهما كان نوعه ، ولا السقوط في الحفرة» . . ولكن أليست هذه الحفرة الرطبة هي التي يدفعني إليها الحديد المتأجج دفعاً؟ . . فهل أستطيع مقاومة ضغط الجدران؟ . . وزاد القرص ضيقاً أكثر فأكثر ، إلى أن صرت على حافة الحفرة مباشرة . . فتقهقرت غير أن الجدران دفعتني إلى الفوهة ، فأطلقت صرخة يأس طويلة عالية ، وترنّحت ، وأغمضت عيني .

في هذه اللحظة سمعت همهمة بشرية متنافرة الأصوات ، ونفخاً في الأبواق . . وصرير أبواب شبيهة بقصف الرعد . . فارتدت الجدران الشيطانية إلى الخلف . . وأحسست بيد قوية تقبض على ذراعي وأنا على وشك السقوط في الحفرة . . . إنها يد الجنرال لاسال . . فالجيش الفرنسي يقتحم مدينة توليدو ، وقد أصبحت محاكم التفتيش في أيدي أعدائها ! . .

الانحدار إلى الأعماق

ها نحن وصلنا إلى قمة الصخرة المنتصبة على الجبل الشامخ ، ولكنَّ الرجل العجوز ظلَّ عاجزاً عن الكلام خلال دقائق . . ثم قال :

كنت أستطيع ، قبل زمن ليس ببعيد ، أن أقود خطاك في هذا الطريق كما يفعل أصغر أبنائي ، ولكن حدث لي ، منذ ثلاث سنوات مضت ، حادث لا يقع لإنسان قط ، أو على الأقل لا يقع لإنسان ويتركه على قيد الحياة ليرويه . . لقد عانيت ست ساعات رعباً قتالاً حطّمني جسداً وروحاً .

قد أبدو لك رجلاً هرماً وما أنا هرم . . . ففي يوم واحد ابيض شعر رأسي بعد أن كان أسود فاحماً ، ووهنت أطرافي ، وارتخت أعصابي ، حتى بت أهتز لدى أدنى جهد أبذله ، وأخاف من كل شبح يتراءى لي . . . فهل تدري أنني أكاد لا أتطلع من فوق هذه الصخرة إلى أسفل حتى أصاب بالدوار؟

واستلقى الدليل على «الصخرة الصغيرة» طلباً للراحة ، غير آبه للوضع الذي اتخذه ، فقد ترك القسم الثقيل من جسمه معلّقاً عليها ، وهو يمسك نفسه عن السقوط بوضع مرفقه على حافتها القصية الزلقة . . . وكانت «الصخرة الصغيرة» هذه من الحجر اللامع الأسود ، وعرةَ المسلك ، ترتفع حوالى ألف وخمسمائة ، أو ألف وستمائة قدم ، فوق عالم القمم ، التي نشرف عليها ، وما من شيء يستطيع أن يغريني لأدنو من حافتها ، ولو بضع ياردات . والواقع أنَّ الوضع المهلك الذي اتخذه الرجل أثارني ، فارتميت على الأرض وأمسكت بالأعشاب التي حولي ، وأنا لا أجرؤ على التطلع إلى السماء ، محاولاً ، عبثاً ، أن أبعد عن نفسي الاعتقاد بأن الرياح الهوجاء تهدد الأسس التي يقوم عليها الجبل . وانقضى وقت طويل قبل أن أستعيد جأشي ، ووجدت في نفسي الجرأة الكافية كي أجلس وأجيل الطرف فيما يحيط بي من مشاهد .

قال الدليل : «دونك هذه المشاهد فتحسَّسها جميعاً . . . لقد جئت بك إلى هنا حتى تأخذ فكرة جلية عن المكان الذي وقع فيه الحادث الذي ذكرته

لك . . . ولأروي لك القصة بكاملها ، في البقعة التي جرت فيها وهي تقع تحت نظرك تماماً .

وتابع الدليل كلامه ، وفقاً لطريقته الخاصة قائلاً : «إننا الآن . . . على مقربة من الشاطئ النروجي ، عند الدرجة الثامنة والستين من خطوط العرض ، في مقاطعة نورلند الكبرى ، وفي إقليم لوفودن الموحش . . . وهذا الجبل الذي نجلس على قمته يدعى «هلسغن الغائم» . . . والآن انهض قليلاً ، وإذا ما أصابك دوار فتشبّث بالأعشاب ـ هكذا ـ وتطلّع صوب البحر عبر إطار الضباب الذي تحتنا» .

تطلّعت ، والدوار يلازمني ، فرأيت المحيط المترامي الأطراف ، وكانت مياهه قاتمة اللون ، حيث أعادت إلى ذاكرتي ذلك الوصف الذي تركه الجغرافي النوبي في «بحر الظلمات» . . . لقد كان منظراً لا تقوى المخيلة البشرية على تصوّر ما هو أشد منه كآبة واكفهراراً . . . وكانت صفوف من الصخور تمتد على مدى النظر يمنة ويسرةً ، كأنما هي أسوار العالم ، صخور ناتئة ، سوداء ، مرعبة ، وقد زادتها كآبة الأمواج العاتية التي تنقض عليها بذراها البيض وهديرها الصاخب . . . وكانت تبدو لنا مقابل الجبل الذي كنا نجلس على قمته ، وعلى بعد خمسة أميال أو ستة ، داخل البحر ، جزيرة صغيرة شاحبة . . أو على الأصح إن ما كان يبدو لنا هو موقعها ، وسط الأمواج الهائلة المتلاطمة التي تحيط بها من كل جانب . . . وكانت تقع على بعد ميلين منها ، في اتجاه البر ، جزيرة أصغر حجماً ، جزيرة صخرية ، قاحلة ، موحشة ، يلتف حولها ، على أبعاد مختلفة ، إطار من الصخور السوداء .

أمّا منظر المحيط ، بين الشاطئ والجزيرة البعيدة ، فكان غير طبيعي أبداً . . . ففي تلك اللحظة هبَّ إعصار قوي في اتجاه الشاطئ ، فأخفى سفينة في عُرض البحر ، ولم تظهر منها سوى قلاعها المزدوجة ، ومع ذلك فما كان البحر في علوه وتعاظمه في هذه الجهة إلاّ عادياً . . . والذي رأيناه ما هو إلاّ تلاطم أمواج صاخبة ، سريعة الحركة ، قصيرة المدى ، تنطلق في اتجاه الرياح وفي عكسها . . . أما الزبد فلم يظهر إلاّ في المناطق المجاورة للصخور .

وتابع الدليل الهرم حديثه :

يطلق النروجيون على تلك الجزيرة البعيدة اسم «فورغ» . ويسمّون تلك التي في منتصف الطريق «موسكوي» ، وأما الجزيرة التي تقع على مسافة ميل شمالاً فاسمها «أمبارن» ، وهنالك جزر «إيفليسن ، وهويهولم ، وكيلوهولم ، وسوارفن ، وبوكهولم . . . أما الجزر الواقعة بين موسكوي وفورغ فهي أوترهولم ، وفليمن ، وساندفليزن ، وسكارهولم ، هذه هي أسماء الجزر التي تراها ، أما لماذا سميت بهذه الأسماء فأمر لا نستطيع إدراكه . . . فهل تسمع شيئاً؟ . . هل ترى تحولاً في تيارات البحر؟

مضت عشر دقائق تقريباً ونحن على أعالي «هلسغن الغائم» التي صعدنا إليها من داخل لوفودن ، أمّا البحر فلم نره إلاّ بعد أن بلغنا القمة . . . ولـمّا كان الرجل الهرم يحدثني ، استرعت انتباهي أصوات ترتفع شيئاً فشيئاً ، وهي أشبه بخوار قطيع كبير من الثيران البرية المنتشرة في القفار الأميركية . . . فتطلّعت إلى المحيط ، تحتنا تماماً ، فرأيت ما يسميه البحارة بـ«القطع» ، رأيت المحيط يحوّل تياره شرقاً بسرعة هائلة ، ويتضاعف اندفاعه الفائر في كل لحظة . . . وفي خمس دقائق كان البحر بأجمعه حتى جزيرة «فورغ» في هيجان عنيف ، لكن الهدير كان على أشده بين جزيرة «موسكوي» والبر ، فهنا كان الخضم يتشعّب ويتلاحم في ألف اتجاه متعارض ، ثم يتخبط فجأة في فتنة هوجاء ، وهو يزمجر ويهدر ، ويصفر ، ويرتفع في عدد لا يحصى من الدوّارات ، تندفع كلها شرقاً في سرعة لا تعرفها المياه في أي مكان آخر إلاّ في المنحدرات الصخرية .

وبعد دقائق ظهر تحوّل عظيم آخر ، لقد بدت صفحة البحر رائقة ، وجعلت الدّوارات تختفي الواحدة إثر الأخرى ، وأخذت تظهر خطوط هائلة من الزبد تمتد مسافات شاسعة وتتلاحم ، ثم تنقلب إلى دوّارات هادئة ، وتصبح نواة لدوّارة أشد سرعة من سابقاتها . . وفجأة برزت هذه على شكل دائرة يزيد قطرها عن نصف ميل ، وكانت جوانبها تشكّل زناراً عريضاً من الرذاذ المتلألئ ، دون أن يسقط منه شيء في جوفها المخوف الذي كان يبدو ، بقدر ما تستطيع العين سبر غوره ، جداراً من ماء أسود ، لامع ،

أملس ، يجنح إلى الأفق ، بزاوية خمس وأربعين درجة ، وهو يتلوى في سرعة وإجهاد ، محملاً الرياح دوياً مفزعاً ، متراوحاً بين الزعيق والهدير ، مما لا يصدر عن شلالات نياغارا الجبّارة وهي تتصاعد إلى السماء .

شعرت أن الجبل يرتجف من أساسه ، وأن الصخرة تكاد تنهار ، فاستلقيت على الأرض ، وأمسكت بالعشف القليل ، وأعصابي مضطربة متوترة .

وأخيراً قلت للرجل الهرم : ما هذه سوى دوّارة «مالستروم» العظيمة .

فأجاب : أجل هكذا يسمّونها أحياناً ، أما نحن النروجيين فندعوها «دوّارة موسكوي» ، نسبة إلى جزيرة موسكوي الواقعة في منتصف الطريق البحري .

إن كل ما عرفته عن هذه الدوّارة لم يكوّن لي فكرة عمّا أراه الآن ، والوصف الذي تركه «يوناس راموس» في هذا المنظر ، وهو أدق وصف له ولا ريب ، لا يعبّر عن ضخامته وهوله ، ولا عن الذهول الذي يستبد بمن يكابده . لست أعرف الزاوية التي شاهد منها الكاتب الدوّارة ، ولا الوقت ، ولكني أجزم أنه لم يشاهدها من قمة جبل هلسغن الغائم ، ولا عند هبوب الإعصار . . لقد تضمّن وصفه مقاطع يجدر بي الرجوع إليها ، لما أتت به من تفصيل ، ولو أنها أضعف من أن تعطي فكرة صادقة عن المنظر ، قال :

«يتراوح عمق الماء بين جزيرتي لوفودن وموسكوي بين ست وثلاثين قامة وأربعين قامة ، ولكنه من جهة أخرى يتناقص قرب جزيرة «فورغ» حتى لا تستطيع السفن عبوره دون أن تتعرض لخطر الانحطام على الصخور ، وهو ما يحدث في الواقع مهما كان الطقس هادئاً . . . وإذا ما ارتفع «المد» فإن المياه تغمر المنطقة الممتدة بين لوفودن وموسكوي في سرعة عاصفة . . لكن هدير «الجزر» لا يكاد يحاكيه هدير أصخب الشلالات وأشدها رعباً ، فإنه يُسمع على بعد فراسخ ، وتبلغ الدوّارات ، أو الآبار المائية ، من الاتساع والعمق بحيث لو دخلت سفينة في نطاقها لاجتذبتها وقذفت بها إلى الأعماق وحطمتها على الصخور شر تحطيم ، ولا تلفظ أنقاضها على سطح الماء إلاّ بعد أن يسترخي البحر وتسكن ثورته ، وتكون فترة الاسترخاء هذه

بين تناوب المد والجزر ، وعند صفاء الطقس فقط ، ولا تستمر أكثر من ربع ساعة ثم يعود البحر إلى شدته وفورته تدريجاً . . . ومن الخطر الشديد الاقتراب من التيار عند اضطرابه المصحوب بهبوب العاصفة ، وكثير من الزوارق ، والمراكب ، والسفن ، قد انحدرت إلى قعر البحر لأنها دنت من نطاقه ، ويحدث دائماً أن تقترب الحيتان من التيار فيتغلب عليها ، ويتعذر على المرء أن يصف زعيقها وجؤارها وهي تصارع التيار عبثاً بغية الإفلات من براثنه . . . وحدث مرة أن دبّاً حاول السباحة من لوفودن إلى موسكوي فأمسك به التيار وأغرقه فجعل يجأر بشكل مروع سمعته السواحل . . . ومما يحدث كثيراً أن يبتلع التيار أشجار الشوح والصنوبر فتطفو ثانية محطمة ومهشمة ، كأن الشوك قد نبت عليها ، ما يدل على أن القعر مكوّن من صخور ناتئة يحتك فيها التيار جيئة وذهاباً . . . والتيار هذا يُخضع لناموسه امتداد البحر وارتداده ، وماؤه يعلو ويهبط كل ست ساعات على التوالي . . وما يروى بهذا الصدد أن التيار ثار في صباح الأحد الثاني قبل الصوم الكبير في سنة ١٦٤٥ وكان من القوة والاصطخاب بحيث انهارت البيوت القائمة على الشواطئ حجراً على حجر» .

أمّا عمق المياه الذي أشار إليه يوناس راموس فلا أدري كيف يمكن التأكد منه في جوار الدوّار ، وفيما يختص بـ«الأربعين قامة» فلا تنطبق إلاّ على تلك النواحي من التيار القريبة من الشاطئ سواء من جهة جزيرة «موسكوي» أو من جهة جزيرة «لوفودن» ، والذي لا ريب فيه أن العمق وسط تيار موسكوي أعظم بكثير ، ولا أدل على ذلك من إلقاء نظرة جانبية على لجّته من قمة جبل هلسغن . وإذ تطلعتُ على التيار العجاج من ذروة الصخور لم أتمالك عن الابتسام للسذاجة التي سجّل بها يوناس راموس النزيه حكايات الحيتان والدببة ، حكايات يصعب على المرء تصديقها . فقد اتضح لي جلياً ، وكأمر تأكدت من حقيقته بذاتي ، أن أعظم البواخر إذا ما دنت من نطاق هذا الاجتذاب المميت ، فإنها لن تستطيع مقاومته أكثر مما تقاوم الريشة مهب الريح ، ثم تغور في أسرع من لمح البصر .

وجميع المحاولات التي جرت لتفسير هذه الظاهرة غير مرضية ، ولو أن

بعضها ، على ما أذكر ، يبدو معقولاً لأول وهلة . . . والفكرة السائدة ، على العموم ، أن ليس من تفسير لهذا الدوّار ولثلاثة أصغر منه تقع بين جزر «فيروي» سوى أنها ناتجة عن تلاطم الأمواج ، المرتفعة والهابطة على امتداد البحر وارتداده ، وارتطامها بحوافي الصخور والجيوب المحتضنة للمياه وانحدارها كما تنحدر الشلالات . . . وكلما ارتفعت المياه كلما كان الانحدار أقوى وأعمق ، والنتيجة الطبيعية لهذا كله هو «الدوّار» الذي أثبتت الاختبارات مقدرته الهائلة على الامتصاص ، « . . هذا ما تراه الموسوعة البريطانية في الموضوع . أما كرتشر وآخرون فيرون أن في وسط تيار «مالستروم» حفرة تخترق الكرة الأرضية وتنفذ في مكان بعيد ، ويؤكد بعضهم أن هذا المكان هو خليج بوثنيا» .

هذه الفكرة ، على تفاهتها ، هي أول ما تبادر إلى ذهني حينما تطلعت من عل ، على أنني ما إن ذكرتها لدليلي حتى أدهشني بقوله إن أهل النروج عموماً يأخذون بها أيضاً ، غير أنه هو شخصياً لا يعتقد بصحتها . . . أمّا تفسيري أنا فقد عجز عن إدراكه ، وهو محق في ذلك ، لأنه وإن بدا منطقياً على الورق لكنه يبدو غير معقول وتافهاً وسط هزيم البحر وعجاجه .

وقال الرجل الهرم : ها قد نظرت ملياً إلى الدوّار ، فإذا ما زحفت حول هذه الصخرة ، حتى استترت من الريح ودويّ المياه ، فإنني قاص عليك ما يقنعك أنني أعرف بعض الشيء عن تيار «موسكوي ـ ستروم» .

وعملت بما طلبه مني ، وراح يتكلم :

«لقد كنّا ، أنا وأخواي ، نملك مركب صيد حمولته حوالى سبعين طناً نصطاد به بين الجزر ، وراء «موسكوي» وبالقرب من «فورغ» . . والصيد عادة لا يكون وفيراً إلاّ إذا كان البحر عجاجاً ، والظرف مواتياً ، والمرء شجاعاً . . . وكنا نحن ثلاثتنا الوحيدين ، بين جميع سكان «لوفودن» ، الذين نعمل في الصيد بين الجزر بانتظام . . . وتقع مناطق الصيد العادية إلى الجنوب ، وهي مناطق مفضلة ، ويتوفر فيها السمك في كل الأوقات دون التعرض إلى كثير من الأخطار . . . فهذه الأماكن المختارة ، الواقعة بين الصخور ، كانت تزوّدنا بأفخر أنواع الأسماك وبوفرة كبيرة ، وكنا نجمع في

يوم واحد ما لا يجمعه الصيادون الكسالى في أسبوع . . . والواقع أننا كنا نقوم بمغامرات يائسة يحلُّ فيها تعريض الحياة إلى الأخطار بدلاً من العمل البطيء ، والشجاعة بدلاً من رأس المال . . .

كنا نُرسي مركب الصيد في جون على بعد خمسة أميال من هذا المكان ، وننتهز فرصة اعتدال الطقس واسترخاء البحر خلال ربع ساعة من الزمن لنندفع بمركبنا عبر «تيّار موسكوي» بعيداً عن الدوّار ، ونلقي مرساتنا قرب أوترهولم أو ساندفليزن ، حيث التيارات أقل عنفاً منها في أي أمكنة أخرى . وكنّا نبقى هناك حتى يسترخي البحر ثانية ، فنسحب المرساة ونعود من حيث أتينا . ولم يسبق أن قمنا برحلة قبل أن نتثبّت من وجود رياح مواتية في الذهاب والإياب . . . وما كنا نتثبت منه بصورة خاصة هو عدم تخلي الرياح عنّا قبل عودتنا ، وقلّما أخطأنا التقدير في هذا الأمر . . . وحدث لنا مرتين فقط ، خلال ست سنوات ، أن بقينا راسين في منطقة الصيد الليل بطوله بسبب سكون الريح ، واضطررنا مرة إلى البقاء هناك حوالى أسبوع ، وكدنا نهلك جوعاً بسبب هبوب إعصار بعد وصولنا بقليل ، جعل من الخطر اجتياز التيار ، وكدنا نساق إلى عُرض البحر ، بالرغم من مقاومتنا الشديدة ، لأن الدوّارات أخذت تلف بنا وتلف بعنف حتى اضطرتْنا في آخر الأمر إلى سحب مرساتنا والدخول في تيارات متعارضة ، تحط بنا هنا يوماً وتأسرنا هناك يوماً آخر ، إلى أن سلمتنا للرياح التي تهب من جهة «فليمن» وخرجنا سالمين لحسن طالعنا .

ويصعب عليّ أن أروي لك العُشر من الصعاب التي واجهتنا هناك . إنها بقعة رديئة مهما كان الطقس الذي يحف بها معتدلاً ، ولكننا كنا دائماً نحتال على قطع مجرى تيار موسكوي ، دون أن نعرض أنفسنا للمخاطرة . وكم من مرة كنت أحس فيها أن قلبي يكاد يقفز من صدري كلّما تأخرنا عن موعد استرخاء البحر دقيقة واحدة ، أو كلّما سبقنا هذا الموعد بدقيقة واحدة . . . ويحدث أحياناً ألاّ تكون الريح من القوة مثلما لاحت لنا عند انطلاقنا ، فلا نقطع المسافة التي نود قطعها بينما التيار يجعل المركب صعب المراس .

وكان لأخي الأكبر ابن في الثامنة عشرة من عمره ، وكان لي ولدان قويّان مفتولا السواعد ، وبوسعهم ثلاثتهم أن يكونوا لنا خير عون في الأوقات الحرجة ، سواء في تحريك المجاذيف أو في الصيد ، غير أن قلوبنا لم تطاوعنا على تعريض الفتية للأخطار ، فنتعرض لها نحن مهما كانت التدابير المتخذة لتجنّبها .

أمّا الحادث الذي سأقصه عليك فقد وقع لنا منذ ثلاث سنوات ، وخلال أيام معدودات ، أي في اليوم العاشر من شهر تموز سنة ـ ١٨ ، وهو يوم لا ينساه أهل هذا الجزء من العالم ، إذ جادت فيه السماء بأشد إعصار مخوف ، استمر طوال النهار وشطراً من بعد الظهر ، وحوالى العصر فقط ، هبَّ من الجنوب الغربي نسيم لطيف ثابت ، وكانت الشمس ترسل أشعتها المشرقة ، فلم يكن والحالة هذه بمقدور أقدم بحّار بيننا أن يتنبأ بما سوف يقع بعد ذلك .

لقد اجتزت التيارات في ذلك اليوم مع أخي الأكبر إلى أن بلغنا الجزر حوالى الساعة الثانية بعد الظهر ، وسرعان ما ملأنا المركب بالسمك الجيد ، وكان في ذلك اليوم أوفر من أي يوم سابق . . . وكانت الساعة السابعة مساء ـ حسب ساعتي أنا ـ عندما سحبنا المرساة وشرعنا بالعودة ، حتى نقطع التيار وقت استرخاء البحر ، ويكون ذلك عادة في الساعة الثامنة مساء .

وهبّت عن يمين المركب ريح باردة ، فانطلقنا مسرعين لأننا لم نكن نتوقع خطراً ، وما كان في الواقع ثمة أدنى سبب لذلك ، وفجأة أرجعتنا إلى الوراء ريح عصفت من جهة جزيرة هلسغن ، وهو أمر غير عادي ، ولم يحدث لنا من قبل ، وبدأت أشعر بضيق دون أن أعرف له سبباً . . . وأدرنا المركب في اتجاه الريح ، لكننا لم نقترب من الدوّار ، وكدت أهم باقتراح العودة إلى مرسى صيد الأسماك عندما شاهدنا ، من مؤخرة المركب ، الأفق كله وقد حجبته غمامة رصاصية اللون ، وهي تزحف بسرعة هائلة .

وفي هذه الأثناء انقطعت الريح ، وأحاط بنا سكون مطبق ، وصرنا نندفع في كل اتجاه دون أن تتاح لنا أية فرصة لإعمال الفكر . . . وفي أقل من

دقيقة أدركتنا العاصفة ، وفي أقل من دقيقتين تلبّدت السماء بالسُّحُب الداكنة والظلام الحالك حتى أمسينا لا نرى الواحد الآخر .

أمّا الإعصار الذي هبَّ وقتئذ فمن البله محاولة وصفه ، ولا أعتقد أن أقدم بحار في النروج قد سبق له واختبر هذه المحنة . . فما كان منا إلاّ أن أطلقنا شراعنا للريح ، غير أن الإعصار أدركنا ، وفي أول هبة سقط الصاريان كأنما نُشرا بمنشار ، وذهب أكبرهما بأخي الذي كان متشبثاً به طلباً للأمان .

لقد كان مركبنا في ذلك الوقت كأنه أخف ريشة حملها البحر ، فظهره متساوٍ وفيه كوة قرب المقدمة كان من عادتنا سدّها عندما نمر بالتيار على سبيل الاحتياط من تحولات البحر ، ومن المفروض في ذلك الظرف أن نغرق على الفور لأن المياه ظلت تغمرنا لحظات . . . أمّا كيف نجا أخي الكبير من الهلاك فلا أدري ، إذ لم تتح لي فرصة للتحقيق ، أما أنا فحالما أطلقت الشراع ارتميت على ظهر المركب ووضعت قدمي عند حاجز مقدمته وأمسكت بحلقة قرب قاعدة الصاري الأمامي . . . إن الغريزة هي التي دفعتني إلى أن أفعل ما فعلت ، وهو خير ما فعلت ولا ريب ، لأنني كنت في حالة من الاضطراب الشديد بحيث لا أستطيع التفكير والتدبير .

أجل غمرتنا المياه للحظات كما ذكرت ، وقد حبست أنفاسي ، وأنا متشبث بالحلقة ، وإذ عدت لا أستطيع تحمل هذا الوضع ، ركعت قليلاً ، وأنا لا أزال أتمسك بالحلقة ، وبذلك استطعت رفع رأسي والتطلع إلى ما حولي . . . وفي هذه الأثناء أفلت المركب بعض الإفلات من سيطرة البحر ، وكان يهتز في خضمّه كما يهتز الكلب الخارج من الماء ، ثم أخذت أحاول التخلّص من الذهول المستولي عليَّ ، وأجمع حواسي لأعرف ما يجب عليَّ عمله ، وإذا بشخص يمسك بيدي ، وكان أخي الأكبر ، فطار قلبي من شدة الفرح لأنني اعتقدت أن اليم قد ابتلعه ، لكن سرعان ما انقلبت بهجتي هلعاً حين وضع فمه على أذني وصرخ «موسكوي ـ ستروم» . . أي تيار موسكوي ! . .

وليس بمقدور أي إنسان أن يدرك الشعور الذي انتابني في تلك اللحظة ، فقد أخذتني الرعدة من قمة رأسي حتى أخمص قدمي ، كأنما أصبت بأعنف نوبة من نوبات الحمّى . . فقد عرفت جيداً ما الذي يعنيه بتلك الكلمة ،

كما عرفت ما يريد أن أفهمه منها . . . فالريح تدفعنا إلى دوَّار التيار وليس لنا سبيل إلى النجاة .

لقد اتّضح لك من حديثي أننا ، عند عبورنا مجرى التيار ، كنا نظل دائماً بعيدين عن الدوّار ، حتى في أهدإ طقس ، كما كنا ننتظر استرخاء البحر ونراقبه بعناية فائقة ، غير أننا ألفينا أنفسنا في أثناء عودتنا ونحن نتجه إلى الدوار مباشرة وفي جو من الإعصار رهيب . . كنت أرجو الوصول إلى المنطقة التي أسرنا فيها والبحر في حالة من الاسترخاء ، لكنني ما لبثت أن لعنت نفسي لهذه الحماقة التي أبديتها بالاعتماد على رجاء واه . . . فتيقّنت تماماً أننا مقضيّ علينا حتى ولو كنا في سفينة حجمها عشرة أضعاف حجم مركبنا هذا .

وفي تلك اللحظة انتهى الإعصار من هباته الأولى ، ولعلنا لم نشعر بوطأته كثيراً بسبب السرعة التي اندفعنا بها قبل انقضاضه ، إلاّ أن البحر ، الذي استسلم للهدوء مع هدوء الرياح ، ظل يرغي ويزبد مستوياً إلى أن تفجر من جديد ، وانقلب إلى ما هو شبيه بالجبال الشوامخ ، ثم وقع تبدّل آخر حين انفرجت فجأة في السماء ، المنعقدة فيها سحب سوداء كالقطران ، دائرة من الصفو التام لم أر لصفائها مثيلاً ، لها لون أزرق مشرق ، وقد بزغ منها القمر بدراً مع بهاء لم أكن أدري قبلاً أنه يتحلّى به ، وكان يضيء كل شيء حولنا بجلاء كلي . . . ولكن يا للسماء . . ما هذا المنظر الذي أضاء القمر؟

حاولت مرة أو مرتين أن أتحدث إلى أخي فلم أفلح ، لأن هدير البحر أخذ يتعاظم بطريقة عجزت عن إدراك كنهها ، ولم أستطع أن أُسمعه كلمة واحدة مع أنني كنت أصرخ في أذنه بأعلى صوتي . . كان أخي يهز رأسه ويبدو في صفرة الأموات ، ويرفع أحد أصابعه كمن يقول : اسمع ! . .

لم أدرك أول الأمر ما يعني بقوله اسمع . . وفجأة طرأت عليَّ فكرة رهيبة ، فأخرجت الساعة من جيبي وألقيت نظرة على مينائها في ضوء القمر فوجدتها لا تدور ، فروّعت وأخذت أبكي وأنا أقذف بها بعيداً في المحيط . . . . كان عقرب الساعة يقف عند السابعة ، وهذا يعني أننا تعدّينا فترة استرخاء البحر ، وأن دوّار التيار الآن في ذروته .

ولـمّا كان المركب متين البناء محكم الصنع ، وغير مثقل بالأحمال ، فإن الأمواج ، في العاصفة القوية ، تبدو وكأنها تنزلق من تحته ، الأمر الذي يثير دهشة رجل البـر واستغرابه ، أمّا نحن ، فندعو هذا المنظر بلغة الملاحين : «امتطاء البحر» .

وقد امتطينا قباب الأمواج كثيراً في حياتنا البحرية ، وبمهارة فائقة ، إلاّ أن البحر الجبار في هذه المرة أخذنا بقبضته وكان يرفعنا عالياً . . . عالياً . . كأنما صعوداً إلى السماء . . . إنها أول مرة في حياتي أرى فيها البحر يبلغ هذا الحد من العلو ، ثم يهبط بنا بانحراف وانزلاق وغوص ما يجعلني أشعر بالإنهاك والدوار ، كمن يحلم أنه يسقط من قمة جبل شاهق . واغتنمت الفرصة في أثناء الارتفاع وألقيت نظرة سريعة إلى ما حولي ، فأدركت مركزنا الحقيقي في لحظة ، لقد كان دوّار تيار ـ موسكوي على بعد حوالى ربع الميل أمامنا مباشرة ، لكنه يختلف عن مظهره اليومي ، كما يختلف عما رأيته عليه الآن ، فهو أشبه برحى الطاحون . . . ولو لم أدر أين كنا ، وما هو المصـيـر الذي ينتظرنا ، لما تمكّنت من تعـرف المكان اَلذي بلغناه أبداً ، فأغمضت عيني على كره مني من شدة الرعب ، والتصقت جفوني معاً وهي ترتعش وتختلج .

ولم تمضِ دقيقتان حتى شعرنا أن الأمواج أخذت تهدأ ، والزبد يغمرها من كل جانب ، وبعد أن انحرف المركب إلى الجانب الأيسر انطلق في كل اتجاه كالصاعقة . . . وفي الوقت ذاته ضاع هدير المياه في زعيق حاد ، وكأنه صادر عن صفارات ألف سفينة بخارية ، تطلقها معاً . . . وبلغنا طوق اللجج الذي يحيط بالدوّار عادة ، واعتقدتُ بداهة أنه لن تنقضي لحظة إلاّ وتبتلعنا الهاوية التي لا نراها بجلاء نظراً لسرعة التيار الهائلة التي كانت تقودنا إليها . . . لكن المركب لم يسقط في الهاوية ، وإنما ظل يرتقي على العُباب كما ترتقي فقاقيع الهواء ، يحاذيه الدوّار من الجانب الأيمن ، ويحاذيه المحيط من الجانب الأيسر ، المحيط الذي خلفناه وراءنا ليحجب عنا الأفق كسور متعرج هائل .

قد يبدو الأمر غريباً ، بعد أن أصبحنا بين فكي الدوّار ، أنني بتُّ أكثر

اطمئناناً عمّا كنت عليه قبل أن يقترب مركبنا منه ، فقطعت الأمل من الخلاص ، وتحررت نفسي من الرعب الذي استولى عليها ، وخيِّل إليّ أن اليأس والقنوط قد شدّا أعصابي وأعطياها قوة ومُنعة .

وأقول لك غير متباهٍ ، وإنما هي الحقيقة بعينها ، إنني بدأت أشعر بروعة الموت على هذا النحو ، كما بدأت أستقبح محاولاتي للاهتمام بحياتي الشخصية ، إزاء هذا العرض البديع لقدرة الله عزّ وجلّ . . . ولا تعجب إن قلت لك إنني احمررت خجلاً حين راودتني فكرة العناية بمصيري . . . وما هي إلاّ لحظات حتى تملّكني الفضول لدراسة الدوّار ذاته ، ورغبت في ارتياده وسبر غوره حتى ولو كلفني ذلك حياتي . إن ما كان يجلب لي الأسى هو أنني لن أتمكن أبداً من أن أقصَّ على رفاقي القدماء ، المقيمين على الشاطئ ، ما سأشاهده من خفايا البحر وأسراره . . . ومن المستغرب حقاً أن تشغل هذه التخيلات ذهن أي امرئ وهو في مثل هذا الموقف الحرج ، وبت أعتقد أن دوران المركب قد جعلني خفيف الأحلام قليلاً .

أمّا العامل الآخر الذي أعاد إليَّ طمأنينتي فهو انقطاع الريح عن البقعة التي ندور فيها ، لأن طوق اللجج كان ، كما رأيت ذلك بنفسك ، أدنى من مستوى البحر الذي كان يرتفع فوق رؤوسنا مثل الجبال السود الشامخة . . . ويتعذر على المرء أن يدرك ما تحدثه الرياح ورشاش الأمواج من اضطراب في نفسه وفكره ، إذا لم يختبر البحر إبان إعصار أهوج . . . إنهما يعميان ، ويطرشان ، ويخنقان ، ويسلبان كل قدرة على العمل والتفكير . . . أما نحن فقد تخلّصنا إلى حد بعيد من هذه المكدّرات ، ومثلنا في ذلك مثل الأشقياء المحكوم عليهم بالموت حين يسمح لهم بالتمتع في السجن بما كانوا محرومين منه قبل أن يقرر مصيرهم .

وظللنا ندور حول الطوق ساعة من الزمن على وجه التقريب ، بل بالأحرى كنا نطير ولا نطوف ، ونمضي أكثر فأكثر إلى وسط الهاوية ، ونقترب شيئاً فشيئاً نحو حافتها الداخلية الرهيبة ، دون أن أفلت الحلقة من يدي طوال هذا الوقت ، وكان أخي في المؤخرة يمسك برميلاً واسعاً فارغاً ، موضوعاً في مكان أمين تحت رفرف حافة المركب ، وهو الشيء الوحيد

الذي لم تقذف به العاصفة إلى البحر حين انقضّت علينا . . . وعندما اقتربنا من حافة الهاوية تخلى أخي عن البرميل وأمسك الحلقة محاولاً في غمرة من الذعر أن ينزع يدي منها ، لأنها لم تكن من الاتساع لتمنح كلاً منّا المسك الأمين ، فما إن أحسست بمحاولته هذه حتى أصابني غم لم يسبق أن أصبت به ، مع أنني كنت أعلم أنه لم يفعل ذلك إلاّ بدافع جنوني ، مصدره الرعب ، وعلى ذلك لم أسع إلى منازعته الحلقة ، فلا فرق إن أمسكتها أنا أو هو ، فتركتها له وذهبت إلى البرميل في المؤخرة ، ولم أجد في ذلك كبير صعوبة ، لأن المركب كان يدور في ثبات واستواء ويتحرك جيئة وذهاباً ، بفعل تحرك الدوّار وإجهاده الهائل . . وما كدت أثبت نفسي في مركزي الجديد حتى جنح بنا المركب إلى الجانب الأيمن بقوة ، واندفع في جوف الهاوية نزولاً ، فتوجهت إلى الله بصلاة عاجلة وظننت أن الأمر قد قُضي .

وعندما شعرت بهول الانحدار ، أحكمت إمساك البرميل غريزياً ، وأغمضت عينيّ ، وظللت ثواني لا أجرؤ على فتحهما ، وأنا أتوقع الهلاك السريع ، وأسائل نفسي فيما إذا كنت قد دخلت في صراع مميت مع البحر . وانقضت لحظة إثر لحظة ، وأنا لا أزال على قيد الحياة ، ثم أحسست أن المركب قد توقف عن الانحدار ، وأنه عاد إلى حركته السابقة عندما كان في طوق الزبد ، إلاّ أنه الآن أكثر استواء ، واستجمعت قواي ففتحت عينيّ وتطلعت إلى فوق .

لن أنسى أبداً ما حييت ذلك الرعب الممزوج بالإعجاب الذي استولى علي إذ ذاك . . . لقد بدا لي المركب وكأن يداً سحرية قد علقته في منتصف الهاوية وعلى ما يشبه فوهة مدخنة واسعة المحيط ، عظيمة العمق ، يخال للمتطلع إلى جوانبها الملساء كأنها مصنوعة من الأبنوس ، لولا السرعة المحيرة التي تدور بها ، ولولا الشعاع اللامع الشاحب الشبيه بإشعاع البدر ، الذي كان ينبعث من تلك الفرجة المستديرة ، الظاهرة في وسط الغيوم ـ وقد أتيت على وصفها ـ فيغمر بسنائه الذهبي اللون الجدار الأبنوسي كله ، وينساب بعيداً إلى أعماق الهاوية .

لقد كنت في بادئ الأمر مبلبل الفكر ، بحيث لم أستطع ملاحظة أي شيء حولي . . كنت مأخوذاً بالعظمة المروعة التي كانت تحيط بي . . . وعندما عدت إلى رشدي ، قليلاً ، دفعتني الغريزة إلى أن ألقي نظرة إلى أسفل ، فظفرت بمشهد تام للوضع الذي اتخذه المركب على سطح الهاوية المنحرف . . . كان المركب مستوياً ، أي أن ظهره مواز لسطح الماء ، ثم انحدر هذا السطح بزاوية تزيد عن خمس وأربعين درجة ، فتراءى لنا وكأننا نستقر على طرف عارضة المركب ، ومع ذلك لم يفتني أن ألاحظ أنني لم أعد ألقى كثير صعوبة في المحافظة على موقفي ، كما لو أن المركب يطفو على صفحة مياه ساكنة . . . وإنني لأعزو السبب في ذلك إلى سرعة دوران المياه لا غير .

وبدت أشعة القمر تتسرب إلى أعماق الهاوية ، ومع ذلك فقد كنت لا أميّز الأشياء بجلاء نظراً للضباب الكثيف الذي كان يغلف تلك الأعماق ، الضباب المتوّج بألوان قوس القزح الرائعة ، تشبه ذلك الجسر الضيق المتأرجح ، «الصراط المستقيم» ، الذي يرى فيه المسلمون أنه الطريق الوحيد الذي يصل الزمن بالسرمدية . . . وما من ريب أن هذا الضباب ، أو الرشاش ، ناتج عن تصادم جدران الهاوية الهائلة عند التقائها في القعر . . . أما ذلك الزعيق الذي كان يرتفع من ثنايا الضباب إلى السماء فلا أجد في نفسي الجرأة على وصفه .

لقد ساقتنا الانحدارة الأولى من فوق طوق الزبد إلى مدى سحيق في الهاوية ، ثم أصبح هذا الانحدار غير متعادل ، فكنّا ندور باستمرار بحركة لا تناسق فيها ، ولكن في تأرجحات وهزات مجلبة للدوار ، تدفعنا حيناً إلى أسفل الهاوية على بُعد مئات من الياردات ، وتأسرنا حيناً آخر في نطاق الدوّار . . . وكان انحدارنا في كل دورة بطيئاً ، إلاّ أنه محسوس جداً .

ولـمّا تطلّعت إلى ما حولي في هذا الخضم من الأبنوس الشاسع ، الذي يحملنا على راحتيه ، أدركت أن مركبنا لم يكن الشيء الوحيد الذي احتضنته الهاوية . . . فقد كانت تطفو فوقنا وتحتنا أنقاض السفن ، وقطع كبيرة من خشب البناء ، وجذوع الأشجار ، وأشياء صغيرة كثيرة كأجزاء من

الأثاث المنزلي ، والصناديق ، والبراميل ، والألواح الخشبية المحطمة . . . كنت أتيت على ذكر الفضول غير الطبيعي الذي حل في نفسي محل الرعب الأول ، ولقد صار هذا الفضول يتضاعف كلما ازددنا اقتراباً من النهاية الرهيبة ، فأخذت أرقب باهتمام واستغراب تلك الأجسام العديدة التي كانت تطفو معنا . . . ولا أرتاب في أنني كنت هاذياً حين أخذت أتسلى في تقدير السرعة النسبية لانحدار هذه الأجسام نحو الزبد المتقلب في أسفل الهاوية . . . ووجدتني لحظة أقول لنفسي : ستكون شجرة الصنوبر هذه المادة التالية للغوص الرهيب ، والاختفاء عن الأنظار . . . فيخيب ظني وأجد حطام سفينة تجارية هولندية تسبقها وتهوي قبلها . . . وأخيراً ، وبعد تخمينات كثيرة من هذا القبيل ، أخفقت فيها كلها ، جالت في رأسي سلسلة من الأفكار جعلت أطرافي ترتعد فرقاً وقلبي يخفق فزعاً .

ولم تكن هذه الحالة التي استبدّت بمشاعري نوعاً جديداً من الرعب ، وإنما هي بدء رجاء جديد أشد إثارة للنفس . . . ولقد انبعث هذا الرجاء بفعل عاملين وهما : ذاكرتي أولاً ومشاهداتي ثانياً . . . لقد استعادت ذاكرتي تلك الأشياء المنوعة التي تنتشر بكميات عظيمة على شواطئ جزيرة «لوفودن» بعد أن يبتلعها دوار «موسكوي ـ ستروم» ثم يلفظها ، فمعظم هذه الأشياء كان محطماً على نحو خارق للعادة ، إنه مقشور ومنحوت نحتاً خشناً ، وقد اتخذ شكل عصي مليئة بالشظايا ، غير أنني كنت ألحظ أن بعض هذه الأشياء كان سليماً من كل تشويه .

فاتضح لي أن ليس من تفسير لهذا الاختلاف سوى أن الأشياء المنحوتة قد ابتلعها الدوّار ابتلاعاً كاملاً ، وأمّا السليم منها فهو الذي دخل الهاوية في وقت متأخر عن مد البحر وجزره ، أو أنه لسبب ما قد دخل الهاوية ببطء ، فامتد البحر وارتد وهو لا يزال في منتصف الطريق . . . ففي هاتين الحالتين تطوف الأشياء التي ابتلعها الدوّار ، وتظهر على سطح البحر ثانية دون أن تلاقي مصير تلك الأشياء التي سقطت في الهاوية في وقت مبكر ، أو اجتذبتها السرعة إلى قاع البحر . . وعلى ذلك خرجت بثلاث ملاحظات مهمة : الأولى هي أنه كلما كانت الأجسام الساقطة ضخمة كلما كان

انحدارها أسرع ، والثانية هي أنه إذا اجتذب الدوّار كتلتين متساويتين في الاتساع ، الأولى كروية الشكل والثانية غير كروية ، فانحدار الكتلة الكروية أسرع من تلك ، والملحوظة الثالثة هي أنه إذا اجتذب الدوّار كتلتين متساويتين في الحجم ، الأولى أسطوانية الشكل والثانية غير أسطوانية ، فانحدار الكتلة الأسطوانية أبطأ من تلك .

وكثيراً ما تجادلت في هذا الموضوع ، بعد أن أفلتُّ من قبضة البحر ، مع أحد معلمي الناحية ، ومنه تعلمت استعمال كلمتي «أسطواني» و«كروي» ، وهو الذي شرح لي ـ وقد نسيت هذا الشرح ـ أن ما لحظته إنما هو في الواقع النتيجة الطبيعية لأشكال القطع الطافية ، وأفهمني كيف أن الجسم الأسطواني يُبدي مقاومة شديدة للدوّار ، ويكون غرقه أصعب من الأجسام الضخمة مهما كان شكلها ، وأن أرخميدس(*) قد أثبت صحة هذه النظرية .

وكان هناك ظرف أدعى للدهشة أثبت صحة ملحوظاتي إلى أبعد حد ، وجعلني شديد الاهتمام للإفادة منها ، وهو أننا كنا نمر في كل دورة بأشياء كالبرميل ، أو لوحة محطمة ، أو صار ، وكان معظم هذه الأشياء ، عندما فتحت عيني لأول مرة على عجائبّ الدوّار ، يطوف في مستوانا ، لكني أصبحت أراه الآن يعلونا قليلاً .

ولم أتردّد كثيراً فيما كان عليّ أن أفعله ، وعقدت النية على أن أقيد نفسي جيداً إلى البرميل الذي أمسك به ، وأن أخرجه من تحت الحافة وألقي بنفسي معه إلى البحر . . . وقد استرعيت انتباه أخي بالإشارة ، وأومأت إلى البرميل العائم بالقرب منّا ، وبذلت كل جهدي لأفهمه ما أنوي القيام به ، وأعتقد أنه قد أدرك القصد من إشاراتي في نهاية الأمر ، لكنه سواء أأدركه أم لم يدركه فقد هز رأسه في يأس ورفض التخلي عن الحلقة ، وقد تعذر عليّ إرغامه على تركها والاقتداء بي . فالطارئ لم يقبل التمهّل ، وهكذا وجدت

(*) Arkhimédès (٢٨٧؟ ـ ٢١٢ق .م) أعظم رياضيي العصور القديمة . من اكتشافاته نسبة قطر الدائرة إلى محيطها ، ومبدأ الأجسام المغمورة في سائل ما ، وهو المعروف بمبدإ أرخميدس .

نفسي ، والألم يعتصر قلبي ، أتخلى عن أخي ليلاقي المصير الذي ينتظره ، فشددت نفسي إلى البرميل بالحبال التي تربطه إلى الحافة واندفعت معه إلى البحر دون تردد .

وكانت النتيجة حسب ما رجوت . . ولـمّا كنت أنا أقص عليك هذه القصة بذاتي ، وها قد نجوت كما تراني ، ولـمّا كنت أنت قد تحققت من الكيفية التي أفلتُ بها ، فإنك تتوقع ولا ريب الاستماع إلى ختام القصة ، وها أنا أضعه بين يديك على عجل : فبعد مضي ساعة على وجه التقريب من تركي المركب ، رأيته ينحدر إلى الأعماق ويدور على نفسه ثلاث أو أربع دورات في تتابع سريع ، ثم يغوص إلى الأبد في عجاج من الزبد ، حاملاً معه أخي الأكبر الحبيب .

أمّا البرميل الذي تشبثت به ، فإنه ما كاد يتجاوز منتصف المسافة ، الواقعة بين النقطة التي قفزت منها وقعر الدوّار ، حتى طرأ على هذا الدوّار تبدّل عظيم ، فقد ضمرت جوانب الفوهة فجأة ، وقل انحدارها ، وخفّت حدة الدوار تدريجاً ، واختفى الزبد ومعه قوس القزح ، وبدأ جوف الدوّار يرتفع شيئاً فشيئاً . . . ثم وجدت نفسي على سطح البحر فوق البقعة التي كان يشغلها دوّار «موسكوي ـ ستروم» ، وساحل «لوفودن» في متناول نظري ، وكانت السماء صافية ، والرياح قد جنحت إلى الهدوء ، والبدر يسطع في الغرب . . إنه وقت استرخاء البحر ، غير أن الأمواج كانت لا تزال ترتفع جبالاً بتأثير الإعصار . . . وحُملت بعنف إلى مجرى التيار ، وما هي إلاّ دقائق حتى قذف بي إلى منطقة صيادي الأسماك على الشاطئ ، وهناك التقطني قارب وأنا خائر القوى ، عاجز عن النطق ، مأخوذ بذكرى الأهوال التي شاهدتها واختبرتها ، فالأشخاص الذين التقطوني هم أصدقائي القدامى ، ورفاقي في العمل ، لكنهم لم يتعرّفوني أبداً ، وكنت أبدو لهم كمسافر آتٍ من عالم الأرواح . . . فشعري الذي كان أسود فاحماً قد ابيضّ بين ليلة وضحاها . . . وهم يقولون أيضاً إن جميع ملامحي قد تبدّلت . ولـمّا رويت لهم قصتي لم يشاؤوا تصديقها . وها أنا أرويها لك الآن ، غير متيقّن تماماً بأنك ستصدقها ، مثلك في ذلك مثل صيادي لوفودن المرحين .

اللوحة البيضوية

كان القصر الذي خطر ببال خادمي أن يدخله عنوة، كي لا يتركني أمضي الليل في العراء وأنا جريح بشكل يرثى له، من هذه القصور التي تجمع بين العظمة والكآبة. كان كل شيء فيه يدلّ على أنه قد هُجر مؤقتاً ومنذ فترة قريبة. اخترنا أصغر الغرف وأقلها ازدحاماً بالأثاث، وكانت تقع في برج منفرد في القصر، غنية بزخارفها، لكنها قديمة وخربة، جدرانها مغطاة بالسجاد، ومزيّنة بمجموعة من شعارات النسب الشريف من كل شكل، وبكثير من لوحات التصوير الحديث الزاخرة بالروح العصرية، تحيط بها إطارات فخمة، ذهبية، منمنمة. صرفت جلّ اهتمامي إلى هذه اللوحات التي لم تكن معلقة على واجهات الجدران الرئيسية فحسب، بل كانت تشغل عدداً من الزوايا التي حتّمت وجودها هندسة القصر الغريبة، حتى إنني أمرت پيدرو خادمي أن يُغلق باب الغرفة الثقيل ـ لأن الليل كان قد حلّ ـ وأن يُشعل شمعداناً كبيراً موضوعاً قرب وسادتي، ويفتح الستائر المخملية السوداء المهدّبة التي كانت تحيط بالسرير. أمرته أن يفعل ذلك كي أتمكّن على الأقلّ، إذا لم أقدر على النوم، أن أتسلّى بالنظر إلى هذه اللوحات وقراءة كتاب صغير وجدته على الوسادة، يُعرِّف بهذه اللوحات ويقوّمها.

قرأت في الكتاب طويلاً.. طويلاً؛ تأمّلت بخشوع، بتعبّد؛ وانقضت الساعات سريعة ممتعة، وانتصف الليل. لم أكن مرتاحاً لوضع الشمعدان، فمددت يدي بصعوبة، كي لا أزعج خادمي النائم، ووضعته بشكل يسمح لأشعته كلها أن تسقط على الكتاب.

لكنّ هذه الحركة مني جرّت حادثاً غير منتظر. لقد سقطت آنذاك أشعة الشموع الكثيرة (كانت هناك عدة شموع) على مخدع في الغرفة كانت إحدى قوائم السرير تغطيه بظلها الكثيف، ولمحت في الضوء الساطع لوحة فاتني أن ألاحظها في البداية. كانت صورة فتاة ناضجة حتى لتبدو كأنها امرأة. ألقيت عليها نظرة سريعة وأطبقت عينيّ. لماذا؟ لم أفهم أنا نفسي

هذا جيداً لأول وهلة . لكنني علّلت السبب بسرعة ، بينما كانت عيناي مطبقتين ، ذلك السبب الذي جعلني أطبقهما . كان ذلك بحركة غير إرادية لكسب الوقت والتأمل ـ للتأكد أن نظري لم يخدعني ـ لكي أهدّئ روعي وأهيئه لتأمل واثق ودون انفعال . بعد بضع لحظات حدّقت ملياً في اللوحة من جديد .

لم يكن الارتياب ممكناً ، مع أنّني تمنّيته ، في أنني لا أنظر بوضوح تامّ ، لأنّ الضوء الأول الذي سقط من الشمعدان على هذه اللّوحة كان قد بدّد الذهول الحالم الذي تملّك حواسيّ وأعادني فجأة إلى الحياة الواقعية .

قلت إن اللوحة كانت لفتاة ناضجة ؛ كانت تمثّل رأسها وكتفيها بأسلوب يسمّى ، من الناحية التقنية ، أسلوب الصور الصغيرة ، يشبه كثيراً طريقة سولّلي في تصوير الرؤوس التي يؤثرها . وكان الذرعان والنّهدان ، وحتى أطراف الشعر المتلألئ ، تمتزج بشكل لا يُدرك في الظلّ الغائم ، لكن العميق ، والذي كان بمثابة خلفيّة لمجموع اللوحة . كان الإطار بيضوي الشكل مذهَباً بطريقة رائعة ، ومزخرفاً بخطوط متموّجة على غرار الزخرفة المغربيّة .

كانت ، كأثر فني ، رائعة لا يمكن العثور على أجمل منها . لكن الذي أسرني فيها بهذه القوّة وهذه المفاجأة قد لا يكون أسلوبها ولا جمالها الخالد . كما أنني لن أفترض أن خيالي ، الذي يستفيق من ذهول شبيه بالنوم ، قد حسب الصورة فتاةً حيّة ، لأن تفاصيل اللوحة ، وأسلوب النمنمة ، وهيئة الأطار ، كانت ستبدّد مباشرة مثل هذا السحر وتحفظني من كل وهم حتى لو كان مؤقتاً . لعلني بقيت ساعة كاملة في هذه التأملات ، وأنا نصف ممدد ، نصف جالس ، وعيناي مسمّرتان في هذه اللوحة . أخيراً عندما اكتشفت سرّ تأثيرها الحقيقيّ ، تمدّدت في السرير ثانيةً ، واكتشفت أن سحر اللوحة ، الذي كان تعبيراً حياتياً مطابقاً للحياة نفسها مطابقة تامّة ، هو الذي أثارني أوّلاً وشوّش فكري في النهاية ، واستولى عليّ وأخافني . أعدت الشمعدان إلى وضعه الأول ، برعب عميق مهيب . وإذ أخفيت عن نظري ، بهذه الطريقة ، سبب اضطرابي العنيف ، تناولت الكتاب الذي يتضمّن تحليل اللوحات وتاريخها بحرارة وشوق . بحثت عن رقم اللوحة البيضوية في

الكتاب وقرأت عنها هذه القصة الغامضة الغريبة :

«كانت فتاة نادرة الجمال ، لطيفة ، ومليئة بالفرح . ألا لُعنَت الساعة التي رأت فيها الرسام وأحبته وتزوجته . كان هو متيّماً بحبّ فنه، صارماً مجداً ، وجد في هذا الفن زوجة له ؛ أمّا هي فكانت فتاة بجمال نادر ، لطيفة ، ومليئة بالفرح : لا شيء غير الضوء والبسمات ومرح شادن فتيّ ؛ كانت تحب كل شيء ، ولا تكره إلاّ الفن الذي كان عدوّها ؛ ولا تخاف إلاّ لوحة الألوان والفُرش والأدوات الأخرى التي كانت تحول بينها وبين وجه حبيبها . لقد امتلأت هذه السيدة بالرعب لسماعها زوجها يتحدث عن رغبته في أن يرسم حتى زوجته الشابة . لكنها كانت خلوقة ومطيعة ، وجلست بهدوء مدى أسابيع طويلة في غرفة البرج المظلمة العالية ، حيث كان الضوء يتسرّب إلى اللوحة الشاحبة من السقف فقط . لكن الرسام كان يرى مجده في أثره الخالد الذي يكتمل ساعة فساعة ، ويوماً بعد يوم . وكان شخصاً هائماً وغريباً ، دائم الهواجس يضيع في تخيلاته ، بحيث أنه لم يكن يريد أن يرى إلاّ الضوء الذي كان يسقط بهذا الشكل الكئيب في هذا البرج المنعزل الذي يذوي نضارة زوجته ويذهب بنشاطها وجذلها . كان هزالها بادياً للناس جميعاً باستثنائه هو . ظلّت مع ذلك دائمة الابتسام ، لا تشكو أبداً ، لأنها رأت الرسام (الذي كانت له شهرة كبيرة) يسرُّ للغاية ويتفانى في عمله ، ويعمل ليلاً نهاراً لكي يرسم هذه التي يحبها كثيراً ، لكن التي تزداد هزالاً وضعفاً يوماً بعد يوم . والواقع أن الذين كانوا يتأملون اللوحة كانوا يتهامسون عن مشابهتها للأصل ، كأعجوبة هائلة ، وكبرهان على حبّه العميق لهذه التي كان يرسمها بهذا الإتقان المعجز ، ذلك الحب الذي لا يقلّ أبداً عن مهارته الخارقة . لكنه لم يعد يسمح لأحد بدخول البرج حين كانت اللوحة تقترب من نهايتها ؛ لأن الرسام أصبح مجنوناً بعمله ، ولم يكن يرفع نظره عن اللوحة إلاّ نادراً ، حتى لكي ينظر إلى وجه زوجته . لم يكن يريد أن يرى أن الألوان التي يضعها على اللوحة كانت مأخوذة من خدّي هذه التي تجلس قربه . وحينما انقضت عدة أسابيع ، وأشرفت اللوحة على الاكتمال النهائي ، إذ لم تبق إلاّ لمسة لأجل الشفتين ، وأخرى للعينين ،

كانت روح الفتاة لا تزال تنبض كلهب المصباح . وحينما أنجز الرسام اللوحة غاب لحظة في نشوة أمام الأثر الذي أكمله ؛ غير أنه ، بعد لحظة ارتجف وهو يتأمل ، وتملكه الرعب ؛ وصرخ بصوت قويّ : «الحق أن هذه هي الحياة بحدّ ذاتها» . واستدار لكي يرى حبيبته ! لكنها كانت جثة هامدة ! . .

في المصحّ

بينما كنت أقوم في خريف عام ـ ١٨ ، برحلة في أقاصي الجنوب الفرنسي قادتني طريقي إلى مسافة أميال قليلة من أحد المصحات ، أو المنازل المختصّة بالمجانين ، وكنت قد سمعت كثيراً عن ذلك المصح من أصدقائي الأطباء في باريس . وبما أنه لم يسبق لي أن زرت مكاناً كهذا ، قررت أن لا أدع الفرصة تفوتني ؛ لهذا اقترحت على مرافقي في الرحلة (وهو سيد صادف أن تعرّفت عليه قبل أيام قليلة) أن نمر بالمكان لمدة ساعة ونتعرف على المصح ، لكنه لم يوافق على اقتراحي قائلاً إن علينا أن نسرع ، ثم إن منظر المجانين يثير خوفه . بيد أنه رجاني ألاّ أحرم نفسي من هذه الرغبة ، مجاملة له ، وقال إنه سيستمر في السفر على مهل ، بحيث أتمكن من اللحاق به خلال النهار ، أو على الأكثر خلال اليوم التالي . وبينما كان يودعني فكرت أنني قد أواجه بعض الصعوبة في دخول المصح ، وذكرت له مخاوفي تلك ، فأجاب أنني على حق ، لأنني إذا لم أكن على معرفة سابقة بالرئيس العام ، السيد ميلارد ، أو إذا لم أكن أحمل رسالة تعريف ، لا بد أن تواجهني الصعوبات لأن قوانين هذا المصح أشد من قوانين المستشفيات العامة . وأضاف أنه سبق له أن تعرّف على السيد ميلارد ، منذ سنوات خلت ، ولهذا بإمكانه أن يرافقني حتى المدخل وأن يقدمني إليه ؛ لكنه أصرّ على عدم الدخول لأنّ مشاعره تجاه المجانين لا تسمح له بذلك .

بعد أن شكرت له صنيعه انعطفنا عن الطريق العام إلى طريق فرعي مغطى بالعشب ، ضاعت معالمه بعد حوالى نصف الساعة من السير في الغابة الكثيفة التي تغطي سفح الجبل . قطعنا حوالى الميلين في تلك الغابة الرطبة المظلمة ، حتى وصلنا إلى المصح . كان البناء قصراً رائعاً ، إلاّ أنه كان متهدّماً يبدو عليه الإهمام خلال تعاقب السنين ، بعثت فيّ رؤيته رهبة بالغة قررت في أثنائها أن أعود أدراجي ، وشددت عنان الحصان ، لكنني سرعان ما خجلت من ضعفي ، واستأنفنا المسير .

عندما بلغنا المدخل ، تبيّن لي أن البوابة كانت مفتوحة جزئياً ، ورأيت

خيال رجل يلوح من الشق . وبعد برهة تقدم ذلك الرجل وخاطب مرافقي منادياً إياه باسمه ، وهزّ يده بمودة ، ثم رجاه أن يترجّل. كان هذا الرجل هو السيد ميلارد نفسه ، وكان رجلاً مهيباً ، ذا وسامة ولباقة ، ومسلك مهذب ، تبدو عليه ملامح الغبطة ، والكبرياء ، والسلطة .

وبعد أن قدّمني صديقي ذكر له أنني أرغب بالتفرج على المكان ، فأكد له السيد ميلارد بأنه سيومّن لي ذلك بكل عناية . ثم استأذن صديقي وغادرنا ولم أعد أراه .

بعد أن غاب صديقي قادني الرئيس إلى ردهة صغيرة مرتبة بشكل يلفت النظر . كانت فيها أشياء تدل على ذوق مرهف ، منها بعض الكتب ، واللوحات الفنية ، وآنية الزهر ، والآلات الموسيقية . وكانت النار في المدفأة تتأجج ، بينما تجلس إلى البيانو سيدة جميلة جداً تغنّي مقطوعة لبلّيني(*) . حين دخلت الردهة توقفت السيدة عن الغناء واستقبلتني بأدب جم . كانت تتكلم بصوت خفيض ، وظهر لي بأن سلوكها كله تميز بشيء من الكبت . بدا لي شيء من الحزن في ملامحها التي بدت كثيرة الشحوب ، لكنها كانت ، بالنسبة إليّ ، ملامح رائعة . كانت ترتدي ثياباً سوداء ، وقد أثارت في دخيلتي مشاعر يمتزج فيها الاحترام بالاهتمام والإعجاب .

كنت قد سمعت في باريس أن مؤسسة السيد ميلارد تتّبع الطريقة التي تعرف عادة بـ«طريقة التسكين» ـ وأن القصاص أمر غير متبع فيها ؛ حتى الحجز كان نادراً ما يستعمل . ومع أن المرضى يبقون تحت مراقبة سرية ، إلاّ أنهم كانوا يتمتعون بحرية كبيرة ، ويسمح لكثيرين منهم بالتجول في أرجاء المنزل وفي الحدائق كما لو كانوا يتمتعون بكامل قواهم العقلية .

تذكّرت هذا كله ، فكنت حذراً فيما أقوله أمام السيدة ؛ إذ لم يكن من سبيل إلى التأكد من سلامة عقلها ؛ الواقع أن بريقاً مترجرجاً في عينيها دفعني إلى الشك بصحة عقلها . لهذا حصرت ملاحظاتي بأمور عامة ومواضيع أملت ألا تخلو من بعض القيمة أو البهجة حتى بالنسبة إلى مجنون . كانت تجيب على كل كلماتي باتزان ، وكانت في ملاحظاتها

(*) ڤيشنزو بلّيني (١٨٠١ ـ ١٨٣٥) : موسيقي إيطالي ألف «لا نورما» . تأثر به شوبان .

الأولى جيدة الحساسية ؛ على أن معرفتي الطويلة بما وراء طبيعة الجنون علّمتني ألاّ أتشدد في إيماني بمظاهر الصحة العقلية ؛ ولهذا حافظت خلال المقابلة بكاملها على خطة الحذر التي اتبعتها منذ البدء .

وسرعان ما دخل خادم وبين يديه صينية عليها بعض الفاكهة والخمر وبعض المرطبات الأخرى ، أخذت منها بعض الشيء . ولم تلبث السيدة أن غادرت الردهة على عجل ؛ وحينما كانت تخرج من الباب أدرت نظري إلى مضيفي بشيء من التساؤل :

ـ «كلاّ» قال ، «أوه ، كلاّ ـ هي إحدى أفراد عائلتي ـ ابنة أختي ، وسيدة كاملة الأوصاف» .

ـ «أستغفرك آلاف المرات للشك الذي ساورني» أجبت ، «لكنك دون شك تعرف كيف تغفر لي ، إذ إن إدارتك الممتازة هنا تلاقي استحساناً في باريس ، ولهذا فكرت أنه من الممكن ، كما تعلم» .

ـ «نعم ، نعم ـ لا تقل شيئاً آخر ـ واجب الشكر هو في الحقيقة عليَّ لما أظهرته من الفطنة ، إننا نادراً ما نلقى من زوارنا مثل بصيرتك النافذة ؛ لقد حدثت أكثر من مرة مفاجآت مزعجة نتيجة لعدم تبصّرهم . عندما كنت أتبع طريقتي السابقة ، وكان مرضاي يتجولون أحراراً جيئة وذهاباً أنّى شاؤوا ، كانوا غالباً ما يُثارون إلى درجة الخطر بسبب سلوك أشخاص غير حكماء يمرون للتفرج على هذه المؤسسة . لهذا اضطررت إلى فرض نظام صارم من العزلة ، ولم يحصل أحد على إذن لدخول المكان من أولئك الذين لا أثق بأذواقهم وتصرّفاتهم» .

ـ «عندما كانت طريقتك السابقة متبعة !» قلت معيداً كلماته : «هل أفهم منك ، إذاً ، بأن الطريقة المسكّنة (التسكين) التي سمعت عنها الكثير لم تعد متبعة؟» .

ـ «لقد توقفنا عن اتباع تلك الطريقة نهائياً منذ عدة أسابيع» .

ـ «حقاً ! إنك تدهشني !» .

ـ «لقد وجدنا ، يا سيدي ، أنه من الضروري العودة إلى الطريقة القديمة . إذ إن أخطار «الطريقة المسكنة» كانت دائماً مخيفة ، كما أنه قد بولغ في

ميزاتها إلى درجة كبيرة . إنني أعتقد ، يا سيدي ، بأن تلك الطريقة قد وجدت ، في هذا المكان ، فرصة كافية لتجرَّب تجربة عادلة ، وعملنا كل شيء يمكن لإنسان عاقل أن يقترحه . آسف لأنك لم تتمكن من القيام بزيارتنا من قبل لتحكم بنفسك ، لكنني أتصور بأنك ضليع من «الطريقة المسكنة» بكل تفاصيلها» .

ـ «ليس بكل تفاصيلها ، ما أعرفه اكتسبته من طريق خبرات الأشخاص الآخرين» .

ـ «بإمكاني أن أصف الطريقة ، بتعابير عامة ، فهي تترك للمرضى أن يتدبروا مزاجهم بحريَّة . لم نكن لنحول دون تسرب أية تخيلات إلى أذهان المصابين ، بل على العكس ، لم نكن نكتفي بأن نوحي إليهم أحياناً ببعض التخيلات ، إنما نشجعهم على الوثوق بها ؛ وكنا نتوصل إلى كثير من علاجاتنا الناجعة بفضل هذه الطريقة . ليس هناك أي دليل ينفذ إلى ذهن المصاب أكثر من مبدإ «إقامة البرهان بنقض نقيضه» . كان عندنا رجال ، مثلاً ، يتصورون أنفسهم دجاجاً ، وكان العلاج يتم من طريق الإصرار على هذا التصوّر وكأنه حقيقة ـ ثم نتهم المريض بالسخف إن لم يتحقق من أنه فعلاً دجاجة ـ وهكذا نرفض أن نقدم له أي غذاء سوى ذلك الذي يناسب الدجاج لمدة أسبوع . وبهذه الطريقة كان قليل من الذرة والرمل يصنع العجائب» .

ـ «ولكن ، هل كان ذلك النوع من الخضوع للوهم هو كل ما في الأمر؟» .

ـ «كلاً ، كنا نعلق أهمية كبيرة على الأنشطة من الأنواع البسيطة ، كالموسيقى ، والرقص ، والرياضة البدنية عامة ، وأوراق اللعب ، وبعض أنواع الكتب ، وهكذا . اتبعنا طريقة معالجة كل فرد على حدة ، كما لو كنا نعالج من أمراض جسمية ؛ وهكذا فإن كلمة «الجنون» لم تستعمل أبداً . وكنا نعلق أهمية بالغة على أن نعطي كل مصاب مهمة مراقبة أعمال الآخرين وحراستهم . فحين تولي المجنون الثقة بفهمه وإحساسه تستطيع أن تكسبه روحياً وجسدياً . وبهذه الطريقة ، تمكنّا أيضاً من الاستغناء عن عدد كبير من

المراقبين الذين كانوا يكلفوننا نفقات باهظة» .
- «وكنتم لا تستعملون أي نوع من العقاب؟» .
- «أبداً» .
- «ولا تحتجزون مرضاكم مطلقاً؟» .
- «نادراً جداً ؛ حين كـان مزاج بعض المرضى يتطور في بعض الحالات إلى حد الأزمة العصبية ، أو حين يثور مريض ما فجأة ، حينذاك كنا نقود المصاب إلى زنزانة سرية كي لا يؤثر وضعه في غيره من المصابين ، ونحتفظ به هناك إلى أن يحين موعد إطلاق سراحه وإرجاعه إلى أترابه . إننا لا نستطيع أن نعمل شيئاً مع المجنون الثائر ، فمثل هؤلاء يؤخذون عادة إلى المشافي العامة» .
- «والآن غيّرتم كل ذلك . هل تعتقدون أن هذا أفضل؟» .
- «دون شك . كان لتلك الطريقة مساوئها ، وحتى مخاطرها ، ولحسن الحظ أبطلت في جميع مصحات فرنسا» .
- «إنني مندهش جداً لما تخبرني به ، إذ تأكد لي ، في هذه البرهة ، أنه ليس ثمة طريقة أخرى لمعالجة المجنون في أي قسم من البلاد» .
- «لا تزال شاباً يا صديقي» . أجاب مضيفي ، «لكن سيأتي اليوم الذي تتعلم فيه بأن تحكم بنفسك على ما يجري في العالم دون أن تستسلم لثرثرات الآخرين . لا تصدق شيئاً مما تسمع وثق بنصف ما ترى فقط . والآن ، فيما يتعلق بمصحنا ، من الواضح أن غبياً ما قد ضلّلك . على أية حال ، بعد أن تكون قد استرحت من مشاق السفر ، وبعد تناول العشاء ، سيكون من دواعي سروري أن أريك أقسام المصح ، وأعرّفك على طريقة ، هي في رأيي ، وفي رأي من تحقق من نتائجها ، أنجع طريقة سبق أن تم اكتشافها حتى اليوم» .
- «أهي من اكتشافاتك؟» «هل هي إحدى اكتشافاتك الخاصة؟» .
- «إنه لمن دواعي افتخاري أن أعترف بأنها من اكتشافاتي - على الأقل - إلى حد ما» .
بقيت أتجاذب أطراف الحديث مع السيد ميلارد على هذا النحو لمدة

ساعة أو ساعتين أراني في خلالها الحدائق وقاعات الموسيقى التابعة للمؤسسة ، قال :

ـ «لا يمكنني أن أريك المرضى الآن . هناك دائماً أمر مريع في مثل هذه المشاهد لذوي الطباع المرهفة ، ولا أرغب في أن أفسد عليك شهيتك قبل العشاء . سنأكل . بإمكاني أن أقدم لك بعضاً من لحم العجل والقنّبيط مع مرق اللحم ، وبعد ذلك كأساً من النبيذ ، عندها ستكون أعصابك قد هدأت بما فيه الكفاية» .

في الساعة السادسة جاء من يعلن أن العشاء جاهز ، وقادني مضيفي إلى غرفة طعام كبيرة حيث كان يجتمع عدد كبير من الناس ـ حوالى الخمسة والعشرين أو الثلاثين ـ كانوا ، على ما يظهر ، أناساً ذوي مكانة مرموقة ـ وذوي حسب عريق دون شك ـ مع أن ملابسهم كانت مسرفة في الأبهة ، كما ظهر لي . لاحظت أن حوالى ثلثي الضيوف كانوا من النساء ، بعضهن يتزيّنَّ بثياب لا يمكن أن يعتبرها الپاريسي أنيقة بالنسبة إلى الوقت الحاضر ، وكثير منهنَّ ـ ممن لا تنقص أعمارهن عن السبعين ـ كنّ يتحلّين بأنواع من الحلي ، كالخواتم والعقود والأقراط ، ويتركن صدورهن وأذرعهن عارية دون خجل . ولاحظت أيضاً أن الثياب المصنوعة بإتقان كانت قليلة بين الحضور ، أو على الأقل ، أن قليلاً من تلك الثياب كانت تناسب اللابسين . حين تلفت حولي رأيت الفتاة الجميلة التي عرّفني عليها السيد ميلارد في الردهة الصغيرة ، لكن دهشتي كانت عظيمة عندما رأيتها تلبس طارة وحذاءً ذا كعب عال وقبعة مصنوعة من الشريط المتّسخ تبدو كبيرة جداً بالنسبة إلى رأسها ، حتى أن وجهها يظهر صغيراً ومضحكاً . عندما رأيتها في المرة الأولى كانت ترتدي ثياباً سوداء وتظهر بشكل لائق يدل على أنها في حداد . باختصار ، كان هناك شيء من الغرابة في أزياء جميع الضيوف ، ما جعلني ، في البدء ، أسترجع ، بيني وبين نفسي ، ما أعرفه عن الطريقة المسكنة ، متصوراً أن السيد ميلارد كان يحاول أن يخدعني إلى أن ينتهي العشاء كي لا أشعر بأي انزعاج خلال المأدبة حين أجد نفسي آكل مع مجانين . غير أنني تذكرت ما سمعته في پاريس من أن أهل الجنوب قوم

ذوو طباع غريبة ، تتملكهم أفكار قديمة جداً . والأهم من كل ذلك أنني حينما تحدثت مع الحضور ، بعد ذلك ، تلاشت مخاوفي كلياً وسريعاً .

كانت غرفة الطعام تفتقر إلى كثير من سمات الأناقة ، مع أنها كانت واسعة جداً ومريحة ، فمثلاً كانت الأرض غير مغطاة بالسجاد ، لكن على أية حال ، نادراً ما يُستعمل السجاد في فرنسا . أما النوافذ فكانت دون ستائر ، وأبوابها الموصدة كانت تبدو كأبواب المخازن في باريس تتقاطع عليها القضبان الحديدية زيادة في الحرص . ولاحظت أن الشقة تكوّن ، وحدها ، جناحاً كاملاً من القصر تبدو فيه النوافذ موزعة في الجهات الثلاث ، بينما يوجد الباب في الجهة الرابعة . ولاحظت أيضاً أن هناك ما لا يقل عن عشر نوافذ .

كانت المائدة ذات شكل فخم مليئة بالصحون التي ترزح تحت أثقال من الطعام . أما طريقة الترتيب فبربرية تماماً . كان على المائدة من اللحم ما يكفي لإطعام قبيلة بكاملها . لم أشاهد في حياتي كلها مثل ذلك الإسراف أو الاستخدام السيئ لموارد الطبيعة . كانت قلة الذوق تبدو جلية في الترتيب . وكان الضوء المتوهج يبهر عيني اللتين تعودتا على الأضواء الخافتة ، إذ إن عدداً كبيراً من الشموع كان موضوعاً في قوائم فضية وملقى على الطاولة دون تنسيق وفي أماكن مختلفة من أرجاء القاعة . وكان هناك عدد كبير من الخدم الذين يبدون في أوج نشاطهم ، وفي الطرف الآخر من الشقة مائدة كبيرة يجلس عليها سبعة أو ثمانية أشخاص ومعهم مزامير وطبول وصفارات . لقد سبب لي أولئك الفتيان إزعاجاً كبيراً ، إذ إنّهم ، خلال الوليمة ، كانوا يحدثون أنواعاً لا تحصى من الأصوات ، القصد منها ، على ما يظهر ، أن تكون موسيقى ، وكانت تلقى من الجميع إعجاباً واستحساناً ، باستثنائي أنا .

لم أستطع ، بشكل عام ، أن أمتنع عن التفكير ، بأن شيئاً ما ، غريباً ومصطنعاً ، يميز كل ما يقع عليه النظر . لكن العالم مكوَّن من مختلف أنواع البشر ، بمختلف أنواع التفكير ، ومختلف العادات والتقاليد . كنت قد سافرت كثيراً وأصبحت قادراً على أن أمسك عن استغراب أي شيء ؛ هكذا

أخذت مكاني بهدوء إلى يمين مضيفي ، وإذ كنت ذا شهية ممتازة أكلت من الخيرات التي قُدّمت .

كان الحديث ، خلال المأدبة ، حيوياً وعاماً . وكالعادة أكثرت السيدات الكلام ؛ وسرعان ما تبيّن لي بأن جميع الحضور ، تقريباً ، كانوا على درجة علمية لا بأس بها ، أمّا مضيفي فعالم من الفكاهات بحد ذاته . كان ، على ما يظهر ، يجد لذة خاصة في أن يتكلم عن نفسه كرئيس للمصح ؛ وفي الحقيقة كان موضوع الجنون موضوعاً شيّقاً يتحدث الجميع عنه ؛ وقد سمعت ، في أثناء تناول الطعام ، عدداً كبيراً من القصص المسلية التي تصف غرابة طباع المرضى .

ـ «كان عندنا شخص» قال رجل ضئيل الجسم يجلس إلى يميني ـ «شخص يتصور نفسه إبريق شاي ؛ وبالمناسبة أليس غريباً كيف شقّ هذا الوعاء طريقه مرات عديدة إلى أذهان المرضى؟ إذ لا يكاد يوجد مصح عقلي واحد في كل فرنسا يفتقر إلى إبريق شاي بشري . أمّا صاحبنا هذا فكان إبريق شاي بريطانيٍّ الصنع ، وكان شديد الحرص على أن يلمّع نفسه كل صباح بالجلد والعشب» .

وقال رجل آخر يجلس مقابل الرجل الأول ، «كان عندنا هنا أيضاً ، منذ زمان غير بعيد ، رجل دخل في روعه أنه حمار . والحقيقة أن هذا ، من الناحية المجازيّة ، صحيح تماماً . فقد كان مريضاً مزعجاً ، وكنا نرهق أنفسنا لنبقيه ضمن الحدود العقلية المعقولة . وقد رفض ، لمدة طويلة ، أن يأكل شيئاً غير الأشواك ، لكن سرعان ما نجحنا بمعالجته من هذا الوهم بأن أصررنا على أن لا يأكل شيئاً غير هذا . ثم إنه كان دائم الرفس بعقبيه ، هكذا ـ هكذا ـ» .

ـ «سيد ديكوك ! سأكون شاكرةً إذا تأدبت !» ، قاطعته سيدة عجوز كانت تجلس إلى جانبه ـ «أرجوك أن تحتفظ برجليك لنفسك ! لقد خرّبت تطريزي ! أستحلفك أن تخبرني هل من الضروري أن تشرح هذه الطريقة بشكل عملي كما تفعل؟ إن صديقنا هذا باستطاعته ، حتماً ، أن يفهم ما تقصد بدون هذا كله . إنني أقسم بأنك حمار كبير كما كان ذلك المسكين

يتصور نفسه ؛ وتصرفك طبيعي جداً ، وحق السماء» .

ـ «ألف عذر ، يا آنسة !» ، أجاب السيد ديكوك . «ألف عذر ! لم أرد أن أزعج أحداً آنسة لابلاس ـ إنه مما يشرّف السيد ديكوك أن يشاركك الخمر» .

وهنا انحنى السيد ديكوك انحناءة كاد يصل معها إلى الأرض ، وقبّل يده بأبهة ظاهرة ، وشرب نخب الآنسة لابلاس .

ـ «اسمح لي يا صديقي» . قال السيد ميلارد يخاطبني ، «اسمح لي بأن أقدم لك هذه القطعة من لحم العجل . ستجده لذيذ الطعم بشكل خاص» .

في هذه اللحظة قام ثلاثة من الخدم بوضع آنية ضخمة على الطاولة ؛ وبعد أن تفحصتها عن كثب تبيّن لي أن ما كانت تحتويه ليس في الحقيقة سوى عجل صغير مشوي بكامله ، موضوع على ركبتيه ، وفي فمه تفاحة كما هي الطريقة الإنكليزية في تزيين الأرنب المشويّ .

ـ «كلاّ ، أشكرك» أجبته ، «في الواقع لست مولعاً بالعجل المشويّ بهذه الطريقة ؛ ما هي؟ إذ إنني لا أجدها تناسبني أبداً . سأبدل صحني على كل حال ، وآكل شيئاً من هذا الأرنب» .

كان هناك عدد كبير من الصحون الجانبية موزعة على المائدة ، تحتوي على ما ظهر وكأنه الأرنب الفرنسي ، وهو نوع من اللحوم اللذيذة جداً والتي أحبها .

ـ «بيار» صاح مضيفي ، «أبدل صحن هذا السيد ، وقدم له قطعة جانبية من هذا الأرنب . . مع الهرة» .

ـ «مع ماذا؟» صرخت .

ـ «هذا الأرنب مع الهرة» .

ـ «أوه ، شكراً ـ كلاّ ، بعد أن فكرت بالأمر ؛ سأتناول قليلاً من لحم الخنزير فقط» .

وقلت في نفسي «لا يمكن لأحد أن يعرف ماذا يأكل على موائد هؤلاء الناس ، لن أتناول أياً من أرانبهم المطبوخة مع الهررة ، ولا حتى من هررتهم المطبوخة مع الأرانب ، أيضاً» .

ـ «ثمّ» ، قال شخص يبدو شاحب اللون يجلس إلى طرف المائدة ، وهو

يتابع الحديث حيث توقف «من بين الغرائب أيضاً أنه كان عندنا مريض يظن نفسه جبناً قرطبياً ، وكان يدور والسكين في يده راجياً أصدقاءه أن يجربوا قطعة من منتصف ساقه» .

ـ «كان مجنوناً تماماً ، دون شك» . علق أحدهم ، «لكن لا يمكن مقارنته بشخص نعرفه جميعاً ، باستثناء هذا السيد الغريب ؛ أعني ذلك الذي كان يعتبر نفسه قنينة شمپانيا ؛ وكان دائماً يتجول وهو يحدث دوياً ويفور كما يحدث لقنينة الشمپانيا حين تُفتح سدّادتها» .

وهنا وضع المتكلم إبهامه الأيمن ، بكل فظاظة ، في حنكه الأيسر ، وانتزعه محدثاً صوتاً شبيهاً بصوت الفلّينة وهي تُنتزع من القنينة ؛ ثم أخذ يحرك لسانه حول أسنانه محدثا أصواتاً حادة من الفحيح والفوران استمرت لعدة دقائق ، مقلّداً صوت الشمپانيا وهي تفور من القنينة . رأيت ، بوضوح ، أن هذا التصرف لم يكن مصدر سرور كبير للسيد ميلارد ، لكن هذا الأخير لم يقل شيئاً ، واستمرّ الحديث على لسان أحد الحضور الآخرين .

ـ «كان هناك أيضاً غبي يتصور نفسه ضفدعاً ؛ والحقيقة أنه لم يكن بعيد الشبه عن الضفدع . أتمنى لو تمكنت من رؤيته يا سيدي» . قال المتكلم موجهاً حديثه إليّ «كان سيبهج قلبك أن تشاهد الأدوار التي يقوم بها ؛ ومن المؤسف حقاً أنه لم يكن ضفدعاً حقيقياً . نقيقه هكذا ـ واق ـ وواققق ! كان أجمل صوت في العالم ـ وحين كان يضع مرفقيه على الطاولة ـ هكذا ـ بعد أن يتناول قدحاً أو قدحين من الخمر ، كان يمط فمه ، هكذا ؛ ويبرم عينيه ، هكذا ، ويغمز بهما بسرعة مدهشة ، هكذا ؛ ولهذا يا سيدي ، أثق أنك ، بدون أدنى ريب ، كنت ستؤخذ إعجاباً بعبقرية ذاك الرجل» .

ـ «ليس لدي شك بذلك» .

ـ «ثم» ، قال شخص آخر ، «ثم كان عندنا جيلارد الصغير ، الذي يتصوّر نفسه قرص نشوق ، ويتكدّر بالفعل لأنه لم يكن يستطيع أن يمسك بنفسه بين سبابته وإبهامه» .

«وهناك أيضاً جولس ديزوليير ، الذي كان في الحقيقة عبقرياً فريداً من

نوعه ، وكان سعيداً جداً إذ يتصور نفسه قرعة ، ويرجو الطاهي أن يصنع منه فطيراً ، الأمر الذي رفض الطاهي أن يقوم به ، أمّا من جهتي فإنني لست متأكداً تماماً من أن فطيرة مصنوعة من ديزوليير لن تكون وجبة رائعة» .

ـ «أنت تدهشني !» قلت ، ونظرت إلى السيد ميلارد متسائلاً .

ـ «ها ! ها ! ها !» قال ذلك السيد ـ «هيْ ! هيْ ! هيْ ! ـ هاي ! هاي ! هاي ! ـ هوْ ! هوْ ! هوْ ! ـ وجبة رائعة حقاً ! يجب ألا تدهش يا صديقي ، إن صاحبنا هذا فكاهي مهرّج ويجب ألاّ تأخذ كلامه على محمل الجد» .

ـ «ثم» ، قال شخص آخر من الحضور : «ثم كان عندنا بوفون العظيم ، شخص آخر غريب على طريقته الخاصة . نشأ مشوشاً بسبب الحب ، وكان يتصور أنَّ له رأسين ، يؤكد أنَّ أحدهما رأس شيشرون(*) ، والآخر رأس معقّد مكوّن من رأس ديموستينيس(**) من أعلى الجبهة وحتى الفم ، ورأس اللورد بروغام(***) من الفم حتى الذقن . كان من المستحيل أن يكون مخطئاً ، ولا ريب في أنه ينجح في إقناعك بصحة تصوره ، إذ إنه كان رجلاً بليغاً جداً . كان مولعاً بالخطابة ولعاً غريباً ، ولم يكن يستطيع التوقف عن عرض مواهبه . فمثلاً كان يقفز على مائدة الطعام هكذا ، وـ وـ .» .

وهنا وضع صديق للمتكلم يده على كتفه ، وتمتم ببضع كلمات في أذنه جعلته يتوقف عن عرض المشهد ويعود إلى كرسيه بهدوء .

ـ «ثم» قال الرجل الذي تمتم لصديقه : «كان عندنا بولارد الدوامة ذات الشعب الثلاث ، لأنه كان في الواقع عبداً للتفكُّه لكن ليس بشكل منطقي تماماً ، فقد توهم أنه تحول إلى دوامة . لو رأيته يدور على نفسه لتلاشيت من الضحك . كان يدور على عقب واحدة لمدة ساعة ، على هذا الشكل ـ هكذا ـ» .

وهنا قام صاحبه الذي توقف عن دوره بعد أن همس المتكلم في أذنه ، بأداء دور مماثل وبطريقته الخاصة .

(*) شيشرون أو قيقرون Cicero (١٠٦ ـ ٤٣ق .م) أكبر خطيب وكاتب ومفكّرعرفته روما .

(**) ديموستينيس Démosthenès (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق .م) سياسي وخطيب .

(***) البارون هنري پيتر بروغام الأول (١٧٧٨ ـ ١٨٦٨) رجل سياسي إنكليزي .

ـ «لكنّ» ، صرخت عجوز بأعلى صوتها : «السيد بولارد كان مجنوناً ، ومجنوناً سخيفاً في أحسن الحالات ، إذ من سمع بدوامة بشرية؟ هذا لا معنى له ، السيدة جوايوز كانت شخصاً أعقل منه ، كما تعلم . كانت تضفي على كل معارفها سروراً بالغاً . وجدت ، بعد تمحيص دقيق ، أنها ، بسبب حادث ما ، قد تحوّلت إلى ديك ، وكانت تتصرف بلياقة كاملة ، فتضرب بجناحيها بشكل رائع ـ هكذا ـ هكذا ـ هكذا ، وأمّا صياحها فكان رائعاً جداً ! كوك ـ أ ـ دودل ـ دو ! كوك ـ أ ـ دودل ـ دو ! ـ كوك ـ أ ـ دودل ـ دي دو ـ دو ـ دوو ـ دوووووو !» .

ـ «السيدة جوايوز ، أكون ممتناً كثيراً ، إذا تصرفت بلياقة !» قاطعها هنا مضيفي بحنق ظاهر : «بإمكانك أن تتصرفي كما ينتظر منك كسيدة ، أو أن تتركي المائدة حالاً . . اختاري» .

احمر وجه تلك السيدة حتى حاجبيها (وقد دهشت أن أسمع مضيفي يدعوها بالسيدة جوايوز بعد الوصف الدقيق الذي قدمته السيدة جوايوز) ؛ وظهر أنها قد خجلت خجلاً فظيعاً ، وأخفت رأسها ولم تجب بحرف واحد . لكن سيدة أخرى ، أصغر سناً منها ، تابعت الحديث . كانت هي تلك الفتاة الجميلة التي تعرفت عليها في الردهة .

ـ «أوه ، السيدة جوايوز كانت مجنونة» قالت بحماسة : «لكن أفكار أوجيني سالسافيت كانت أكثر تعقلاً . كانت سيدة رائعة الجمال ، بسيطة المظهر ، وتؤمن بأن الطريقة التي تتبعها النساء في اللباس غير لائقة ، لهذا كانت ترغب دائماً ، حين ترتدي ثيابها ، أن تخرج من هذه الثياب بدل أن تدخل فيها . إن هذا أمر بالغ السهولة . على أية حال ليس عليك أن تفعل أكثر من هذا ـ هكذا ، ثم هكذا ـ وهكذا ـ ثم هكذا ـ وهكذا ـ وهكذا ؛ ثم ـ» .

ـ «يا إلــهي ، آنسة سالسافيت !» هنا تعالت أصوات كثيرة : «ما الذي تفعلينه؟ ـ احتشمي ـ يكفي هذا ! ـ إننا نرى بوضوح تام كيف يمكن فعل ذلك ! ـ توقفي ! توقفي !» . وقفز عدة أشخاص من مقاعدهم ليحاولوا أن يمنعوا الآنسة سالسافيت من أن تجرد نفسها من الثياب بكليتها ؛ ولم يكن

من حاجة إلى هذه المحاولة ، إذ إن الآنسة سرعان ما توقفت عن عملها عندما بلغ أسماعنا أصوات ولولة وصراخ مفاجئ وحاد من بعض أنحاء القصر .

لقد توتّرت أعصابي جداً ، في الحقيقة ، بسبب هذا الصراخ ، غير أن مشهد الآخرين أحزنني فعلاً . لم أر في حياتي جماعة من الناس أصابهم الرعب على هذا الشكل . شحبت ألوانهم جميعاً وأصبحت كألوان الموتى ، وإذ تقلّصوا في مقاعدهم أخذوا يرتجفون من الرعب كأنهم يترقبون حدثاً خطيراً . وجاءت الأصوات مرة أخرى ـ أعلى وأقرب على ما يبدو ـ ثم مرة ثالثة ، كانت الأصوات عالية جداً ، ثم مرة رابعة ، وكانت هذه الأخيرة خافتة . مع اختفاء هذه الأصوات استعاد الجماعة قواهم وعاد كل شيء إلى ما كان عليه . عندئذ لم أجد بدأ من أن أتساءل عن سبب الصراخ .

ـ «مجرد أضحوكة» قال السيد ميلارد ، «إنّنا معتادون على هذه الظواهر ، والحقيقة أننا لا نهتم بها كثيراً . فالمجانين ، بين الحين والآخر ، تأخذهم نوبات صراخ جماعية ، صرخة تثير صرخات تتبعها ، كما هي الحال مع قطيع من الكلاب البريّة الهائجة في الليل . يحدث أحياناً أن تتبع هذا الصراخ محاولات من المجانين للإفلات من عقالهم ، وعندها ، بالطبع ، يمكن أن نتوقع خطراً ما» .

ـ «وكم عدد الذين هم تحت إشرافك؟» .

ـ «في الوقت الحاضر ليس عندنا أكثر من عشرة» .

ـ «أكثرهم إناث ، على ما أعتقد؟» .

ـ «أوه ، كلاّ ، كل واحد منهم رجل ، ويمكن القول إنه رجل قوي» .

ـ «حقاً ! كنت أعتقد أنَّ أكثر المصابين هم من الجنس اللطيف» .

ـ «هذا بشكل عام ، لكن ليس دائماً . فمنذ مدة قصيرة كان هنا حوالى السبعة والعشرين مريضاً ، بينهم ما لا يقلّ عن ثماني عشرة امرأة ، لكن مؤخراً ، تغيرت الأحوال ، كثيراً ، كما ترى» .

ـ «نعم ، تغيّرت كثيراً ، كما ترى» قاطع السيد الذي قطّع تطريز الآنسة لابلاس .

ـ «نعم ، تغيرت كثيراً ، كما ترى !» ردّد الجميع بصوت واحد .

ـ «أمسكوا ألسنتكم» قال مضيفي بغضب بالغ فرض على الحضور هدوءاً تاماً استمر حوالى الدقيقة . وكانت هناك سيدة ، أطاعت أمر السيد ميلارد حرفياً ، إذ قذفت بلسانها خارج فمها ، وكان لساناً طويلاً حقاً ، ثم أمسكت به ، بكل ثبات ، بكلا كفّيها حتى نهاية المشهد .

ـ «وهذه السيدة» ، قلت للسيد ميلارد ، وأنا أميل نحوه وأكلمه بصوت منخفض : «هذه السيدة التي تكلمت الآن ، والتي قامت بدور الكوك ـ أ ـ دودل ـ دي ـ دو ـ أعتقد أنها غير مؤذية ـ غير مؤذية أبداً ، أليس كذلك؟» .

ـ «غير مؤذية !» أجاب بدهشة غير مصطنعة ، «ماذا ـ ماذا ، ما الذي يمكن أن تعنيه؟» .

ـ «أهي مصابة بمس خفيف؟» قلت وأنا أشير إلى رأسي . «أتصور أنها ليست مصابة بشكل خطر ! إيه؟» .

ـ «يا إلــهي ! ما الذي تتصوّره؟ هذه السيدة صديقتي الحميمة ، السيدة جوايوز ، إنها بكامل قواها العقلية ، تماماً مثلي . إنّ لها بعض الطباع الغريبة لا شك في ذلك ، لكن ، كل النساء العجائز ـ الطاعنات في السن ـ كما تعلم ، هن ، نوعاً ما ، ذوات أطوار غريبة» .

ـ «دون شك» ، قلت ـ «دون شك ـ ثم بقية هؤلاء السيدات والسادة؟» .

ـ «هم أصدقائي ومعاونيّ» ، قاطعني السيد ميلارد ، وهو يتخذ طابع الاستعلاء ـ «إنهم أصدقائي ومعاونيّ الأعزاء» .

ـ «ماذا ! كلهم؟» سألته ، «النساء . . والجميع؟» .

ـ «بالتأكيد» ، قال «لا يمكنني أن أتدبر الأمر أبداً بدون النساء . إنهن أفضل ممرضات من الجنون في العالم . إن لهن طريقتهن الخاصة ، كما تعلم ؛ إن لعيونهن البرّاقة فعلاً عجيباً ـ شيئاً كسحر الأفاعي ، كما تعلم» .

ـ «دون شك» قلت «دون شك ! إنهن يتصرفن ببعض الغرابة . إنهن شاذات نوعاً ما؟ ـ ألا تعتقد ذلك؟» .

ـ «غريب ! ـ شاذات ! ـ ماذا ! هل حقاً تقصد ذلك؟» إننا لسنا شديدي

الحصافة هنا في الجنوب ، دون شك ـ نتصرف في الغالب كما نرغب ـ نتمتع بالحياة ، وكل الأمور الأخرى ، كما تعلم» .

ـ «دون شك» ، قلت «دون شك» .

ـ «ثم ، لعل هذه الخمرة تؤثر في الرأس نوعاً ما ، كما تعلم ـ قوية إلى درجة ما ـ أتفهم ما أعني ، إيه؟» .

ـ «دون شك» قلت «دون شك ، بالمناسبة ، يا سيدي ، هل فهمت منك أن الطريقة التي تتبعها الآن ، بدل الطريقة الشهيرة المعروفة بالطريقة المسكنة ، هي بالغة الصرامة؟» .

ـ «أبداً ! إن الحصار المضروب حول المصابين محكم فعلاً ، لكن علاجنا ، علاجنا الطبي ، أعني . . يحظى بقبول المرضى بشكل مرضٍ» .

ـ «والطريقة الجديدة هي من اختراعك الخاص؟» .

ـ «ليس كلها ؛ بعض أجزائها من ابتكار البروفسور «تار» الذي لا أشك أنك سمعت عنه ، ثم هناك بعض التعديلات في طريقتي التي أعترف ، بتواضع كلي ، أنها تعود إلى الشهير «فذر» ، الذي لا بد أن تكون قد حظيت بشرف لقائه ، إن لم أكن مخطئاً» .

ـ «إنني أخجل جداً ، إذ أعترف ، أجبت ، بأنني في الحقيقة لم أسمع بأيّ من هذين الاسمين لهذين الشهيرين من قبل» .

ـ «يا إلــهي !» صاح مضيفي ، وهو يسحب كرسيه فجأةً إلى الخلف ويرفع ذراعيه في الهواء «لا بد أنني لم أسمعك جيداً . إنك لم تقصد أن تقول ، إيه؟ بأنك لم تسمع بالعالم الشهير الدكتور تار ولا بالبروفسور فذر؟» .

ـ «أراني مجبراً على الاعتراف بجهلي» أجبت «لكن الحقيقة يجب أن تقال رغم كل شيء . على أية حال ، إنني أشعر بضعة بالغة لأنني لست مطلعاً على كتابات هؤلاء الذين لا شك في أنهم رجال متفوّقون ، سأبحث عن كتبهم حالاً ، وسأعكف على دراستها بكل اهتمام . سيد ميلارد ، بالفعل ـ يجب أن أعترف بذلك ـ بالفعل ، جعلتني أخجل من نفسي !» .

وهذه كانت الحقيقة .

ـ «لا تقل أي شيء آخر ، يا صديقي الشاب العزيز» ، قال هذا بلطف وهو يضغط على يدي ، «وشاركني الآن شرب كأس من الخمر» . وشربنا . وحذا حذونا الحضور . ثرثروا ، وهزلوا ، وضحكوا ، وقاموا بآلاف السخافات ، وزعقت الزمامير ، وضربت الطبول ، وشخرت الأبواق كقطيع من عجول فالاريس ، وكان المشهد بكامله يتطور من سيّئ إلى أسوإ ، بينما كانت الخمر تفعل فعلها ، وخيم نوع من جحيم الأبالسة . وفي هذه الأثناء كنت والسيد ميلارد ، وبيننا بعض القناني من الخمر ، نتبادل الحديث بأعلى ما أوتينا من قوة الحنجرة ، حتى أنه لم يكن للكلمة التي تلفظ بصوت اعتيادي نصيب في بلوغها أذن الآخر أكثر من نصيب صوت تطلقه سمكة في قعر شلالات نياغارا .

ـ «ويا سيدي» صرخت في أذنه ، «ذكرت شيئاً قبل العشاء عن بعض المخاطر التي تكمن في الطريقة المسكنة التي كنتم تتبعونها من قبل ؛ فماذا تقصد بذلك؟» .

ـ «نعم» أجاب ، «كان هناك ، أحياناً ، خطر بالغ ، بالفعل . إذ لا يمكنك أن تتصور أنواع الحيل التي يمكن أن يبتدعها المجنون ؛ وفي رأيي ، كما في رأي الدكتور تار والبروفسور فذر ، أنه ليس من السلامة في شيء ترك المجانين على سجيتهم دون مراقبة . من الممكن «تسكين» المجنون ، كما يقال ، لمدة ، ولكن قد يصبح في النهاية شيطاناً لعيناً . إن دهاءه مضرب الأمثال وهو بالغ الخطورة . فإذا ما كان لديه مخطط ما فإنه يخفي نواياه بحكمة مدهشة ، والمهارة التي يظهرها حين يدعي الصحة هي في الحقيقة أحد المظاهر التي تواجه عالم ما وراء الطبيعة بواجب الدراسة لفهم العقل البشري . عندما يظهر المجنون صحيحاً كلياً ، يعني ذلك أن الوقت قد حان لوضعه في قفص» .

ـ «لكن الخطر الذي تتكلم عنه يا سيدي العزيز ـ حسب اختباراتك الخاصة في أثناء إدارتك لهذا المصح ـ هل سبق لك أن تأكدت من أن الحرية تفشل في معالجة المصاب؟» .

ـ «هنا؟ ـ حسب اختباراتي الخاصة؟ ـ لماذا؟ بإمكاني أن أقول ، نعم .

فمثلاً ، منذ مدة قريبة حدث أمر غريب جداً في هذا المكان بالذات . كانت «الطريقة المسكنة» ، التي تعرفها ، هي المتبعة ، وكان عدد المرضى كبيراً ، وكانوا يتصرفون بتعقل تام ، عموماً ، حتى أن أي شخص ، ذي إدراك ، ما كان ليشك بأن مخططاً شيطانياً ما ، هو قيد الإعداد ، لأن المجانين كانوا يتصرفون على ذلك الوجه من التعقل التام . وكما هو منتظر ، فقد وجد القائمون على إدارة المصح أنفسهم في صباح يوم جميل مقيدين بأقدامهم وأيديهم ومطروحين في الزنزانات ، والمجانين يقومون على العناية بهم ، كأنما أصبحوا هم المجانين بعدما اغتصب المجانين السلطة منهم» .

ـ «لا يمكن أن تكون جاداً ! إنني لم أسمع بأغرب من هذا العمل في حياتي !» .

ـ «إنها الحقيقة . كل العملية حدثت بسبب شخص سخيف ـ معتوه ـ تسربت إلى رأسه بعض الأفكار من طريقة ابتدعها ، وظن أنها أفضل من أية طريقة أخرى لإدارة المصح ، أعني إدارة المجانين . ورغب هذا في أن يجرّب اختراعه لمدة ، على ما أعتقد ، وهكذا تمكن من إقناع بقية المجانين بأن يشتركوا معه في هذا الانقلاب .

ـ «وقد نجح فعلاً؟» .

ـ «لا شك في ذلك . فقد تبادل القيّمون على المجانين مع المجانين أماكنهم . وليس هذا بالضبط ؛ إذ إن المجانين كانوا من قبل أحراراً ، بينما أصبح القيمون ، بعد الانقلاب ، سجناء ، وعوملوا ، ويا للأسف ، بطريقة شهمة جداً» .

ـ «لكنني أتصور أن ثورة مضادة سرعان ما حدثت . فهذه الوضعية لا يمكن أن تكون قد استمرَّت طويلاً . أهل الريف بجوار المكان ـ الزوار الذين يأتون للتفرّج على المصح ـ لا بد أنهم أطلقوا إنذاراً» .

ـ «هنا ، أنت على خطإ ؛ فالثائر الأكبر كان على درجة عالية من الدهاء ، إذ إنه لم يسمح لأي من الزوار بدخول المصح ، هذا باستثناء شخص كانت تظهر عليه دلائل السخف البالغ ، وبعد أن تأكد أنه لا خطر من دخوله ، سمح له بزيارة المكان ـ هذا على سبيل تنويع المشاهد ـ

وللحصول على شيء من التسلية ؛ وبعد أن نال منه ما فيه الكفاية ، أخرجه وأعاده من حيث أتى» .

- «وكم استمر حكم المجانين إذاً؟» .

- «أوه ، استمرَّ وقتاً طويلاً ؛ الحقيقة أنه استمر شهراً . لا يمكنني أن أقول ما إذا طال حكمهم أكثر من ذلك . في هذه الأثناء حصل المجانين على فترة من أمتع فترات إقامتهم هنا . بإمكانك أن تقسم على ذلك ؛ لقد خلعوا ثيابهم البالية واقتحموا خزائن الثياب التابعة للمدراء ، واستعملوا مجوهراتهم ، وكانت عنابر القصر مليئة بالخمر الجيدة ، والمجانين هم ، بالفعل ، شياطين تعرف كيف تشرب الخمر . عاشوا جيداً ، بإمكاني أن أؤكد لك ذلك» .

- «والمعالجة ! ما هي خصائص تلك المعالجة التي اتَّبعها ذلك الثائر الأكبر في أثناء تلك الفترة؟» .

- «لماذا المعالجة ؛ إن المعتوه ليس بالضرورة شخصاً مجنوناً كما سبق وتأكدت من ذلك . وإنني بكل ارتياح أقول إن طريقته كانت أفضل بكثير من الطريقة التي سبقتها . كانت طريقة رائعة بالفعل ، بسيطة ، مرتبة ، لا مشاكل مطلقاً ، في الواقع كانت ممتعة ، كانت . .» .

هنا توقف محدثي عن الكلام بسبب ارتفاع حدّة الصراخ والعويل مجدداً - الصراخ نفسه الذي ارتفع من قبل - إلا أنه ، هذه المرة ، كان صراخاً ينبعث من جماعات يظهر أنها تتقدم نحونا بسرعة .

- «يا إلـهي !» صرخت «لا بدَّ أن المجانين قد حطّموا الأبواب وخرجوا» .

- «أخشى أن تكون مصيباً هذه المرة» ، أجاب السيد ميلارد ، بعد أن امتقع لونه من شدة الاصفرار . ولم يكد ينهي عبارته حتى سمعت صراخاً شديداً وصياحاً تحت النوافذ ؛ وبعد ذلك مباشرة ، تبيّن أن بعض الأشخاص في الخارج كانوا يحاولون اقتحام الغرفة . كان الباب يُضرب ضرباً شديداً بالمطارق ، ولم تلبث الأقفال أن تكسرت وفُتحت الأبواب بقوة .

تبع هذا كله مشهد من الفوضى المرعبة لا يُصدّق . وكانت دهشتي بالغة حين رمى السيد ميلارد بنفسه تحت الطاولة ، إذ كنت أنتظر منه حزماً أكثر .

أما أعضاء الأوركسترا ، الذين كانوا في الربع الساعة الأخيرة من السكر بحيث لم يتمكنوا من أداء ما هو منتظر منهم ، فقد قفزوا على أقدامهم ممسكين بآلاتهم ، وبحركة واحدة مفاجئة أصبحوا فوق الطاولة وأخذوا يعزفون نغم «يانكي دودل» بقوة تفوق قدرة البشر خلال فترة الفوضى تلك .

وفي هذه الأثناء ، وفوق مائدة الطعام ، وبين القناني المتناثرة ، قفز السيد الذي سبق أن مُنع عن القفز إلى الطاولة ، وحالما استقر له المقام هناك ، ابتدأ بخطبة كانت ، ولا شك ، خطبة رائعة ، لو أمكن سماعها . وفي الوقت نفسه أخذ الرجل الدوامة يدور على نفسه في أرجاء الغرفة بسرعة مذهلة ، وذراعاه ممدودتان بشكل يكوّن زاويتين قائمتين مع جسده ، حتى أنه ظهر كدوامة حقيقية ذات ثلاث شعب ، وكان يطرح أرضاً كل من اعترض طريقه . والآن ، كذلك ، سمعت أصواتاً لا تصدق من الفحيح والفوران ـ شمپانيا ـ واكتشفت بعد برهة أنها كانت تصدر عن ذلك الشخص الذي قام بمشهد زجاجة الشمپانيا خلال المأدبة . وأيضاً ، ومرة أخرى ، أخذ الرجل الصفدع ينق كما لو أن خلاص روحه كان يتوقف على كل صوت يخرج من فمه . وفي وسط كل هذا ، كان نهيق حمار يرتفع فوق جميع الأصوات . أما صديقتي القديمة السيدة جوايوز ، فقد كان باستطاعتي أن أبكي لحالها ، لأنها كانت تبدو في حالة قلق مرعب هائل . وكان كل ما تفعله ، هو وقوفها قرب المدفأة وصراخها بدون انقطاع وبأعلى صوتها : «كوك ـ أ ـ دودل ـ دو ـ دووووووو !» .

والآن ، نبلغ القمة ـ فاجعة المأساة . بما أن المقاومة ضد المتدخّلين كانت مقتصرة على الصراخ والعويل والصياح ، فقد اندفعت الشبابيك العشرة منفتحة في وقت واحد . ولا يمكن أن أنسى أبداً مشاعر الدهشة والرعب التي أصابتني حين قفز من الشبابيك جيش كامل ظهر لي أنه شمپانزي وبشر مما قبل التاريخ ، أو قرود رأس الرجال الصالح ، اندفعوا وهم يتقاتلون ويتزاحمون ويهولون ويضربون الأرض بأقدامهم وينهشون ما يقع تحت أيديهم .

كان نصيبي كمٌّ من الضرب الهائل . زحفت بعده واختبأت تحت المقعد حيث مكثت بهدوء . وبعد أن بقيت هناك حوالى خمس عشرة دقيقة ، كنت خلالها أصغي بكل قواي إلى كل حركة تجري في الغرفة ، وصلت إلى خلاصة واضحة لسبب هذه المأساة . فلقد كان السيد ميلارد ، على ما يبدو ، حين أخبرني بقصة ذلك المجنون الذي حرَّض رفاقه على الثورة ، كان في الواقع يخبرني بقصته هو . لقد كان هذا السيد ، بالفعل ، منذ سنتين أو ثلاث ، رئيس تلك المؤسسة ؛ لكنه أصيب بالجنون هو أيضاً ، وهكذا وضع بين المصابين . لم يكن صاحبي الذي عرّفني عليه في البدء مطَّلعاً على هذه الحقيقة ، أمّا القيّمون على المكان ، وعددهم عشرة ، فقد طليت أجسادهم بالقطران(*) ثم أُلصق بها الريش(**) بعناية بعد أن غلبوا على أمرهم ؛ وحبسوا في زنزانات تحت الأرض ، وقد مضى عليهم أكثر من شهر وهم على تلك الحال . وقد سمح لهم السيد ميلارد ، في أثناء ذلك ، ليس فقط بالقطران والريش (التي كانت عناصر طريقته المبتكرة) وإنما ببعض الخبز وبكثير من الماء أيضاً . وكان الماء يضخ يومياً إلى زنزانتهم ، وأخيراً تمكن أحدهم من الهرب عبر مجرور مائي ، وأطلق سراح الجميع .

أمّا الطريقة المسكِّنة ، فقد أعيد استخدامها في المؤسسة بعد أن أُدخلت عليها بعض التعديلات الأساسية ؛ لكنني لا أستطيع إلاّ أن أوافق السيد ميلارد على أن «طريقته» المبتكرة كانت علاجاً رائعاً من نوعها . فلقد كانت بالفعل كما وصفها ، «بسيطة ، مرتبة ، لا مشاكل فيها مطلقاً ، لا مشاكل من أي نوع» .

عليَّ أن أضيف شيئاً واحداً هو أنني بحثت في مكتبات أوروبا كلها عن كتابات الدكتور تار والبروفسور فذر ، فلم أتمكن من أن أحظى بأية نسخة منها ، حتى هذا اليوم .

(*) القطران بالإنكليزية Tar ، من هنا جاء اسم الطبيب تار الذي ذكره مدير المصحّ .

(**) الريش بالإنكليزية Feather ، ومنها أُخذ اسم البروفسور «فِذر» الذي ذكره السيد ميلارد أيضاً .

لعنة الصمت

خاطبني الشيطان وهو يضع يده على رأسي قال :

ـ «أصغ إليّ . البقعة التي أتحدث عنها بقعة كئيبة في ليبيا ، على ضفاف نهر زائير . هناك لا راحة . . ولا صمت .

مياه النهر لونها لون الزعفران ، وهي مياه آسنة لا تجري صوب البحر ، لكنها تخفق أبداً تحت الشمس الحمراء ، في حركة تشنجية صاخبة . وفي كل ناحية ، حول هذا النهر ذي المجرى الموحل ، تمتد صحراء شاحبة من أزهار النيلوفر الضخمة . كلّ زهرة تحن إلى أختها في هذه الوحدة ؛ وكلها تمد أعناقها الطويلة كالأشباح صوب السماء ، وتهز رؤوسها الأبدية ، ويتصاعد منها هدير غامض أشبه بهدير سيل تحت الأرض . . وتحنّ كل زهرة إلى أختها .

غير أنَّ هناك حدوداً لمملكتها ، وهذه الحدود غابة مرتفعة ، موحشة ، مرعبة ؛ حيث الأشجار الصغيرة في حركة دائمة كالأمواج حول جزر هبريد . ومع ذلك ، لا ريح في السماء . وتتأرجح الأشجار البدائية الكبيرة من ناحية إلى أخرى في دوي قويّ . ومن رؤوسها السامقة يتساقط ندى لا ينتهي ، قطرة إثر قطرة . وحول جذوعها تلتف أزهار غريبة سامة في سبات مضطرب ، وتتهاوى الغيوم الرمادية على رؤوسها بحفيف رنّان متجهة دائماً نحو الغرب ، إلى أن ترتمي كشلال وراء سور الأفق الملتهب . ومع ذلك لا ريح في السماء . ولا هدوء على ضفاف نهر زائير . . ولا صمت .

كان ذلك في الليل ، وكانت تمطر ؛ وحين كانت تمطر كان الذي يتساقط مطراً ، لكنه حين يصل إلى الأرض يصير دماً . وكنت في المستنقع أجلس بين أزهار النيلوفر الكبيرة ، والمطر يسقط فوق رأسي ، وكل زهرة نيلوفر . . تحن إلى أختها في جلال وحدتها الحزينة .

وفجأة نهض القمر من وراء النسيج الناعم لضباب حزين ، وكان لونه قرمزياً ، ووقعت عيناي على صخرة كبيرة رمادية قرب ضفة النهر كان يضيئها القمر . كانت صخرة رمادية ، مشؤومة ، عالية ، وكانت رمادية ، نقشت عليها بضعة حروف ؛ وتقدمت عبر مستنقع النيلوفر ، إلى أن أصبحت قرب الضفة ، كي أقرأ الحروف المحفورة ، لكنني قرأت ولم أستطع

أن أفك رموزها . وكنت عائداً إلى المستنقع حينما شعّ القمر بحمرة أكثر شدة ، فالتفت وتطلعت من جديد إلى الصخرة والحروف ؛ وكانت هذه الحروف : الـ حـ ز ن .

نظرت إلى أعلى ، فرأيت رجلاً على قمة الصخرة ؛ اختبأت بين أوراق النيلوفر كي أراقب حركاته . كان ذا هيئة جليلة مهيبة ، يتلفّع من كتفيه حتى قدميه بحلة روما القديمة . وكانت حدود شخصه غير واضحة ، إلاّ أن قسمات وجهه كانت قسمات إلــهية تتلألأ رغم عباءة الليل والضباب والندى والقمر . وكانت جبهته عالية غارقة في التأمل ؛ وعينه فريسة الهواجس ، قرأت في تقاطيع خديه أساطير الكآبة والتعب والسأم من الإنسانية ، وتوقاً كبيراً إلى الوحدة .

جلس الرجل على الصخرة وأسند رأسه إلى يده ، وأخذ يطوف بعينيه فيما حوله . رأى الشجيرات الصغيرة التي لا يهدأ قلقها ، والأشجار الكبيرة البدائية ، وفي الأعلى رأى السماء المليئة بالحفيف ، والقمر القرمزي . وكنت مختبئاً بين أزهار النيلوفر أراقب حركاته . كان الرجل يرتجف في الوحدة ، والليل يتقدم ، ومع هذا بقي جالساً على الصخرة .

وحوّل الرجل الجليل عينيه عن السماء ، واتجه بهما إلى نهر زائير الحزين ، وإلى المياه الداكنة العابسة ، وإلى النيلوفر الشاحب . وكان يصغي إلى تنهدات النيلوفر وهمسه . وكنت في مخبئي ، أترصّد حركاته وهو يرتجف في الوحدة ، والليل يتقدم ، ومع هذا ظل جالساً على الصخرة .

حينذاك أوغلت في أطراف المستنقع البعيدة ، ومشيت فوق غابة النيلوفر الطريّ ، وناديت أفراس النهر التي تسكن أعماق المستنقع . وسمعت الأفراس ندائي وجاءت إلى الصخرة ، وزمجرت بصوت عال ومرعب تحت القمر . كنت لا أزال مختبئاً أراقب حركات الرجل ، وكان يرتجف في الوحدة ، والليل يتقدم ، غير أنه ، مع ذلك ، بقي جالساً على الصخرة .

عندذلك لعنت عناصر بليّة الضوضاء ، فتراكمت في الجو عاصفة مخيفة ، ولم تعد هناك أية نسمة في أي مكان ، وأصبحت السماء الزرقاء سوداء من عنف العاصفة ، من المطر الذي يضرب رأس الرجل ، وفاضت أمواج النهر ، وأزبد النهر المعذب ، وأخذ النيلوفر يصرخ في سريره ، وتبعثرت الغابة في الريح ، وهدر الرعد ، ولمع البرق ، ومادت الصخرة .

وكنت لا أزال مختبئاً في الوحدة ، والليل يتقدم ؛ ومع ذلك بقي الرجل جالساً على الصخرة .

عندئذ ازداد هياجي ، ولعنتُ لعنة صمت النهر ، والنيلوفر ، والريح ، والغابة ، والسماء ، والرعد ، وتنهدات النيلوفر . وصعقتها اللعنة جميعاً وصارت خرساء . وتوقف القمر عن السير بعناء في طريقه في الفضاء ، وتلاشى الرعد ، وتولّت الغيوم جامدة ، وعادت المياه إلى مجاريها وهدأت فيها ، وتوقفت الأشجار عن التمايل ، ولم يعد النيلوفر يتنهد ، ولم يعد يتصاعد من جموعه أدنى همس أو صوت في الصحراء الواسعة التي لا تحد . ونظرت إلى حروف الصخرة وكانت قد تغيّرت ؛ فأصبحت تشكل كلمة : صمت .

وسقطت عيناي على وجه الرجل ، وكان شاحباً من الرعب ، وسرعان ما رفع رأسه عن راحتيه ، ونهض عن الصخرة ، وأصغى . لكن لم يكن هنالك صوت في هذه الصحراء الواسعة التي لا تحدّ ، وكانت الحروف المنقوشة على الصخرة : الصمت . وارتعد الرجل ، وتلفّت ، وهرب بعيداً ، بعيداً ، بسرعة حتى لم أعد أراه .

إذاً ، هناك عدد كبير من الحكايات الجميلة في كتب الملوك ، في كتب الملوك الحزينة المجلّدة بالحديد . أقول هنالك حكايات رائعة عن السماء والأرض والبحر الزاخر ، والجن الذين ملكوا على البحر والأرض والسماء . ثمة أيضاً كثير من الحكمة في الكلمات التي لفظتها العرّافات ؛ وأشياء مقدسة ، مقدسة سمعتها فيما مضى الأوراق التي كانت تهتز حول هيكل دودونا(*) ؛ لكنني كما أعتبر أن الله حيّ قيّوم ، أعتبر أن هذه الأسطورة التي قصّها عليّ الشيطان ، حين جلس قربي في ظلام القبر ، هي أكثر الأساطير عجباً ! وحين أنهى الشيطان سرد أسطورته ، غاص في أعماق القبر ، واستغرق في الضحك ، وما استطعت أن أضحك معه ، ولعنني لأنني لم أقدر على الضحك . وخرج الوشقُ من القبر الذي يسكن فيه إلى الأبد ، ونام عند قدميّ الشيطان وهو يحدّق في عينيه .

(*) Dodona موقع عرّافة زيوس في الأساطير اليونانية ، وهو الموقع الذي بناه دوكاليون بعد الطوفان .

الضّفدع النطّاط

لا أعرف أحداً يطرب للنكتة كما كان يطرب لها ذلك الملك . كان يبدو وكأنه يحيا من أجل النكتة وحدها . وكانت الوسيلة المضمونة للحصول على رضاه هي أن تُسرد عليه حكاية ممتعة من النوع الهزلي ، وأن تُسرد بالطريقة المناسبة . وهكذا فإن وزراءه السبعة كانوا مشهورين بالنكتة البارعة ، وكانوا يشبهون الملك إلى حد كبير ، ضخام الجثث ، مفرطين في السمنة ، ومهرّجين لا يشق لهم غبار . أتراها تسمن أجسام الناس بسبب المزاح ، أم أن في السمنة نفسها ما يثير حب الضحك؟ هذا ما لم أستطع أن أتأكد منه ؛ لكن لا شك أن وجود المهرج الهزيل أمر نادر الوجود .

كان الملك مولعاً ، بشكل خاص ، بطول النكتة ، وكثيراً ما كان يتحمّل طولها إذا تطرقت إلى أشياء كثيرة . أمّا الحذاقة فكانت تتعبه . كان يفضل «غارغنتوا» لرابليه(*) على «زاديغ» لفولتير(**) ؛ وكانت الدعابات العملية ، بشكل عام ، تحظى بإعجابه أكثر من الدعابات اللفظية .

عندما كتبت هذه القصة كان المهرجون المحترفون لا يزالون يملأون أروقة القصور . وكانت عدة دول في أوروبا تحتفظ بمهرجيها الذين يتزينون بالقبعات والأجراس ؛ وكان يفترض فيهم أن يكونوا على استعداد دائم لسرد نكتة بارعة عقب إشارة بسيطة ، لقاء الفتات الذي يتساقط من الموائد الملكية .

وكان ملكنا يحتفظ بمهرجه . والحقيقة أنه اشترط وجود شيء يضفي على القصر جواً من الفكاهة ، إن لم يكن لسبب ، فعلى الأقل ليوازن الحكمة البالغة لوزرائه السبعة الحكماء ، دون أن نذكر حكمته هو .

لم يكن مهرجه ، أو «بهلوله» المحترف ، مهرجاً وحسب ، كانت قيمته

(*) فرنسوا رابليه (١٤٩٤ ـ ١٥٥٣) : أديب فرنسي . مزج الجد بالهزل في كتبه وأشهرها «حياة غارغنتوا» و«أعمال بانتاغرويل» .

(**) فرنسوا ماري أرواي فولتير (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨) : مؤلف فرنسي . تزعّم حركة الفلسفة المادية وقاوم رجال السلطة الدينية والمدنية .

تبلغ أضعاف ذلك في عينيّ الملك لأنه كان أيضاً قزماً كسيحاً . وفي تلك الأيام كان الأقزام موضة شائعة في القصور كالمهرجين ؛ وكثير من الملوك كانوا يجدون صعوبة في أن يمضوا أيامهم (إذ إن الأيام على سدة الحكم تبدو أطول منها في الأمكنة الأخرى) دون مهرج ليضحكوا معه ، وقزم ليضحكوا منه . غير أنَّ تسعاً وتسعين في المائة من المهرجين كانوا سادة ضخام الجثث ، مستديري القامة . لهذا لم يكن «هوب فروغ ـ وكان هذا هو اسم مهرج الملك ـ مصدراً هيّناً للاعتزاز بالنفس ، إذ كان الملك يملك ، بذلك المهرج ، كنزاً من الخصائص الفريدة ، في شخص واحد .

أعتقد أن الضفدع النطّاط (هوب ـ فروغ) لم يكن الاسم الذي أطلق على القزم عند المعمودية ، لكنه أطلق عليه بعد الاتفاق العام بين الوزراء السبعة لعدم مقدرته على المشي كما يفعل الناس الطبيعيون . والحقيقة أن هوب ـ فروغ لم يكن يستطيع السير إلاّ قفزاً ، أو ما يتراوح بين القفز والدوران ؛ هذه الحركة ـ بحد ذاتها ـ كانت توفر تعزية وتسلية لا حد لها للملك الذي كان يعتبره أفراد حاشيته ـ بصرف النظر عن كرشه المستدير وانتفاخ رأسه ـ شخصاً عظيماً .

ولكن رغم أن هوب ـ فروغ لم يكن ، بسبب النقص في ساقيه ، يستطيع السير إلاّ بمشقّة بالغة ، فإن القوة العضلية الكبيرة في ذراعيه ، هذه القوة التي أنعمت بها عليه الطبيعة كتعويض للنقص في أقسام جسمه السفلى ، كانت تمكّنه من أن يقوم بعدة حركات ، بمهارة بالغة ، خصوصاً على الحبال أو الأشجار ، أو أي شيء آخر يمكن تسلقه . كان في تلك الحركات يشبه ، دون شك ، سنجاباً أو قرداً صغيراً أكثر مما يشبه ضفدعاً .

ليس بمقدوري أن أحدد تماماً البلاد التي أتى منها هوب ـ فروغ ، أصلاً . كانت ، على أية حال ، بلاداً لم يسمع بها أحد ، بعيدة جداً عن مملكة ملكنا . ولقد طرد هوب ـ فروغ هو وفتاة أكبر منه ، جسمياً بقليل ، (مع أنها تتميز بتقاطيع وملامح فاتنة ، ومع أنها راقصة بارعة) طردا بالقوة من منزليهما في مقاطعة مجاورة واقتيدا كهدية للملك بوساطة أحد جنرالاته المنتصرين .

في مثل هذه الحالات ، لم يكن هناك باعث على العجب من أن تنشأ بين الأسيرين الصغيرين صلات ود وتقارب . وسرعان ما أصبحا صديقين حميمين جداً . ولولا الخدمات الكثيرة التي كان باستطاعة هوب ـ فروغ أن يقدمها لـ«تريبيتا» لما كان ليصبح موضع الإعجاب ، لكنها هي بسبب رشاقتها وجمالها الخلاب (بالرغم من قزميتها) ، كانت موضع إعجاب الجميع وتملقهم ، ولهذا كانت تملك تأثيراً كبيراً لم تتوان في ممارسته ، حينما تقدر ، لمصلحة هوب ـ فروغ .

في إحدى المناسبات العظيمة ، التي نسيت اسمها ، قرر الملك أن يقيم حفلة تنكرية كبيرة . وحين كان القصر يعدّ لمثل هذه الحفلات ، أو لأي نوع من الاحتفالات البهيجة ، لم يكن ممكناً الاستغناء عن مواهب هوب ـ فروغ وتريبيتا . كان هوب ـ فروغ موهوباً ، خصوصاً بابتكار المواكب ، وإدخال الشخصيات الجديدة ، وترتيب الأزياء لحفلات الرقص التنكرية ، حتى أن شيئاً ، من ذلك القبيل ، ما كان ليتم على الوجه الصحيح دون مساعدته .

وجاء ليل الاحتفال الموعود . وكانت قد أُعدّت قاعة كبيرة تحت إشراف تريبيتا بكل الوسائل التي يمكن أن تضيف نوعاً من البهاء إلى حفلة تنكرية . وكان جميع الحضور في حمى من الانتظار . وفيما يتعلق بالأزياء والأدوار ، التي ستمثّل ، يمكن القول إن كل شخص كان قد اتخذ قراراً حول دوره . الكثيرون اختاروا بينهم وبين أنفسهم الأدوار التي سيقومون بأدائها وذلك قبل الموعد المحدد بأسبوع ، أو شهر ؛ وفي الحقيقة لم يكن هناك أدنى شك أو تردد عند أي من الحضور باستثناء ما يتعلق بأدوار الملك ووزرائه السبعة . أمّا لماذا تردد هؤلاء ، فليس بإمكاني أبداً أن أقول إلاّ إذا كانوا قد فعلوا ذلك أيضاً من قبيل الدعابة . الأغلب أنهم وجدوا من الصعب ، باعتبار سمنة أبدانهم ، أن يقرروا أي شيء . على كل حال ، مر الوقت ، وكحلّ أخير أرسلوا في طلب تريبيتا وهوب ـ فروغ .

حين استجاب الصديقان الصغيران لدعوة الملك جاءا فوجداه جالساً إلى مائدة من الخمر وحوله وزراؤه السبعة ، لكن الملك كان يبدو في مزاج سيّئ جداً . كان يعرف أن هوب ـ فروغ لا يحب الخمر ، لأن الخمر كانت تهيج

الكسيح المسكين إلى حد الجنون ، والجنون ليس شعوراً مريحاً . غير أن الملك كان مولعاً بالدعابات العملية ، وكان يجد متعة عظيمة في أن يجبر هوب ـ فروغ على الشرب ـ أو كما يدعوه الملك ـ «على الفرح» .

ـ «تقدّم إلى هنا ، يا هوب ـ فروغ» قال الملك ذلك حينما كان المهرج وصديقته يدخلان القاعة . «عبّ ما في هذه الكأس ، نخب أصدقائك الغائبين (هنا تنهد هوب ـ فروغ) ثم دعنا نتمتع بفكاهاتك . إننا نريد ممثّلين ، ممثّلين حقيقيين ، يا رجل ـ شيئاً جديداً ـ ليس لنا عهد به . لقد مللنا هذه الرتابة القاتلة ، تعال ، اشرب ! الخمر تشحذ قريحتك !» .

حاول هوب ـ فروغ ، كالعادة ، أن يجيب بدعابة ما ليتجنب أوامر الملك بشرب الخمر ، لكن عبثاً . وحدث أن ذلك اليوم كان عيد مولد القزم المسكين ؛ وأمر الملك أن يشرب «نخب أصدقائه الغائبين» الأمر الذي أدمع عينيه ، فسقطت نقاط كثيرة وكبيرة من الدمع في الكأس عندما تناولها ، بتواضع ، من يد الطاغية .

ـ «آه ! ها ! ها ! ها !» قهقه الملك ؛ بينما كان القزم يشرب ما في الكأس رغماً عنه . «أرأيت ماذا يمكن لكأس من الخمر الجيدة أن تصنع بك ! آه ، إن عينيك تبرقان منذ هذه اللحظة !» .

يا للمسكين ! لقد كانت عيناه في الواقع تلتهبان ، ولم تكونا تبرقان ؛ إذ إن أثر الخمر في ذهنه السريع التهيّج كان سريعاً أكثر مما هو قويّ . ووضع الكأس باضطراب على الطاولة ، وأخذ يجول بعينيه في الحضور بنظرات مخبولة . بدا الجميع مسرورين لنجاح «دعابة» الملك العملية .

ـ «والآن ، هيا إلى العمل» قال رئيس الوزراء . . الرَّجل المفرط السمنة .

ـ «نعم» قال الملك «تعال يا هوب ـ فروغ ، أعطنا يدك . هات ممثلين يا فتاي الطيب ؛ إننا بحاجة إلى ممثلين ـ جميعنا ـ ها ! ها ! ها !» ولـمّا كان يقصد من هذه الكلمات أن تكون دعابة حقيقية فقد انفجر الوزراء السبعة وهم يرددون ضحكة الملك .

وضحك هوب ـ فروغ أيضاً ، مع أن ضحكته كانت حزينة وباهتة .

ـ «أسرع ، أسرع» قال الملك وقد عيل صبره ، «أليس عندك ما تبتكره؟» .

- «إنني أحاول أن أفكر بشيء جديد» أجاب القزم بذهن شارد، إذ إنه كان قد ارتبك من فعل الخمر.

- «تحاول!» صرخ الطاغية بغيظ، «ماذا تعني بذلك؟ آه، الآن فهمت، أنت بليد وتحتاج إلى مزيد من الخمر. خذ، اشرب هذا!» وصب كأساً أخرى مليئة، وقدمها للكسيح الذي حدق بها محاولاً أن يلتقط أنفاسه.

- «اشرب أقول لك!» صرخ ذلك الوحش، «وإلاّ بحق الشياطين..».

وتردّد القزم، وامتقع وجه الملك حنقاً، وتضاحك الندماء، أما تريبيتا، التي أصبح لونها شاحباً كلون الأموات، فقد تقدمت إلى كرسي الملك، وسقطت على ركبتيها أمامه، وتوسلت إليه أن يعفو عن صديقها.

تطلّع إليها الطاغية، لبضع لحظات، بتعجب ظاهر من جرأتها. وبدا كأنه لا يعرف ماذا يفعل أو يقول - إذ لا يليق به أن يعبّر عن غيظه! - وأخيراً، دون أن يتفوّه بحرف واحد، دفعها بشراسة ورمى الكأس في وجهها.

نهضت المسكينة، وإذ لم تجرؤ على التأوّه، استعادت مكانها قرب المائدة.

وساد في القاعة هدوء مطبق استمر حوالى النصف دقيقة. كان سقوط ورقة أو تحرك ريشة صوتاً مسموعاً، وقطع ذلك الصمت صرير خفيف مخنوق كأنما ينبعث من جميع زوايا الغرفة.

- «لماذا - لماذا تُصدر هذا الصوت؟» سأل الملك وهو يلتفت بحنق بالغ صوب القزم.

وكان هذا الأخير، على ما يبدو، قد استرد قواه بتأثير الخمر، فنظر بثبات، لكن بهدوء، إلى وجه الطاغية، وقال بصوت ضعيف:

- «أنا - أنا؟ كيف يمكن أن أفعل، أنا؟».

- «يظهر أن الصوت يأتي من الخارج»، قال أحد الندماء. أعتقد أنه الببغاء في الشباك، وهو يحدث ذلك الصوت، عندما يشحذ منقاره على قضبان النافذة».

- «صحيح»، أجاب الملك، وكأنما قد ارتاح لهذا التوضيح؛ «لكن

بشرف الفروسية ، كان باستطاعتي أن أقسم بأن ذلك كان صرير أسنان ذلك المتشرد» .

عندئذ ضحك القزم (وكان الملك لا يعترض على ضحك أحد إذ عُرف عنه ولعه بالضحك) ، وبدت من وراء شفتيه أسنان ضخمة قوية ، وبشعة إلى درجة كبيرة ، وأعلن ، بالإضافة إلى ذلك ، عن استعداده لأن يعبّ من الخمر قدر ما يرغب الملك . وهدأت ثورة الملك ؛ وبعد أن شرب كأساً أخرى ، دون أن يظهر على هوب ـ فروغ رد فعل سيئ ، سرعان ما دخل بمرح في موضوع الحفلة الرئيسي .

ـ «لا يمكنني أن أقول بأية مصاحبات ذهنية خطرت لي الفكرة» . قال القزم بهدوء تام كما لو أنه لم يذق الخمر في حياته . «لكن تحديداً ، بعد أن رميت جلالتك الكأس في وجه الفتاة ، بالضبط ، في البرهة التي فعلت فيها ذلك ، وفيما كان الببغاء يخرج ذلك الصوت الغريب ، تذكرت لعبة رائعة ـ إحدى الدعابات التي نعرفها في بلادنا ـ وغالباً ما نقوم بأدائها في حفلاتنا التنكرية . لكنها هنا ستكون جديدة كل الجدة ، غير أنها مع الأسف ، تحتاج إلى ثمانية أشخاص و . .» .

ـ «ها نحن !» صاح الملك ، وهو يضحك لاكتشافه البارع لهذه المصادفة الشيقة . «ثمانية دون كسور ـ أنا ووزرائي السبعة ـ أسرع ، ما هي اللعبة؟» .

ـ «ندعوها» أجاب الكسيح «ثمانية أشخاص من أهل الكهف ، وهي في الحقيقة رياضة ممتازة إذا لُعبت كما يجب» .

ـ «سنقوم بها على خير وجه» قال الملك ، وهو يحاول أن يرفع جسده مخفضاً جفنيه .

ـ «روعة هذه اللعبة» ، أكمل هوب ـ فروغ ، «تكمن في الخوف الذي توقعه في قلوب النساء» .

ـ «رائع !» صرخ الملك ووزراؤه السبعة بصوت واحد .

ـ «سأعتبركم ثمانية من أهل الكهف» أكمل القازم ، «اتركوا كل ذلك لي . إن التشابه سيكون كبيراً جداً ، والمتنكّرون سيعتبرونكم وحوشاً حقيقية ـ وسيدهشون ، لا شك ، بقدر ما سيخافون» .

ـ «أوه ، مـا أجـمل هذا» قـال الملك «هوب ـ فـروغ ، سـأجـعل منك رجلاً» .

ـ «وأمّا الجنازير فهي بقصد القرقعة وزيادة الصخب . يفترض فيكم أن تكونوا قد هربتم جميعاً من حرّاسكم . إن جلالتك لا يمكن أن تتصور الأثر الذي سيتركه هذا المشهد في حفلة تنكرية برؤية ثمانية من أهل الكهف ـ الوحوش البشرية التي تسكن الغابات ـ حين يتصور الجميع أنهم وحوش حقيقية ؛ عندما تتدافعون بصراخ وحشي بين حشد من السيدات والسادة المتأدبين المتأنقين . إن المشهد سيكون شيئاً لا يمكن تصوره» .

ـ «يجب أن يكون كـذلك» . قال الملك ؛ ونهض الجميع بسرعة (إذ إن الوقت كان يمر) لتنفيذ لعبة هوب فروغ .

كانت طريقته في تهيئة أهل الكهف بسيطة جداً وكافية لتنفيذ مآربه . تلك الحيوانات ، التي سيقلدونها ، كانت نادراً ما تظهر في أي جزء من العالم المتمدن . وبما أن الهيئات التي ابتكرها القزم كانت تبدو متوحشة بما فيه الكفاية ومخيفة أكثر مما يتطلّب المشهد ، فإن مطابقتها لشكل تلك الحيوانات اعتبرت تامة .

أولاً ، صُرّ الملك ووزراؤه بقمصان ضيّقة على شكل الجوارب الكبيرة ؛ ثم دُهنوا بالقطران . في هذه المرحلة من العملية اقترح أحدهم استعمال الريش ؛ لكن القزم رفض هذا الاقتراح ، لأنّ شعر أهل الكهف يمكن تقليده بصورة واقعية أكثر باستعمال خيوط القنب . وهكذا فقد لف الثمانية بخيوط من القنب فوق طبقة القطران . ثم أحضر القزم جنزيراً طويلاً أدخله أولاً حول خصر الملك ، وعقده ، ثم حول واحد من الوزراء وعقده كذلك ، ثم حول كلٍّ من الوزراء الآخرين ؛ وكان يعقده في كل مرة . عندما انتهت مرحلة التقييد بالجنازير ، وأصبح كل من في المجموعة بعيداً عن الآخر ، بمسافة ثابتة ، قُيِّد الجميع بحيث أصبحوا يكوّنون حلقة ؛ وكيما يظهر كل شيء على أنه طبيعي ، أدخل هوب ـ فروغ بقية الجنزير ، بعد أن لفّه طوقين ، من طرف الحلقة إلى الطرف الآخر على طريقة صيادي القرود هذه الأيام أو الشمبانزي في جزيرة بورنيو .

كان البهو الذي ستجري فيه الحفلة التنكرية عبارة عن قاعة مستديرة ، عالية السقف ، يتخللها نور الشمس من كوة وحيدة فيه . أمّا في الليل (وهو الوقت الذي صممت من أجله تلك القاعة) فإنها كانت تضاء بشمعدان كبير معلق بسلسلة تتدلى من الكوة الضوئية ، ويمكن رفعه أن إنزاله بوساطة أثقال عُلّقت بالطرف الآخر من السلسلة لتحفظ التوازن (ولكي لا تبدو بشكل غير لائق) ، فإن الطرف الآخر من السلسلة كان يمتد عبر الكوة وفوق السطح .

أمّا ترتيب الغرفة فقد ترك أمره لتريبيتا ، غير أنها كانت ، بالنسبة إلى بعض الجزئيات ، تتلقى ، على ما يظهر ، الإرشادات من صديقها القزم . كان من الواجب إزالة الشمعدان من القاعة في تلك المناسبة ، وفق اقتراحاته ، ذلك أن نقاطه الشمعية (التي لم يكن إيقافها ممكناً في هذا الطقس الحار) تضر كثيراً بثياب الحضور الفخمة . ووزعت قوائم للمصابيح في مواقع مختلفة من القاعة ، ووضعت في اليد اليمنى من كل عمود ، على شكل امرأة تستند إلى الحائط ، مشاعل تخرج روائح زكية ، وكان عدد هذه الأعمدة حوالى الخمسين أو الستين عموداً .

وانتظر جماعة أهل الكهف ، حسب نصيحة هوب ـ فروغ ، حتى منتصف الليل (حين تمتلئ القاعة بالمتنكّرين) ليدخلوا إلى القاعة . وحالما أنهت الساعة ضرباتها الاثنتي عشرة اندفع ، أو بالأحرى ، تدحرج المُقيَّدون إلى داخل القاعة ككتلة واحدة ـ ذلك أن الجنازير جعلت بعضهم يتعثرون ويسقطون عند المدخل .

كان الهياج في قلوب المتنكرين لا يوصف ، الأمر الذي ملأ قلب الملك سروراً . كان أغلب الحضور يتصوّرون ، كما كان متوقعاً ، أن المخلوقات المرعبة التي اقتحمت القاعة وحوش حقيقية من فصيلة ما ، إذ لم ينجحوا بتصورهم كجماعة من أهل الكهف . أغمي على عدد كبير من النساء ؛ ولو أن الملك لم يأمر مسبقاً بأن يجرد الجميع من أسلحتهم ، لكانت دعاباتهم قد انتهت بالدم . وكما كان يُنتظر فقد اندفع الجميع باتجاه الأبواب ، لكن الملك كان قد أمر بأن تغلق الأبواب جميعها فور وصولهم ، ووفقاً

لاقتراحات القزم أبقيت المفاتيح معه .

وبينا كان الصخب في أشده ، وكل متنكر يهتم فقط بتأمين نجاته (إذ في الحقيقة ، كان هناك خطر حقيقي بسبب هياج الحضور) كانت السلسلة التي علق بها الشمعدان من قبل ، والتي كانت قد رفعت إلى الأعلى بعد إزالة الشمعدان ، تتدلى تدريجاً حتى أصبح طرفها يعلو حوالى الثلاث أقدام عن الأرض .

بعد أن دار الملك ووزراؤه السبعة في أرجاء القاعة كلها ، وجدوا أنفسهم في منتصفها ، قرب السلسلة المتدلية . وكان القزم في أثناء دورانهم في القاعة يتعقبهم بهدوء محرضاً إياهم على زيادة الصخب . وحين وقفوا كان قد اقترب من السلسلة وأمسك بها وأدخل صنارتها في المكان الذي يتقاطع به الجنزير الذي يشدّ الممثلين إلى بعضهم ؛ وبسرعة البرق ارتفعت سلسلة الشمعدان لتجعل من الصعب على أحد أن يطال الصنارة ، وكنتيجة طبيعية لهذا ضاقت حلقة الثمانية وأصبح كل واحد منهم مشدوداً إلى الآخر وجهاً لوجه .

في هذا الوقت ، كان المتنكّرون قد استعادوا صوابهم إلى حد ما ، من شدة المفاجأة ، وأخذوا ينظرون إلى العملية كلها كدعابة يقصد منها أن تضفي على الجو بهجة . ولهذا انطلقوا في قهقهات صاخبة وصيحات استحسان للمشهد أمامهم .

- «اتركوهم لي !» صرخ هوب - فروغ في تلك اللحظة ، وصوته الرفيع يعلو فوق أصوات الجميع . «اتركوهم لي . أتصور أنني أعرفهم لو أنني أستطيع فقط أن أراهم جيداً . بإمكاني أن أعرف من هم بسرعة» .

وهنا قفز هوب - فروغ فوق رؤوس الحشد ، ووصل إلى الحائط ، وبعد أن انتزع مشعلاً من إحدى قوائم المصابيح عاد إلى منتصف القاعة ، وقفز بخفة القرد فوق رأس الملك ، ومن ثم تسلق بضع أقدام على السلسلة وهو يمسك بالمشعل ليتفحص مجموعة الأشكال ، وهو لا يزال يصرخ : «سأعرف من هم بسرعة !» .

وفيما كان الجمع كله يتلوّى من شدة الضحك ، صفر المهرج صفيراً حاداً

فارتفعت السلسلة فجأة إلى حوالى الثلاثين قدماً ، وهي تسحب معها جماعة أهل الكهف الخائفين وهم يتخبطون في الهواء بين الكوّة في السقف والأرض . وكان هوب ـ فروغ ، وقد تعلق بالسلسلة وهي ترتفع ، لا يزال محتفظاً بمكانه محافظاً على المسافة نفسها من الكتلة البشرية ، واستمر (كما لو أن الأمر اعتيادي تماماً) في التلويح بمشعله صوبهم وكأنه يكتشف من يكونون على ضوء المشعل .

بلغت دهشة الحضور جميعاً درجة كبيرة جراء ارتفاع السلسلة إلى هذا العلوّ ، حتى أن سكوناً رهيباً خيم على الحضور استمر دقيقة تقريباً . ثم قطع هذا السكون صوت صرير أسنان خشن أجش أوضح من ذلك الذي جذب انتباه الملك ووزرائه عندما رمى الأول بالخمر في وجه تريبيتا . لكن هذه المرة ، لم يكن هناك شك في مصدر الصوت الذي كان ينبعث من أسنان القزم الكبيرة ، والتي تبدو كمروحة يطبق القزم على حديها طحناً ورجّاً ، فيما كان الزبد يخرج من فمه ، وهو يحدق ، بغضب جنوني ، بالهيئات المقلوبة للملك وصحبه السبعة .

ـ «آه ، ها !» قال المهرج الثائر أخيراً ، «آه ، ها ! باستطاعتي الآن أن أرى من يكون هؤلاء القوم !» وهنا ، تظاهر بأنه يتفحص الملك عن قرب ، فقرَّب المشعل من أحزمة القنب التي كانت تلفّهم ، وسرعان ما اشتعلت الكتلة بالنار وأصبحت شعلة ملتهبة ، وفي أقل من نصف دقيقة كان أهل الكهف يحترقون بسرعة ، بين صراخ الحشد الذي كان يحدق إليهم من الأسفل برعب قتّال دون أن يكون في قدرة أحد أن يقدم لأي منهم أدنى مساعدة .

وبعد قليل ازداد اللهيب استعاراً ، ما جعل المهرج يتسلق السلسلة إلى أعلى بعيداً عن النار . وبينما كان يقوم بهذه الحركة ، غرق الحشد من تحته مرة أخرى في صمت مذهل ، فانتهز القزم هذه السانحة وتكلم مرة أخرى قائلاً :

«أرى الآن بوضوح أي نوع من الناس هؤلاء ، هم ملك عظيم ووزراؤه السبعة ، ملك لا يرفّ له جفن وهو يضرب فتاة لا حول لها ولا قوة ، ووزراؤه السبعة الذين يطربون لحماقته . أما أنا ، فلست إلاَّ هوب ـ فروغ ،

المهرّج ـ وهذه هي آخر مشاهدي» .

وبسبب سرعة التهاب القنب والقطران ، لم يكد القزم ينهي خطابه القصير حتى بلغ العمل الانتقامي نهايته ، وبقيت الكتل الثماني معلقة في سلاسلها ؛ نتنة ، سوداء ، مخيفة ، متفحّمة ، ولا يمكن التمييز بينها . ورمى القزم بمشعله فوقها ، وتسلّق حتى السقف على مهل ، واختفى من خلال الكوة .

يُفترض أن تريبيتا كانت منتظرة على سطح البهو ، وأنها كانت شريكة صديقها في انتقامه الناري ، وأنهما تمكّنا من الهرب معاً إلى بلادهما ، إذ إن أحداً لم يرَ أياً منهما بعد تلك المحرقة .

الليدي ليجيا

حاولت ولكنني لم أستطع أن أتذكر أين ومتى التقيت بالليدي لَيْجِيا للمرة الأولى ولا كيف تمّ ذلك اللقاء .

سنون طويلة مضت منذ ذلك اليوم ، وقد أضعفت النكبات والويلات ذاكرتي . أو لعلّي لا أقدر الآن أن أتذكر مثل هذه الأمور ، لأن صفات حبيبتي ، وعلمها النادر ، ومسحة الجمال ، والوداعة الفريدة التي كانت تتحلى بها ، والفصاحة الأخَّاذة التي تميّز لغتها الموسيقية ، هذه الصفات كلها وجدت طريقها إلى قلبي بخطوات ثابتة خفيَّة . أعتقد أننا كنا نلتقي في مدينة كبيرة قديمة قرب نهر الرين . وقد سمعتها تتحدث عن عائلتها ، التي كانت عائلة متأصّلة عريقة في أرومتها ولا شك . لَيْجيا ! لَيْجيا ! تكفيني ، وأنا الغارق في دراسات تخفف من انطباعات العالم الخَارجي ، تكفيني هذه الكلمة العذبة لَيْجِيا ، لأستحضر في خيالي صورة المرأة التي لم تعد في الوجود . والآن ، بينما أكتب ، تتجمّع في ذهني أفكار كثيرة ، منها أنني لم أتوصل قط إلى معرفة اسم عائلتها ، وهي التي كانت صديقتي وخطيبتي ، والتي أصبحت شريكة دراستي ، وأخيراً زوجتي . أكان ذلك عبثاً من قبَل ليجيا؟ أم كان اختباراً لقوة حبي حتى أنني لم أفطن إلى أن أسأل عن هَذا الاسم؟ أم أن ذلك كان نزوة هوىً مني ـ تقدمة غريبة رومنسية على أقدس مذبح للحب؟ إنني الآن لا أتذكر هذا الموضوع بوضوح ، فأية غرابة في أن أنسى كل الظروف التي جاءت بها أو الأحداث التي نتجت عنها؟ إذا كانت روح الحب التي يدعونها «أشتوفيت»(*) ، تلك الشاحبة ، الليلية الجناحين ، ابنة مصر الوثنية ، تبارك ، كما يقال ، الزيجات السيئة الطالع ، فلا بد أن تكون قد باركت زواجي أنا أيضاً .

على أنَّ هناك موضوعاً واحداً لا يمكن لذاكرتي أن تخونني فيما يتعلق به ، ذلك هو شخص ليجيا . كانت ذات قامة طويلة ، تميل إلى النحافة ،

(*) لعله أراد بها عشتروت وهي بالإنكليزية Ashtoreth إلـهة الخصوبة والحب الجنسي في الشرق القديم ، وهي أفروديت عند اليونان .

وفي أيامها الأخيرة صارت نحيلة جداً . أحاول المستحيل إن حاولت أن أصف الرشاقة واللياقة في حركاتها ، أو الخفة العجيبة التي تميّز خطواتها . كانت تأتي وتذهب كالظل . لم أكن أستطيع أن أشعر بدخولها غرفة مطالعتي حتى تأتيني موسيقى صوتها العميق الحبيب الرخيم وهي تضع يدها الرخامية على كتفي . أمّا في جمال الوجه فلم تكن تدانيها أيّ فتاة . كانت تألّق حلم أفيونيّ ، رؤيا صوفية تجنّح الروح ، وأكثر قدسية وغرابة من الخيالات التي ترفرف فوق الأرواح الهاجعة لبنات ديلوس(*) . لم تكن ملامحها من تلك الطينة التي تعلّمنا خطأ أن نعبدها في أعمال الوثنيين الكلاسيكية . يقول اللورد فيرولام «ليس هناك جمالٌ خلاّب ، في كل أشكال الجمال وأنواعه ، من غير شيء من الغرابة في تقاسيمه» . ومع أنني لاحظت أنّ ملامح ليجيا لم تكن في انتظام كلاسيكي ، وأنّ جمالها كان بالفعل خلاّباً يكتنفه الكثير من الغرابة ، فقد حاولت عبثاً أن أحدّد مواضع الشذوذ ، أو أوضح شعوري بما هو غريب فيها . تفحّصت حدود الجبهة المرتفعة الشاحبة ـ لم يكن فيها خطأ ـ ما أقسى هذه الكلمة حين تستعمل لوصف مثل ذلك الجلال المقدس ! ـ بشرتها تفوق العاج بياضاً ، الفسحة الأخّاذة الساكنة ، النتوء اللطيف فوق الصدغين ، ثم الضفائر الغرابية الكثيفة اللمّاعة المتموّجة بصورة طبيعية تذكر بوصف هوميروس لـ«الياقوت الزعفراني» ! تطلّعت إلى الأنف الدقيق ـ لم أر مثل ذلك الكمال في الشكل إلاّ في بعض ميداليات القدماء . كانت له النعومة البهية للبشرة نفسها ، الميل إلى التحدب نفسه الذي يصعب التأكد منه ، التناسق والاستدارة ذاتهما في فتحتي الأنف الذي يدل على روح حرّة . وحين ينحدر النظر إلى الثغر الجميل يحس بانتصار كل ما هو سماويّ ـ ارتداد الشفة العليا الصغيرة إلى فوق ـ هجوع الشفة السفلى الناضحة بالشهوة ـ الغمّازتان الضاحكتان ، واللون الذي يتكلّم ـ الأسنان التي تتألق ببريق يجفل كل شعاع من النّور المقدس يسقط عليها ليمتزج بابتسامة هادئة وادعة لكنها مشعّة أكثر من كل

(*) Delos جزيرة صغيرة في الأساطير اليونانية حيث ولد الإلـه أبوللو والإلـهة أرتميس على جبل كينثوس .

ابتسامة . وتفحّصت شكل الذقن ـ هنا أيضاً تجلّت لطافة الاستدارة ، ونعومة الذقن اليونانية وجلالها كما كشفها الإلـه أبوللّو في الحلم لكليومينس الأثينيّ .

ثم تفرَّست في عينيّ لَيْجيا الواسعتين . عينان لا مثيل لهما منذ أقدم الأزمنة . لعلَّ السرّ الذي أشارَ إليه اللورد فيرولام يكمن في عيني حبيبتي . كانتا أكبر بكثير من عيون الجنس البشري ؛ أوسع من عينيّ غزالة من قطعان وادي نورغهاد . في حالات الانفعال الشديد يبدو اتساع عينيها أكثر من المعتاد ـ في حالات كهذه كان جمالها يبدو لخيالي الجامح فوق الجمال الخرافي للحوريات التركيات . كانت الألوان تمتزج في حدقتيها لتنعكس سواداً متألّقاً . تحيط بهما أهداب طويلة جداً . فوقهما حاجبان في مثل ذلك السواد إنما دون انتظام كبير . لكن الغرابة التي وجدتها في العينين كانت شيئاً يتعدَّى الشكل أو اللون أو البريق ؛ تلك الغرابة كانت تكمن في التعبير . آه أيتها الكلمة التي لا معنى لها ! كم من الساعات أمضيت أفكر فيها ! كنت أجهد طيلة ليلة صيف كاملة كي أستوعبها ! ما هو ذلك الشيء ـ الأعمق من بئر ديمقريطس ـ السر الذي كان يرقد في عيني حبيبتي؟ ماذا كان؟ لقد تملّكني شغف جامح لاكتشافه . تلكما العينان ! الفسيحتان المشعتان ! تلكما الحدقتان المقدَّستان ! صارتا لي كنجمي ليدا التوأم ، ولأجلهما غدوت أكثر المنجّمين إيماناً . ليس في علم النفس أغرب ولا أكثر إثارة من هذه الحقيقة التي لم تمرّ معي أيام المدرسة . إننا ، حين نجهد لنتذكّر شيئاً منسيّاً ، منذ زمن طويل ، كثيراً ما نجد أنفسنا على حافة التذكّر دون أن نقدر في النهاية أن نتذكّر . هكذا ، حين كنت أحدق في عيني ليجيا ، كثيراً ما كنت أشعر بأنني على وشك إدراك التعبير الذي يطل منهما ـ أحس باقتراب السر دون أن أستطيع امتلاكه ـ ولا يلبث أن يفارقني كلُّ شعور بإدراكه . ومن أغرب الغرائب أنني كنت أجد في الأشياء العادية حولي نوعاً من التشابه مع ذلك التعبير ، أعني بعد الفترة التي تشرَّبت فيها روحي من جمال ليجيا ، وحلّت فيَّ كما تحلُّ في أيقونة ، بعد تلك الفترة صرت أستمد من أشياء العالم المادي نوعاً من المشاعر تحكي ما كان يختلج فيَّ

تحت تأثير عينيها الواسعتين المشعَّتين . لم أستطع مع هذا تحديد ذلك الشعور ، أو تحليله ، أو حتى إدراكه بوضوح . كنت أجده أحياناً وأنا أرقب عريشةً تحبو بسرعة ، أجده حين أتأمَّل حشرة أو فراشة أو جدول ماء ، كان يغمرني حيال البحر ، أو لدى سقوط شهاب من السماء . كنت أجده في نظرة إنسان تجاوز المائة عام . وساورني وأنا أتفحص النجوم بالمقراب . كان ينبجس في أعماقي لدى سماع الآلات الوترية أو قراءة بعض المَقاطع . وبين ما أذكره من هذه القراءات المقطع التالي لجون غرانفيل(*) (ربما لغرابة هذا المقطع ـ من يدري؟) «هناك توجد الإرادة ، الإرادة التي لا تفنى . من يعرف عجائب الإرادة بكل قوتها؟ لأن الله هو إرادة عظيمة تطغى على كل الأشياء بقوتها الخاصة . الإنسان لا يسلّم نفسه للملائكة ولا يذعن للموت كلياً إلاَّ نتيجة ضعف إرادته» .

مع مرور السنين تمكّنت ، مع استمرار تفكيري بهذه القوة ، من تتبع العلاقة الخفية بين هذا المقطع وبين بعض خصائص ليجيا . كانت حدة تفكيرها وأعمالها وكلامها الغريب نتيجة ، أو على الأقل ، إشارة إلى تلك الإرادة الهائلة التي أعطت ، خلال عشرتنا الطويلة ، أدلّة أخرى أكثر إيجابية على وجودها . ليجيا ذات المظهر الهادئ الوادع أبداً كانت بين جميع النساء أشدهن عنفاً في الحب ؛ وكانت تلك الهادئة الوادعة في الوقت نفسه صيداً لصقور الحب الكاسرة . ذلك الحب الذي لم أستطع إدراك مداه لولا الإشعاع العجيب لتينك العينين اللتين كانتا تفرحانني وتخيفانني ، ولولا تلك النغمة السحرية والرصانة في صوتها العميق ، ولولا الحماسة الشديدة التي تلهب كلماتها الغريبة التي تبدو أشدّ تأثيراً لطريقة كلامها .

تطرقت إلى علم ليجيا ، كان علمها واسعاً لم أعهده في أية امرأة سواها . كانت تتمتع بمقدرة فائقة في معرفة اللغات الحديثة الأوروبية . وبقدر ما تتيحه لي معرفتي بهذه اللغات أستطيع القول إنني ما كنت لأعثر لها على خطإ . لم أكن أجد في علم ليجيا أي نقص ، حتى في المواضيع

(*) Jhon Granville (١٦٩٠ ـ ١٧٦٣) : سياسي إنكليزي . رئيس الوزراء (١٧٤٢ ـ ١٧٤٤) .

التي كان التبحّر فيها مفخرة رجال الأكاديميات . بأية فرادة وأية غرابة تملّكت وعيي هذه الناحية من شخصية زوجتي !؟ هذه الناحية التي تتجلى لي الآن أكثر من أي وقت مضى . أين هو الإنسان الذي استطاع أن يمتلك في مثل براعتها جميع حقول العلوم الأدبية والفيزيائية والرياضية؟ لم أدرك قبل الآن كم كانت معارف ليجيا جمّة مدهشة . ورغم هذا كنت أشعر بتفوقها عليَّ ، ولا أجد غضاضة في أن أستسلم لها كالطفل وهي ترشدني خلال فوضى دراساتي في ما وراء الطبيعة التي غرقت فيها خلال سنوات زواجنا الأولى . بأي انتصار عظيم ، بأي فرح متأجج ، بأي سحر ، بأي أمل مجنّح ، كنت أشعر وهي تميل نحوي وتأخذ بيدي ، وسط أبحاث جديدة غير مطروقة من قبل ، لتنفتح أمامي آفاق مبهجة تقودني في ممرات عذراء صوب هدف الحكمة الكلّي القداسة !؟

إذاً ، تصوّروا كم كان حزني شديداً حين رأيت ، بعد بضع سنين ، آمالي وهي تتجنّح وتطير بعيداً . بغياب ليجيا كنت مجرد طفل يحبو في الظلمة . كان حضورها ، مجرد قراءتها ، يحيل أغرب الأفكار التي نتيه في دراستها إلى أشياء حيَّة جلية . بدون إشعاع عينيها البراقتين أصبحت الأحرف كثيبة متجهمة باردة كالرصاص ، بعد أن كانت ذهبية ومجنّحة . والآن ما عادت تلكما العينان تلقيان الضوء على هذه الصفحات التي يتيه فوقها نظري . فقد مرضت ليجيا . والتهبت العينان الغريبتان ببهاء مشعّ جداً ؛ الأصابع الشاحبة استحالت إلى لون الشمع ، وصارت عروق جبهتها المرتفعة تنتفخ لأقل انفعال . أدركت أنها ميتة حتماً . واشتبكت في صراع روحي يائس مع ملك الموت ، ويا لدهشتي ! كان صراع زوجتي المحتضرة أشدّ من صراعي بكثير ، مع أنني تصورت أن رصانتها وحكمتها ستجعلانها تستقبل الموت دون وجل . لكن لم يكن تصوري في محله . ليس باستطاعة الكلمات أن تنقل المقاومة الضارية التي أظهرتها في صراعها مع الموت . كنت أتعذب وأتمزق إزاء ذلك الوضع المحزن . كنت أحاول أن أعزّيها ، أو أن أعلل لها الأمور بالمنطق ؛ لكن شدة تعلقها بالحياة ـ بالحياة ـ ولأي حياة ـ جعلت كل منطق وكل عزاء يبدوان أشبه بالجنون . غير أنَّ سلوكها لم يتغير ، رغم

صراعها ، ورغم أن روحها العنيفة لم تكفّ عن الصراع والمقاومة حتى اللحظة الأخيرة . أصبح صوتها أكثر لطافة وأكثر عمقاً ، لكنني لا أحب أن أستعيذ معنى تلك الكلمات الأخيرة التي قالتها بمنتهى الهدوء حين ترنّح عقلي وأنا أنصت مأخوذاً إلى نغمة أقوى من الموت ، إلى آمال ورؤى لم تعرفها البشرية مطلقاً .

لم أرتب أبداً في أنها أحبتني . وكان واضحاً بالنسبة إليّ أن الحب في صدر كصدرها لم يكن عاطفة عادية . غير أن الموت وحده كشف لي غور عاطفتها . كانت تمسك بيدي ساعات طويلة وتتدفق لواعج قلبها في بوح مهيًم يرقى إلى درجة العبادة . هل كنت أستحق أن أنعم بتلك الاعترافات؟ لكن ماذا فعلت لأستحق لعنة أن تُنتزع مني حبيبتي ساعة تهبني الفرح؟ لم أعد قادراً على التفكير بذلك الأمر . أستطيع أن أقول شيئاً واحداً هو أنني تمكّنت من أن أفهم تعلُّق ليجيا الشديد بالحياة من خلال استسلامها ـ أواه ـ للحب ـ الحب الذي لم أكن أستحقه ! تعلّقت بالحياة برغبة شديدة ومخلصة ، الحياة التي كانت تهرب منها بسرعة ، كان هذا القلق الغريب ، هذه الحمّى من الرغبة في الحياة ، ولا شيء غير الحياة ، شيئاً لا يمكن أن أعبّر عنه .

انظروا ! هي ذي ليلة مُفرحة
بين تلك الليالي الأخيرة الكَالِحة
حشد من الملائكة المجنَّحة
مقنَّعة بالبرقع ، غارقة في الأدمُع
تجلس في المسرح لتشاهد
مسرحية من الآمال والآلام
بينما الجوقة تعزف بحرارة
موسيقى الأجواء .

أشكال بهيئة الملاك في العُلى
تتمتم وتترنم بصوت خافت

وترفرف هنا وهناك
يا للدمى الحزينة التي تأتي وتذهب
تغيّر المشهد في مجيئها ورواحها
مستجيبة لمشيئة كائنات
هائلة لا شكل لها
نافضة عن أجنحتها النسرية
رعباً لامرئياً .

تلك المأساة الملوّنة !
تأكدوا أنَّها لن تنسى
أبداً تطارد شبحها الحشود
في حلقة تنتهي حيث تبدأ
دون أن تقبض عليه
لأن كثيراً من الجنون ومزيداً من الخطايا
ومن الرعب ، تكوّن عقدة الرواية .

لكن انظروا ، هو ذا شيء أحمر كالدم
يشق طريقه متلوّياً وسط جمهرة الأشباح
يطل من الجانب المنعزل للمشهد
يتلوَّى ، يتلوَّى بشره قاتل
فتصير الأشباح له طعاماً
وتشهق الملائكة بالبكاء وهي ترى
الدود يلعق الدم البشري .

الأنوار تنطفئ كلها . . كلها تنطفئ
وفوق كل طيف مُرتجف
تنزل ستارة ـ بساط الموت

عنيفة كهبوب عاصفة هوجاء
فتنهض الملائكة شاحبة اللون صفراء
ترفع أقنعتها وتؤكد بأن المسرحية
مأساة اسمها «الإنسان»
وأن بطلها هو الدّود القاهر .

«آه يا إلــهي !» شهقت ليجيا وهي تقفز على قدميها وترفع ذراعيها نحو السماء بحركة تشنجية حين أتيت على نهاية هذه الأبيات ـ «آه يا ربّ ، يا ربّ السماوات ! ـ هل الأمر هكذا فعلاً؟ ألن يُقهر هذا القاهر مرَّةً؟ ألسنا جزءاً لا يتجزأ منك؟ من ـ «من يعرف عجائب الإرادة بكل قوتها؟ الإنسان لا يسلّم نفسه للملائكة ولا يذعن للموت كلياً إلاّ نتيجة ضعف إرادته» .

وكأنما أضناها الانفعال فتراخى ذراعاها البيضاوان بألم بالغ ، وعادت إلى فراش الموت بهدوء . وبينما كانت تصعّد آخر أنفاسها خرجت من بين شفتيها تمتمات ضعيفة ممتزجة مع هذه التأوهات ، واستطعت أن أميّز مرة أخرى نهاية مقطع غرانفيل «الإنسان لا يسلم نفسه للملائكة ، ولا يذعن للموت كلياً إلاّ نتيجة ضعف إرادته» .

ماتت ليجيا ؛ أما أنا فقد سحقني الحزن ، ولم أستطع أن أتحمَّل وحدتي وعزلتي في تلك المدينة الشاحبة على ضفاف الرين . لم يكن ينقصني ما يسمّيه الناس «الثروة» . كانت ليجيا قد جلبت لي أكثر بكثير مما تتيحه الأقدار للبشر . بعد أشهر قليلة من التجوال الضال ، الذي لا هدف له ، اشتريت ديراً ، لن أذكر اسمه ، في أحد الأماكن الغريبة النائية من إنكلترا الجميلة . الأبّهة الحزينة والعظمة الشاحبة لذلك المكان ، والغرابة الوحشية للمنطقة والذكريات القديمة الكئيبة ، بالإضافة إلى شعوري بأنني متروك كلياً ، كل ذلك دفعني إلى أن أنفي نفسي في هذا المكان المنعزل . ومع أن الدير كان يبدو من الخارج عتيقاً قديماً فإنني لم أهتمّ بتحسينه ، وانصرفت إلى إجراء التغييرات من الداخل ، متوخياً بعناد ، كعناد الأطفال ، وأمل ضعيف في أن يشغلني ذلك عن آلامي ، حتى صار ذلك المكان المهجور أقرب إلى فخامة وبهاء ملكيين .

كنت في طفولتي أجد لذة خاصة في القيام بأعمال كهذه ، ويبدو أنني الآن قد وجدت في غمرة حزني نوعاً من الرغبة في الرجوع إلى تلك الأعمال تخلّصاً من أحزاني . لكن ، وأسفاه ، كان في تلك المظاهر ما يكشف بداية جنون أكيد ، في الستائر الفخمة المتموّجة ، في النقوش المصرية الهادئة ، والأفاريز الغريبة ، والمفروشات الشاذة ، في السجاد ذي النقوش الذهبية ! وكنت قد أصبحت عبداً أسير شباك الأفيون ، وتلوّنت أعمالي وترتيباتي بألوان أحلامي . ينبغي ألا أقف لأصف تفاصيل هذه الترّهات . وسأقصر كلامي على تلك الغرفة الملعونة التي قَدمَتْ إليها في إحدى ساعات النسيان ، عروسي - بعد ليجيا التي لا تُنسى - الليدي روينا تريڤانون أوف تريمان ، روينا ذات الشعر الأشقر والعينين الزرقاوين .

يستحيل أن تغيب عن عيني قطعة أو جانب من غرفة العرس تلك . أين كانت شهامة أهل العروس عندما دفعتهم شهوة الذهب إلى السماح لابنتهم الغالية الحبيبة أن تعبر عتبة بيت مؤثث بهذا الشكل؟ قلت إنني أتذكر تفاصيل الغرفة بكل دقة ، مع أنني غير قادر على تذكر أمور أكثر أهمية . لم يكن هناك أي نظام ، أي ترتيب في أثاث الغرفة ينطبع في الذاكرة . كانت الغرفة واقعة في برج الدير العالي المبني على طراز القلاع ، مخمّسة الزوايا فسيحة الأرجاء . في الجهة الجنوبية من الغرفة كانت تنفرد نافذة وحيدة ، مكوّنة من لوح كبير جداً من بلّور ڤينيسيا غير القابل للكسر ، وهذا اللوح ذو لون رصاصي ، بحيث أن أشعة الشمس ، أو القمر ، التي تنصب عليه وتنفذ من خلاله إلى الغرفة ، تلوّن الأشياء بلون شاحب أصفر . وفوق هذه النافذة الضخمة كانت تمتد عريشة قديمة تتسلق جدران البرج الضخمة . وكان السقف من خشب السنديان القاتم اللون ، مرتفعاً جداً وعلى هيئة القبة ، منقوشاً بدقة ، بأغرب أنواع النقوش التي تشبه النقوش القوطية والغاليّة . من قمة هذه القبة الكئيبة تتدلى سلسلة ذهبية تنتهي بمبخرة ذهبية ضخمة من طراز إسلامي ، لها ثقوب عديدة مرتبة بشكل يخيل إلى الرائي أن ناراً متعددة الألوان تندلع منها وهي تتلوى كالأفعى .

كانت بضع أرائك وشمعدانات ذهبية من طراز شرقي تشغل أماكن

مختلفة من الغرفة أيضاً . ثم السرير ـ سرير العرس ـ بطرازه الهندي ، الذي كان منخفضاً ومنحوتاً من خشب الأبنوس الصلب يرتفع فوقه سرادق أشبه بأكفان الموتى . وفي كل زاوية من الزوايا يجثم ناووس ضخم من الغرانيت الأسود ، من قبور الفراعنة في الأقصر ، بأغطيتها الأثرية الملأى بالنقوش التذكارية . لكن نزواتي الشاذة تبدَّت أكثر ما تبدّت في الستائر . كانت الجدران الشاهقة ، البالغة الارتفاع إلى درجة عدم التناسب ، مغطاةً من أعلاها إلى أسفلها بستائر كبيرة من النسيج المشجّر ، ذات ثنيات عريضة . وكان نسيج الستائر من النسيج ذاته الذي يغطي الأرائك والسرير الأبنوسي ، والسرادق ، وستائر النافذة ، ويشبه السجادة إلى حد كبير . وكانت هذه جميعها من أنفس الأنسجة الذهبية ، تنتشر عليها أشكال من الأرابسك محيط الواحد منها حوالى القدم ، تحدّدها خطوط سوداء . لم تكن هذه الرسوم تظهر على النسيج إلاّ إذا نظر إليه من زاوية معينة ، بسبب الطريقة الخاصة في حياكته التي تجعله متموّجاً متغيّراً . كانت الستائر تبدو ، لمن يجتاز العتبة ، ذات مظهر قاتم قبيح ، ليس إلاّ . لكن هذا المظهر يأخذ بالتلاشي تدريجاً بعد كل خطوة . وكيفما تحرك الناظر في أنحاء الغرفة تطل عليه بشكل جديد ، حتى يجد نفسه محاطاً بتتابع أشكال مخيفة مستوحاة من خرافات النورمانديين ، أو بصور الرهبان المحكومين بالنوم الأبدي . ويزيد في هذه الأشكال رهبة ، ويجعلها تتموج وتتغير بسرعة ، مرور تيار هوائي خلف الستائر ، ما يخلق جوّاً مرعباً مزعجاً في الغرفة كلها .

في مسكن عروسين كهذا ، وغرفة عرس كهذه ، أمضيت مع الليدي روويناً الساعات المشؤومة من الشهر الأول لزواجنا . ولقد أمضيتها دون كبير انزعاج .

لم يخفَ عليّ أنّ زوجتي تخشى مزاجي الشرس ، وتتجنّبني كثيراً ولا تكنّ لي حبّاً يُذكر . لكن ذلك أفرحني . وقد كرهتها كرهاً يمت إلى الشياطين أكثر مما ينتمي إلى عواطف البشر . ورجعت ذاكرتي إلى الوراء (آه ! بأية لوعة) إلى ليجيا الحبيبة ، المهيبة ، الجميلة ، الميتة . وغرقت في تصوّر صفائها ورصانتها ، وشخصيتها الأثيرية النفاذة ، السامية ، وحرارة حبّها الذي كان نوعاً من العبادة . واضطرمت مشاعري بجذوة لم أعرفها

من قبل . وفي غمرة أحلامي الأفيونية (لأني كنت دائماً تحت تأثير هذا السمّ) أخذت أنادي اسمها بصوت مرتفع وسط سكون الليل ، وفي ظلال الوديان المنعزلة ، كأنما كنت أستطيع بضراوة حبّي المتأجج اللاهب الوحشي أن أبعثها إلى الحياة في الممرات التي هجرتها ؛ آه ، هل يمكن أن تكون هجرتني إلى الأبد؟

في مطلع الشهر الثاني لزواجنا تقريباً أصيبت الليدي روونيا بمرض فجائي ، لم تشف منه إلاّ ببطء شديد . وقد عانت خلال ذلك المرض من ليال قلقة مضطربة بسبب ارتفاع الحرارة . وكانت تتحدّث وهي بين النوم واليقظة عن أصوات وحركات في البرج ، وهو ما عزوته إلى تشوّش ذهنها ، أو إلى تأثير الغرفة وأشباحها المتغيّرة . وأخيراً بدأت صحتها تتحسن ، ثم تماثلت إلى الشفاء . ولم تكد تشفى من وعكتها الأولى حتى طرحتها إصابة ثانية أشد من الأولى في الفراش من جديد . هذه المرة لم تنهض من الفراش ، بل ظلت عليلة لما أصاب جسمها من الهزال . كانت كلما بدأت تتحسن كلما عادت فأصيبت بنكسة خطرة ، حتى صارت حالتها تتحدّى علم الأطباء النطاسيين وجهودهم . لاحظت أن أعصابها تزداد توتراً وإرهاقاً ، فتثور وتهلع لأتفه الأسباب . كانت هذه الحالة العصبية تزداد مع اشتداد وطأة المرض الذي تمكّن من جسمها ، حتى بدا أنه من المستحيل على الأيدي البشرية إنقاذها . وعادت تتحدث عن الأصوات الخافتة وحركة الستائر غير العادية التي كانت تشكو منها في مرضها الأول .

وذات ليلة ، في أواخر شهر أيلول/ سبتمبر لفتت انتباهي إلى هذا الأمر بانفعال غير طبيعي . كانت تستيقظ من نوم قلق ، وكنت أراقب تعابير ملامحها الهزيلة ، بشعور هو مزيج من القلق والفزع . جلست على إحدى الأرائك قرب سريرها الأبنوسي ، نهضت قليلاً وتكلمت بصوت هامس مضطرب عن أصوات سمعتها ، ولم أستطع أنا سماعها ، وعن حركات رأتها آنذاك ولم أستطع أنا رؤيتها . كان الهواء يتحرك بسرعة خلف الستائر ، ورغبت في أن أبرهن لها (ما لم أكن أصدقه أنا نفسي) أنّ تلك التنهدات الخافتة ، وتلك التغيّرات الطفيفة في الصور ، لم تكن سوى نتيجة طبيعية

لتأثير مجرى الهواء المعتاد . لكن لونها امتقع فجأة ، وصار وجهها في لون شحوب الموتى ، فأدركت أن كل محاولة لطمأنتها ستذهب سدًى . كانت على وشك الإغماء ، ولم يكن الخدم قريبين مني . تذكرت مكان زجاجة النبيذ الخفيف الذي وصفه لها أطباؤها ، فعبرت الغرفة بسرعة لأحضره لها ، لكن حين مررت تحت ضوء المبخرة جذب انتباهي حدثان مثيران ، إذ أحسست أن شيئاً خفّاقاً غير منظور يمرّ بي بخفّة وسرعة ، وعلى السجّادة الذهبية تحت ضوء المبخرة الساطع رأيت ظلاًّ ، ظلاًّ شفافاً غير محدد ، في هيئة ملائكية ، وكأنّه ظل لظلّ ، لكنني كنت فريسة جرعة أفيون مضاعفة فلم أمنح هذه الحوادث اهتماماً كبيراً ولم أحدّث عنها روونيا . عثرت على الخمر ، اجتزت الغرفة ثانية ، ملأت كأساً من الخمر وأدنيتها من شفتي زوجتي المغمى عليها . في هذه اللحظة كانت قد تحسّنت قليلاً ، فتناولت الكأس بيدها بينما ذهبت أجلس على الأريكة وأتابعها بنظري . في تلك اللحظة سمعت بوضوح وقع أقدام خفيفاً على السجادة وقرب السرير . وحين كانت روونيا تدني الكأس من شفتيها رأيت ـ ربما في الحلم ـ رأيت ثلاث أو أربع قطرات كبيرة بلون الياقوت تنهمر من نبع لامرئي معلق في فضاء الغرفة وتسقط في الكأس . إذا كنت قد رأيت هذا فإنّ روونيا لم تره ، وابتلعت الخمر دون تردد . وامتنعت بدوري عن إخبارها بحادث اعتبرته من وحي خيال متأجج زاده رعب الليدي المريضة والأفيون والليل نشاطاً .

غير أني لم أستطع أن أنكر التدهور السريع الذي طرأ على حالة زوجتي إثر سقوط النقاط الحمراء في الكأس ، حتى أن الخدم قد هيأوها بعد ثلاثة أيام لتغيّب في تراب القبر . وفي اليوم الرابع كنت أجلس وحيداً مع جثمانها المكفّن في تلك الغرفة الغريبة التي استقبلتها عروساً منذ أشهر قليلة ، والرؤى التي يصوّرها الأفيون تحوّم حوالي . رحت أحدّق في النواويس التي تجثم في زوايا الغرفة ، في أشكال الستائر المتغيرة ، في الأضواء الملتوية التي يبعثها المصباح . وحين بدأت أستعيد حوادث تلك الليلة السابقة وقع نظري على البقعة التي تسقط عليها أضواء المبخرة ، حيث رأيت الظل الشاحب ، فلم أجد شيئاً ، عندئذ تنفّست بحرية ، وحوّلت

نظري إلى الوجه الشّاحب السّاكن على السرير . ثم غمرتني ألف ذكرى من ليجيا ، وأحسست بالألم الساحق يندفع إلى قلبي عنيفاً صخّاباً كمدّ بحري ، هذا الألم الذي عانيته يوم رأيتها ، هي أيضاً ، يلفّها الكفن . كان الليل يتقدّم وقلبي يغصّ بحسرات وأفكار كانت هي محورها ، هي حبي الوحيد الخارق . وظلت عيناي تحدقان في جثمان روونيا .

عند منتصف الليل تقريباً ، وربما بعد هذا الوقت أو قبله بقليل ، إذ لم أكن أهتم بحساب الزمن ، سمعت شهقة بكاء أجفلتني وأيقظتني من أحلامي . كانت شهقة خافتة ، لكن واضحة ، أحسست أنها صادرة عن السرير الأبنوسي ـ سرير الموت . أصغيتُ يمزّقني رعب خرافي ، لكن الصوت لم يتكرر . أنعمت النظر لأتبيّن أية حركة في الجثمان ، لكنني لم أرَ شيئاً . مع ذلك يستحيل أن أكون قد أخطأت . لقد سمعت الصوت على ضعفه ، وكنت بكامل وعيي . لم أحوّل نظري عن الجدث ، ورحت أراقبه بإصرار ومكابرة . دقائق عديدة مرّت قبل أن يحدث ما يلقي ضوءاً على ذلك اللغز . في النهاية ، بدا واضحاً أن حمرة طفيفة باهتة ، لكن ملحوظة ، علت وجنتيها وسرت في العروق الصغيرة التي تعلو الجفنين . شعرت بقلبي يتوقف عن الخفقان ، وبأطرافي تتجمّد في مكانها ، وتسمّرت في مكاني مأخوذاً برعب تعجز لغة البشر عن تصويره . لكن الشعور بالواجب هدّأ من روعي ، ولم يعد لديّ شك بأننا تسرعنا في استعداداتنا ، وأن روونيا لا تزال من الأحياء . كان لا بد من القيام بمحاولة ما ، لكن منطقة البرج ، حيث توجد غرفتنا ، كانت مفصولة تماماً عن الأقسام الأخرى حيث ينام الخدم ، ولم يكن أحد منهم قريباً يمكنني أن أناديه ، ولم تكن لديّ أية وسيلة لدعوتهم ما لم أترك الغرفة لبضع دقائق وهو ما لم أجرؤ على القيام به ، فعزمت على أن أحاول بنفسي مساعدة الروح التي لا تزال تحوّم . لكن ما هي إلاّ لحظات حتى حصلت نكسة . اختفى اللون من الوجنتين والجفنين وعاد وجهها أكثر شحوباً من شحوبة الرخام ، وازداد انطباق الشفتين ، وغمرت الجسد برودة لزجة كريهة ، وعاد إليه جمود الجثث . استلقيت على الأريكة وقد اقشعرّ جسدي ، وعدت أغرق في تأملاتي المهيّمة وأحلم في يقظتي بـ«ليجيا» .

مضت على ذلك الحدث ساعة حين (يا إلــهي هل كـان ذلك ممكناً؟) عدت أسمع صـوتاً غامضاً ينبعث من ناحية السرير . أصغيت وأنا أرتعد من الرعب . عاد الصوت من جديد ، كـان هذه المرة تنهّدة . قـفزت نحو الجسد المسجّى على السرير ، ورأيت الشـفتين تختلجان بوضوح ، انفرجتا بعد لحظة عن صفّ من الأسنان اللؤلؤية . أخذ الذهول يصـارع الرعب الفظيع الذي تملكني حتى اللحظة . علت عينيّ غشاوة سوداء ، وبدأت أفقد وعيي ، ولم أستعد الشجاعة للاستمرار في الواجب الذي دعـاني ثانية إلاّ بعد جهد عنيف . في هذه المرة تورّد خداها وجبينها وعنقها ، وغمرت الجسد حرارة ظاهرة ، بل كـان هناك خفقان ضعيف في منطقة القلب . الليدي روونيا لا تزال على قيد الحياة . ورحت أؤدي واجبي بحماسة مضـاعفة ، وأساعدها على استعادة الوعي . دلّكت يديها وصدغيها وبللتهما بالماء ، وفعلت كل ما علمتني إياه الخبرة ، وما اكتسبته من قراءاتي الكثيرة في كتب الطب . لكن عبثاً . غاض اللون فجأة ، وهمد النبض ، وعـادت إلى الشفتين آية الموت ، واستعاد الجسد برودة الصقيع ، واللون الرصـاصي المبقّع ، والجمود التام ، وكل المظاهر الكريهـة التي تبدو على جثـة كـانت لأيام عـديدة من نزلاء القبور .

غبت من جديد في تأملاتي وتصورّاتي لليجيا ـ ومن جديد ـ هل تصدقون أنّ القشعريرة تعتريني بينما أكتب هذا؟ من جديد بلغت أذنيّ زفرة خافتة آتية من منطقة السرير الأبنوسي . لكن ما لي أسترسل في سرد تفاصيل الذعر الذي لا يوصف ، ممّا مرّ بي تلك الليلة؟ هل أخبركم كم مرّة بعد مرة تكررت تلك الفاجعة المكربة ، فاجعة العودة إلى الحياة ، حتى طلوع الفجر . كيف كـانت كلّ عودة مريعة إلى الحياة تتبدّل بموت أكثر جموداً وبشاعة ، وكيف كـان كل نزع جديد يشبه الصراع ضد خصم لامرئي ، وكيف يعقب كل صراع تغيّر غريب في شكل الجسم؟ لكن ها أنا أبلغ الختام .

كـان الشطر الأكبر من الليلة المريعة قد عبر ، والتي كانت ميتة تحرّكت من جديد ، وهذه المرّة بنشاط أكبر ، مع أنها كانت تنهض من موت مرعب بدا أن لا صحوة بعده . كنت قد توقفت منذ فترة طويلة عن كل محاولة أو

حركة ، وبقيت مسمّراً على الأريكة غارقاً في دوار من الانفعالات العنيفة ، كان الرعب اللامتناهي أقلّها فظاعة وهولاً . ماذا كنت أقول؟ تحرّك الجسد ثانية وبنشاط أكثر من المعتاد ، وعادت ألوان الحياة تشع في وجهها بحيوية فريدة ، تحرّكت أطرافها ، ولولا أجفانها الثقيلة المطبقة ، والأكفان التي لا تزال تضفي عليها مسحة جنائزية ، لقلت إن روونا قد كسرت أغلال الموت . لكن إذا كنت لم أقبل بهذه الفكرة من قبل فلم يعد بإمكاني أن أشك طويلاً بالأمر ، وقد نهضت من السرير وتقدّمت بخطوات ضعيفة مترنّحة ـ مغمضة العينين ـ كمن يسير في نومه . الجدث الذي كانت الأكفان تلفّه تقدم بجرأة يتلمّس طريقه إلى وسط الغرفة .

لم أرتعد ، لم أتحرّك ، لأن حشداً من الخواطر التي لا أجد تعبيراً عنها بعثتها فيّ هيئة الشبح ، وقامته ، ومشيته ، اندفعت على الفور إلى رأسي وشلّت حركتي وحولّتني إلى حجر . لم أتحرّك ، فقد حدّقت في الشبح الواقف أمامي . كانت أفكاري في هياج مجنون ، وصخب لا يهدأ . هل التي أمامي هي فعلاً روونا وقد عاشت؟ هل يمكن لهذا الطيف أن يكون روونا ـ الليدي روونا تريفانون أوف تريمان ، ذات الشعر الأشقر والعينين الزرقاوين؟ لماذا؟ أجل لماذا أرتاب بذلك؟ كان الرباط الثقيل يشدّ الفم . لماذا لا يكون فم الليدي روونا تريفانون أوف تريمان؟ والخدان ـ كانا متورّدين كما كانا في أوج صباها ـ أجل ، لا بد أن يكونا الخدين الأسيلين لليدي أوف تريمان التي لا تزال على قيد الحياة . والذقن ذو الغمّازة التي كانت لها من قبل ، هل يعقل أن لا تكون ذقنها؟ لكن ما بال قامتها قد طالت منذ مرضها؟ أيّ جنون لا يفسّر استبدّ بي حين خطرت لي هذه الفكرة؟ وبقفزة واحدة صرت عند قدميها . تراجعت حين لمستها ، وألقت عن رأسها الكفن الفظيع الذي كان يغطيها ، وانهمر في فضاء الغرفة شلاّل غزير من الشعر الطويل المشوّش . كان أكثر سواداً من أجنحة الليل حين ينبت ريش الغراب ! حينئذ رأيت الوجه الذي كان قبالتي يفتح عينيه شيئاً فشيئاً .

وصرخت بصوت مدوٍّ : «أخيراً ! ها هما من جديد !» هل يمكن أن أخطئهما قط؟ ها هما العينان السوداوان ، عيناها الواسعتان ، عينا حبّي الضائع ـ عينا الليدي ليجيا . . ليجيا !

إليونورا

أنا ابن عائلة سلالتها عريقة اشتُهرت بالخيال القويّ والعواطف الملتهبة . دعاني الناس مجنوناً ؛ غير أنّ العلم لم يكشف لنا بعد فيما إذا كان الجنون قمة الذّكاء ، أم لا ، وفيما إذا كان كلّ ما يُسمّى مجداً ، وكل ما يسمّى إبداعاً ، ليسا وليدي مرض فكريٍّ ، من حالة روحية تتسامى وتنمو على حساب الذهن العام . إنَّ هؤلاء الذين يحلمون وهم أيقاظ يعرفون أشياء كثيرة تفوت أولئك الذين لا يحلمون إلاّ وهم نيام . إنّهم يلتقطون ، في رؤاهم المهيّمة ، الهارب الأبديّ ، وإذ يستيقظون ، يرتعشون ، لتنبّههم أنهم كانوا للحظة على حافة السرّ العظيم . إنهم يدركون ، جزءاً فجزءاً ، شيئاً ما من معرفة الخير ، وأكثر أيضاً من علمِ الشر . وهم ، بلا دفة ولا بوصلة ، يخترقون محيط الضياء الواسع الذي لا يُوصف .

يقولون إذاً إنني مجنون . وأنا أعترف ، على الأقل ، أن هناك وضعين متميزين في وجودي الروحيّ : وضع عقل نير دون أدنى لبس ، يتوافق مع استذكار الحوادث التي تشكل المرحلة الأولى من حياتي ؛ ووضع شك وظلمات يتّصل بالحاضر وذكرى ما يشكل المرحلة الكبيرة الثانية من وجودي . صدقوا ، إذاً ، ما سأقوله عن المرحلة الأولى ؛ ولا تثقوا بما أستطيع أن أرويه عن المرحلة اللاّحقة إلاّ بقدر ما يبدو لكم صحيحاً ؛ وإن شئتم ، ارتابوا فيه بكامله ؛ وإذا لم تستطيعوا أن ترتابوا ، فاعرفوا جيداً جيداً كيف تكونون «أوديب»(*) هذا اللّغز !

الفتاة التي كنت أحبها في شبابي ، والتي أرسم الآن عنها هذه الذكرى ، بأمانة ووضوح ، كانت البنت الوحيدة للأخت الوحيدة لأمي التي ماتت منذ مدة طويلة . إنها ابنة خالتي ؛ واسمها إليونورا . سكنّا معاً ، دائماً ، تحت

(*) ملك ثيبة . قتل أباه وتزوّج على غير علم منه أمه يوكست ، وما إن عرف الحقيقة حتى فقأ عينيه يأساً وترك ثيبة تقوده ابنته أنتيغون . استوحى سوفوكليس مأساته «أوديب الملك» منها .

شمس استوائية ، في وادي «الغازون ـ ديابري» . لم تصل الوادي قدم دون دليل قط ؛ ذلك أنه كان يمتد بعيداً عبر سلسلة من الجبال الضخمة التي تنهض بشموخ ، حاجبة نور الشمس عن أكثر شعابها هدوءاً . لم يكن هناك أي أثر لأي درب ، وكان علينا ، كي نصل إلى مَخبئنا السعيد ، أن ندفع أوراق آلاف الأشجار ونقضي على زهو آلاف الأزهار العابقة . هكذا كنا نعيش وحيدين تماماً ، لا نعرف شيئاً من العالم إلاّ هذا الوادي ، أنا وابنة خالتي وخالتي .

في الطرف الأعلى من مكاننا المنعزل ، كان نهر عميق ضيّق ينحدر من أعالي المناطق المعتمة الواقعة وراء الجبال ، ينحدر أكثر بريقاً من كل شيء باستثناء عيني إليونورا ، ويتلوى هنا وهناك في منعرجات كثيرة ، ويجري أخيراً في مضيق مظلم عبر جبال أشد ظلاماً أيضاً من الجبال التي انبجس منها . كنا نسميه نهر الصّمت ؛ فقد كان يبدو أنّ له تأثيراً مهدئاً وهو يجري . لم يكن ينبعث من مجراه أي صوت ، وكان يسير بهدوء في مختلف الاتجاهات ، حتى إن حبات الرمل التي تشبه اللآلئ ، والتي كنا نحب أن نتأملها في قرارته ، لم تكن تتحرك إطلاقاً ، بل كانت ترتاح في سعادة أبدية ، كل حبة في مكانها القديم الأولي الذي يتلألأ ببريق خالد .

كانت ضفة النهر ، وضفاف الجداول الصغيرة الكثيرة الرائقة التي ترفده من عدة جهات ، والفسحة التي تمتد من الضفة حتى الأعماق الشفافة ، وأجزاء هذا الوادي وسطحه جميعاً ، بدءاً من النهر حتى الجبال المحيطة ، كان هذا كله مفروشاً بعشب أخضر ، ناعم ، كثيف ، قصير ، متساو تماماً ، عابق بأريج الونيلة ، لكنه منقّش على اتساعه كله بالحوذان الأصفر والأقحوان الأبيض والبنفسج الأرجواني والبرواق الأحمر كالياقوت ، بحيث أن جماله البديع كان يتحدث إلى قلوبنا ، بلهجات تتفجر بالحب ومجد الخالق .

وكانت تنتصب هنا وهناك ، وسط هذا العشب المزخرف ، باقات باقات ، أشبه بانفجارات الأحلام ، أشجار سحرية لم تكن جذوعها الكبيرة الرفيعة مستقيمة ، بل كانت مائلة بلطافة باتجاه الضوء الذي كان يزور الوادي عند الظهر . كان قشرها مبقعاً بلون لامع يتراوح بين الفضي والأبنوسي ، وكان

مصقولاً وناعماً أكثر من أي شيء آخر ما عدا خدّي إليونورا ؛ بحيث أنه كان يمكن اعتبارها ، في الاخضرار الزاهي لأوراقها العريضة التي تتدلى من أعاليها في خيوط طويلة متأرجحة وتتلاعب مع الريح الليّنة ، أفاعي ضخمة تمجّد أميرتها الشمس .

شردنا ، إليونورا وأنا ، يداً بيد ، خلال خمسة عشر عاماً ، في هذا الوادي ، قبل أن يدخل الحب قلبينا . وفي مساء يوم ، في تمام بلوغها الخامسة عشرة ، وبلوغي العشرين ، كنا نجلس ، وقد ضمّنا عناق متبادل ، تحت الشجر الأفعواني ، نتأمل صورتينا في مياه نهر الصمت . لم نتفوه بأية كلمة طوال ذلك اليوم البديع ، وحتى في الصباح ، كانت كلماتنا قليلة ومضطربة . كنا قد أخرجنا الإلـه إيروس(*) من هذه الموجة ، وبدأنا نشعر أنه أشعل فينا من جديد روح أسلافنا المتأجّجة . لقد انقضّت العواطف الملتهبة ، التي ميّزت سُلالتنا طوال عصور بكاملها ، بكل قوتها وأهوائها التي شهرتها أيضاً ، ونفخت الغبطة الجنونية على وادي الغازون ـ ديابري . ودبّ التغيّر في الأشياء كلها . طلعت من الشجر أزهار غريبة ، متلألئة ، منقّشة لم يطلع مثلها من قبل ، وصارت خضرة الأرض أكثر نضارة ؛ وأخذت أزهار الأقحوان الأبيض تختفي الواحدة إثر الأخرى لتنبثق محلها زهرات من البرواق بحمرة الياقوت . وتفجّرت الحياة في كل ناحية من دروبنا ؛ ذلك أن طائر الغوّاص الكبير ، الذي لم نكن بعد نعرفه ، وجميع العصافير البهيجة ذات الألوان المتوهّجة ، فرشت أمامنا ريشها القرمزي ، وملأت الأسماك الفضية والذهبية النهر الذي أخذ يبث من أعماقه رويداً رويداً صوتاً أصبح في السياق لحناً مهدهداً ، أكثر ألوهية من لحن قيثارة إيول(**) ، وأكثر عذوبة من كل شيء ما عدا صوت إليونورا . إذاك أيضاً ، ظهرت غيمة طالما ترصدناها في مناطق هيسبيروس ، ترشح بألوان الذهب والياقوت ، ونزلت ـ بعد أن استقرت فوقنا ـ نزلت يوماً بعد يوم ، واقتربت شيئاً فشيئاً ، حتى لامست أطرافها رؤوس الجبال ، فصيّرت ظلامها بهاء ، وأطبقت علينا ، كأنها

(*) ذكرنا سابقاً أن إيروس Eros هو إلـه الحب ، وهو كيوبيد في الأساطير الرومانية .

(**) Iole ابنة يورتوس ملك أوخاليا . ذكرها أوفيد في «مسخ الكائنات» .

أطبقت إلى الأبد، في سجن ساحر من الروعة والعظمة.

كان جمال إليونورا جمالاً ملائكياً؛ كانت فتاة لا تعرف التصنُّع حقّاً، بريئة كالحياة القصيرة التي عاشتها بين الورد. لم تكن أية حيلة تُخفي حرارة الحب الذي يحرك قلبها، وكانت تبحث عنه معي في مكنون الخفايا، بينما كنا نشرد معاً في وادي الغازون ـ ديابري، ونستفيض في الحديث عن التغيرات العظيمة التي ظهرت فيه من عهد قريب.

وبعد أن حدثتني باكية، في أحد الأيام، عن التغيّر الأخير القاسي الذي ينتظر الإنسانية البائسة، لم تعد تفكر، منذ تلك اللحظة، إلاّ في هذا الموضوع الأليم، فكانت تمزجه بأحاديثنا كلها، وتمزجه حتى بأغاني شاعر شيراز(*).

رأت إليونورا أنَّ إصبع الموت كانت على صدرها، وأنّها، كالظل، لم تنضج هذا النضج الكامل الجمال إلاّ لكي تموت؛ لكن أهوال القبر بالنسبة إليها كانت كلها كامنة في فكرة وحيدة كشفت لي عنها ذات مساء لحظة الغروب، على ضفة نهر الصمت. كان يؤلمها التفكير أنني، بعد أن أدفنها في وادي الغازون ـ ديابري، سأنسى هذه الخلوات السعيدة وأحوّل حبّي، الذي هو الآن وقف مهيّم عليها، نحو فتاة ثانية من العالم الخارجي المبتذل. وكنت، بين حين وآخر، أرتمي على قدميّ إليونورا وأعرض عليها عهداً، لها وللسماء، بأنني لن أحاول الزواج بفتاة من الأرض، ولن أخون، في أي حال، ذكراها الغالية أو ذكرى حبها الملتهب. وأشهدتُ الله القويَّ ناظم الكون على ذلك. واللعنة التي توسّلت إليهما، الله وهي، لإنزالها علي إن خنت عهدي هذا، ملأى بعقاب رهيب لا أستطيع أن أعبّر عنه. حين سمعت إليونورا كلماتي هذه لمعت عيناها البرّاقتان ببريق أشدّ، وتنهّدت كما لو أنها أزاحت عن صدرها عبئاً قاتلاً؛ وارتجفت وبكت بمرارة؛ لكنها قبلت عهدي (إذ هل كانت إلاّ طفلة؟) وعهدي هذا ليّنَ لها سرير الموت. وبعد أيام قليلة، قالت لي، وهي تُحتضر بوداعة، إنها ستسهر، لما فعلته في سبيل هدوء روحها، عليّ بهذه الروح ذاتها بعد موتها؛ وأنها ستأتي، إذا

(*) علاء الدين منصور شيرازي: شاعر فارسي له مثنوي «شاهنشاه نامه» مدح فيه السلطان العثماني مراد الثالث (١٥٧٤ ـ ١٥٩٥).

سُمِحَ لها ، وتتجلّى لي طوال ساعات الليل ، وأنها ، إذا كان هذا الأمر يتجاوز امتيازات الأرواح في الجنة ، ستجيء إليّ أطيافاً أطيافاً تتنفّس فوقي في نسائم المساء أو تملأ الهواء الذي أتنشقه بالعطر الفوّاح من مجامر الملائكة . ومع هذه الكلمات ، فاضت روحها البريئة راسمة بموتها نهاية المرحلة الأولى من حياتي .

حتى الآن تكلمت بأمانة ، بيد أنني حين أعبر هذا الحد في طريق الزمن ، الذي عبّده موت حبيبتي ، وأسير في المرحلة الثانية من حياتي ، أشعر أن سحابة تتراكم فوق ذهني ، وأشك أنا نفسي بقوة ذاكرتي . لكن دعوني أكمل . تعاقبت السنوات بطيئة ، الواحدة إثر الأخرى ، وتابعت سُكناي في وادي الغازون ـ ديابري . لكنّ تغيّراً آخر تمّ في كل شيء . غاضت الأزهارُ في جذوع الشجر ولم تعد تظهر ، وتلاشت ألوانُ البساط الأخضر ؛ واختفت زهرات البرواق الياقوتية ، واحدة إثر واحدة ، وطلعت مكانها البنفسجات الداكنة الشبيهة بعيني إليونورا اللتين كانتا تنشجان بإعياء وتطفحان دائماً بدمع كالأنداء . وابتعدت الحياة عن دروبنا ؛ ذلك أن طائر الغواص الكبير لم يعد يفرش ريشه القرمزي أمامنا ، بل كان يطير حزيناً من الوادي إلى الجبال مع مختلف العصافير الزاهية ذات الألوان المتوهّجة التي كانت تجيء في موكبه أوان مجيئه ، واختفت الأسماك الفضية والمذهبة هاربة عبر المضيق ولم تعد تزيّن النهر الرائق . وهذه الموسيقى السماوية التي كانت أكثر عذوبة من قيثارة إيول ، وكل شيءٍ آخر ما عدا صوت إليونورا ، همدت رويداً رويداً في سقسقات كانت تتلاشى تدريجاً ، إلى أن غرق النهر أخيراً في أبّهة صمته الأوليّ العميق . ثم ارتفعت السحابة الضخمة وسقطت ثانية ، وهي تترك ذرى الجبال لظلماتها القديمة ، في مناطق هيسبيروس ، ونقلت بعيداً عن وادي الغازون ـ ديابري المشهد اللانهائيّ لأرجوانها وبهائها .

مع ذلك ، لم تنس إليونورا وعدَها ، إذ إنني كنت أسمع تأرجح المجامر الملائكية قربي ؛ وكان أريج العطر السماويّ يتموّج دائماً دائماً ملء الوادي ؛ وفي ساعات الوحدة ، وقلبي ينبض بتثاقل ، كانت الرياح التي تغمر جبهتي تصل إليّ مثقلة بتنهدات عذبة ؛ وكانت غالباً تمتمات غامضة تملأ فضاء

الليل . ومرَّةً ، ـ آه ! مرة فقط ، أيقظتني من نومي ، الشبيه بالموت ، شفتان أثيريّتان تطبقان على شفتيّ .

بيد أن فراغ قلبي لم يمتلئ ، مع هذا كله . كنت أتشوّق بحرارة إلى الحب الذي ملأه سابقاً حتى الفيض . ومع الوقت صار الوادي ، المليء بذكريات إليونورا ، مكاناً للحزن فتركته إلى الأبد في سبيل حطام الدنيا وزخرفها .

ألفيت نفسي في مدينة غريبة ، كان كل شيء فيها مهيَّأً ليمحو من ذاكرتي الأحلام الناعمة التي طالما حلمتها في وادي الغازون ـ ديابري . فبهرج القصور ، وصليل الأسلحة الجنونيّ ، وجمال النساء الأخّاذ ، هذا كله كان يذهل دماغي ويُسكره . لكن روحي كانت حتى هذه اللحظة لا تزال أمينة لمواثيقها ، وكانت إليونورا لا تزال ترسل إليّ ، طوال ساعات الليل ، إشارات عن وجودها . وفجأة توقفت هذه الأطياف والإشارات عن الظهور ؛ واسودّ العالم في عينيّ ، وبقيت في ذعر من الأفكار الملتهبة التي كانت تسيطر عليّ ، والإغراءات الرهيبة التي كانت تحيط بي ؛ فقد جاءت من البعيد ، البعيد ، من منطقة مجهولة إلى قصر الملك الذي كنت أخدم عنده ، فتاة أسَرَ جمالها بسرعة قلبي المارق ، وسجدت عند قدميها ، بكل ما في الحب من ضراعة ولهفة . أي شيء كان حبي لفتاة الوادي المعشوشب ، حين يُقارن باللوعة ، والهذيان ، والانخطاف ، والعبادة ، التي سكبت فيها كلها روحي كالدمع على قدمي إرمنغارد الأثيرية ! ـ آه كم كانت مضيئة إرمنغارد الملائكية ! وهذه الفكرة لم تترك مكاناً في نفسي لأيّة فتاة ثانية . آه ـ آه ـ كم كانت سماوية إرمنغارد الساحرة ! وحينما كنت أغوص في أعماق عينيها المليئتين بالذكرى ، لم أكن أحلم إلاّ بهما . . وبها .

تزوّجتها ؛ ولم أخش اللعنة التي كنت استنزلتها ولم يُصبني أذاها . ومرة ، مرة واحدة ، في هدوء الليل ، عبرت التنهدات العذبة ، التي هجرتني ، حَرَم نافذتي ووصلت إليّ صوتاً ناعماً أليفاً قال لي : «ارقد بسلام ! ذلك أن روح الحب هي السلطان الذي يدبّر ويحكم ، ثم إنك ، بعد أن قبلت في قلبك الواله هذه التي اسمها إرمنغارد ، حُللتَ ـ لأسباب تُكشف لك في السماء ـ ممّا تعهدت به ونذرته لـ«إليونورا» .

ويليم ويلسون

لا يجوز لهذه الصفحة البيضاء العذراء المفتوحة أمام ناظري أن تتلوّث باسمي الحقيقي الذي كان موضوع احتقار ورعب ومقت بالنسبة إلى عائلتي . اسمحوا لي ، ولو مؤقتاً ، أن أدعو نفسي ويليم ويلسون . ألم تنشر الرياح الثائرة جسد الذي لا نظير له في أقصى أصقاع الأرض؟ آه ! أيّها المنفيّ الأكثر خذلاناً بين المنفيين جميعاً ! ألم تغب عن هذا العالم وأمجاده وأزهاره وأحلامه الذهبية إلى أبد الآبدين؟ أما علقتَ غيمةً كثيفة ، كئيبة ، أبدية ، لا حد لها ، بين الرجاء والسماء؟

لا أود ، وإن كنت أستطيع ، أن أسجن اليوم في هذه الصفحات ذكريات سنواتي الأخيرة بشقائها الذي لا يوصف ، وجرائمها التي لا تُغتفر . هذه الفترة الأخيرة من حياتي جرّت معها ، بشكل غير متوقّع ، عاراً كبيراً ، كل همّي الآن أن أحدّد مصدره . يصير الناس عادة أشراراً على مراحل ، أما أنا فقد نزعت عني كلّ فضيلة في دقيقة واحدة ، ودفعة واحدة كالمعطف . انتقلت بخطوة عملاق من فساد عاديّ إلى أنكر الفواحش . اسمحوا لي أن أحدّثكم بإسهاب عن القدر العارض الغريب الذي سبّب هذه اللعنة . الموت يتقدم ، والظلّ الذي يسبقه ألقى في قلبي السكينة . أريد أن أؤكد للذين أمثالي أنني كنت ؛ بمعنى ما ، عبداً لظروف تتحدّى كل رقابة إنسانية . كنت أرغب أن يكتشفوا ، بالنسبة إلي ، في التفاصيل التي كان ينبغي أن أقدّمها لهم ، واحة صغيرة من القَدَر في صحراء التّيه . كنت أريد أن يوافقوا أن الإنسان ، على الرغم من أن هذا العالم مرّ في تجارب عظيمة ، لم يُمتَحن بهذا الشكل من قبل أبداً ـ وأنه بالتأكيد لم يسقط هذا السقوط . أليس إذاً بسبب من ذلك أنه لم يعرف الآلام نفسها أبداً؟ أما عشت أنا ، حقاً ، في حلم؟ ألا أموت ضحية الرعب والغموض في أغرب الرؤى البشرية؟

إنني انحدرُ من أرومة تميّزت دائماً بمزاج سريع التخيّل سهل الإثارة . وبرهنت طفولتي أنني وارث ممتاز لطباع سلالتي . كنت كلما تقدمت في السن كلما برزت هذه الطباع بشكل أقوى ؛ حتى صارت ـ لأسباب عديدة

ـ مصدر قلق خطير بالنسبة إليّ . صرت عنيداً ، منقطعاً إلى أكثر النزوات وحشية ؛ أصبحت فريسة لأكثر الشهوات جموحاً . ولم يكن أبواي السّاذجان يستطيعان عمل شيء ، ذي بال ، لمنع الميول السيئة التي تميزت بها ، لأنهما كانا يرزحان تحت وطأة ضعف وراثي من النوع ذاته ، والمحاولات الضعيفة الساذجة التي قاما بها أخفقت كلها وانقلبت بالنسبة إليّ نصراً كاملاً منذ تلك اللحظة . أصبح صوتي قانوناً عائلياً ؛ وتُركتُ لأهوائي ، وفي سنٍّ مبكرة يندر أن يُترك الأولاد لأهوائهم ، وأصبحت سَيّد أعمالي كلها باستثناء اسمي .

ترتبط انطباعاتي الأولى عن حياتي المدرسية ببيت واسع غريب من الطراز الإليزابيثي ، في قرية إنكليزية كئيبة ، مزيّنة بأشجار ضخمة عجراء ، ذات بيوت مغرقة في القدم . في الحقيقة ، كانت هذه القرية القديمة مكاناً يشبه الحلم ، وكأنّما بُنيت كي تسحر الفكر . حتى في هذه اللحظة أتخيّل أنني أستعيد الرعشة الرطبة لشوارعها الظليلة ، وأتنشق عبير غاباتها ، وأختلج بنشوة لا توصف لرنّة الناقوس العميقة الصمّاء ، وهي تمزق بصوتها المفاجئ الموحش ، كل ساعة ، هدوءَ الجوّ الرمادي الذي كان يغرق فيه برج الأجراس القوطي المتأكل .

لعلّ لذتي تزداد بمقدار ما يتاح لي الإسهاب في الحديث عن هذه الذكريات المدرسية وتخيّلاتها . ستسمحون لي ـ أنا الغريق في التعاسة ـ أن أبحث عن تعزية ، ولو عابرة وقصيرة ، في هذه التفاصيل البسيطة الضائعة ، لأنها مهما كانت في الواقع مبتذلة ومضحكة ، فإنها تكتسب في خيالي أهمية زائدة ، بسبب اقترانها الحميم بالأمكنة والوقت الذي تبدت فيه أولى نُذُر القدر الغامضة التي غمرتني بظلّها منذ ذلك الحين . اسمحوا لي إذاً أن أتذكّر .

ذكرت أن البيت كان قديماً غريباً ، وكان واسعاً يحيط به جدار متين مرتفع من الآجر المغطى بطبقة من الطين والزجاج المكسور . كان هذا السّور الذي يليق بالسّجن يشكل حدودنا ؛ لم تكن عيوننا تتعدّاه إلاّ ثلاث مرات في الأسبوع : مرّة يوم السبت ، بعد الظهر ، برفقة معلمين اثنين ، حيث

يُسمح لنا بالخروج والنّزهة في الحقول المجاورة ؛ ومرّتين ، الأحد ، حين نمضي بنظام ، كجوقة العرض ، لحضور القدّاس الاحتفالي صباحاً ومساءً في كنيسة القرية الوحيدة . كان رئيس مدرستنا راعي هذه الكنيسة . يا للشعور العميق المليء بالدهشة والارتباك الذي كان يساورني حين أنظر إليه من مقعدنا البعيد عن المذبح وهو يرتقي إليه بمهابة وتؤدة ! أكان ممكناً لهذا الشّخص الوقور ، بوجهه الوديع الخجول ، وردائه الكهنوتي ، ذي الرونق البهي ، وشعره المستعار المجعّد ، المسترسل ، أن يكون الشخص العبوس نفسه ذا الثياب الملوثة بالتبغ ، والذي ينفّذ بعصاه قوانين المدرسة الصّارمة؟ آه ! يا للتناقض الفظيع الذي تنفي شناعته كل توليف !

كان ينهض في زاوية جدار ضخم باب أكثر ضخامة أيضاً ، محكم الإغلاق ، مُجهّز بالمزاليج ، رُكّبت عليه شبكة من الحديد المسنّن . يا لمشاعر الخوف العميقة التي كان يوحي بها ! لم يكن يفتح أبداً إلاّ لتلك المرّات الثلاث التي ذكرتها ، لدى الخروج والرجوع . كنّا نرى في كلّ طقطقة من مفصلاته المتينة فيضاً من السر ، عالماً كاملاً من الملاحظات الرّائعة ، أو التأملات الأكثر روعة .

كان الفناء الواسع غير منتظم الشكل ، ومقسّماً إلى عدّة أقسام ، تشكّل ثلاثة أو أربعة منها ساحة الراحة في أثناء الفرص . أذكر بوضوح أنه لم يكن فيها شجر ولا مقاعد ولا ما يشبه ذلك . كان موقعها وراء البيت طبعاً . وأمام واجهة المدرسة كانت تمتد فسحة صغيرة مغروسة بشجيرات البقس وشجيرات من نوع آخر ؛ غير أنّنا لم نكن نسير في هذه الزاوية المقدسة إلاّ في مناسبات نادرة ، كدخول المدرسة للمرة الأولى ، أو مغادرتها للمرّة الأخيرة ، أو ربّما ـ إذا دعانا صديق أو قريب ـ نجتازها بفرح إلى البيت في عطل الميلاد وإجازة الصّيف .

ذلك البيت ! ـ كم كان يبدو لي تحفة قديمة ! ـ بالنّسبة إليّ كان قصراً حقيقياً مليئاً بالسّحر ! في الواقع لم تكن لخفاياه نهاية ، ولا لأقسامه التي لا تُدرك . كان من الصعب أن يعرف أحدنا ، دون شك ، في أي طابق يكون ، في الأول أو في الثاني ، إذ كان بين الغرفة والأخرى ثلاث أو أربع درجات

للصّعود أو للنزول . وكانت الأقسام الجانبية الكثيرة المعقّدة تلتف وتدور على نفسها ، بحيث أنّ أدقّ أفكارنا عن البناء بمجموعه لم تكن تختلف كثيراً عن الأفكار التي نواجه من خلالها اللاّنهاية . لم أستطع مرّة واحدة ، طوال سنيّ إقامتي الخمس ، أن أحدّد بدقة المكان الذي كان مخصصاً لنومنا ، أنا وثمانية عشر أو عشرين طالباً آخرين .

كانت قاعة المطالعة أوسع قاعات البناء ، وحتى أوسع قاعات العالم كلّه ؛ أو على الأقل ، لم أكن أستطيع أن أمنع نفسي من رؤيتها على هذا الاتساع . قاعة طويلة جداً ، وضيّقة جداً ، ومنخفضة بشكل خانق ، ذات نوافذ مضلّعة وسقف من السنديان . في زاوية منعزلة ، شكّلت مصدر الرعب طوال ساعات المطالعة ، كان يقوم مربّع مساحته من ثماني إلى عشر أقدام يمثل منبر رئيسنا ، الدكتور المحترم برانسبي . وكان في زاويتين ثانيتين موضعان مشابهان ، أقلّ مهابة بالطبع ، غير أنهما كانا مصدرين للرعب القوي أيضاً ؛ أحدهما منبر أستاذ الآداب ، والثاني لأستاذ اللغة الإنكليزية والرياضيات . كانت المقاعد والأدراج العديدة مبعثرة في القاعة ، مثقلة بالكتب التي لوّثتها الأصابع ، تتصالب في فوضى لا نهاية لها ، سوداء قديمة ، عفّى عليها الزمن ، ولا تزال ظاهرة فوقها آثار حروف أولى لبعض الأسماء وأسماء بكاملها ، وأشكال قبيحة ، وعدد آخر من آثار السكاكين التي فقدت شكلها الأصلي . وكان في أحد طرفي القاعة دلو كبير مليء بالماء ، وفي الطرف الآخر ساعة ذات ضخامة مُلفتة .

خمس سنين أمضيتها من حياتي سجيناً وراء الجدران الضخمة لهذه المدرسة الجليلة ، لكن دون ضجر أو اشمئزاز . دماغ الطفولة الخصب لا يتطلّب عالماً خارجياً من الأحداث كي يلهو ويتسلّى . كانت رتابة المدرسة ، الكئيبة في الظاهر ، تغدق على خيالنا مثيرات أكثر عنفاً وحرارة من جميع المثيرات التي ألهبت بها الشهوة شبابي ، أو التي استمدتها رجولتي من الجرأة على الجريمة . لكن ينبغي الاعتراف أن تطوري العقلي ، في تلك المرحلة ، كان مبلبلاً وغير مألوف في قسم كبير منه . إن أحداث الطفولة بصورة عامة لا تترك انطباعاً واضحاً في الإنسان الذي بلغ سنّ الرشد . كل ما فيها ظلٌّ

رماديٌّ ، ذكرى واهنة مبلبلة ، ومزيج مشوّش من الأفراح الواهية والمتاعب الوهمية . لم يكن الأمر هكذا بالنسبة إليّ . لا بدّ أن أكون في طفولتي قد عشت كل ما لا يزال محفوراً في ذاكرتي بخطوط بارزة عميقة وباقية كخطوط النقود القرطاجية ، لا بد أن أكون قد عشت هذا بكل طاقة الرجل .

هناك في الواقع ، واقع العالم المرئي ، أمور قليلة للتذكّر ! النهوض في الصباح ، نظام النوم ، دروس المذاكرة ، الاستظهارات ، العطل الأسبوعية ، والرحلات ، باحة الاستراحة ومشاجراتها ، وتسلياتها ، وألاعيبها ، هذا كله كان يتضمن في ذاته ، بفضل سحر نفسي خفيّ ، فيضاً من الأحاسيس ، وعالماً غنياً بالأحداث ، وكوناً من الانفعالات المتنوعة والإثارات الزاخرة بالجموح والنشوة . أوه ! يا للزمن الرائع ، زمن العصر الحديدي !

في الواقع ، سرعان ما ميّزتني طبيعتي الحادّة ، الحماسية ، المتغطرسة ، بين رفقائي وجعلتني تدريجاً أتفوق على جميع الذين لم يكونوا أكبر سناً مني ، بسهولة تامة ، باستثناء شخص واحد ، كان تلميذاً يحمل اسمي نفسه ، اسمي العائلي ، واسمي في العمادة دون أية قرابة ؛ وهذه مصادفة قلما تلفت النظر بحد ذاتها ، لأنّ اسمي ، على الرغم من عراقة سلالتي ، كان مبتذلاً وكان يبدو ملكاً مشتركاً للناس بسبب كثرة تداوله . وهكذا تسمّيت في القصة باسم ويليم ويلسون ، وهو اسم مختلق لكنه غير بعيد عن الحقيقة . كان سميّي وحده ، بين هؤلاء الذين يشكّلون ، بلغة المدرسة ، صفنّا ، يجرؤ على أن ينافسني في الدروس ، في اللعب ، ومشاكسات الفرصة ، ويرفض الثقة العمياء بأقوالي والخضوع الكامل لإرادتي ، ويناوئ تسلّطي في كل مناسبة . وإذا كان على الأرض تسلّط هائل ودون تحفظ ، فهو تسلّط ولد عبقري على نفوس رفقائه الأقلّ حيوية منه .

كان تمرّد ويلسون بالنسبة إليّ مصدر قلق كبير ؛ لكن على الرغم من تبجّحي ، الذي كنت أجعل منه واجباً لمعاملته علنيّاً ، هو وادّعاءاته ، فقد كنت أشعر أنني أخافه ضمنيّاً ، ولا أستطيع أن أمنع نفسي من اعتبار المساواة ، التي كان يتمسّك بها إزائي ، برهاناً على تفوّق حقيقي ، وكنت من

جهتي أبذل جهداً دائماً كي لا يسيطر عليّ . كنت في الحقيقة أشعر وحدي بهذا التفوّق ، أو بالأحرى هذا التساوي ؛ لأن أحداً من رفقائنا ، لعمًى لا يفسّر ، لم يكن يظن فيه حتى مجرّد ظن . الحق أنّ منافسته ، ومقاومته ، وخصوصاً تدخّله الوقح لمعارضة مخططاتي كلها ، لم تكن ظاهرة بقدر ما هي مستترة . كان ينقصه ، كما يبدو ، الطموح الذي كان يدفعني إلى السيطرة ، كما كانت تنقصه الحيويّة الجامحة التي أهّلتني لذلك . كان يبدو وكأنه في هذه المنافسة لا يهدف إلاّ إلى معارضتي ، مدفوعاً برغبة جامحة لكي يحيّرني ويقهرني ؛ على الرغم من أنني كنت ألاحظ في بعض الحالات ، بانفعال تشوبه الدهشة والمهانة والحنق ، أنّه كان يمزج إهاناته ووقاحته ومعاكساته ببعض مظاهر المودّة التي ليست في محلّها ، والتي تغيظ إلى أبعد الحدود . لم أكن قادراً على فهم سلوك غريب كهذا إلاّ بافتراضه نتيجة ادّعاء الحماية والرعاية بشكل سخيف .

ربما كانت الصفة الأخيرة في سلوك ويلسن ، بالإضافة إلى اسمنا المشترك ، ودخولنا معاً مصادفة إلى المدرسة ، هي التي أشاعت بين زملائنا ، في الصفوف العليا ، أننا أخوان . لم يكن هؤلاء عادة يستعلمون بكثير من الدّقة عن شؤون الطّلاب الأصغر منهم سناً . قلت إنّ ويلسن لم يكن يمت بأية صلة إلى عائلتي ، حتى في أقصى درجات القرابة ، غير أنّنا لو كنا أخوين لكنّا توأماً بكل تأكيد ؛ إذ بعد أن تركت بيت الدكتور برانسبي علمت من طريق المصادفة أن سميّي مولود في ١٩ كانون الثاني/ يناير ١٨١٣ ، وهذه أيضاً مصادفة غريبة ، لأنني ولدت في هذا التاريخ تماماً .

أليس من المستغرب أنني لم أكره ويلسون مطلقاً ، على الرغم من القلق المستمرّ الذي كانت تسبّبه لي منافسته ومعاكساته التي لا تحتمل؟ كنّا نتخاصم كل يوم تقريباً ، وحين كان يقدّم لي في هذا الخصام غار النصر ظاهرياً ، كان يجتهد أن يجعلني أشعر بشكل ما أنّه هو الذي فاز به ، غير أن شعور الزهو من جهتي ، وشعور الجدارة الحقيقية من جهته ، كانا يبقياننا في حدود اللّياقة الجادّة ، بينما كانت نقاط التشابه في أخلاقنا تكفي لكي توقظ فيّ الشعور الذي يؤثر في وضع كل منّا دون أن يتحوّل إلى صداقة .

في الواقع ، يصعب عليّ أن أحدّد ، أو حتى أن أصف ، مشاعري الحقيقية تجاهه ؛ كانت خليطاً متبايناً ومن كل نوع ، كراهية حادة لم تغدُ بعد حقداً ، إكراماً واحتراماً أكثر من الخوف ، وفضولاً قلقاً هائلاً . من غير المفيد ، بالنسبة إلى أخلاقي أن أضيف أنّ ويلسن وأنا نادراً ما كنّا نفترق .

كان الشذوذ في علاقاتنا والتباسُها أحياناً هما اللذان أفرغا كل هجماتي ضدّه دون شك ، وكانت واضحة أو كامنة وعديدة ، في قالب من السخرية والمزاح (ألا يسبّب المزاح جراحاً بليغة؟) وليس في قالب العداوة الجدية القاطعة . غير أنّ جهودي في هذا الموضوع لم تكن تبلغ النجاح التام ، حتى عندما كانت مخططاتي قد دبّرت ببراعة ؛ ذلك أنه كان في أخلاق سميي كثير من هذه الصرامة المفعمة بالتحفّظ والهدوء التي تتلذّذ بوخز سخرياته الخاصة ، ولا تهرب أو تتخلّص ممّا يبعث على السخرية . لم أكن أجد في شخصيته منفذاً للانتقاد إلاّ من خلال وضعه الجسماني ، وذلك بسبب نقص في بنيته ؛ ولعلّ أي خصم آخر كان يتغاضى عن هذه الناحية لو كان أقلّ تشبّثاً بأهدافه مني . كان خصمي يشكو من ضعف في جهازه الصوتي يمنعه من رفع صوته فلا يتجاوز درجة الهمس المنخفضة . ولم يكن يفوتني أن آخذ من هذا النقص كل التفوّق اليسير الذي كنت قادراً عليه .

كان ويلسون متمتّعاً بأساليب عديدة ، إذ كان على نوع من الخبث الذي نغّصني إلى حد كبير . بأية فراسة استطاع ، منذ البداية ، أن يكشف أنّ أبسط الأشياء يمكن أن تغيظني؟ هذه مسألة لم أستطع قط أن أحلّها . غير أنه منذ اكتشافه هذا الأمر ، مارس هذا التعذيب ضدي بعناد . كنت دائم الشعور بالاشمئزاز من اسم عائلتي غير اللائق ، ومن اسمي المبتذل إن لم أقل السوقي تماماً . هذه الحروف كانت عاراً في أذنيّ ؛ وحينما ظهر ، نهار وصولي بالذات ، ويليم ويلسون آخر في المدرسة ، حقدت عليه لأنه يحمل هذا الاسم ، وقرفت منه قرفاً مضاعفاً لأن غريباً كان يحمله ، وسيكون وجود هذا الغريب سبباً في أن أسمع هذا الاسم يُلفظ مرتين ، سيكون حاضراً معي دائماً ، وستمتزج غالباً شؤونه مع شؤوني في مجرى الأمور العاديّ في المدرسة ، بسبب هذه المصادفة المقيتة .

راح شعور الغضب الذي ولّدته هذه المصادفة يزداد حدة كلما أبرزت الظروف أي شبه نفسي أو جسدي بين خصمي وبيني . لم أكن قد اكتشفت بعد هذا الشبه العجيب جداً في عمرينا ، إنما كنت أرى أن لنا القامة نفسها ، وأدرك التشابه الغريب في مظهرينا وملامحنا وقسماتنا ، لذلك كنت أشتعل غضباً بسبب ما يتهامسون به حول قرابتنا ، وما يشاع في الصفوف العليا . وبعبارة واحدة ، لم يكن بوسع أي شيء أن يغيظني جدّياً (مهما حاولت إخفاء ذلك) أكثر من الإشارة إلى أي تشابه بيننا ، سواء ما اتصل بالعقلية أو بالمظهر أو الولادة ؛ غير أنه لم يكن لديّ أي سبب للاعتقاد أن هذا التشابه (باستثناء القرابة) كان في يوم ما موضوع تعليق أو ملاحظة من قبل رفقائنا في الصفّ . أن يكون هو لاحظه بمختلف مظاهره ويمثل انتباهي فذلك كان واضحاً ؛ أما أن يكون استطاع أن يكشف في مثل هذه المصادفات منجماً غنيّاً بالتناقضات فهذا لا أستطيع أن أنسبه إلاّ إلى ذكائه غير العادي .

كان حين يجيبني يقلّدني تقليداً كاملاً ـ في الكلام والحركات ـ فيلعب دوره بصورة مدهشة . كان من السهل جداً تقليد لباسي وتلبّس مشيتي وسلوكي العام دونما صعوبة ؛ ولم يَفُتْه صوتي نفسه على الرغم من النقص في بنيته . طبيعيٌّ أنه لم يكن يرفع صوته ، غير أن المفتاح كان واحداً ، وأخذ صوته يصير ، رغم انخفاضه ، الصَّدى التام لصوتي .

لن أحاول أن أقول إلى أي حد كانت هذه الصورة الغريبة تعذّبني (لأنني لا أستطيع أن أقلّد) ، ولم يكن لديًّ إلاّ عزاء واحد هو أن هذا التقليد ، كما بدا لي ، لم يلاحظه أي شخص آخر غيري ، وبقي عليَّ فقط أن أتحمّل ابتسامات سميي ذات السخرية الغامضة الغريبة . كان يبدو مغتبطاً للتأثير الذي يحدثه الابتسام في نفسي ، ويبتهج للألم الذي يلحقه بي . مع هذا كان يسخر ممّا يمكن أن يلقاه من الإعجاب بسبب انتصار براعته . كيف لم يعرف رفقاؤنا بنواياه ويشاركوه فرحه الساخر إذ يرونها تتحقق؟ كان ذلك ، خلال شهور عديدة من القلق ، لغزاً لا يُحلّ بالنسبة إليّ . لعل تقليده إياي تدريجاً جعله أقلَّ وضوحاً ، أو لعلني مدين بطمأنينتي لمهارة المقلّد الكاملة ، لأنه كان يحتقر التقليد الحرفي ـ أو كل ما يقدر الخامل أن يراه في اللوحة ـ

ولا يعطي في تقليده إلاّ روح الأصل الكاملة ، ما أثار إعجابي الأكبر ، وترك لي حزناً شخصياً عميقاً .

سبق وتكلمت عن الأسلوب الجارح للحماية التي أظهرها إزائي ، وعن تدخّله المتكرر الفضولي في شؤوني ، هذا التدخل الذي كان يكتسي طابع النصيحة المقيتة ، تلك النصحية التي لم تكن تُعطى بصراحة ، بل كانت إيحاءً وتلميحاً . كنت أتلقاها بنفور يزداد شدة مع تزايد سنيّ عمري . مع ذلك أريد أن أكون منصفاً بالنسبة إليه فأعترف أنّني لا أذكر في تلك الفترة البعيدة حالة واحدة اتصفت فيها نصائحه بالخطإ أو الجنون ، وهي صفات طبيعية في مثل سنه التي تنقصها الخبرة والنضج ، وأن حسّه الأخلاقي ، إن لم أقل مواهبه وفطنته الدنيوية ، أكثر رهافة من حسي ، وأنني كنت أجدني اليوم رجلاً أفضل وأسعد لو لم أرفض دائماً النصائح الكامنة في تلك الوشوشات المبطنة ، التي لم تكن توحي لي حينذاك إلاّ احتقاراً مُرّاً وحقداً متفجراً من القلب .

وهكذا غدوت ، بمرور الزمن ، متطرفاً في ثورتي ضد رقابته الكريهة ، وازداد كرهي لما كنت أعتبره منه غطرسة لا تُحتمل . قلت إن مشاعري نحوه في السنوات الأولى من رفقتنا تحوّلت بسهولة إلى نوع من الصداقة ، ولكن خلال الأشهر الأخيرة من إقامتي في المدرسة تحولت مشاعري إلى الحقد الحقيقي بالرغم من أن لجاجة أساليبه المعتادة كانت قد تضاءلت كثيراً . وأعتقد أنه أدرك حقدي ، ومنذ ذلك الحين تجنّبني ، أو تظاهر بأنه تجنّبني .

عند هذا التاريخ بالذات تقريباً ، إذا صدقتني ذاكرتي ، جرى بيننا جدال حادّ أفقده تحفظه المعتاد . أخذ يتكلم ويتحرك بشكل غريب عن طبيعته ، فاكتشفت ، أو تخيّلت أنني اكتشفت ، في نبرته ، في مظهره ، في ملامحه العامّة ، شيئاً أجفلني بادئ الأمر ، ثم شوّقني كثيراً إذ أعاد إلى عقلي رؤى غامضة من طفولتي ، ذكريات غريبة ، مشوّشة ، مزدحمة ، آتية من زمن بعيد ، حيث لم تكن ذاكرتي قد ولدت بعد . لن أعرف أن أحدّد الإحساس الذي كان يضغط عليّ إلاّ بقولي إنه كان من الصعب التخلّص من فكرة

مؤداها أنني عرفت هذا الكائن الماثل أمامي ، عرفته سابقاً في فترة قديمة جداً ، في ماض موغل في القدم . مع ذلك تلاشى هذا الوهم بالسرعة نفسها التي ولد فيها ؛ ولا أذكره إلاّ لكي أحدد تاريخ الحديث الأخير الذي جرى لي مع سميّي الوحيد .

كان البيت القديم الواسع يحتوي في أقسامه العديدة على غرف واسعة تتصل الواحدة بالأخرى وتستخدم كمهاجع لأكبر عدد من الطلاب . لكن كان فيه (وهذا طبيعي في مبنى بمثل هذا التخطيط السيّئ) عدد كبير من الزوايا والخلوات أحالتها براعة الدكتور برانسبي الاقتصادية إلى مهاجع أخرى . لكنها لم تكن تتسع ، باعتبارها حجرات بالغة الصغر ، إلاّ لفرد واحد . وكان ويلسن يشغل إحدى هذه الحجرات .

ذات ليلة اغتنمت فرصة نوم الجميع في أواخر سنتي المدرسية الخامسة ، مباشرة بعد الجدال الذي تحدّثت عنه ، فنهضت من سريري ؛ حملت بيدي مصباحاً ، وتسلّلت ، خلال متاهة من الممرات الضيقة ، من غرفة نومي إلى غرفة نوم خصمي . كنت قد دبّرت له لعبة خبيثة ، إحدى المداعبات التي فشلت فيها كلياً حتى ذلك الوقت . خطر لي ، منذ ذلك الحين ، أن أضع مخطّطي قيد التنفيذ ، وقررت أن أجعله يشعر بكل الخبث الشديد الذي كان يملؤني . بلغت حجرته ، دخلت بهدوء ، تاركاً المصباح عند الباب ، بعد أن وضعت فوقه ما يخفي نوره . تقدمت خطوة ، وأصغيت إلى أنفاسه الهادئة ، وإذ تأكدت من أنه ينام نوماً عميقاً ، عدت إلى الباب ؛ تناولت مصباحي ودنوت ثانية من السرير . كانت الستائر مسدلة ؛ فتحتها بهدوء وببطء لأبدأ تنفيذ المخطط ؛ لكن ضوءاً قوياً سقط على وجهه ، فتسمّرت عيناي عند ملامحه . نظرت ؛ وعلى الفور اخترق كياني كله خدر وإحساس بالخمود . خفق قلبي ، صكّت ركبتاي ، وسيطر على روحي كلها رعب لا يطاق ولا يُفسر . تنهّدت بتشنّج ، قرّبت المصباح من وجهه . هل كانت ! هل كانت هذه بالفعل قسمات ويلسون؟ كنت أرى جيداً أنها قسماته ، غير أنني كنت أرتجف كالمحموم ، وأنا أتخيّل أنها لم تكن قسماته ! ماذا كان فيها ممّا استطاع أن يريبني إلى هذا الحد؟ وبينما كنت أتأمله ، كان دماغي يدور بتأثير ألف

فكرة لا رابط بينها . لم يكن يبدو لي هكذا . . كلاّ ، بالتأكيد لم يكن يبدو لي في ساعات اليقظة كما هو الآن . الاسم ذاته ! الملامح ذاتها ! دخول المدرسة في اليوم ذاته ! ثم تقليده مشيتي وصوتي ولباسي وحركاتي . هذا التقليد المقيت الذي لا يُفسَّر . هل كان في حدود الممكن الإنساني أن ما أراه الآن هو مجرّد نتيجة لهذه العادة من التقليد الساخر؟ أطفأت مصباحي ، خائفاً مرتجفاً ؛ خرجت من الغرفة بصمت ، وغادرت سور المدرسة القديمة كي لا أعود إليها هذه المرّة أبداً .

بعد بضعة شهور أمضيتها في بيتنا بكسل تام ، وجدتني طالباً في كلية إيتون . هذه الفترة القصيرة كانت كافية لتضعف ذكرى حوادث مدرسة برانسبي ، أو على الأقلّ لكي تحدث تغيّراً ملحوظاً في طبيعة المشاعر التي كانت توحيها لي هذه الذكرى . الواقع أن الجانب المفجع من المأساة لم يعد موجوداً . كنت أجد الآن بعض بواعث الشك في شهادة حواسي ، ونادراً ما كنت أتذكّر تلك المغامرة دون أن أُدهش إلى أي حد يمكن أن تصل سرعة التصديق البشري ، ودون أن أبتسم لقوة التخيّل العجيبة التي ورثتها من عائلتي . إذاً ، لم تكن حياتي في إيتون من النوع الذي يضعف هذه الشكوك . إن دوّامة الهَوَس التي غرقت فيها ، مباشرة ودون تأمّل ، جرفت كل شيء باستثناء زبد ساعاتي الماضية ، ودفعة واحدة امتصّت كل انطباع قوي وجديّ ، ولم تترك لذاكرتي إلاّ طيش حياتي الماضية .

ورغم ذلك ، لا أقصد أن أصوّر هنا مجرى اختلالي التعس ـ الاختلال الذي كان يتحدّى كل قانون ويتملّص من كل رقابة . ثلاث سنوات من الحماقة أمضيت ، لم أجنِ منها إلاّ عادات متأصلة في الشرّ ، وازدياداً غير منتظم في نموّي الجسدي . ذات يوم ، بعد أسبوع كامل من اللهو المضني ، دعوت جمعاً من أكثر التلاميذ فسقاً إلى حفلة سكر سريّة في غرفتي . اجتمعنا في ساعة متأخرة من الليل ، إذ كنّا قد رتبنا حفلتنا بشكل تمتد معه السهرة حتى الفجر . كانت الخمر تتدفّق بحريّة ، ولم تَفُتْنا متع أخرى لعلّها أكثر خطراً ، بحيث أن هذياننا وتعتُّهنا بلغا الذروة حينما كان الفجر يطل باهتاً من الشرق . كان السُكر قد تعتعني جداً ، فرحت أصرُّ على أن أشرب

نخباً يخالف الحشمة إلى حدّ غريب ، حين أضاع انتباهي الباب الذي فتح فجأة وبسرعة ، وصوت الخادم المفاجئ ، قال لي إنّ شخصاً يبدو عليه أنه مستعجل جداً يطلب التحدث إليّ في الرواق .

ولـمّا كانت الخمر قد أهاجتني بشكل غريب ، فقد سبّبت لي تلك المفاجأة اللّذة أكثر مما باغتتني . خرجت مترنّحاً ، وبعد بضع خطوات صرت في رواق البيت . لم يكن في هذه الردهة المنخفضة الضيقة أي مصباح ، ولم تكن تتلقى أي نور غير نور الفجر الضعيف الذي كان يتسلّل عبر النافذة المقوّسة . لمحت ، وأنا أضع قدمي على العتبة ، شكل شاب بقامتي تقريباً ، يرتدي سترة بيضاء من الكشمير ، مفصّلة حسب الزي الجديد ، كالسترة التي كنت أرتديها تلك اللحظة . أتاح لي الضوء الخافت أن أرى ذلك كله ، لكن قسمات الوجه لم أكن قد ميّزتها بعد . وما كدت أطل حتى أسرع نحوي وهمس في أذني وهو يمسك ذراعي بحركة مضطربة آمرة هاتين الكلمتين : ويليم ويلسن !

فصحوت من السُّكر في ثانية .

كان في تصرّفه الغريب ، في الارتجاف العصبيّ لإصبعه التي أبقاها مرفوعة بين الضوء وعينيّ ، شيء ملأني بالدهشة الكاملة ؛ لكن ليس هذا هو الشيء الذي أثارني بعنف ، أثارني التضخيم والتفخيم في التوبيخ المستمر في هذا الكلام الغريب ، الخافت ، المُنغّم ؛ أثارني أكثر من أي شيء لهجة بعض هذه المقاطع البسيطة ، الأليفة ، المهموسة سرّاً ، ومفتاحها الصوتي ، هذه المقاطع التي جاءت مع آلاف الذكريات المتراكمة عن الأيام الماضية تسقط على نفسي سقوط عمود كهربيّ . لكن الغريب توارى قبل أن أسترد وعيي .

أيّاً يكن الأثر الشديد الذي تركته هذه الحادثة في خيالي المشوّش ، فإن هذا الأثر سرعان ما تلاشى . خلال بضعة أسابيع استسلمت إلى الاستقصاء الدقيق أحياناً ، وأحياناً أخرى بقيت مغموراً بغيمة من التأمل المرَضي . لم أحاول أن أخفي عن نفسي هوية الشخص الغريب الذي كان يتدخل في شؤوني بهذا العناد ويرهقني بنصائحه المقيتة . لكن من كان؟ من كان ويلسن هذا؟ ومن أين كان قادماً؟ وماذا كانت غايته؟ لم أستطع أن أطمئن

إلى أي من هذه التساؤلات ؛ وإنما قدّرت ، فقط ، أن حادثاً مفاجئاً في عائلته جعله يترك مدرسة الدكتور برانسبي بعد ظهر اليوم الذي شهد هربي منها . لكن بعد وقت قصير لم أعد أحلم به واستحوذ سفري إلى أكسفورد على انتباهي كله . هناك أتاح لي تباهي عائلتي بالإسراف أن أعيش في بذخ وأن أستسلم ، على هواي ، للترف العزيز عليّ . هكذا عدت حالاً أنافس ، في التبذير ، الورثة المتغطرسين لأغنى نبلاء بريطانيا .

وبما أنني تشجّعت على الخلاعة بمساعدة هذه الوسائل فقد انطلقت طبيعتي بحماسة مزدوجة . وفي جنون عربداتي المهووسة دست بقدميّ عوائق الحشمة المبتذلة كلها . لكن من العبث أن أتوقف لأسرد تفاصيل هوسي هذا . يكفي القول إنني تفوقت على هيرودس(*) في اللهو . ابتكرت أنواعاً جديدة من الرجس فأضفت ملحقاً كبيراً إلى لائحة الفجور الطويلة ، ذلك الفجور الذي كان يسود آنذاك في أكثر جامعات أوروبا خلاعة .

ربما بدا من الصعب الاعتقاد بأنني كنت حتى ذلك الحد دون مستوى الرجل الشريف ، أو أنني كنت أجتهد كي أتعود على أدنى حيل المقامر المدمن ، إذ أصبحت من المدمنين على هذه المهنة الحقيرة ، التي كنت أمارسها عادة كوسيلة لزيادة عائداتي الضخمة في الأصل على حساب رفقائي البسطاء . ومع ذلك كان هذا هو الواقع . وقد كان السبب الرئيسي ، إن لم يكن الوحيد ، للتغاضي عني ، هو إفراطي في التهجّم على مشاعر الشرف والحشمة . إذاً لم يكن أي من رفقائي الفاسدين يرغب في أن يناقض أوضح شهادة لحواسه ، كأن يرتاب بسلوك ويليم ويلسون الفرح ، المخلص ، الكريم - أنبل وأسخى تلميذ في أكسفورد - هذا الذي لم يكن طيشه (كما يقول المتطفّلون) إلاّ طيش شباب وخيال جامح ، والذي لم تكن أخطاؤه إلاّ أهواء لا تقارب أسوأ القبائح ، لكن مع إسراف بديع وخلو بال .

كنت قد قضيت سنتين بهذا الشكل الفرح عندما وفد إلى الجامعة شاب

(*) هيرودس اسم أربعة من ملوك اليهود . الأول الكبير الذي أمر بذبح أطفال بيت لحم . وأنتيباس ابنه الذي أمر بقطع رأس يوحنا المعمدان بعد أن أسكرته الخمرة . وأغريبا الذي قتل القديس يعقوب وسجن بطرس . وأغريبا الثاني الذي حاصر أورشليم .

حديث النعمة ـ اسمه غليندينغ ـ ثريّ مثل هيرودس آتيكوس ، كما يقول المثل الشائع ، ولم يكلفه غناه أي عناء . اكتشفت بسرعة أنه ضعيف التفكير ، وطبيعي أنني اخترته كصيد ممتاز لمخططاتي . أغريته كثيراً باللعب ، واجتهدت بلباقة اللاعب العادية أن أتركه يربح مبالغ طائلة ، كي أجذبه بشكل أقوى إلى شباكي . أخيراً ، بعد أن مهَّدت لمخططي جيداً ، التقيت به (بنية مبيّتة للانتهاء منه) في بيت أحد رفقائنا (السيد بريستون) الذي كان رفيقاً مشتركاً لنا نحن الاثنين . لكن عليَّ أن أنصفه ، وأعترف بأنه لم يكن غبيّاً ، وحرصت كل الحرص على أن يأتي اللعب عَرَضياً وألاّ يتم إلاّ بناء على اقتراح من الأبله الذي كنت أنوي تدميره . سأوجز تفصيل هذا الحادث القذر فأقول إني لم أهمل أيّاً من الحيل الدنيئة إلاّ نفذتها بابتذال ، حتى أنه من العجيب أن يكون هناك أشخاص أغبياء إلى درجة أن يصيروا ضحاياها .

كان قد مضى على السهرة وقت طويل حينما خطّطت لأن يبقى غليندينغ خصمي الوحيد . كانت اللعبة لعبتي المفضلة ، وكان الآخرون قد تركوا أوراقهم وتحلّقوا حولنا ، وقد أثارت فضولهم المبالغ الضخمة التي نقامر عليها . كان صديقنا الحديث النعمة ، هذا الذي أخطأت بدفعه إلى الإفراط في الشراب في بداية السهرة ، يخلط الورق ، يوزعه ويلعب بعصبية غريبة دفعتني إلى الظن بأن سكره كان بدافع ما ، لم يوضحه تماماً . وبعد قليل من الوقت أصبح مديناً لي بمبلغ كبير ، وإذ جرع كأساً طافحة من الخمر ، فعل ما توقعته ببرودة فاقترح أن نضاعف المبلغ الذي كان في الأصل ضخماً بشكل جنوني . وأخيراً قبلت بعد تصنُّع بارع للرفض ، وبعد أن دفعه رفضي المتكرر للتفوّه بكلمات فظّة ، أظهرت قبولي بمظهر الإذعان المرغم ، كانت النتيجة كما كان مهيّأ لها ؛ سقطت الضحية بكاملها في شباكي ، وفي أقل من ساعة أصبح مديناً لي بأربعة أضعاف الدين الأول . كانت ملامحه منذ قليل قد فقدت اللون المشرق الذي سبّبته الخمر ، لكنني لاحظت بدهشة أن ملامحه في تلك اللحظة بدأت تصفر اصفراراً مخيفاً حقاً . أقول بدهشة ، لأن المعلومات التي سمعتها عن غليندينغ صورته لي غنيّاً إلى حد كبير ، بحيث أن المبالغ التي خسرها ـ على ضخامتها ـ لا

تستطيع ـ كما افترضت ـ أن تزعجه حقيقة وأن تحزنه إلى هذا الحد الكبير . والفكرة التي خطرت لي هي أنه كان ثملاً من الخمرة التي شربها ، ولكي أنقذ سمعتي في أعين الرفقاء ، وليس بدافع التجرد ، أخذت ألح بلهجة جازمة لإيقاف اللعب بعد أن أفهمتني بضع عبارات ترددت بالقرب مني بين الحاضرين ، وصراخ غليندييننغ الذي يدل على اليأس الكامل ، أني قد هيأت دماره التام في ظروف جعلته موضع شفقة الجميع .

يستحيل أن أصف مسلكي في تلك المناسبة . كانت حالة هذا الغبي المحزنة قد أضفت على الجميع جواً من الضيق والكآبة ؛ وساد صمت عميق لبضع دقائق ، كنت أشعر خلالها رغماً عني أن خديّ ينملان تحت وخز النظرات المحرقة من الازدراء والتوبيخ التي يصوبها أقل الحضور شراسة . وأعترف أن قلبي استراح مؤقتاً من وطأة قلق لا يحتمل بفضل التدخل المفاجئ الخارق الذي تلا . فُتح مصراعا الباب دفعة واحدة ، بعنف شديد جامح ، حتى أن الشموع كلها انطفأت كما لو أن سحراً أطفأها . غير أن الضوء الميت أتاح لي أن ألمح غريباً يدخل الغرفة ، رجلاً بقامتي تقريباً ، ويلبس معطفاً ضيّقاً ، إلاّ أن الظلام في هذه اللحظة كان شاملاً ، وكنّا لا نكاد نحسُّ أنه بيننا . وقبل أن يهدأ روع أيّ منا من الدهشة البالغة التي ولّدها هذا العنف ، سمعنا صوت هذا الدخيل يقول بصوت منخفض جداً ، لكنه واضح ، صوت لا يُنسى ، صوت اخترق نقيَ عظامي : «أيها السّادة ، لا أحاول أن أعتذر عن مسلكي ، لأنني بسلوكيَ هذا أُكمل واجباً . أنتم ولا شك لا تعرفون حقيقة أخلاق الشخص الذي ربح هذه الليلة مبلغاً ضخماً من اللورد غليندييننغ . سأقترح عليكم إذاً وسيلة سريعة وحاسمة لكي أوفّر لكم هذه المعلومات الهامة . أرجو أن تفتشوا بطانة كمّه الأيسر وبعض العلب الصّغيرة التي ستعثرون عليها في الجيوب الواسعة لسترته المطرّزة» .

بدا الصمت عميقاً وهو يتكلّم ، حتى لَيُسمع سقوط الإبرة على السجادة . وحينما أنهى حديثه ذهب لتوّه بالمفاجأة نفسها التي دخل فيها . هل أقدر؟ هل يمكن لي أن أصف أحاسيسي؟ هل ينبغي القول إنني أحسست بجميع الأهوال التي يشعر بها رجلٌ حكم عليه بالهلاك الأبدي؟

كان وقتي لا يتّسع بالتأكيد للتأمّل! أطبقت علي بضع سواعد بخشونة، ثم أشعل الضوء فوراً. تلا ذلك تفتيش دقيق، ثم عثروا في بطانة كمّي وفي جيوب سترتي على كل ما توقّعه ذلك الدّخيل الغريب!

لم تعذّبني عاصفة السّخط قدر ما عذبني صمت الاحتقار والتندّر السّاخر اللذين تبعا ذلك الاكتشاف. وقال مضيفنا وهو ينحني ليلتقط من عند قدميه معطفاً رائعاً مبطّناً بفراء ثمين:

«هذا لك يا سيّد ويلسن (حينما تركت غرفتي كان الطقس بارداً، فلبست فوق ثيابي معطفاً خلعته حين وصلت إلى مكان اللّعب). وأضاف وهو ينظر إلى ثنايا المعطف بابتسامة مرّة: أظن من غير المجدي البحث هنا عن براهين جديدة على احتيالك، فلدينا ما يكفي. آمل أن تدرك الضرورة في مغادرة أوكسفورد والخروج من بيتي فوراً».

من المرجح، وقد أُهنت هكذا وديست كرامتي كالوحل، أن أرد على هذه اللغة المهينة، بعنف شخصي مباشر، لو لم يُؤخذ انتباهي كله في تلك اللحظة بحادثة من أغرب الحوادث. كان للمعطف الذي جلبته معي فراء فخم ـ ولا ضرورة للقول إنه كان نادراً وثميناً إلى درجة الجنون ـ كان مفصّلاً بشكل غريب ابتكرته أنا؛ لأنني كنت صعب الإرضاء في هذه التوافه، وكنت أذهب في الإفراط في الأناقة حتى حدود العبث. وحين ناولني السيد بريستون المعطف الذي التقطه عن الأرض، قرب باب الغرفة، لاحظت بدهشة قريبة من الرعب أنني كنت أحمل معطفي على ذراعي، إذ كنت قد حملته دون انتباه ولا شك، وأن المعطف الذي يقدمه لي كان تقليداً كاملاً ودقيقاً لمعطفي، حتى في أدق تفاصيله. كان الشخص الغريب الذي كشف أمري بهذه الطريقة الفاجعة يلبس كما أذكر جيّداً معطفاً، بينما لم يجلب أي شخص من الحضور معطفه باستثنائي أنا. حافظت على شيء من حضور البديهة، فأخذت المعطف الذي قدمه لي بريستون، ووضعته على معطفي دون أن ينتبه أحد. وفي الصّباح قبل بزوغ الفجر أسرعت هارباً من أوكسفورد في حسرة حقيقية من العار والذلّ.

كنت أفرّ عبثاً، فمصيري الملعون يطاردني، منتصراً مبرهناً لي أن قدرته

الغامضة لم تكن حتى ذلك الوقت إلاّ بداية . إذ لم أكد أضع قدميّ في باريس حتى تعرَّضت لمحنة جديدة من تدخل ويلسن المقيت في شؤوني . مرت السنون ، وما ظفرت براحة . يا لي من شقيّ! بأيّة مجاملة مزعجة ، بأيّ حنان كحنان الشبح تدخَّل في روما بيني وبين طموحي! وفي ڤيينا ، وفي برلين! ـ وفي موسكو! أين لا أجد ذكرى أليمة تدفعني لأصب عليه اللعنة من أعماق قلبي؟ هربت أخيراً مصعوقاً من الذّعر ، أمام طغيانه الخفيّ ، كأنني أهرب من الموت الأحمر ، وهربت إلى آخر العالم . هربت ولكن . . . عبثاً .

ودائماً ، دائماً كنت أسأل نفسي سراً ، وأكرر أسئلتي : «من هو؟ من أين جاء؟ وماذا يريد؟» لكنني لم أكن أحظى بجواب! كنت أحلل بدقة أشكال رقابته الوقحة وطريقتها وخصائصها المميَّزة . وحتى هنا لم أكن أعثر على ما يمكن أن يدعم أي تخمين . لكن مما يلفت النظر أنه لم يكن يتدخَّل في كثير من الأحيان إلاّ ليفسد مخططات أو يُفشِّل أعمالاً ما كانت لتؤدي ، لو نجحت ، إلاّ إلى خيبة مريرة . هذا ، في الواقع ، تعليل سقيم لسلطة آمرة طاغية بهذا الشكل! وهو تعويض تافه عن الحقوق الطبيعية في حرية الإرادة التي تُنكر بمثل هذا العناد وهذه الوقاحة!

كنت ألاحظ أيضاً أن جلاّدي ، الذي يمارس تقليد ملابسي بدقة ومهارة ، ينصرف بعد تدخلاته على نحو غريب . لم يكن يفسح لي في المجال كي أرى وجهه . وواضح أن مثل هذا السرّ يبدو في منتهى التصنُّع والحماقة . هل كان يُعقل أن لا أرى فيه الشخص الذي كان ينصحني في إيتون ـ الذي هدَّم شرفي في أوكسفورد ـ الذي وقف ضد طموحي في باريس ، وعارض رغبتي الثأرية في برلين ، وحبّي العنيف في ناپولي ، وقاوم في مصر ما كان يسمّيه خطأً شُحّاً في المال؟ إلا أرى في هذا الشخص عدوّي اللدود ، وشيطاني ويليم ويلسن ، الذي عرفته في سنوات دراستي ـ السميّ ، الرفيق ، الخصم ـ الخصم المكروه المرهوب في مدرسة برانسبي؟ مستحيل! لكن دعوني أصل إلى المشهد الأخير الرهيب من المأساة .

كنت حتى ذلك الوقت خانعاً جباناً أمام سلطانه الآمر . كانت عاطفة الاحترام العميق ، الذي تعودت أن أقابل به الأخلاق الرفيعة ، ثم الوقار

المهيب ، والوجود في كل مكان ، والجبروت البادي في ويلسن ، بالإضافة إلى ما لا أعرف من الإحساس بالرعب الذي كانت توحيه لي بعض صفاته ومزاياه الأخرى ، كان هذا كله قد كوّن في نفسي الشعور بالضعف الكلي والعجز ، ودفعني إلى انقياد مطلق ، وإن كان مليئاً بالمرارة والاشمئزاز ، لتسلّطه عليَّ . إلاّ أنني في المرحلة الأخيرة كنت قد استسلمت للخمرة ، وكان تأثيرها المتزايد في مزاجي الوراثي يجعلني شيئاً فشيئاً لا أتحمّل أية رقابة . وبدأت أتذمّر ، أتردد ، وأقاوم . هل كان خيالي وحده هو الذي صوّر لي أن عناد جلاّدي سيخفّ أمام صلابتي؟ هذا ممكن ، غير أنني كنت قد بدأت أشعر بدبيب أمل متوهّج ، ورحت في سري أغذي عزمي القاتم اليائس على التخلّص من هذه العبوديّة .

حدث ذلك في روما في أثناء كرنفال عام ـ ١٨ ؛ كنت أحضر حفلة تنكّرية في قصر الدوق دو بروغيلو من نابولي . كنت قد أفرطت في شرب الخمر أكثر من عادتي ، وكان الجوّ الخانق في القاعات المزدحمة يثقل عليّ بشكل لا يطاق ، مع ذلك لم تزد الصعوبة التي واجهتها ، في شقّ طريقي خلال الزحام ، حالتي النفسية شيئاً . ذلك أنّني كنت أبحث بقلق (لن أقول بأية نيَّة سيئة) عن زوجة دو بروغيلو الهرم المهووس ، أبحث عن زوجته الشابة ، المرحة ، الجميلة . كانت قد همست لي بسرّ الثياب التي سترتديها ، بثقة متهورة ؛ وكنت أسرع ، وقد لمحتها بعيداً ، كي أصل إليها . أحسست في هذه اللحظة بيد تسقط على كتفي بهدوء ، ثم ذلك الهمس الذي لا يُنسى ، ذلك الهمس العميق الملعون في أذني !

استدرت فجأة ، وقد تملكني غضب محموم ، نحو من شوَّشني هكذا ، وأمسكته بعنف من صداره . كان يرتدي ، كما كنت أتوقع ، لباساً يشبه لباسي تماماً : معطفاً إسبانياً من المخمل الأزرق ، ويلتفّ بحزام قرمزي علّق به سيف طويل ، ويغطي وجهه بكامله قناع من الحرير الأسود . صرخت بصوت أبحّته سورة الغضب ، وكان كل مقطع أتفوّه به أشبه بوقود النار لغضبي : «أيها الخبيث ! أيها الدجّال ! أيها اللعين ، لن تقتفي أثري بعد الآن ، لن تلاحقني حتى الموت ! اتبعني أو أصرعك في مكانك !» ورحت أجرّه

مرغماً وأشق طريقي في قاعة الرقص باتجاه غرفة صغيرة مجاورة .

فتحت الباب ودفعته بعيداً عني ، فترنّح واتكأ على الحائط ؛ أغلقت الباب وأنا أصب عليه اللعنات ، وأمرته أن يمتشق سيفه . تردّد لحظة ، ثم جرّد سيفه بصمت وتنهّد خفيف ، واتخذ وضعيّة المبارزة . لم تكن المسايفة بالتأكيد طويلة . كنت ثائراً تغلي في داخلي أغرب الانفعالات الوحشية من كل نوع ، وكنت أشعر أن في ذراعي الواحدة طاقة جمع غفير . حاصرته بقوة ، بضع ثوان ، وإذ أصبح تحت رحمتي المطلقة ، غرزت سيفي في صدره بضراوة عدة مرات ودون توقّف .

في اللحظة نفسها لمس أحدهم قفل الباب . أسرعت أستدرك هجوماً مفاجئاً ، واستدرت مباشرة نحو خصمي المحتضر . لكن أية لغة بشرية تقدر أن تعبر عن الذهول ، عن الذعر ، اللذين تملكاني حينما رأت عيناي هذا المشهد . كانت اللحظة التي استدرت فيها كافية لكي تحدث في الظاهر تغيّراً مادياً في ترتيب الطرف الآخر من الغرفة .

كانت هناك مرآة كبيرة تنتصب (أو هكذا بدا لي في تشوشي) حيث لم أرَ من قبل أي أثر لها . وكنت وأنا أتقدم مذعوراً صوب المرآة ، أرى صورتي فيها ، لكن بوجه شاحب ، وملطخ بالدم ، تتقدم لملاقاتي بخطى واهنة مترنّحة .

هكذا بدا لي الأمر ، كما قلت ، لكن الواقع كان عكس ذلك . كان خصمي - كان ويليم ويلسن هو الذي يقف أمامي محتضراً . كان قناعه ومعطفه مرميّين على الخشب حيث رماهما . ما من خيط في ثيابه ! ما من خط في شكله المتميّز الغريب ! إلاّ وكان خيطاً في ثيابي أنا ، وخطاً في شكلي أنا . كان الشبه كاملاً .

كان ذلك هو ويلسن ، لكن ويلسن الذي لم يعد يهمس كلماته الآن ! مع أنني كنت أستطيع الاعتقاد أنني كنت أنا نفسي أتكلم حينما قال لي : «لقد انتصرت ، وخسرت أنا . لكن من الآن فصاعداً أنت أيضاً ميت . . ميت في هذا العالم ، في السماء وفي الرجاء ! كنت موجوداً فيَّ . . فانظر في موتي ، انظر من خلال هذه الصورة التي هي صورتك . . انظر كيف قضيت نهائياً على نفسك بنفسك» .

الموعد المُنتظَر

آه ، يا لك من إنسان مبهم ، سيّئ الحظ ، غارق في بريق خيالك ، هائم في لهيب شبابك ! أراك من جديد ، روحيّاً ! مرة ثانية ينتصب شكلك أمامي ! ليس ، أواه - ليس كما أنت في الوادي البارد ، وفي الظلام ، بل كما كان مفروضاً أن تكون ، مزجياً أيامك في التأمل الرائع في هذه المدينة - مدينة الرؤى المضطربة ، مدينتك التي هي إليزيه البحر ، المدينة التي تعشقها النجوم ، والتي تتحدى نوافذ القصور البيضاء ، بشعور عميق مرير ، أسرار مياهها الصامتة . بلى ، أكرر كما كان مفروضاً عليك أن تكون . هناك ، لا شك ، عوالم أخرى غير هذا العالم ، وأفكار غير أفكار الجمهور ، وتأملات غير تأملات السفسطائيين . من يضع ، إذاً ، سلوكك موضع الشك؟ من يلومك على أوقاتك الرائية ، أو يقول عن اهتماماتك إنها أفسدت حياتك ، وهي التي لم تكن غير فيض من طاقتك السرمدية؟

كان ذلك في البندقية ، تحت القنطرة المفتوحة التي تسمى «البونتي دي سوپيري»(*) ، حيث قابلت للمرة الثالثة ، أو الرابعة ، الشخص الذي أتكلم عنه . ولا أذكر إلاّ بغموض ظروف هذا اللقاء . مع ذلك ، أتذكر - آه ! كيف أنساه؟ - منتصف الليل العميق ، جسر التنهّدات ، جمال المرأة ، وشيطان الشعر الذي كان يعبر القناة الضيّقة .

كان ذاك الليل مظلماً بنوع خاص . كانت أجراس الساعة الكبيرة في الساحة قد أعلنت الخامسة مساء بتوقيت إيطاليا . وكانت ساحة «الكامبانيل» مقفرة ترقد بهدوء ، والأضواء في قصر «دوكال» القديم تتلاشى سريعاً . كنت عائداً من «البيازّاتا» ، في القنال الكبير ، لكن بينما كان الجندول الذي يقلّني يمرّ قبالة مخرج قنال «سانت مارك» ، انفجر بغتة صوت نسائي صادر من أعماقه ، في الليل ، بصرخة وحشية واحدة ، مجنوناً ، مديداً ؛ وإذ فاجأني الصراخ ، نهضت ، بينما حوذي الجندول كان يبحث عن المجذاف

(*) إيطالية وتعريبها جسر التنهّدات .

الوحيد الذي أفلت من يده فغرق في الظلام الأسود ولم يعثر عليه . وهكذا خضعنا لمجرى القنال الذي يلتقي ، في هذا المكان من القنال الكبير ، بالقنال الصغير . كنا ننزلق ببطء ، أشبه بكندور(*) ضخم أسود الريش ، نحو جسر التنهدات ، حينما توهّجت مئات المشاعل في النوافذ ، وعلى امتداد سلالم قصر دوكال ، وجعلت فجأة من الظلام الدامس نهاراً رمادياً غريباً .

حدث أنَّ طفلاً ، أفلت من يدي أمه ، قد سقط من نافذة في أعلى البناء الكبير ، في القنال الكبير الضيق ، وانطبقت المياه الهادئة عليه ؛ ومع أن جندولي الخاص كان الوحيد الظاهر ، فإن سبَّاحين بارعين كانوا يبحثون عبثاً فوق سطح الماء عن الكنز الذي لم يكن بمقدورهم ، ويا للأسف ، أن يعثروا عليه إلاّ في القعر . كانت تقف عند مدخل القصر ، وعلى بعد عدة درجات من الماء ، امرأة لا يستطيع أي شخص رآها آنذاك أن ينساها مطلقاً بعد ذلك ، هي المركيزة أفروديت ، معشوقة البندقية كلها ، أكثر الفرحات فرحاً ، الأجمل بين الجميلات ، ولكن الزوجة الشابة لـ«منتوني» العجوز الماكر ، وأم هذا الطفل الجميل ، طفلها الأول الوحيد الذي كان في تلك اللحظة يفكر عميقاً ، تحت المياه المظلمة ، بمرارة وحسرة ، بعناقاتها العذبة ، ويستنفد حياته الصغيرة مكافحاً من أجل أن يلفظ اسمها .

كانت تقف وحيدة ، قدماها الصغيرتان ، العاريتان البيضاوان الفضيّتان ، تتلألآن في المرآة الرخامية السوداء تحتها ، شعرها يتشعّث وسط نهر من الجواهر حول رأسها النموذجي ، في حلقات تشبه السوسن ؛ وكان غطاء ناصع البياض ، أشبه بالبخار ، يغطي وحده تقريباً تقاطيع جسمها الدقيقة ، لكن هواء منتصف الليل هذا ، في أواسط الصيف ، كان حاراً ، كثيفاً ، وهادئاً ؛ ولم تكن أية حركة من هذا الشكل الشبيه بالتمثال تحرّك حتى ثنايا هذا الرداء البخاريّ الذي يتدلّى حولها كالرخام . والغريب ، في ذلك ، أنّ عينيها البراقتين لم تكونا حانيتين على هذا القبر الذي دُفن فيه أعظم آمالها ، لكنهما كانتا محدقتين في اتجاه معاكس تماماً . إن سجن الجمهورية القديم

(*) Condor نسر أميركي ضخم .

هو ، كما أظن ، أضخم الأبنية في البندقية كلها ؛ لكن كيف كان باستطاعة هذه المرأة أن تحدّق فيه ، على هذا النحو ، بينما كان يختنق ، إلى جوارها ، طفلُها الوحيد؟ من لا يتذكّر أنَّ العين في ساعة كهذه تكسّر ، كالمرآة المحطّمة ، صورة حزنها وتلمح الشقاء القريب من بعيد وفي أكثر الأماكن .

ومنتوني نفسه ، كان على بعد درجات قليلة من المركيزة ، واقفاً في ثياب السهرة ، أشبه بإلــه(*) الغابة ، يضرب من وقت إلى آخر على القيثار ، ويبدو ضجراً حتى الموت حينما يلقي الأوامر لانتشال الطفل . كنت من الذهول والدهشة بحيث أني عجزت عن تغيير وضعي المستقيم الذي اتخذته وأنا أسمع الصراخ للمرة الأولى . ورأى فيّ الحشد المضطرب شبحاً سيّئ الحظ وأنا أعبر ، شاحب الوجه ، جامد الأعضاء ، في هذا الجندول المأتمي .

فشلت المحاولات كلها ، والكثيرون ممن ظهروا أكثر حيوية من غيرهم في البحث فترت هممهم واستسلموا لكآبة متجهّمة . وبدا لهم أن الأمل قليل في إنقاذ الطفل (وما كان أقلّه بالنسبة إلى الأم) ؛ لكن سرعان ما خرج شكل إنساني من داخل النفق المظلم الذي يشكل جزءاً من السجن الجمهوري القديم ، وبعد أن توقّف هنيهة على حافة هذا المنحدر المدوّم ، غاص في القنال . وبعد لحظة كان الرجل يقف مع الطفل ، الذي كان لا يزال حيّاً يتنهّد وهو يحتضنه ، على البلاط الرخامي قرب المركيزة . وحينما سقط حول قدميه معطفه ، الذي أثقلته رطوبة الماء ، كشف للنظّارة ، الذين فاجأتهم الدهشة ، عن وسامة شاب كان اسمه يومذاك يثير دوياً في الجزء الأكبر من أوروبا .

لم ينبس منقذ الطفل بأية كلمة . والمركيزة بالطبع ، سوف تتناول طفلها ، تعانقه وتحتضنه ، تتمسك بصورتها الصغيرة وتغمرها بقبلاتها . لكن ، يا للأسف ! فقد تناولت الطفل ذراعان أخريان ، وأخذتاه بعيداً ، إلى القصر ، بعيداً عن عينيها . والمركيزة ! كانت شفتاها ، شفتاها الجميلاتان ترتجفان ، وكانت الدموع تتجمع في عينيها العذبتين الصافيتين . أجل ، كانت الدموع

(*) Satyr وكان يتميّز بولعه الشديد بالقصف المعربد وانغماسه في الملذات .

تتجمّع في عينيها ، وها هي ترتجف بكيانها كله ، ويتحرك التمثال . شحوب الوجه الرخامي ، بروز الصدر الرخامي ، نقاوة القدمين الرخاميتين ، هذا كله يبدو الآن وهو يحمر فجأة في تيار من الدم العفويّ ، وها هو الارتعاش يهز الشكل الناعم ، كما يهز نسيم نابولي الرقيق الزنابق الفضية الرائعة بين الحشائش .

لماذا احمرّ وجه المركيزة؟ ليس من جواب على هذا التساؤل إلاّ في كونها ، وقد خرجت بسرعة أمّ ملهوفة من خدرها الخاص ، نسيت أن تسجن قدميها الناعمتين في خُفّيْهما ، ونسيت ـ كلياً ـ أن تلقي على كتفيها هذا الغطاء الموشّى الذي تستحقّانه . ما هو السبب الآخر الممكن لاحمرار وجهها؟ للنظرة الغريبة في عينيها الضارعتين؟ للثوران غير المعتاد في هذا الصدر الخفّاق؟ للضغط المتشنج من هذه اليد المرتجفة ، هذه اليد التي ارتمت عرضاً ، بينما كان منتوني يدخل إلى القصر ، فوق يد الغريب؟ ما هو سبب النبرة المنخفضة ، النبرة المنخفضة بشكل فريد في كلماتها التي لا معنى لها ، والتي لفظتها على عجل وهي تودّعه؟ «لقد انتصرت» ، ـ قالت له ، أو ربما خدعني صوت الماء «لقد انتصرت ، بعد شروق الشمس بساعة ، سنلتقي ، آمين» .

كان الضوضاء قد سكن ، وانطفأت الأنوار داخل القصر ، والغريب ، الذي بدأت أتعرف عليه ، واقف على الرخام وحده . كان يرتجف بشكل يصعب فهمه ، ويطوف بعينيه حوله بحثاً عن جندول . لم أكن أستطيع أن أفعل أقلّ من أن أعرض عليه استخدام جندولي ؛ فقبل هذا العرض . وسرعان ما أخذ ، ونحن نسير في اتجاه مسكنه ، يسيطر على أعصابه ، ويتحدث عن تعارفنا القديم العرَضي بعبارات بادية المودة .

لديّ موضوعات أحب أن أكون دقيقاً في التحدّث عنها ، وشخصية الغريب ـ واعذروني لتسميتي بهذا الاسم شخصاً كان لا يزال غريباً بالنسبة إلى الناس كلهم ـ شخصية الغريب هي بين هذه الموضوعات . كانت قامته دون الحدّ الوسطي أكثر مما هي فوق هذا الحدّ ، وإن كانت هناك لحظات من الانفعال الشديد تطول خلالها بالفعل وتكذّب هذا التأكيد . كان تناسق شكله

الخفيف ، بل الهشّ ، يوحي بهذه الحيوية السريعة التي أبداها عند جسر التنهدات ، أكثر مما يوحي بهذه القوة الهرقلية التي عرفت عنه في مناسبات كان الخطر فيها أشد . كانت له ، بفمه وذقنه الإلــهيين ، وعينيه الفريدتين الوحشيتين المليثتين ، الصافيتين ، اللتين كان لونهما يتموّج بين الكستنائي الصافي والأسود الكهربيّ البرّاق ، الكثيف ، وفيض الشعر الأسود المجعّد فوق جبهة بطول غير عادي ، تتلألأ ، بين الحين والآخر ، بالضوء العاجي ، كانت له بهذا كله قسمات نموذجية لم أرَ في مثل تناسقها ، اللهم إلاّ قسمات الأمبراطور كومودوس الرخامية(*) . كان وجهه ، مع ذلك ، وجه شخص رآه الناس كلهم في مرحلة من حياتهم ، ولم يروه ثانية ، بعد ذلك . لم يكن فيه تعبير مميز ، لم يكن فيه تعبير محدد وغالب يعلق بالذاكرة ؛ وجه يُرى وينسى بلحظة ، لكن يُنسى برغبة غامضة ودائمة في تذكره ، ليس لأن الانفعال الخاطف يعجز في لحظة ما أن يلقي صورته الخاصة المتميزة على مرآة هذا الوجه ، بل لأن المرآة أو شبيه المرآة لا تحفظ الانفعال بعد زواله .

حين ودّعته ، عشية المغامرة ، ألح عليّ ، كأنما يدعوني لحادث مستعجل ، كي أراه صباح الاثنين . لذلك لم يكد النهار يطلع حتى كنت في دارته ، وهي إحدى العمارات ذات الأبهة العالية الجامحة التي ترتفع فوق مياه القنال الكبير إلى جوار الريالتو . صعدت سلّماً عريضاً دائرياً مصنوعاً من الفسيفساء ، ودخلت إلى غرفة يشعّ بهاؤها الذي لا يُضاهى ، عبر الباب المفتوح ، من ثُريا لا نظير لها ، الأمر الذي غشّى عينيَّ وأذهلني .

كنت أعرف أن الرجل ثري . وقد تردّدت ، وأنا أجول ببصري حولي ، بالاقتناع أنّ ثراء أي إنسان في أوروبا كان يمكنه أن يوفر هذه الروعة الملكية التي تتوهج وتضيء .

ومع أن الشمس كانت مشرقة ، كما ذكرت ، فإن الغرفة كانت لا تزال في إشراقها المضيء . قدرت ، استناداً إلى هذه الظروف ، وإلى ملامح التّعب في وجه صديقي ، أنّه لم ينم طيلة الليلة الماضية . كان المخطط الواضح في هندسة الغرفة ونقوشها هو أن تذهل وتدهش . نادراً ما انتبهت إلى الترتيب

(*) أمبراطور روماني (١٨٠ ـ ١٩٢) ابن مرقس أوريليوس . اغتيل .

الداخلي ، إلى ما يُسمى ، تقنياً ، التناسق ، أو إلى الطابع المحلي . كانت العين تشرد من شيء إلى شيء آخر ولا تهدأ عند واحد معيّن ، أو عند اللوحات الغريبة للمصورين اليونانيين ، أو عند قطع النحت في أزهى عهود إيطاليا ، أو عند التماثيل الفرعونية الضخمة . ستائر جميلة تتأرجح في أجزاء الغرفة كلها في تموّج الموسيقى الهادئة الحزينة . الغرفة مثقلة بعطور ممتزجة ، يصارع الواحد الآخر ، وتعلو من مجامر غريبة غير معهودة ، كانت تبدو بالفعل زاخرة بحيوية رهيبة ، بينما كان لهيبها المتموّج يتلوّى في الأعلى والأسفل وحولها . كانت أشعة الشمس تنهمر على جميع ما في الغرفة ، من خلال النوافذ المغلقة كلها بألواح زجاجية قرمزية وتختلط أشعة هذا البهاء الطبيعي ، المنعكسة هنا وهناك في مئات الاتجاهات من خلال الستائر التي كانت تنبسط من أفاريز أشبه بشلالات من الفضة الذائبة ، تختلط بالضوء الصنعي وتغمر بكتلتها الهادئة سجادة ذهبية تشيلية الصنع فخمة تبدو كصفحة سائل صاف . كان قبالتي سديم ، جمال مجنون ، وتملكني حس بالعظمة الحالمة غير المترابطة ، وبقيت واقفاً في الباب دون أن أفوه بكلمة .

ـ ها ! ها ! ها ! ـ ها ! ها ! ها ! ، ـ ضحك صاحب الدار وهو يشير إليّ بالجلوس ، بينما كنت أدخل إلى الغرفة ، واستلقى بطوله على الأريكة ، وحين أدرك أنه لم يكن بإمكاني أن أستوعب مباشرة هذا النوع من الاستقبال الفريد ، قال : «أرى أن داري أدهشتك ؛ أدهشتك تماثيلي ولوحاتي وطرافة ذوقي في الهندسة والطنافس ! إنك في نشوة كاملة ـ أليس كذلك؟ من أبّهتي؟ لكن اعذرني يا سيدي العزيز (هنا تغيَّرت لهجته واتسمت بطابع المودة) ـ اعذرني لضحكي غير الوديّ . كنت تبدو مذهولاً تماماً . أضف إلى ذلك أن هناك أشياء مضحكة جداً ، بحيث أنه ينبغي على الإنسان أن يضحك منها ، أو يموت . ولا بدَّ أن يكون موت الإنسان وهو يضحك أحد أشكال الموت العظيمة . تذكر أن السيد توماس مور(*) ـ وكان رجلاً وقوراً ـ مات وهو يضحك . ثم هناك لائحة طويلة من الأشخاص في

(*) Thomas More (١٤٧٧ ـ ١٥٣٥) : سياسي وكاتب إنكليزي ، صاحب كتاب «المدينة الفاضلة» Utopia .

«المستحيلات» لرافيسيوس تيكستور ، انتهوا هذه النهاية الطريفة» .
ثم تابع حالماً : «هل تعرف أيضاً أنَّ في إسبرطة التي تسمَّى الآن باليوشوري ، في إسبرطة غربي القلعة وسط سديم من الأنقاض لا يكاد يُرى ، عموداً لا تزال تُقرأ عليه حروف تُظهر أنه كان فيها آلاف المعابد والمذابح المكرّسة لآلاف الآلهة المختلفين؟ وكم هو بالغ الغرابة أن يكون مذبح الضحك بقي وحده دون المذابح الأخرى!» .
واستأنف كلامه ، وقد غيّر صوته وطريقة كلامه بشكل فريد ، فقال: «لكن ليس من حقي ، في الحالة الحاضرة ، أن أكون فرحاً على حسابك ، فقد كان طبيعياً أن تُفاجأ . إن أوروبا لا تستطيع أن تنتج داراً جميلة كداري الملكية الصغيرة هذه . إنَّ دوري الأخرى لا تُشبهها من أية ناحية ، فهي نوع من هوس الدّارج . وهذه أفضل من الدارج ، أليس كذلك؟ أنت تقريباً ، باستثنائي أنا وخادمي ، الشخص الوحيد الذي قُبل في سرّ هذا الحرم الملكي ، منذ أن رُتّب بهذا الشكل الذي تراه» .
انحنيت جواباً ، ذلك أن السيطرة المرهقة للروعة ، والعطر ، والموسيقى ، بالإضافة إلى الغرابة غير المنتظرة في خطابه وحركاته ، كانتا تمنعانني من التعبير الكلامي عن تقديري لما كنت أستطيع أن أحسبه إطراء .
واستأنف كلامه وهو ينهض متكئاً على ذراعي ، حالماً ، بقوله : «هنا لوحات اليونانيين حتى سيماتشي ، ومن سيماتشي حتى الوقت الحاضر . الكثير بينها اختير ، كما تلاحظ ، دون كبير اعتبار للرأي النيّر ؛ هذه اللوحات ، مع ذلك ، زينة تلائم غرفة كهذه . هنا أيضاً بعض الروائع لمجهولين كبار ؛ وهنا الرسوم غير المكتملة التي رسمها أشخاص مشهورون في عصورهم تركت فطنة الأكاديميين حتى أسماءهم لي وللصمت» .
ثم قال وهو يستدير بسرعة :
ـ «كيف ترى هذه المادونا ديلاً بياتا؟» .
ـ «هذه للرسام لوغيدو!» قلت بكل ما في طبيعتي من الحماسة ، لأنني كنت قد تأملت سحرها الذي يفوق سحر الكل . «هذه للرسام لوغيدو ؛

كيف استطعت الحصول عليها؟ إنها ، ولا شك ، في التصوير مثل ڤينوس في النحت» .

وقال بتأمل :

ـ «آه ، ڤينوس ، ڤينوس الجميلة؟ ڤينوس ميديسيس؟ ذات الرأس الصغير والشعر الذهبي؟ التي رُمم جزء من ذراعها اليُسرى (هنا انخفض صوته بحيث لم يعد يسمع إلاّ بصعوبة) ورُمّمت ذراعها اليمنى كلها ؛ وأظنّ أن في غنج الذراع اليُمنى تكمن خلاصة كل عاطفة . من جهتي أحبّ النحّات كانوفا . لا شك أن تمثال أپولون هو أيضاً نسخة . يا لي من غبي أعمى لم ألاحظ ذلك . رفقاً بي ، فأنا لا أستطيع إلا أن أفضّل تمثال أنتينوس» .

يُلاحظ ، أو من الواجب الملاحظة ، أننا نشعر دائماً ، في حركات شخص رفيع التهذيب حقاً ، بما يميزه عن سلوكية الشخص المتبذّل ، دون أن يقتضي ذلك سريعاً القدرة على تحديد الأشياء التي يقوم عليها هذا التمييز . ولئن كانت هذه الملاحظة تنطبق بكل ما فيها على مسلك صديقي الخارجي ، فقد كنت أشعر ، صبيحة ذلك اليوم المليئة بالحوادث ، أنها أيضاً أكثر انطباقاً على مزاجه النفسي وطباعه . ولم أستطع أن أحدد هذه الخصوصية الفكرية التي كانت ، كما يبدو ، تجعل منه نسيج وحده بين البشر جميعاً ، بأفضل من تسميتها عادة من التفكير الحاد المستمر تظهر في أبسط أفعاله ، وتتداخل في لحظات مزاحه ، وتتلوى في أفراحه كأفاع نراها تخرج من عيون الأقنعة الساخرة ، في الأفاريز حول معابر بيرسيپوليس .

غير أنني لم أستطع التوقّف عن أن ألحظ ، بشكل متكرّر ، خلال اللهجة الممزوجة بالرشاقة والأبهة ، والتي كان يشرح بها سريعاً الأشياء القليلة الأهمية ، نوعاً من الارتجاف ، ودرجة من السرعة العصبية في الإشارة والكلام ، وتهيجاً قلقاً في الحركات كان يبدو لي دائماً أنه لا يُفسّر ، وفي بعض المناسبات يملؤني خوفاً . كان كثيراً ما يبدو أيضاً ، حين يتوقف وسط جملة نسي بدايتها ظاهرياً ، أنه يصغي بأشد انتباه ، كما لو أنه ينتظر زائراً بين لحظة وأخرى ، أو يعير أذنه لأصوات لا وجود لها إلاّ في خياله .

وفي إحدى لحظات شروده ، أو غيبوبته الظاهرية ، اكتشفت ، وأنا أقلّب

صفحات المسرحية الجميلة (أورفيو) للشاعر الإيطالي بوليسيان (المسرحية الأصيلة الأولى في إيطاليا) التي كانت ملقاة إلى جانبي على أحد المقاعد، اكتشفت مقطعاً أشير إليه بالقلم. كان مقطعاً في نهاية الفصل الثالث، يهزّ القلب ويثيره، لا يقرؤه أي رجل دون رعشة انفعال شديد، ولا أية امرأة دون أن تتنهّد. كانت الصفحة بكاملها تحمل آثار دموع نديّة، وكانت هذه الأبيات الشعرية الإنكليزية مكتوبة على الهامش المقابل بيد تختلف بصفاتها عن صفات كتابة صديقي، حتى أنني جهدت في التعرّف إلى أنها كتابته:

كنت لي يا حبيبتي هذا كله
كل هَذا الذي تنتحب روحي لأجله
جزيرة خضراء في البحر يا حبيبتي
ينبوعاً ومذبحاً
متوّجين بالثمار والورد الفاتن
وكانت الورود كلّها ورودي

آه، أيها الحلم المضيء المتبقّي
آه، يا أملاً كالنجم لم يضىء
إلاّ لكي يصير ظلاماً
صوت قادم من المستقبل يضحك
«إلى الأمام!» لكن فوق الماضي
ـ الهاوية العميقة ـ تدوّم روحي
خرساء والهة ساكنة
ذلك أن ضياء حياتي انتهى
واأسفاه، واأسفاه

«هيهات، هيهات، هيهات»
(إن لغةَ كهذه تبقَي البحر فَي احتفاله
على رمال الشاطىء)

لن تزهر الشجرة التي أيبستها الصاعقة
ولن يطير النسر المصعوق
ساعاتي الآن كلها نشوة
وأحلامي جميعها هناك
حيث تنظر العين الداكنة
وتشعّ القدم

في هذه الرقصات الأثيرية
على ضفاف أنهار إيطاليا
واأسفاه ! في هذا الزمن اللعين
تحملك فوق الموج
بعيداً عن الحب نحو الشيخوخة
ذات الألقاب والآثام
ووسادة تدنس
بعيداً عني . . وبعيداً عن جوّنا الضبابي
حيث ينوح الصفصاف الفضّي .

إن كتابة هذه المقاطع بالإنكليزية ، اللغة التي ما كنت أعتقد أن كاتبها يألفها ، لم تفاجئني كثيراً . كنت أعرف جيداً ثراء ثقافته وأعرف كم كان يُسر لإخفائها ، كي يثير المفاجأة في اكتشاف مماثل . غير أن مكان التاريخ ، وعليّ أن أعترف بهذا ، سبَّب لي دهشة لم تكن بسيطة . كان قد كتب في الأصل اسم لندن ؛ ثم شطب بعناية لكن ليس إلى حدّ إخفائه عن العين الفاحصة . قلت لم تكن هذه الدهشة بسيطة لأنني أذكر جيداً أنني سألت صديقي بشكل خاص في بعض أحاديثنا السابقة إذا كان ، في وقت ما ، قد التقى في لندن المركيزة دي منتوني ، (التي أقامت في هذه المدينة بضع سنوات قبل زواجها) ، وكان جوابه ، إن لم أكن مخطئاً ، أنه لم يزر قط هذه المدينة . أستطيع للمناسة أن أذكر أيضاً أنني سمعت أكثر من مرة (دون أن أثق تماماً بكلام كان يتضمن كثيراً من عدم الاحتمال) أنَّ الشخص الذي

أتكلم عنه لم يكن إنكليزياً ، في نشأته فحسب ، بل في ثقافته أيضاً . .

قال ، دون أن يهتم بمشاهدتي لمسرحية بوليسيان :

ـ «هناك أيضاً لوحة أخرى لم ترها» .

ورفع غطاءً كشف عن لوحة تمثل المركيزة أفروديت .

الحق ، لم يكن الفن الإنساني ليستطيع أن يبرع أكثر من ذلك للتعبير عن جمالها الذي يتجاوز الجمال البشري . كان الشكل الأثيري الذي برز أمامي ، عشية الليلة السابقة ، على سلم قصر دوكال ، يظهر أمامي ، مرة ثانية . وكانت لا تزال ترتسم في تعبير الوجه ، الذي كان يشعّ بالبسمات ، تلك الأمارات الغامضة من الكآبة التي لا تنفصل أبداً عن الجمال . كانت ذراعها اليمنى مثنية على صدرها ؛ وبذراعها اليسرى تشير إلى إناء على الأرض غريب الشكل ؛ تبدو منها قدمٍ واحدة صغيرة كقدم الجنّية ، تلامس الأرض ؛ وكان يرفرف جناحان ، صوُرا برهافة ، لا يكادان يبدوان في جو اللوحة المضيء الذي يبدو كأنه يؤطر لطافتها ويرصعها . وسقطت عيناي من اللوحة فوق شبح صديقي ، وارتعشت كلمات بوسي دامبواز دي شابمان غريزياً على شفتيً :

إنه هنا منتصب

كتمثال روماني ؛ سيظل منتصباً

إلى أن يجعله الموت رخاماً !

أخيراً ، قال مضيفي فجأة ، وهو يتجه نحو طاولة نفيسة ، مزخرفة بالميناء والفضة السبيكة ، عليها إناءان كبيران من طراز غريب مليثان ، كما ظننت ، بخمر جوهانسبرغ ، قال :

ـ «هيا نشرب . الوقت مبكر ، لكن لنشرب» .

وتابع حالماً :

«الوقت مبكر في الواقع ، لكن هذا لا يهمّ! لنشرب ، لنسكب قرباناً إلى الشمس السامية التي كثيراً ما تتشوق إلى طمسها هذه المصابيح وهذه المجامر المتلألئة . الحلم هو موضوع حياتي . هكذا بنيت لنفسي ، كما ترى ، خلوة لأحلامي . هل كنت أقدر أن أبني أجمل منها في البندقية؟ صحيح أنك تشاهد حولك مزيجاً من الزخارف الهندسية ، الابتكارات السابقة للطوفان

أساءت إلى النقاء الإيوني(*) ، وأبو الهول المصري ممدود على السجاجيد الذهبية . إن لها مع ذلك تأثيراً غير لائق ، بالنسبة إلى الخجولين وحدهم ؛ وآداب المكان والزمان ، خصوصاً ، تهويلات ترهب الإنسانية وتبعدها عن تأمل الجميل الرائع . أحببت الزخرفة في الماضي ، لكن هذا التصعيد للمجنون أرهق روحي . هذا كله ينسجم الآن بشكل أفضل مع ميولي . إن روحي كخطوط هذه المجامر الأرابسكية ، تتوتر في نار هذا المشهد وهذيانه ، وتصوغني للرؤى الأكثر هولاً من هذه الأرض - أرض الأحلام الحقيقية التي أنطلق إليها سريعاً» .

وهنا صمت بغتة ، حنى رأسه فوق صدره ، وبدا أنه يصغي إلي صوت لم أستطع سماعه . وبعد ذلك رفع عينيه وقرأ هذين البيتين اللذين كتبهما أسقف شيشستر :

انتظرني هناك ، فلن يفوتني
لقاؤك في ذلك الوادي السحيق .

وفي اللحظة التالية استسلم لسورة الخمر واستلقى بطوله على إحدى الأرائك .

وفي الوقت نفسه كان يسمع وقع خطوات سريعة على السلم ، تبعه نقر قوي متلاحق على الباب . أسرعت كي أحول دون إقلاق راحتينا مرة ثانية ، بينما دخل إلى الغرفة فجأة غلام من قبل منتوني ، وتأتأ بصوت خنقه الانفعال كلمات لا ترابط بينها : - سيدتي ! سيدتي ! سُمِّمت ! سُمِّمت ! ويلاه على الحسناء ! ويلي على أفروديت الرائعة !

عدوت مذعوراً نحو الأريكة لكي أوقظ صديقي النائم ، وأنقل إليه الخبر المفاجئ ، لكن أعضاءه كانت جامدة ، وكانت شفتاه زرقاوين ، وعيناه ، اللتان كانتا تشعان منذ لحظة ، ترقدان في الموت . تراجعت مترنّحاً نحو الطاولة ؛ وسقطت يدي فوق كأس عتيقة سوداء ، وفجأة اتضح في نفسي الشعور الرهيب بالحقيقة الكاملة .

(*) يقصد البحر الايوني ، وهو يتفرّع من المتوسط ، يقع بين إيطاليا وألبانيا واليونان ، يصله مضيق أوترنتو بالأدرياتيك ومضيق مسِّينا بالتيراني .

حادثة فالديمار

لم يكن من المستغرب أن تثير حادثة فالديمار الكثير من الجدل . . بل كان من المستغرب جداً ألاّ تثيره ، وخصوصاً في ظروف كالتي أحاطت بها . . ولما كان الفرقاء ، الذين يعنيهم الأمر ، يرغبون في إبقاء الحادثة طيّ الكتمان ، حتى لا تعيق أعمال التجربة ، فقد تسربت إلى الناس بعض الشائعات المبالغ فيها ، وغدت مصدراً لكثير من الشكوك والتأويلات المغلوطة .

ويتوجّب عليّ الآن أن أسرد حقائق هذه الحادثة كما أدركتها بنفسي ، وهي بالإيجاز كما يلي : لقد انصرفتُ ، خلال السنوات الثلاث الأخيرة ، إلى ممارسة التنويم المغناطيسي ، وقد تبيّن لي ، بعد سلسلة من التجارب التي أجريتها ، أن في هذا الفن نقصاً ظاهراً ، فهو لم يحاول أبداً تنويم شخص وهو في حالة النزع . وهكذا عمدت منذ تسعة أشهر ، على وجه التقريب ، إلى تحديد ثلاث نقاط في التنويم المغناطيسي الخاص بالمرضى ، وهي : أولاً ، هل يرتاب المريض في الأثر المغناطيسي؟ ثانياً : هل يجلب له الضرر أو يزيد في مرضه؟ ثالثاً : إلى أي مدى يستطيع التنويم المغناطيسي أن يبعد عن المريض شبح الموت؟ وهناك نقاط أخرى أثارت اهتمامي ، لكن هذه النقاط الثلاث رئيسية في نظري ، وأخص الثالثة منها باهتمامي الزائد لما يترتّب عليها من نتائج قيّمة .

رحت أفتش عن شخص لأختبر فيه هذه النقاط الثلاث ، فلم أجد سوى صديقي «فالديمار» الأخصائي المعروف في جمع النبذ من «مكتبة فورينسيكا» ومؤلف كتاب «أقوال والنستين وغارغانتوا البولونية» ، (واسمه الأدبي المستعار إيزاخار ماركس) ، وفالديمار هذا يسكن في ضاحية هارلم بنيويورك منذ سنة ١٨٣٩ ، وهو شخص نحيل ، يشبه في نصفه السفلي جون راندولف(*) ، وللحيته شعر يتناقض في سواده مع شعر رأسه ، حتى ليظنه

(*) Jhon Randolph (١٧٧٣ ـ ١٨٣٣) : قائد دخل الكونغرس الأميركي عن ولاية فرجينيا . كان مدمناً ، نحيل الجسم ، مهلهل الثياب ، لم يهتم أبداً بكونه نائباً .

الناس شعراً مستعاراً . وصديقي هذا عصبي المزاج ، الأمر الذي يجعله مادة دسمة لاختبارات التنويم المغناطيسي . . ولم أجد أية صعوبة تذكر في تنويمه مرتين أو ثلاث مرّات ، لكنني أخفقت في الاستنتاج . وأنا أعزو السبب في ذلك إلى مزاجه الخاص ، فهو غير إيجابي ، ولم يكن لينقاد إلى إرادتي كليّاً ، أو لعل السبب في هذا الإخفاق يرجع إلى حالته الصحية ، إذ إن أطباءه وجدوه مصاباً بداء السل . . وكان إذا ما تحدث عن تلاشيه تحدث بصوت هادئ ، وكأنه لا يريد تجنّب المصير الذي ينتظره أو لا يأسف له بتاتاً .

وحين دارت في رأسي تلك الملاحظة الثالثة ، الخاصة في مجالات التنويم المغناطيسي ، فكرت على الفور بهذا الشخص الذي أصبح على أبواب الأبدية . . وأنا أدرى بالفلسفة التي يدين بها ، فهو لا يخفي عني تذمّره وهواجسه ، إذ لا أقارب له في أميركا ليفضي إليهم بشؤونه الخاصة . . فحدّثته صراحة في الموضوع ، وما كان أشد عجبي حين رأيته يقابل فكرتي بالحماسة والترحاب . أقول دهشت لمسلكه هذا لأنه كان على الدوام سلبي الموقف إزاء اختباراتي فيه . . ومن صفات مرضه الجليّة أن بالاستطاعة تحديد اليوم الذي تنتهي فيه حياته ، لذا تمّ الاتفاق فيما بيننا على أن يبعث لي برسالة قبل وفاته بأربع وعشرين ساعة .

وها هي سبعة أشهر تنقضي على استلامي منه الرسالة التالية :

عزيزي ب . . .

بوسعك أن تأتي إليَّ الآن . . . فالطبيبان «د» و«ف» قد أكّدا لي أنني لن أعيش حتى منتصف ليلة الغد ، ويلوح لي أنهما قد بكّرا في تحديد هذه النهاية . . .

«فالديمار»

تلقّيت هذه الرسالة بعد نصف ساعة من كتابتها ، وما إن انقضت خمس عشرة دقيقة أخرى حتى كنت في غرفة الرجل الذي يودع الدنيا . . ويا لهول التغيُّر الذي طرأ عليه خلال عشرة أيام لم أره فيها . . فوجهه رصاصيّ اللون ، وعيناه متألقتان ، وجسمه هزيل ، وجلد وجهه يتهدّل على عظام وجنتيه ، وهو يبصق البلغم الدامي بإفراط ، ونبضه خافت جداً ، غير أنه

كان محافظاً على قوته الفكرية ، وعلى بعض قواه الجسمانية . . ويتحدث بوضوح ، ويتناول الأدوية الملطفة دون استشارة أحد . وحين دخلت عليه وجدته يستند إلى الوسادة وهو يدوّن بعض مذكراته ، والطبيبان «د» و«ف» يجلسان إلى جانب سريره .

صافحته ، ثم انتحيت بالطبيبين جانباً ، واستفسرت منهما عن حالته ، فأفاداني أن رئته اليسرى كانت منذ ثمانية عشر شهراً شبه جافة ، كثيرة الغضاريف ، وغير صالحة لنفخ الحياة ، أما الرئة اليمنى فكان نصفها الأعلى جافاً ومغضرفاً جزئياً أو كلياً . . وكان نصفها السفلي عبارة عن مجموعة من البثور المقيّحة الكثيرة الثقوب ، وقد انتقل العطب إلى بعض الأضلاع المجاورة لهذه الرئة . . وكان يشكو من أنجيونيوپلاسم(*) أي ورم الأوعية الدموية بالإضافة إلى داء السل . . وفي رأي الطبيبين أن فالديمار سيموت في منتصف الليلة القادمة (الأحد) . . وقد جرت مداولتنا هذه في الساعة السابعة من مساء السبت .

وودع الطبيبان المريض الوداع الأخير ، ولم يكن بودهما أن يعوداه مرة أخرى ، لكنني رجوتهما أن يزوراه في الساعة العاشرة من ليل الأحد ، أي ليلة موته ، فقبلا مني هذا الرجاء .

عندما غادرا البيت رحت أحدث فالديمار في موضوع تلاشيه القريب ، وأطلعته على فكرتي المتعلقة بالتجربة المغناطيسية ، فأبدى ارتياحاً عظيماً وألحّ عليّ بالشروع بها على الفور . . وكان في غرفة المريض وقتئذ ممرض وممرضة ، لكنني لم أكتف بوجودهما كشاهدين في عملية ربما تؤدي إلى حادث عرضي فجائي ، فَأرجأتها إلى الساعة الثامنة من الليلة الآتية ، وهو موعد حضور السيد ثيودور . . أحد معارفي من تلاميذ المدرسة الطبية . . ولو أنني كنت قد صممت في بادئ الأمر على القيام بالعملية بحضور الطبيبين ، لكن حالة فالديمار الخطيرة اقتضت اغتنام الوقت والإسراع في العمل .

وتلطّف السيد ثيودور عند مجيئه ، ولبّى رجائي بتدوين كل ما يراه من ملاحظات ، كانت مرجعي فيما بعد ، في سرد حادثة فالديمار .

(*) Angioneoplasm أي ورم أوعية الدم .

في تمام الساعة الثامنة ، إلاّ خمس دقائق ، أخذت يد المريض بين يديّ وسألته أن يقول أمام السيد ثيودور ، صراحة ، إذا كان يمانع في إجراء اختبار التنويم المغناطيسي عليه وهو في هذه الحالة من الانحلال . فأجاب بصوت يكاد يكون همساً : «أجل ، إنني أرغب في تنويمي» ثم أضاف على الفور ، «وأخشى أن تكون قد تأخرت في ذلك ! . .» .

وبدأت الشعوذة ، فوجدته خاضعاً مطواعاً ، وقد تأثر بي ما إن مررت بيدي على جبينه ، وتوقّفت عن تنويمه بضع دقائق إلى أن حضر الطبيبان «د» و«ف» في الموعد المقرر ، فأطلعتهما ، بكلمات معدودات ، على ما عقدت النية عليه ، فلم يبديا أية معارضة في ذلك قائلَيْن إن الرجل يموت على كل حال ، فتابعت عملي بلا تردد ممرراً يدي على وجهه ، ومسدداً نظري إلى حدقة عينه اليمنى .

كان نبضه في هذه الآونة بطيئاً جداً ، وتنفّسه ثقيلاً ، يتقطع أحياناً مدة نصف دقيقة . . وبعد ربع ساعة أرسل المريض زفرة من أعماق صدره ، وخفت التنفّس الثقيل المتقطع ، أو على الأصح لقد تضاءل كثيراً ، وفي النهاية توتّرت أطراف الرجل وتجمّدت كلياً .

وفي الساعة الحادية عشرة إلاّ خمس دقائق بدت على فالديمار علائم التنويم المغناطيسي المطلق ، وقد راحت عيناه تنمّان عن قلق داخلي لا يظهر عادة إلاّ في نيام اليقظة . . وبعد أن قمت بشعبذة جانبية سريعة أخذت جفون عينيه ترف ، كمن يشرع في النوم ، ثم أغمضتهما ثانية . . ولم أكن راضياً عن هذه النتيجة ، فمددت ساقي الهاجع ويديه ورفعت رأسه قليلاً ، وتابعت الشعبذة بقوة إلى أن أخمدت أطرافه تماماً .

وما إن انتهيت من هذا العمل حتى بلغ الليل منتصفه ، وسألت الحضور أن يفحصوا فالديمار ، ففحصوه ، وتبيّن لهم أنه في حالة انخطاف الروح الكاملة ، وكانت دهشة الطبيبين عظيمة جداً . . وقد قررنا كلنا أي الطبيب «د» ، وأنا ، والسيد ثيودور ، والممرض ، والممرضة ، البقاء إلى جانب المريض الليل كله ، أما الطبيب «ف» فقد استأذننا بالذهاب على أن يعود مع بزوغ الفجر .

وتركنا فالديمار منوَّماً حتى الساعة الثالثة صباحاً ، حين اقتربت منه ووجدته في الوضع ذاته الذي كان عليه حين ودَّعه الطبيبان ، أي أنه كان في رقدته الأولى ، ونبضه خفيف جداً ، ونفسه خافت كذلك ، ولا يمكن التأكد منه إلاّ بتقريب المرآة من شفتيه ، وعيناه مغمضتان بشكل طبيعي ، وأطرافه متوترة ومتجمدة مثل قطع المرمر . . وخلاصة القول : إن مظهره العام ينفي حدوث الموت .

واقتربت من فالديمار . . وشعبذت بيدي فوق ذراعه الأيمن لأحركه ، وشعبذت باليد الأخرى على جسمه كافة . . فدهشت إذ رأيت يده تتبع يدي فعلاً ، وهو السلبي المزاج ، ثم اعتزمت مخاطبته قليلاً فسألته : أأنت نائم يا فالديمار؟ . . فلم يجبني على سؤالي ، لكنني لمحت رجفة على شفتيه ، فكررت السؤال ثانية ، وثالثة ، فارتعش جسمه كله ارتعاشاً خفيفاً ، وفتح عينيه على قدر خط ضيق ، وتمتم قائلاً : إنني نائم الآن . . لا توقظني . . دعني أموت على هذا النحو ! . .

تحسّست أطرافه فوجدتها متوترة كما كانت من قبل ، وكان ذراعه لا يفتأ يتبع حركات يدي ، ثم ألقيت عليه هذا السؤال : ألا تزال تشعر بألم في صدرك يا فالديمار؟

فأجاب على الفور : لا أشعر بأي ألم . . . إنني أموت .

وتوقّفت عن طرح أي سؤال عليه ، أو القيام بأية شعبذة ، إلى أن حضر الطبيب «ف» ، قبل شروق الشمس بقليل ، فذهل لرؤيته المريض لا يزال على قيد الحياة ، فجسَّ نبضه ، وقرّب المرآة من شفتيه ، وسألني أن أخاطب النائم المستيقظ ثانية ، فسألته : ألا تزال نائماً يا فالديمار؟

وانقضت دقائق معدودة قبل أن يحير جواباً ، وكأنه استجمع خلالها قواه على النطق ، وحين طرحت عليه السؤال للمرة الرابعة أجاب بصوت خافت جداً : أجل ، لا أزال نائماً . . إنني أموت ! . .

وارتأى الطبيبان أن يبقى المريض على حالته هذه من الهدوء ، إلى أن يلفظ أنفاسه الأخيرة بعد قليل من الوقت . . وتحدثت إليه مرة أخرى ، وكان يردد الأجوبة ذاتها دون زيادة .

وبينما كنت أخاطبه لحظت تغيُّراً طرأ على ملامحه . . فقد فتح عينيه ببطء ، واختفى البؤبؤان إلى أعلى ، أمّا جلده فتلوّن بلون الجثث ، وتلاشت البقع السُلّيّة التي كانت مركزة على خديه ، وقد فسّرت تلاشيها هذا بانطفاء شعلة الحياة فيه . . ثم لحظت في الوقت نفسه أن شفته العليا راحت تتقلّص عن أسنانه ، بينما الشفة السفلى ترتخي بحركة جليّة ، وينفتح فمه واسعاً فيكشف عن لسانه المنكمش المسود . . وكان هذا المنظر المروع كافياً لجعل الحضور يتراجعون إلى الخلف مذعورين .

لقد بلغت الآن نقطة من الرواية تجعل القارئ يرتاب في صحتها . . غير أن مهمتي تدعوني إلى الاستمرار في سردها بكل ما تتسم به من بساطة .

لم تبد على فالديمار أية علامة تدل على بقائه حيّاً فاعتبرناه ميتاً ، وأوكلنا أمره إلى الممرض والممرضة ، لكننا لحظنا ، على حين غرة ، أن لسانه يتحرك ، ثم أطلق من بين فكيه صوتاً مروعاً له ثلاث صفات : الخشونة ، والتهدّج ، والعمق . . إنه صوت عجيب غير زمني ، يبلغ مسامعنا ، أو مسمعي أنا ، وكأنه آت من مسافة بعيدة أو من كهف سحيق الغور . . ثم خُيل إليَّ وكأن هذا الصوت هُلامي اللمس دابق ! . .

وعدت وسألته : أأنت نائم يا فالديمار؟

فتململ وأجاب بكل وضوح : أجل . . كلاّ . . كنت نائماً . . وأما الآن فأنا ميت ! . .

ولا تسل عن الرعب الذي حلّ بالحضور ، فالطالب ثيودور أغمي عليه ، والممرض والممرضة غادرا الغرفة على الفور ، أمّا انطباعاتي أنا فلا أستطيع الإعراب عنها . وانقضت ساعة من الزمن عملنا خلالها على إيقاظ الطالب ثيودور من إغمائه . . وعدنا لنحقق في وضع فالديمار مجدداً .

كان فالديمار على الحالة التي وصفتها آنفاً ، غير أن نفَسَه كان قد انقطع تماماً ولم يترك أي أثر على المرآة . . وحاولنا فصد ذراعه فأخفقنا ، كما أخفقت في جعل هذه الذراع تتحرك بالشعبذة . . . والظاهرة الوحيدة التي تبرهن على أن فالديمار كان لا يزال منوماً هي أن لسانه يهتز عند كل سؤال أطرحه عليه . . ويلوح لي أنه كان يبذل جهده للإجابة على أسئلتي غير أن

إرادته تخونه . . ثم أجريت تجربة لجعل الحضور يتصلون بالميت المنوم من طريق تنويمهم أنفسهم ، لكن هذه التجربة آلت إلى الإخفاق . . وفي الساعة العاشرة صباحاً غادرت البيت برفقة الطبيبين والطالب ثيودور ، وسألت الممرض والممرضة ألاّ يفارقا فالديمار لحظة واحدة .

وعُدنا الرجل المنوَّم بعد ظهر ذلك اليوم ، فوجدناه كما تركناه ، وتناقشنا في أمر إيقاظه من طريق الشعبذة ، لكننا لم نجد في ذلك أية فائدة ، فالشاهد في الأمر أن التنويم المغناطيسي قد أوقف الموت ، أو ما يطلقون عليه اسم «الموت» ، وثبت لنا تماماً أن إيقاظ فالديمار يعني في الواقع انحلاله النهائي انحلالاً سريعاً .

وظل فالديمار الميت المنوَّم على حالته هذه مدة سبعة أشهر ، ونحن نعوده يومياً برفقة أصدقائنا من أهل الطب وغيرهم ، والممرض والممرضة لا يفارقانه أبداً .

ثم عقدنا النية يوم الجمعة ، الماضية ، على إجراء تجربة لإيقاظ فالديمار ، وكان لهذه التجربة أن أحدثت ضجة عنيفة في الأوساط الشعبية ، وأثارت نقاشاً حاداً في الأوساط العلمية .

اقتربت من سرير الميت المنوَّم وشعبذت عليه ، وإذا بالبؤبؤين يبرزان قليلاً ، وتخرج من بين جفونه مادة صفراء لها رائحة كريهة قويّة .

وحاولت الشعبذة على ذراعه الأيمن ، لكنه لم يستجب لإرادتي ، فسألني الدكتور «ف» أن أطرح عليه سؤالاً فقلت له : أتستطيع أن تحدثنا عن شعورك ورغائبك الآن يا فالديمار ! . . .

فعادت البقع السُليّة على وجنتيه حالاً ، وارتعش لسانه ودار في فمه بقوة ، ولفظ هذه الكلمات : ناشدتك الله . . أسرع . . أسرع . . دعني أنام . . أو أيقظني على عجل . . إنني أموت ! . .

وبذلت مجهوداً عظيماً لإيقاظه ، لكنني لم أفلح ، وكان يردد كلمة «الموت» بلسانه لا بشفتيه ، ثم حدث ما لم نتوقعه جميعاً ، نتيجة لشعبذتي ودعوتي إليه لأن يستيقظ ، فقد تحوّل الميت ، وهو على سريره ، إلى كتلة من العفونة المختلطة بالسوائل النتنة الكريهة الرائحة ! . .

هوس الانحراف

في دراستهم القوى والميول ـ المحركات الأولية للنفس الإنسانية ـ سها الأخصائيّون عن دراسة ميل آخر، تجاهله أيضاً الأخلاقيون الذين سبقوهم، مع أنه موجود كشعور أوّلي، أصلي، تام، أغفلناه جميعاً في ذروة غرورنا العقلي، سمحنا لوجوده أن يفلت من أمام نظرنا لنقص اعتقادنا فقط ـ إيماننا ـ سواء بالوحي أو باستحضار الأرواح، والحديث معها. هذه الفكرة لم تخطر لنا أبداً لسبب واحد هو أنها من نوافل الأمور. وما شعرنا قط بالحاجة إلى التحقق من هذا الاندفاع ـ هذا الميل. لم نكن قادرين على أن نتصوّر ضرورته، وكنا عاجزين عن إدراك مفهوم هذا المحرّك الأول، وحتى حينما يدخل فينا بالقوة، لن نستطيع أن نفهم أي دور يلعبه في نظام الأشياء الإنسانية، الزمنية أو الأبدية.

من المستحيل أن ننكر أن علم فراسة الدماغ، وجزءاً كبيراً من العلوم الميتافيزيقية، قد مُزج بينهما بشكل مسبق. إن رجل الميتافيزياء، أو المنطق، يزعم أنه يعرف نوايا الله أكثر مما يعرفها رجل البصيرة والملاحظة. هكذا حينما اكتشف بعمق وعلى هواه نوايا يهوه، استناداً إلى ما يُسمى نواياه، أقام أنظمته الكثيرة العنيدة. فمثلاً، فيما يتعلق بموضوع الفراسة، قرّرنا أولاً، وعلى وجه طبيعي من بعض النواحي، أن من نوايا الألوهة أن يأكل الإنسان، ثم خصّصنا للإنسان عضواً للأكل، وهذا العضو هو السوط الذي به يقسر الله الإنسان على الأكل، طوعاً أوكرهاً. ثم حينما قررنا أن إرادة الله هي أن يحفظ الإنسان نوعه، اكتشفنا حالاً عضواً للتذوّق. ومن ثمّ أعضاء الميل إلى الكفاح، والمثل الأعلى، والسببية، والبناء، ـ وباختصار، كلّ عضو يمثل ميلاً؛ شعوراً أخلاقياً أو موهبة ذكاء خالص. وفي تقسيم هذه الأسس، في العمل الإنساني وتنظيمها، لم نفعل خطأ أو صواباً، جزئياً أو كليّاً، إلاّ أننا اقتفينا، مبدئياً، آثار أسلافنا؛ إذ استنتجنا كل شيء وقررناه استناداً إلى مصير الإنسان المدرك سلفاً، واتخذنا أساساً لذلك نوايا خالقه.

كان أكثر حكمة، وأكثر يقيناً، لو جعلنا أساس تصنيفنا (ما دام التصنيف

أمراً لا بدّ منه) أعمال الإنسان التي تحدث عادياً ، وأعماله التي يقوم بها عرضاً ، فذلك خير من الفرضية القائلة بأن الألوهة ذاتها هي التي تجعله يقوم بهذه الأعمال . إذا كنّا لا نستطيع أن نفهم الله في أعماله المرئية ، فكيف إذاً سنفهمه في أفكاره التي لا يُحاط بها ، والتي تدفع بهذه الأعمال إلى الوجود؟ إذا كنا لا نستطيع فهمه في خلائقه الموضوعية ، فكيف سنفهمه في أشكالها اللامشروطة ، وفي مراحل خلقها؟

كان يمكن للاستقراء القائم على النتائج أن يقود علم الفراسة الدماغية إلى أن يقبل ، كمبدأ أولي وفطري للعمل الإنساني ، ما سندعوه هوس الانحراف ، لأننا لا نجد كلمة أكثر دلالةً من هذه الكلمة . إنه ، بالمعنى الذي أقصده ، محرك لا سبب له ، علة لا تعليل لها . إننا ، بتأثيره ، نتحرك دون هدف معقول ؛ أو نستطيع ، إذا بدا هذا الكلام متناقضاً ، أن نقول إننا تحت تأثيره ، نتحرّك بسبب لم يكن واجباً علينا . نظرياً ، ليس هناك سبب أكثر منه بعداً عن الصواب ؛ لكن ، في الواقع ، ما من سبب أقوى منه . إنه يصير ، بالنسبة إلى بعض العقول ، في بعض الظروف ، شيئاً لا مفر منه . إن حياتي ليست بالنسبة إليّ شيئاً أكثر يقيناً من هذه القضية : إن يقين الخطيئة أو الخطإ الداخل في عمل ما هو غالباً القوة الوحيدة التي لا تردّ ، والتي تدفعنا ، ووحدها تدفعنا ، إلى إتمامه . وهذا الميل المرهق لعمل الشر ، حبّاً بالشر ، يستعصي على التحليل ، ويأبى أن يرد إلى عناصر تأتي فيما بعد . إنه حركة جذرية ، أولية ـ بدئية . أنتظر أن يردّ بأننا إذا كنا نتمادى في بعض الأفعال لأننا نشعر ألا شيء هناك يوجب علينا التمادي ، فإن سلوكنا هنا لا يكون إلاّ تعديلاً لسلوكنا الذي يصدر عادة عن ميل الكفاح في الدماغ . لكن تكفي نظرة بسيطة لنكتشف خطأ هذه الفكرة . فالسبب في وجود هذا الميل هو ضرورة الدفاع الشخصي . إنه يحمينا ضد الظلم ، إن أساسه يرتبط بسعادتنا ؛ وهكذا نشعر ، وهو ينمو ، بنشوة السعادة . يتبع ذلك أن الرغبة في السعادة لا بد من أن تثار في وقت واحد مع كل سبب لا يكون إلاّ تعديلاً لهذا الميل ؛ لكن ، في حالة ما لا أعرف إلاّ أن أسميه هوس الانحراف ، لا تستيقظ هذه الرغبة وحسب ، بل تظهر أيضاً كشعور متناقض بشكل غريب .

كل إنسان ، حينما ينادي قلبه ، يتلقّى قبل كل شيء أفضل جواب على السفسطة المعنيّة . وما من أحد يستشير نفسه بصدق ، ويستوضحها بدقة ، يجرؤ أن ينكر تأصل الميل ، الذي نحن بصدده ، تأصّلاً مطلقاً . وهو غامض الصفات بقدر ما هو عصيّ على الفهم . وما من إنسان ، مثلاً ، لم تتأكله في لحظة ما الرغبة في تعذيب سامعه بتعريضات كلامية . من يتكلم يعرف جيداً أن يُضجر ؛ وهو يقصد أن يسر ؛ إنه عادة موجز ، واضح ومحدّد ؛ اللغة الأكثر نقصاً والأكثر إضاءة تتحرك فوق لسانه وتنتفض ؛ ولا يضبط نفسه ، إلاّ بجهد ، كي يضبط هذه اللغة ، فهو يخشى ويتلافى ملل من يحدثه . هذه الفكرة ، مع ذلك ، تفاجئه بأنه يقدر على توليد هذا الغضب ، ببعض الجمل المعترضة والتّامة . تكفي هذه الفكرة البسيطة . تصبح الحركة إرادة ضعيفة ، وهذه تصير رغبة ، والرغبة تتحول إلى حاجة لا تُقاوم ، والحاجة ترتوي ، في الندم العميق للمحدث وحزنه ، وازدراء النتائج كلها .

تواجهنا مهمة ينبغي علينا أن نكملها بسرعة . نعرف أن خرابنا في تأخرنا . أعمق أزمة في حياتنا تلحّ بصوت صارخ آخر على الفعل والتفجّر المباشرين . نتحرق ، نحترق شوقاً للبدء بالعمل ؛ التلذذ بنتيجة عظيمة قبل حدوثها يُلهب روحنا كلها . ينبغي ، ينبغي البدء بالعمل اليوم ، مع هذا كله ، نرجئه إلى الغد ؛ ـ ولماذا؟ لا شيء يوضح ذلك ، إن لم يكن شعورنا بأنّ في هذا نوعاً من هوس الانحراف ، ـ ولنستخدم كلمة لا نعرف أصلها . ويجيء الغد ، ويجيء معه مزيد من القلق للقيام بواجبنا ؛ لكن مع هذا المزيد من القلق يجيء أيضاً شوق محموم ، ـ رهيب ، لأنه مغلق ، عسير الفهم . وبقدر ما يهرب الزمن ، بقدر ما يزداد هذا الشوق قوة . لم تعد هناك إلاّ ساعة لبدء العمل ، وهذه الساعة لنا . يهزنا عنف العراك المحتدم في داخلنا . العراك بين المحدد وغير المحدد ، بين الجوهر والظلّ . لكن ، إذا وصلت المعركة إلى هذه الدرجة ، فإن الظل هو الذي يكسبها ، فنحن ننتفض عبثاً . الساعة تدق ، وهذه هي دقة سعادتنا . وللظل في الوقت نفسه ، الظل الذي طالما أرهبنا ، رنين المنبه الصباحي . إنه يتناءى ، ـ إنه يغيب ، ـ وها نحن طُلقاء . الحيوية القديمة تعود . سنعمل الآن . واأسفاه ! لقد فات الأوان .

نحن على حافة الهاوية . ننظر في الهاوية ، ـ نشعر بالضيق والدُّوار . حركتنا الأولى هي التراجع أمام الخطر . ونبقى بشكل لا يُفَسَّر . وشيئاً فشيئاً يذوب ضيقُنا ، ودوارنا ، ورعبنا في شعور ضبابيّ غير محدود . هذا الضباب يأخذ ، تدريجاً ودون أن نحسّ ، شكلاً كبخار القنينة التي يخرج منها عفريت ألف ليلة وليلة . لكن ، يخرج من غيمتنا على حافة الهاوية ، شكل أكثر إرهاباً بألف مرّة من أي عفريت ، من أي شيطان مارق ؛ وليس ، مع ذلك ، إلاّ فكرة ، لكنها فكرة مرعبة ، فكرة تجمد اللّب نفسه في عظامنا ، وتخترقها بلذائذ رعبها الوحشية . إنها فحسب ، هذه الفكرة : كيف ستكون مشاعرنا طوال المسافة التي نجتازها ونحن نسقط من علوّ كهذا؟ وهذا السقوط ، ـ هذا الفناء الصاعق ، ـ يزداد تعلقنا بهما آنذاك ، لمجرد أنهما يتضمنان أبشع وأرهب صور خطرت للخيال البشري عن الموت والعذاب . ولأن حكمنا يُبعدنا بعنف عن الحافة ، بسبب هذا نفسه ، فإننا نقترب منها باندفاع أقوى . فليس في جموح الشعور ما هو أكثر عجَلةً شيطانية ، من شعور الإنسان الذي يحلم ، وهو يرتجف عند حافة الهاوية ، أن يقذف بنفسه فيها . محاولة التفكير لحظة واحدة تعني الضياع المحتوم ؛ إذ إنَّ التفكير يأمرنا أن نتفاداها ، وبسبب ذلك نفسه ، لا نستطيع تفاديها . وإذا لم يكن هناك ذراع صديقة كي تمنعنا ، أو إذا كنا عاجزين عن القيام بجهد مفاجئ كي نبتعد عن الهاوية ، فإننا نتهاوى فيها ، ونهلك .

حين ندرس هذه الأفعال ، وما يشبهها ، نجد أنها تنتج عن هوس الانحراف وحده . إننا نقوم بهذه الأعمال لسبب واحد ، هو أنها ليست واجبة علينا . وليس هناك من باعث معقول لها ؛ وكنا في الواقع ، نستطيع أن نعتبر هذا الهوس وحياً شيطانياً مباشراً ، إن لم يكن معتبراً أنه غالباً يُستخدم في فعل الخير .

إذا كنت حدثتكم طويلاً عن هذا الموضوع فلكي أجيبكم ، بشكل ما ، على سؤالكم ، ـ لكي أوضح لكم سبب وجودي هنا ، لكي أريكم سبباً ، واهياً ما ، يعلل هذه القيود التي أحملُها ، وهذه الزنزانة التي أقيم فيها . لو أنني لم أكن كثير الإسهاب هكذا ، لما فهمتم شيئاً مما قلته ، أو كنتم تظنونني ،

شأن الغوغاء، مجنوناً. ستدركون الآن بسهولة أنني ضحية من الضحايا التي لا تُحصى لشيطان الانحراف.

من المستحيل أن يكون هناك أي عمل حقق بمثل هذا التأمل الكامل. فقد فكرت، طيلة أسابيع، طيلة شهور، في طرق الاغتيال. رفضت مئات المخططات لأن تنفيذ كلّ منها كان يتضمّن إمكانية اكتشافه. أخيراً عثرت، وأنا أقرأ ذات يوم بعض المذكرات الفرنسية، على قصة مرض قاتل، تقريباً، أصاب السيدة بيلو، مصادفة بسبب شمعة مسمومة. وسرعان ما استهوت خيالي هذه الفكرة. كنت أعرف أن من عادة ضحيتي أن يقرأ في سريره. كنت أعرف أيضاً أن غرفته صغيرة وسيئة التهوئة. لكن لا أحبُّ أن أتعبكم بتفاصيل دون جدوى؛ لذلك لن أخبركم بالطرق البسيطة التي بدلت بها الشمعة الموجودة في غرفة نومه بشمعة صنعتها أنا. وفي الصباح عُثر على الرجل ميتاً في سريره، وجاء في وصف الحادثة أنه مات فجأة.

ورثتُ نصيباً من ثروته، وسار كل شيء على ما يرام خلال سنوات عديدة. لم تخطر لي قط فكرة اكتشاف الحادثة. وكنت قد أتلفت بنفسي بقايا الشمعة المشؤومة. ولم أترك أدنى أثر لأي شيء يمكن أن يقنعني أو يجعلني أشك في الجريمة. يكاد الشعور الرائع بالطمأنينة الذي تولد في أعماقي لا يوصف، حينما كنت أفكر في سلامتي التامة، وألفتُ، طوال فترة زمنية كبيرة، التلذذ بهذا الشعور. كان يمنحني لذة أكثر واقعية من جميع المنافع المادية التي نتجت عن جريمتي. لكن أخيراً جاء وقت تحول، بدءاً منه، وبشكل تدريجي، لا يكاد يتميز، شعور اللذة إلى فكر ترهقني ولا تفارقني. كانت ترهقني لأنها كانت لا تفارقني. وقلّما كنت أتخلص منها للحظة واحدة. وإنه لأمر عادي جداً أن يسلّط على ذاكرة الإنسان نوع من الدويّ، أو لازمة أغنية مبتذلة، أو بعض قطع الأوبرا الخالية من المعنى. ولا يخف العذاب، إذا كانت الأغنية جميلة بحد ذاتها، أو كانت قطع الأوبرا جيدة. هكذا في النهاية كنت أفاجأ باستمرار، وأنا أحلم بسلامتي، مكرراً بصوت هامس هذه الجملة: لقد نجوت!

وفي يوم وجدتني بشكل مفاجئ ألفظ هذه الجملة، بصوت عال تقريباً،

وأنا أتجول في الشوارع . كنت ، في نوبات الحنق ، ألفظها بهذا الشكل الجديد : لقد نجوت ، ـ لقد نجوت ؛ ـ نعم ، ـ إن لم أكن أنا نفسي من الحماقة بحيث أعترف بحالتي !

ما كدت أتفوه بهذه الكلمات حتى شعرت ببرد جليدي يتسرب إلى قلبي . كنت قد اكتسبت بعض الخبرة من نوبات الهوس هذه (التي لم يكن سهلاً عليّ إيضاح طبيعتها الغريبة) ، وكنت أتذكر جيداً أنني لم أعرف في أية حالة عليّ أن أقاوم هجماتها الغالبة . وكان هذا الإيحاء العرضي الآن ، والذي صدر عني ، من أنني قد أكون من الحماقة بحيث أعترف بالقتل الذي ارتكبته ، يواجهني كظل الشخص الذي قتلته ، ويدعوني إلى الموت .

قمت بجهد أولاً كي أطرد هذا الكابوس عن نفسي . سرت بثبات ، ـ وأسرعت ، ـ وتابعت سرعتي ؛ ـ أخيراً ركضت . كنت أشعر برغبة جامحة في أن أصرخ بأعلى صوتي . كانت كل موجة متلاحقة من فكري ترهقني برعب جديد ؛ إذ إنني ، ويا للأسف ، كنت أدرك جيّداً ، جداً جداً ، أن التفكير في مثل حالتي معناه الموت . أسرعت أيضاً في ركضي . كنت أقفز كالمجنون في الشوارع المزدحمة بالناس . أخيراً خاف الناس وركضوا ورائي . شعرت آنذاك بانتهاء أجلي . لو كنت أستطيع اقتلاع لساني ، لفعلت ؛ ـ لكن صوتاً خشناً دوّى في أذنيّ ، ـ ويداً أكثر خشونة كذلك أمسكت بكتفي . استدرت ، فتحت فمي لأتنفّس . وخلال لحظة واحدة عانيت آلام الاختناق كلها ؛ أصبحت أعمى ، أصمّ ، سكراناً : وحينذاك خطر لي أن شيطاناً مستتراً ضربني على ظهري بيده العريضة . انطلق السرّ الذي حبسته طويلاً في نفسي .

يقال إنني تكلّمت ، إنني عبّرت بوضوح كامل ، لكن بحيوية متميزة وسرعة محمومة ، كما لو أنني كنت أخشى أن أقاطع قبل أن أكمل الجمل القصيرة ، لكن البالغة التي أسلمتني إلى الجلاّد وإلى الجحيم .

بعد أن سردت كل ما كان ضرورياً لقناعة العدالة قناعة كلية ، سقطت على الأرض في حالة إغماء .

لكن لماذا أطيل القول؟ إنني اليوم أرسف بهذه السلاسل ، وأنا هنا ! غداً سأكون حرّاً ! ـ لكن أين .

بيدلوا والجبال الوعرة

عندما كنت أُقيم قرب شارلوتسفيل ، من ولاية فيرجينيا ، في خريف عام ١٨٢٧ ، تعرفّت مصادفة إلى السيد أوغسطس بيدلوا . كان هذا السيد ذا مظهر غير عادي إلى درجة أثارت دهشتي واستحوذت على اهتمامي الشديد . أدركت أنه من المستحيل عليّ أن أفهمه على حقيقته في علاقاته الأخلاقية أو الجسدية . أمّا عائلته فلم أوفّق أبداً في أن أعرف عنها ما فيه الكفاية ، كما لم أعرف أي شيء عن البلد الذي جاء منه . حتّى في ما يتعلق بعمره كان هناك ما يحيّرني إلى درجة كبيرة بالرغم من أنني كنت أدعوه بالسيد الشاب . لا شك أنه كان يبدو صغير السن ـ وكان أحياناً يتحدّث عن صباه ـ مع أنني كنت أتصوره شيخاً يبلغ مائة سنة من العمر . كان مظهره هو ما يميّزه عن غيره أكثر من أي شيء آخر ، إذ كان طويلاً مفرط الطول ، دقيق البنية ، متقوّس الظهر ، ذا ذراعين غاية في الطول والنحول . كانت جبهته عريضة ومنخفضة ، أما لونه فلم يكن يبدو فيه أيّ أثر للدم . وكان فمه كبيراً ورخواً ، وأسنانه متباعدة ، ومع أنها كانت أسناناً سليمة فإنني لم أرَ مثلها في فم أيّ مخلوق بشري . أمّا ابتسامته ، فعلى العكس مما قد يتبادر إلى الذهن ، لم تكن تنقصها العذوبة ، لكنها كانت دائماً مشوبة بالحزن العميق ، والأسى اللامتناهي . كانت عيناه كبيرتين أكثر من المألوف ، مستديرتين كعيني الهرة ، لهما بؤبؤان يضيقان أو يتسعان تبعاً لكمية الضوء تماماً كأعين الهررة . وفي حالات الانفعال كانت كرتا عينيه تومضان كثيراً بصورة لا يمكن وصفها ، فتبدوان وكأنهما تقذفان بالشّرر الذي لا ينعكس على شيء ما ، بل الذي ينطلق من داخل الشيء كما في الشمعة أو الشمس ؛ لكنهما في حالتهما الاعتيادية كانتا باردتين جامدتين ، كعيني ميت مضى عليه في القبر زمن طويل .

هذه الملامح كانت ، على ما يبدو ، تسبّب له ارتباكاً كبيراً ، إذ كان يشير إليها باستمرار بطريقة فيها قدر من الاعتذار وشيء من التوضيح ، الأمر الذي أحزنني عندما سمعته لأول مرّة . لكنني سرعان ما اعتدت على هذه

الإشارات ، ولم يعد يزعجني سماعها . أدركت أنه يقصد من هذه الإشارات إقناع السامع ، بطريقة غير مباشرة ، أنّ هيئته الجسدية لم تكن دائماً على هذه الصورة ، وأن سلسلة من النوبات العصبية الشديدة قد أحالته من كائن متميّز بقدر بالغ من الجمال إلى ما هو عليه الآن . كان يشرف على معالجته ، لعدَّة سنوات خلت ، طبيب يدعى ثمبلتون ـ وهو رجل طاعن في السن يبلغ السبعين من العمر ـ التقى به للمرة الأولى في ساراتوغا ؛ ونال على يديه ، أو هكذا خُيّل إليه ، منفعة عميمة . وكانت النتيجة أنَّ بيدلوا ، الذي كان ثرياً كبيراً ، قد اتفق مع الدكتور ثمبلتون على أن يكرّس هذا الأخير وقته وجميع خبراته الطبية للعناية به مقابل راتب سنوي ضخم .

كان الدكتور ثمبلتون في شبابه رحَّالة يجوب البلدان ، فاعتنق في پاريس مذهب التنويم المغناطيسي . وكان قد نجح في أن يريح مريضه من آلامه الحادَّة بوساطة العلاجات المغناطيسية وحدها . وقد أدَّى هذا النجاح إلى أن يسلّم المريض بالمبادئ المغناطيسية العامة التي كان يستمد منها الطبيب علاجاته . والطبيب ، ككلّ المتحمسين ، بذل جهداً كبيراً ليجعل مريضه يعتنق مذهبه بكل قواه . وأخيراً نجح في إقناعه بأن يخضع لتجارب متعددة . ومع التكرار ، نشأت حالة أصبحت في الأيام الأخيرة من الشيوع بحيث لم تعد تلفت الانتباه ، لكنها ، حين جرت حوادث القصة ، لم تكن معروفة في أميركا ، أعني أنه نشأ تدريجاً بين الدكتور ثمبلتون وبين بيدلوا تعاطف واضح وقوي يمكن وصفه أنه علاقة مغناطيسية . لست على استعداد لأن أعلن جازماً أن ذلك التعاطف كان يتعدى عملية التنويم العادية إلى أشياء أخرى ؛ لكن ما لا ريب فيه أن ذلك التعاطف قد بلغ حداً بعيداً من المتانة . في المحاولة الأولى للبدء بالتنويم المغناطيسي فشلت العملية بكاملها . وفي المحاولة الخامسة أو السادسة نجحت جزئياً ، لكن بعد جهد طويل . ولم يغدُ النجاح كلياً إلاّ في المحاولة الثانية عشرة ، بحيث أصبحت إرادة المريض ، بعد ذلك ، ترضخ بسرعة لإرادة الطبيب ، إلى درجة أنني حين تعرَّفت عليه للمرة الأولى كان التنويم أمراً يتم بسهولة على يد الطبيب حتى ولو لم يكن المريض شاعراً بوجوده .

اليوم ، ونحن في العام ١٨٤٥ ، تظهر عجائب مماثلة لآلاف المراقبين يومياً ، أجرؤ وأسرد هذه المعجزة كحقيقة ثابتة .

كانت حرارة بيدلوا شديدة الحساسية يمكن إثارتها بسهولة ، وكان خياله واسعاً خلاقاً بشكل فريد ، زادته اتساعاً جرعات الأفيون التي كان يتناولها بكميات كبيرة ، والتي بدونها كان يستحيل عليه مجرد الوجود . كان من عادته أن يأخذ جرعة كبيرة كلّ صباح بعد الفطور مباشرة ـ أو بالأحرى بعد فنجان مكثف من القهوة ـ ذلك أنّه لم يكن يأكل شيئاً قبل الظهر ، وبعد ذلك كان يذهب وحيداً أو مع كلبه في نزهة بين سلسلة التلال التي تقع إلى الشرق والجنوب من شارلوتسفيل والتي تسمى «الجبال الوعرة» .

وفي صباح يوم ضبابي دافئ من أيام تشرين الثاني/ نوفمبر ، وفي الفصل الذي يعرف في أميركا بالصيف الهندي ، توجّه السيد بيدلوا كعادته إلى الجبال ، ومرَّ النهار دون أن يرجع .

عند الساعة الثامنة مساءً تقريباً ، وكنا على وشك الخروج للبحث عنه ، بعد أن أقلقنا غيابه ، ظهر فجأة . لم تكن صحته أسوأ ممّا كانت عليه ، أمّا معنوياته الروحية فكانت أعلى مما تعوَّدناه منه . ثم أخبرنا بقصة رحلته ، وبالأحداث الغريبة التي أخَّرت عودته .

قال : «تذكرون أنني غادرت شارلوتسفيل حوالى السّاعة التاسعة صباحاً ، وقد توجهت مباشرة نحو الجبال . في حوالى الساعة العاشرة دخلت مضيقاً لم يكن لي سابق معرفة به . تتبعت تعرجاته باهتمام بالغ . كانت المناظر التي تحيط بالمضيق تتميَّز بسحر فريد يضفيه عليها جو العزلة الكئيبة . كانت الطبيعة تبدو عذراء كلياً . أعتقد أن المروج الخضر الرمادية التي مررت بها لم تطأها أقدام البشر من قبل . كانت المنطقة عميقة منعزلة ، والأصح أنه لا يُنَفذُ إليها إلاّ من خلال التعرّجات التي عبرتها ، الأمر الذي يجعلني أؤكد أنني كنت المغامر الأول الذي عبر تلك الناحية .

«كان الضباب الكثيف ، أو الدخان الذي يميز الصيف الهندي ، والذي يغمر كل شيء ، يضفي عليها مظهراً غريباً . كان هذا الضّباب الهادئ كثيفاً ، حتى أنَّه أعاقني عن رؤية الأشياء التي تبعد عني أكثر من عشر

خطوات . كان المضيق كثير التشعب ، وكانت رؤية الشمس متعذرة ، لذا لم أعد أعرف في أي اتجاه أسير . في الوقت نفسه بدأ المورفين يفعل فعله فيَّ فيزيد حدة اهتمامي بأبسط الأشياء : باختلاج ورقة ، بتمازج الألوان في عشبة صغيرة ، بشكل زهرة النفل ، بهبوب النسيم ، بالروائح الضعيفة التي انبعثت من الغابة . هذه الأشياء التي تمثّل لي عالماً كاملاً من الإيحاءات ، طائفة من التخيلات والأفكار غير المتماسكة .

«مشيت ساعات طويلة وأنا على هذه الحال ، بينما كان الضباب يشتد كثافة ، حتى اضطررت إلى تلمّس طريقي خطوة خطوة ، وأصابني ضيق شديد ـ نوع من التوتر والتردد العصبيّين ـ كنت أخاف أن أخطو خطوة واحدة لئلا أغرق في هوَّة لا قرار لها . وتذكّرت قصصاً غريبة تروى عن هذه التلال الوعرة ، وعن سلالات البشر المتوحشة التي سكنت وهادها وكهوفها . وبدأت آلاف التصورات الغامضة تجثم عليّ وترهقني ، وكان أفظع ما في هذه التخيلات غموضها . وفجأة طرقت سمعي ضربات طبل .

«كانت دهشتي بلا حدود . كان صوت طبل في هذه التلال أمراً غريباً غير عاديّ . إن أبواق الملائكة ما كانت لتدهشني أكثر مما فعلت تلك الضربات . لكن الأحداث التي تلتها كانت أكثر منها إثارة للحيرة والدهشة ، إذ سمعت قرقعة غريبة كما لو أنها صادرة عن رزمة من المفاتيح ، ثم اندفع أمامي رجل شديد السمرة ، نصف عار ، يركض بسرعة خاطفة . لقد اقترب مني حتى شعرت بأنفاسه الحارَّة على وجهي ، وكان يحمل في إحدى يديه آلة مكوَّنة من مجموعة من الحلقات الحديدة التي يهزّها بعنف وهو يركض ، وما كاد يختفي في ثنايا الضبَّاب حتى اندفع وراءه وحش ضارٍ وقد فغر شدقه ، واندلع الشرر من عينيه ، عرفته فوراً ، فقد كان ضبعاً .

«وبدل أن تزيد رؤية الوحش في مخاوفي بدّدتها ، إذ تيقَّنت أنني كنت أحلم ؛ فحاولت أن أستعيد وعيي . خطوت إلى الأمام باندفاع وجرأة ؛ فركت عينيّ ؛ صرخت بصوت عال ، ولملمت أطرافي . وحين ظهر أمامي فجأة جدول صغير من الماء ، انحنيت وغسلت يدي ورأسي وعنقي ، فتلاشت المشاعر العجيبة التي كانت قد أزعجتني . انتصبت رجلاً جديداً ،

كما خُيّل إليّ ، وتابعت سيري بخطى ثابتة في طريقي المجهول .

«أخيراً ، بعد أن أنهكني التعب ، وثقل الهواء على صدري ، جلست إلى جذع شجرة . نفذ إلى عينيّ شعاع ضعيف من ضوء الشمس ، وانعكست ظلال أوراق الشجرة على العشب . حدّقت في تلك الظلال خلال دقائق مندهشاً ، فقد أذهلني شكلها وطبيعتها . رفعت رأسي إلى الشجرة ، فإذا هي شجرة نخيل .

«نهضت مسرعاً ، وبحالة من الانفعال المخيف ، ذلك لأن ما ساورني من قبلُ من أنني كنت في حلم لم يعد ليقنعني ـ رأيت ـ شعرت بأنني أمتلك كامل قواي ـ وأدخلت هذه المشاعر إلى روحي عالماً جديداً وفريداً . فجأة ارتفعت حرارة الهواء إلى درجة لا تطاق ، وانتشرت في الهواء رائحة غريبة ، وتناهت إلى مسامعي دمدمة خفيفة ، لكنها متواصلة ، تشبه الصوت الذي يتصاعد من نهركبير بطيء الجريان ؛ كانت هذه الدمدمة تبلغ أذني ممزوجة بأصوات بشرية كثيرة .

«بينما كنت أنصت بدهشة هائلة لا حاجة إلى وصفها ، هبّت دفعة قويّة من الريح وانتزعت غلالة الضباب الكثيفة كأنما بفعل ساحر .

«وجدت نفسي على سفح جبل مرتفع ، أمامي نهر عظيم يجري في سهل فسيح ، وعلى ضفة ذلك النهر تنتشر مدينة بدت لي أشبه بالمدن الشرقية التي نقرأ عنها في القصص العربية ، لكنها كانت تتميز بشيء فريد لم نسمع به في أية قصة من تلك القصص . كنت أقف في نقطة ترتفع كثيراً عن مستوى المدينة ، لذا كان باستطاعتي أن أشاهد كل حدودها وزواياها كما لو أنها مرسومة على خارطة . كانت شوارعها كثيرة لا تحصى ، تتقاطع في مختلف الاتجاهات بدون أي انتظام ، وهي أشبه بالأزقة الضيّقة الطويلة ؛ وكانت هذه الأزقة تكتظ بالسكان إلى درجة لا تصدق . وبدت البيوت زاهية بهيّة بشكل غريب ، والشرفات ، والمآذن ، والأنصاب الدينية ، والشبابيك المقعّرة تتدلى من كل ناحية . وكانت تكثر فيها «البازارات» التي تعرض فيها الأقمشة بأنواعها المختلفة المتمازجة الألوان من الموسلين والحرائر والأقمشة القطنية ، وأبهى الجواهر والدرر . إلى جانب هذه

البضائع ، كان يبدو حشد من الأعلام والحمّالات والهوادج تطل منها الصبايا المقنّعات ؛ والفيلة المزركشة بالألوان المختلفة ، والتماثيل الدينية الملونة ، والطبول والصنوج والحراب والمطارف المطعّمة بالفضة والذهب . ومع الضجّة والفوضى ، وسط جماهير غفيرة من الناس السود والصفر ، المجلببين المعمّمين والملتحين ، كان يتجوّل قطيع عظيم من الأبقار المقدسة ، بينما كان عدد كبير من القرود يقفز ويتراقص ويعلق بالأبواب والنوافذ . وبين هذه الشوارع التي تموج بالناس وبين ضفاف النهر كان ينحدر سلم طويل ينتهي إلى الحمّامات ؛ بينما يبدو النهر وكأنه يشق طريقه بصعوبة بين السفن المتعددة المثقلة بالبضائع التي تعبره في جميع الاتجاهات . وخارج حدود المدينة كانت الأشجار الضخمة تتوزع في غابات متفرّقة ، أشجار من النخيل ، والكاكاو ، وغيرها من الأشجار المعمَّرة التي يبلغ عمرها مئات السنين . كما يبدو هنا وهناك حقل من الأرز ، أو كوخ مزارع ، أو بركة ماء ، أو برج للعلف ، أو مخيّم للغجر ، أو قد تقع عينك على عذراء وحيدة تمضي صوب النهر العظيم وعلى رأسها جرَّة .

«لا شك أنكم ستقولون الآن إنني كنت في حلم . ولكن الأمر ليس كذلك . لأن ما رأيت ـ ما سمعت ـ ما أحسست به ـ ما فكرت فيه ، كل ذلك لم يكن مشوباً بأيّ من الترهات التي تميّز عالم الأحلام . كان كل شيء منسجماً مع سواه ، ومع الأحداث التي تقع . عندما شككت في البداية في أنني أحلم أخضعت نفسي لعدة تجارب أثبتت جميعها أنني كنت بكامل وعيي دون شك . عندما يحلم أحدنا ، ويتبادر إلى ذهنه في أثناء الحلم ذاته أنه يحلم ، لا يخطىء أبداً إدراك حقيقة كونه يحلم ، ثم لا يلبث أن يستيقظ للتوّ . وهكذا فإن نوفاليس(*) محق في قوله : «إننا نكون قد قاربنا أن نستفيق حين نحلم أننا نحلم» . فلو أن رؤياي التي وصفتها قد تراءت لي دون أن أرتاب في حقيقتها ، ودون أن أخضعها لعدة تجارب ، لما

(*) فردريش نوفاليس (١٧٧٢ ـ ١٨٠١) : شاعر ألماني من كبار الرومنطيقيين . تأثر بفلسفة أستاذه فيتشه . جمع بين الصوفية وتعليل رمزي للطبيعة .

ادّعيت أنها ليست حلماً ولكن الأمر كان عكس ذلك، وعليّ أن أعتبرها شيئاً آخر».

«لست واثقاً بأنك مخطئ» قال الدكتور ثمبلتون مقاطعاً «ولكن تابع حديثك. الآن نهضت وهبطت إلى المدينة».

«نهضت» قال بيدلوا متطلّعاً إلى الطبيب بدهشة بالغة، «نهضت كما قلت وهبطت إلى المدينة. في طريقي إليها مررت بحشد كبير من الناس يتقاطرون من كل حدب وصوب ويتجهون وجهة واحدة، وفي حركاتهم أشد دلائل الهيجان. فجأة، وبدافع مجهول، شعرت بالاهتمام الشديد بما يجري وينبعث في صدري. بدا لي أنه يتوجَّب عليّ القيام بدور معيّن في هذا الحشد الذي يحيط بي. أحسست بشعور العداوة العميقة، حاولت أن أختفي من بينهم، وبسرعة هربت سالكاً زقاقاً جانبياً ودخلت المدينة من جهة أخرى. هناك كان يرتفع الضجيج الصاخب والجدال العنيف. رأيت فرقة صغيرة، من الرجال، ترتدي أزياء نصفها هندي والنصف الآخر أوروبي، وعلى رأسها رجال، بلباس الجيش البريطاني، تشتبك في قتال غير متكافئ مع الحشود التي تملأ الأزقة. انضممت إلى الجانب الضعيف متخذاً سلاح ضابط كان قد سقط، ورحت أقاتل عدواً لا أعرف من هو بكل قواي. وسرعان ما غُلبنا على أمرنا، بسبب تكاثر العدو من الجهة المقابلة، واضطررنا إلى أن نهرب ونلتجئ إلى مجموعة من البيوت الخربة. حصنًا أنفسنا، وبقينا في مأمن خلال برهة وجيزة، لكنني ما لبثت أن رأيت من خلال شقّ في أعلى البيت، الذي لجأت إليه، حشداً كبيراً من الرجال في حالة هيجان مريع يحيطون بقصر بهي على ضفة النهر ويهاجمونه، ثم رأيت شخصاً ينحدر بسرعة من نافذة ذلك القصر على حبل صُنع من عمامات حرّاسه، ويبلغ قارباً كان في انتظاره، ثم يسرع به القارب إلى الجهة الثانية من النهر.

«استولى عليّ شعور جديد الآن. تبادلت مع رفاقي بضع كلمات سريعة مؤثرة، وبعد أن تأكدت من أنني ربحت بعضهم إلى جانبي انطلقت معهم خارج البيت، ورحنا نركض وسط الجماهير المحيطة بنا. كانت الجماهير

تتراجع أمامنا أول الأمر ، لكن الرجال كانوا يتجمّعون ، يقاتلون بجنون ويتراجعون من جديد . في هذه الأثناء كنّا قد ابتعدنا عن المخبإ ، وأصبحنا في زقاق ضيق تحيط به الأبنية الطويلة الضخمة ، ومن هناك ركضنا إلى زاوية لم يبلغها نور الشمس من قبل . واشتدّ ضغط الجماهير علينا ، كانوا يهاجموننا بالحراب وينهمرون علينا بوابل من السهام . تلك الأسهم كانت عجيبة فعلاً . كانت تشبه حراب مالي المتعرّجة ، التي تصنع على شكل أفعى متلوية ، تلك الحراب ذات الرؤوس المسمّمة . أصابني أحد هذه الأسهم في صدغي الأيمن . ترنّحت وسقطت . اعتراني ألم شديد في جسدي كله ، قاومت بشدة ، ثم تأوهت ومتّ» .

قلت وأنا أبتسم : «الآن لا يمكنك أن تعتبر أن مغامرتك كلها كانت شيئاً غير الحلم . لا يمكنك أن تدّعي أنك الآن ميت؟» .

عندما نطقت بهذه الكلمات كنت أنتظر من بيدلوا بالطبع ردّاً ممتعاً ، وكم كانت دهشتي شديدة حين رأيته يتردّد في جوابه ، ثم أخذ يرتجف ، وامتقع لونه بشكل مخيف ، وبقي صامتاً . حوّلت نظري إلى ثمبلتون ، كان يجلس في كرسيه دون حراك ، وكانت أسنانه تصطك ، وعيناه على وشك أن تقفزا من مجريهما : أكمل حديثك . قال الطبيب بعد وقت قصير بصوت أجش .

فتابع بيدلوا حديثه قائلاً :

«لدقائق عديدة تلت موتي ، كان شعوري الوحيد ـ إحساسي الوحيد ـ ليس شيئاً سوى الظلمة والعدم ، مع وعيي التام بأنني ميت . بعد دقائق أخرى أحسست وكأنّ روحي قد اعترتها هزّة قويّة مفاجئة كصدمة التيار الكهربائيّ . ومع تلك الهزة عاد إليّ الشعور بالتمدّد والإحساس بالضوء . لم أر الضوء وإنما أحسست به . شعرت خلال برهة وكأنّني أخرج من بطن الأرض . لكن ، لم أكن لأملك حضوراً جسدياً ، سمعياً أو بصرياً . كانت الحشود قد غادرت المكان ، والصخب قد توقف . بدت المدينة هادئة نسبياً . تحتي كان جسدي ملقى على الأرض ، وفي صدغي السهم الذي اخترقه ، ورأسي قد انتفخ بكامله ، وتغيّر شكله . لكنني لم أرَ هذه الأشياء ، بل شعرت بها . لم يتملكني اهتمام بشيء أبداً ، حتى أن الجسد الميت ذاته لم

يستحوذ منّي على أيّ اهتمام . ولم أكن أملك إرادتي . بدا لي كأنني كنت مكرهاً على الحركة . ففزت بخفة خارج المدينة متبعاً الطريق نفسها التي قدمت منها . عندما وصلت تلك النقطة من الطريق ، حيث التقيت بالضبع ، اعترتني ثانية تلك الهزة الروحية ، وشعرت أنني أستعيد حاسة الثقل والإرادة والمادة . عدت إلى نفسي الأصلية ذاتها ، وتوجهت بشوق صوب البيت ـ على أنّ ما مضى لم يفقد أبداً حرارة الحقيقة ـ والآن لا يمكنني أن أقنع نفسي ، ولو للحظة واحدة ، بأن ما رأيت وأحسست كان حلماً» .

«ولم يكن الأمر كذلك» قال ثمبلتون وسيماء الجد تكسو ملامحه ، لكن من الصعب أن نتمكن من تحديد نوعية هذا الاختبار . لنفترض فقط أن روح الإنسان المعاصر على شفير اكتشافات نفسية هائلة ، ولنكتفِ بهذا الافتراض . أمّا ما تبقّى من الحكاية فعندي له بعض الشروح الإيضاحية . بين يدي لوحة مائية كان عليّ أن أريك إيّاها من قبل ، لكن شعوراً هائلاً من الخوف قد منعني من ذلك» .

نظرنا إلى الصورة التي عرضها الطبيب . لم أرَ فيها شيئاً خارقاً للعادة ، غير أنّ تأثيرها في بيدلوا كان هائلاً ، وكاد أن يغمى عليه وهو يحدّق فيها ، ذلك أنّ اللوحة كانت صورة مصغّرة ـ صورة طبق الأصل عنه ـ عن تقاطيعه العجيبة غير العادية . على الأقل كان ذلك ما تبادر إلى ذهني عندما رأيت اللوحة .

«بإمكانكم أن تقرأوا تاريخ هذه اللوحة» . قال ثمبلتون . «التاريخ مكتوب هنا ، في هذه الزاوية إلى درجة تصعب معها رؤيته . إنه العام ١٧٨٠ . فلقد رسمت الصورة في هذا التاريخ . إنها تشبه صديقاً ميتاً هو السيد ولديب ، الذي تعرفت عليه في كالكوتا خلال فترة حكم وارن هاستينغز(*) . كنت آنذاك في العشرين من عمري . عندما رأيتك للمرة الأولى يا سيد بيدلوا ، في ساراتوغا ، كان الشبه العجيب بينك وبين صاحب هذه الصورة هو السبب الذي جعلني أتقرّب منك وأسعى إلى اكتساب صداقتك ، وأتدبر

(*) وارن هاستينغز (١٧٣٢ ـ ١٨١٨) : سياسي إنكليزي . حاكم الهند بين ١٧٣٣ و١٧٨٥ . قام بإصلاحات إدارية .

الأمور بشكل جعلني مرافقك الدائم . كان يدفعني إلى ذلك شعور الأسى العميق الذي أكنّه لصديقي الراحل ، وكذلك بدافع شعور لا يخلو من الهلع تجاه طبيعتك وشخصيتك الغريبتين .

«في قصتك عن الرؤيا التي شاهدتها ، بين الجبال الوعرة ، وصفت بتفصيل دقيق جداً بينارس المدينة الهندية التي تقع على النهر المقدس . الفوضى والقتال والمجزرة التي تحدثت عنها هي الأحداث التي وقعت حقيقة عام ١٧٨٠ إبان ثورة شيث سنغ حين أصبح هاستينغز في خطر حقيقي على حياته . والرجل الذي هرب بوساطة الحبل المصنوع من العمامات كان هو شيث سنغ نفسه ، والجماعة التي اعتصمت في البيوت الخربة هم فرقة من الهنود المستخدمين في الجيش البريطاني وبضعة ضباط بريطانيين ، على رأسهم هاستينغز . ولقد كنتُ أنا أحد أفراد هذه الفرقة ، وبذلت أقصى جهدي لأمنع هجوم الضابط الذي سقط في الزقاق المزدحم صريعاً بسهم مسموم أطلقه أحد البنغاليين . ذلك الضابط كان هو صديقي العزيز ولديب . وسترى من هذه المخطوطات (وهنا أخرج ثمبلتون دفتراً فيه بضع أوراق تظهر عليها كتابة حديثة) إنني ، لحظةَ كنت ترى رؤياك تلك في الجبال ، كنت أنا هنا أقوم بتسجيلها في هذا الدفتر» .

بعد حوالى الأسبوع ، من هذه الحادثة ، ظهرت في إحدى صحف شارلوتسفيل الكلمات التالية :

«بأسف بالغ ننعي السيد بيدلو ، الرجل الذي اكتسب ، بصفاته الحميدة وفضائله المجيدة ، مودّة أهالي البلدة .

كان السيد بيدلو لسنوات خلت ، يصاب بنوبات عصبية كثيراً ما هدّدت حياته . لكن هذه النوبات لم تكن على ما يظهر السبب المباشر لوفاته .

الحقيقة أنَّ السبب المباشر شيء فريد . خلال إحدى رحلاته إلى «الجبال الوعرة» ، منذ أيام قليلة ، أُصيب بحمى نتج عنها ازدياد الدم في رأسه ، فلجأ الطبيب ثمبلتون إلى الفصد الدموي كي يخفف انصباب الدم في الرأس ، واستعمل في ذلك العلق(*) الدموي بوضعه على الصدغين . لكن

(*) العَلَق والواحدة عَلَقة : دويبة سوداء تمتص الدم .

السيد بيدلو فارق الحياة خلال برهة وجيزة جداً ؛ وقد وُجد مصادفة في الوعاء الذي استُحضرت فيه العلقات دودة سامة نادراً ما توجد في المستنقعات المجاورة . وقد التصقت هذه الدودة في شريان الصدغ الأيمن ، وكان التشابه الكبير بين شكلها وشكل العلقات التي تستعمل في الفصد الدموي ، هو الذي أدّى إلى عدم تدارك الخطإ إلاّ بعد فوات الأوان .

ملاحظة : الهوام السّامة ، التي تشبه العلق ، يمكن تمييزها بلونها الأسود ، وعلى الأخص ، بالتوائها على شكل تثنيات الأفعى» .

كنت أتحدّث إلى صاحب الجريدة التي نشرت خبر وفاة السيّد بيدلوا حين خطر لي أن أسأله عن سبب سقوط الحرف الأخير من اسمه حين كتابة النبإ .

قلت : «إنّك بطبيعة عملك ، ولا شك ، مرجع في التهجئة ، ولكنني كنت أعتقد أن اسم المرحوم كان بيدلوا وليس بيدلو» .

«مرجع؟ كلاّ ، أبداً ، إنها مجرّد غلطة مطبعية . الاسم ينتهي بالألف في كل أنحاء العالم ، ولم أعرف أنّه يكتب بغير هذا الشكل في حياتي» . هكذا أجابني صاحب الجريدة .

عندذاك قلت ، وأنا أستدير راجعاً ؛ «حقّاً إن الحقيقة أغرب من أي خيال ، إذ ماذا يكون بيدلوا بدون الألف في نهاية الاسم غير ولديب بشكل مقلوب؟ وهذا الرجل يقول إنها غلطة مطبعية !

ثنغوم بوب

بلغتُ من الكبر عتيّاً ، وليس من المستبعد أن أموت ما دام شكسبير والسيد إيمونز قد ماتا هما أيضاً ، ولذا ربما كان من المستحسن أن أنسحب من الحياة الأدبية وأنام على حرير أمجادي . لكنني أرغب في أن أميّز اعتزالي الوسط الأدبي ببعض الوصايا والإرشادات التي تهم الناشئة . ولعلّ خير ما أقدمه لها بهذه المناسبة قصة المرحلة الأولى من نضالي الأدبي . لقد تردد اسمي سنين طويلة أمام القرّاء إلى درجة أنني لا أكتفي بأن أتقبّل بكل طيبة خاطر ما أثاره هذا الاسم من الدهشة والإعجاب فقط ، بل أجدني على استعداد لإرواء فضول المعجبين ودهشتهم . والحق أن من واجب الذي يبلغ المجد أن يترك خلفه نقاط الانطلاق التي مرّ بها في صعوده ، لتنير سبل الآخرين في ارتقائهم سلم المجد . ولذا أرى من الضروري أن أخط على الورقة ، التي بين يدي (والتي أفكر بتسميتها : «مذكرات في خدمة تاريخ الأدب الأميركي») وأكشف تاريخ خطواتي الأولى المهمة ، والضعيفة المتعثرة في الوقت نفسه ، التي تمكنت بفضلها من بلوغ الطريق التي تؤدي إلى قمة المجد الإنساني .

لست أجد فائدة في التحدث عن أجدادي . كان أبي السيد توماس بوب في ذروة مهنته خلال سنوات طويلة ، إذ كان حلاّقاً في مدينة سموغ . كان حانوته ملتقى وجوه المنطقة ، وملتقى الصحافيين بصورة خاصة ، وهم قوم يوحون بالاحترام والتقدير العميقين . شخصياً كنت أنظر إليهم وكأنهم آلهة ، أنهل الحكمة والذكاء اللذين يتدفقان من شفاههم العظيمة عندما كنت أغطي ذقونهم بالصابون . يرجع تاريخ لحظات إلهامي الأولى إلى تلك الفترة التي لا تنسى ، حين كان رئيس تحرير «ذبابة الخيل» يلقي في أثناء عملية وضع الصابون التي ذكرتها ، قصيدة عصماء على مسامع عمّالنا المتمرنين ، يمتدح بها «زيت بوب النقيّ الوحيد» (وهو الاسم الذي أطلقه عليه مخترعه العبقري ، والدي) وقد كافأت شركة توماس بوب وشركاه ـ حلاقون وتجار» رئيس تحرير «ذبابة الخيل» على هذه القصيدة بكرم ملكي .

لا غرو أنَّ المقاطع الملهمة من قصيدة «زيت بوب» قد أذكت فيَّ الشعلة المقدسة ، وقررت في الحال أن أغدو رجلاً عظيماً ، وأبدأ هذه الطريق بأن أصير شاعراً كبيراً . ذلك المساء بالذات ، جثوت على ركبتي أمام أبي وتضرعت إليه قائلاً :

ـ «سامحني يا أبي ! إن نفسي تتوق إلى ما هو أكثر من مهنة الحلاقة . أرغب في ترك الحانوت . أريد أن أصبح رئيس تحرير ـ أن أصير شاعراً ـ أتوق إلى نظم أبيات في «زيت بوب» . اغفر لي وساعدني كي أصير عظيماً» .

ـ «يا عزيزي ثنغوم» (تعمّدت باسم ثنغوم لأن لي قريباً ثرياً اشتهر بهذا الاسم) قال ذلك وهو يشدّني بأذنيّ ليرفعني ـ «ثنغوم يا بنيّ . أنت حسن الطالع لأنك ورثت همتك عن أبيك . لك أيضاً مثل رأسه الكبير ، ولا بد أنه يحوي أدمغة متعددة . لاحظت هذا منذ زمن طويل ، ولذا فكرت بأن أجعلك محامياً . لكن مهنة المحاماة لم تعد مرغوبة ، وهذا النوع من العمل السياسي لا يدرّ مالاً . كنت حكيماً واخترت الأفضل ، فتجارة رئاسة التحرير هي الأجدى . وإذا استطعت أن تكون شاعراً في الوقت نفسه ـ كما هي الحال بالنسبة إلى كثير من رؤساء التحرير ـ تكون قد ضربت عصفورين بحجر واحد ، وتشجيعاً لك في بداية عملك سأعطيك عليَّة وريشة وحبراً وورقاً ، ومعجماً للقوافي ومجموعة من «ذبابة الخيل» ولا أظنك تطلب بعد هذا شيئاً» .

فأجبته بحماسة وحرارة :

ـ «أكون إذاً وغداً ناكراً للجميل إن أنا فعلت ، لأن كرمك بلا حدود . سأكافئك بأن أجعلك أباً لعبقري» .

على هذا الوجه انتهى حديثي مع أفضل البشر . وما كاد ينتهي حتى انكببت على عملي الشعري ، لأنني كنت أبني عليه آمالي في الارتقاء إلى كرسي رئاسة التحرير .

اكتشفت منذ محاولاتي الأولى أن مقاطع «زيت بوب» ستشوّشني أكثر مما تفيدني . كان سحرها يبهرني أكثر مما يضيء سبيلي . كانت عزيمتي تكل

حين أتأمل روعة تلك المقاطع ، لأنني كنت أميل عفوياً إلى مقارنتها بأعمالي الفاشلة بالرغم من كل الجهود . أخيراً خطرت لي فكرة طريفة فذة ، من تلك الفكر التي تمر بين حين وآخر في دماغ العبقري . كانت كما يلي ـ أو بالأحرى نفذتها على الوجه التالي : قصدت حانوتاً في طرف ناء من المدينة تتكدس في زواياه الكتب ، وابتعت مجموعة من الكتب العتيقة ، المجهولة كلياً ، أو المنسية . حصلت عليها بثمن بخس يكاد لا يذكر . عن أحد هذه الكتب ، الذي قيل على غلافه إنه ترجمة لجحيم دانته(*) ، نسخت بعناية فائقة مقطعاً طويلاً يدور حول رجل يدعى «أوغولينو» رزق العديد من الأولاد . كما نسخت من كتاب آخر ، يضم مجموعة من الأشعار القديمة كتبها شخص نسيت اسمه ، بالعناية ذاتها ، عدداً كبيراً من الأشعار حول «الملائكة» و«وزراء الإحسان» وحول «العفاريت المحكومة» وأشياء أخرى من هذا القبيل . ومن كتاب ثالث ألفه أحد العميان من الإغريق أو الهنود ـ لا يمكنني أن أكلف نفسي عناء تذكر التفاصيل بدقة ـ نقلت من هذا الكتاب خمسين بيتاً مبتدئاً بـ«غضب أخيل»(**) وشيئاً آخر من هذا النوع . ومن كتاب رابع ، كان هو أيضاً لمؤلف أعمى ، اخترت صفحة أو صفحتين تناولتا موضوعين هما «تحية» و«الضياء المقدس» ؛ وبالرغم من أنه لا حاجة بالأعمى إلى الكتابة عن الضياء ، فقد كانت تلك الأبيات جيدة إلى حد ما .

بعد أن نسخت قدراً كافياً من هذه الأشعار وقعت كلاً منها باسم «أوبّودلدوك» (اسم جميل رنّان) ووضعت كل واحدة في غلاف مستقل ، ثم وزعتها على الصحف الرئيسية الأربع ، مع رسالة أطلب فيها النشر السريع والدفع الفوري . طبعاً ، جاءت نتيجة هذه الخطة مخيّبة للغاية ، (والتي كان نجاحها يوفر عليّ الكثير من المتاعب في مراحل حياتي التي

(*) دانته ألياري (١٢٦٥ ـ ١٣٢١) : أعظم شعراء إيطاليا ومن أعلام الأدب العالمي . خلّد اسمه بملحمته الشعرية «الكوميديا الإلــهية» وصف فيها طبقات الجحيم والمطهّر والفردوس في سفرة وهمية قام بها بقيادة فرجيليوس وحبيبته بياتريس .

(**) أعظم أبطال الإلياذة . قتل هكتور في حصار طروادة وقتله باريس بسهم أصاب كعبه .

تلت) وأقنعتني بأن بعض رؤساء التحرير لا يخدعون بسهولة ، وجاءت بمثابة رصاصة الرحمة (كما يقال في فرنسا) لآمالي الوليدة (كما يقال في مدينة المتفلسفين) .

النتيجة أن كل مجلة كتبت لها أرهقت السيد أوبّودلدوك بما كتبته في زاوية «بريد الشهر» . وهذا ما كتبته عنه في مجلة «القدْر المدمدمة» :

«لقد أرسل إلينا أوبّودلدوك (كائناً من كان) قطعة نثرية تتحدث عن مجنون يدعوه «أوغولينو» لديه عدد كبير من الأولاد الذين يجب أن يضربوا جميعاً ويذهبوا إلى أسرّتهم دون عشاء . المقطوعة بكاملها بلا معنى ـ إن لم نقل تافهة . إن أوبّودلدوك هذا (كائناً من كان) مجرّد كلياً من الخيال ، والخيال في رأينا المتواضع ليس روح الشعر وحسب ، بل هو قلبه أيضاً . لقد تجرأ أوبّودلدوك (كائناً من كان) على أن يطلب لترهاته «النشر السريع والدفع الفوري» . إننا لا ننشر ولا نشتري بضاعة من هذا النوع ، مع ذلك لا شك أنه قادر على أن يبيع أمثال هذه الترهات التي «يخربشها» لمجلات «المشاغب» و«سكر الشعير» أو «الإوزة النقّاقة» .

صحيح أن ذلك الردّ كان قاسياً على «أوبّودلدوك» ـ لكن ما بدا لي أشد قسوة من غيره هو وضع كلمة شعر بين قوسين . فأية مرارة لم تحوها هذه الأحرف الثلاثة !

ولقد عومل أوبّودلدوك بقسوة مماثلة في مجلة «المشاغب» التي كتبت ما يلي :

«تلقينا رسالة غريبة وفريدة في نوعها من سيد (كائناً من كان) يوقع باسم أوبّودلدوك ـ مزدرياً بذلك عظمة أشهر أباطرة الرومان الذي يحمل هذا الاسم . وطيّ رسالة أوبّودلدوك (كائناً من كان) وجدنا بضعة أسطر هي عبارة عن «الثلثة كلام» تشمئز منه النفس ، مجرد من كل معنى ، يدور حول «الملائكة ووزراء الإحسان» وهي «لثلثة» لا يرتكبها أي مجنون ، اللهم إلاّ مجنون مثل «نات لي» أو أوبّودلدوك . وفوق كل هذا يطلب منا أن «ندفع فوراً» ثمن تفاهة كهذه . كلاّ أيها السيد ـ كلاّ ! إننا لا ندفع ثمن تفاهات من هذا النوع . أرسلها إلى مجلة «القدر المدمدمة» أو «سكر الشعير» أو «الإوزة

النقاقة» ، فإن هذه النشرات تنشر أية نفايات أدبية يمكن أن ترسلها ـ ولا شك أنها تعدك بالدفع» .

كان هذا في الحقيقة قاسياً على أوبّودلْدوك المسكين ؛ لكن السخرية كانت تتناول «القِدْر المدمدمة» و«سكر الشعَير» و«الإوزة النقاقة» إذ أُطلق على هذه المجلاتَ لقب نشرات ـ وهي تسمية أصابتها في الصميم (حسب التعبير الإيطالي) .

أمّا مجلة «سكر الشعير» فكانت لهجتها أقلَّ حدّة ، وقد أجابت على رسالتي بما يلي :

«كتب لنا شخص يتسلى بتسمية نفسه أوبّودلدوك (لأية أغراض منحطة تستخدم أحياناً أسماء المشاهير) ، وفي الرسالة خمسون أو ستون بيتاً تبدأ بهذه الطريقة :

غضب آخيل كان لليونان نبعاً هائلاً

لآلام لا تُعدّ إلخ . . إلخ . . إلخ . .

«وليعلم أوبّودلْدوك (كائناً من كان) أنه ما من عامل مطبعة متمرن في مؤسستنا إلاّ وقد اعتاد أن ينظم يومياً أبياتاً أفضل من هذه ، ذلك أن أبيات أوبّودلدوك غير موزونة . لذلك ننصح السيد أوبّودلدوك بدراسة التفعيلات . لكن لماذا اعتقد بأننا (نحن دون الجميع) يمكن أن نلوّث صفحاتنا بحماقاته التي لا تغتفر ، إن هذا يتجاوز إدراكنا كلياً . هذه الترهات السخيفة تكاد لا تصلح «للقِدْر المدمدمة» و«المشاغب» أو «الإوزة النقّاقة» ـ وهي وريقات اعتادت أن َتنشر ما يحسبه الأولاد قصائد غنائية جديدة . وأوبّودلدوك (كائناً ما كان) يتجرأ فوق هذا كله ويطلب «لثرثرته» تعويضاً مادياً . هل يعلم أوبّودلْدوك ، (كائناً ما كان)؟ هل بلغه أننا لا ننشر بضاعته حتى ولو دفع لنا تعويضاً؟» .

عندما كنت أقرأ هذه الكلمات كنت أشعر أنني أتضاءل تدريجاً ، وحين بلغت المقطع الذي يسخر فيه رئيس التحرير من القصيدة قائلاً إنها أبيات . . . شعرت أنه لم يتبقَّ مني أكثر من أوقية . أمّا فيما يتعلق بأوبّودلْدوك ، فقد بدأت أشعر بالشفقة على هذا الغلام المسكين . لكن

«الإوزة النقّاقة» لم تبدِ ما أبدته «سكر الشعير» من الرفق إذ قالت :

«لقد بلغت الحماقة بشويعر حقير، يوقّع باسم أوبّودلدوك، حداً جعله يتصور أننا ننشر أو ندفع ثمن «خليط» من العبارات المفككة الطنانة، والتي تخالف كل قواعد اللغة، كالتي أرسلها إلينا، وهي تبدأ بالسطر التالي الذي هو من أكثر الأسطر وضوحاً :

تحية، أيها الضياء المقدس، ابن السماء، وأول من ولد(*) .

قلنا إنَّ هذا البيت «من أكثر الأسطر وضوحاً» ؛ لكن أوبودلدوك (كائناً من كان) سيتكرم ويشرح لنا كيف يمكن للتحية أن تكون ضياء مقدساً . كنا نعرف أن التحية هي «الانحناء لإظهار الاحترام» ! وهل يستطيع أيضاً أن يوضح لنا كيف يمكن للتحية أن تكون ضياء مقدساً (كائناً ما كان) و«ابناً»؟ - إذ إنَّ هذه الكلمة الأخيرة (إذا كنا نعرف من الإنكليزية شيئاً) تستعمل للدلالة على مذكر «بنت» . لكن من العبث البحث في سخافة كهذه . مع ذلك بلغ أوبودلدوك (كائناً ما كان) من الوقاحة حداً جعله يفترض بأننا لا ننشر ثرثراته الغبية وحسب، بل أننا (حتماً) سندفع بدلاً عن نشرها .

«شيء بديع - شيء رائع - يحلو لنا أن نعاقب هذا الكاتب الركيك لأنانيته بأن ننشر فعلاً ثرثرته الطويلة كلمة كلمة كما كتبها، إذ لا يمكن أن ننزل به قصاصاً أشد قسوة، ولكنّا عاقبناه به لولا أننا نخشى أن يسبب ذلك الملل لقرائنا .

«فليرسل أوبودلدوك (كائناً ما كان) إنشاءاته المقبلة إلى «القدر المدمدمة» إلى «سكر الشعير» أو «المشاغب» فهذه تنشر له . . هذه تنشر كل شهر حماقات كهذه . أرسلها إليها . أما نحن فلا يمكن أن نهين أنفسنا ونهبط إلى هذا الدرك» .

كان هذا بالنسبة إليّ بمثابة النهاية ؛ أمّا «القدْر المدمدمة» و«المشاغب» و«سكر الشعير» فلم أفهم كيف استطاعت أنَ تستمر بعد هذه الإهانات كلها . كانت كتابة أسمائها، أو الإشارة إليها بأصغر الحروف (دلالة على

(*) هذا البيت من قصيدة «الفردوس المفقود» للشاعر الإنكليزي جون ملتون (١٦٠٨ - ١٦٧٤) .

انحطاطها ـ وسخافتها) بينما نحن نتصور الكلمات وننظر إليها من عل بحروف عملاقة ! ـ أوه ! كان ذلك جارحاً للغاية ! ـ كان علقماً ـ كان قهراً . لو أنني كنت إحدى هذه «النشرات» لما ترددت في مقاضاة «الإوزة النقاقة» . كان يمكن ذلك أن يتم في ظل قانون الرفق بالحيوان ، أمّا فيما يتعلق بأوبودلدوك (كائناً من كان) فقد استنفد كل صبري ، ولم أعد أرغب فيه . إنه أحمق دون أدنى شك (كائناً من كان) ويستحق الركلة التي حصل عليها .

كان من نتائج تجربتي مع الكتب العتيقة الاقتناع بأن «النزاهة أفضل سياسة» ، كما اقتنعت بأنني إذا كنت لا أستطيع أن أكتب ما هو أفضل من أشعار السيد دانته والعميان وبقية سلسلة القدامى ، فلن أكتب ما هو أسوأ منها . عندئذ استعدت شجاعتي وصممت على أن أنشئ قصيدة «بليغة» (كما يقال على غلافات المجلات) . هكذا وضعت أمام عينيّ من جديد مقاطع قصيدة «زيت بوب» الأخّاذة ، التي كتبها رئيس تحرير «ذبابة الخيل» ، وقرّرت أن «أنظم قصيدة حول الموضوع الرفيع نفسه ، لأعارض بها القصيدة المذكورة .

لم تعترضني صعوبات كأداء في نظم البيت الأول الذي جاء كما يلي :

أن نكتب أغنية عن «زيت بوب»

ورحت أبحث عن قافية مناسبة لكلمة بوب ، فوجدت أنه من المستحيل العثور عليها ، ولم أجد بداً من الاستنجاد بالوالد في سبيل الخروج من هذا المأزق ؛ وبعد بضع ساعات من التفكير والتأمل تمكنّا ، أبي وأنا ، من تركيب القصيدة :

«كتابة قصيدة عن زيت بوب
لا تؤدي بنا إلى فقر جوب(*)

(التوقيع) سنوب»

صحيح أن هذه القصيدة لم تبلغ طولاً معقولاً ، لكن «لا يزال عليّ أن

(*) أراد به «أيوب» وهو رجل من أرض أدوم امتحنه الله في ماله وأهله فصبر ، وورد ذكره في التوراة والقرآن .

أتعلم الكثير» كما قيل في مجلة إيدمبورغ . إن طول القصيدة لا علاقة له بقيمتها ، أما أسلوب هذه المجلة المُداجي وما قالته عن «الجهود المدروسة» فمن المستحيل فهم ما يقصد من ورائه . بالإجمال ، كنت راضياً عن نتيجة باكورة جهودي ، وبقي عليَّ أن أواجه مسألة النشر . اقترح والدي أن أرسلها إلى «ذبابة الخيل» لكن منعني من تنفيذ ذلك سببان : أولاً ، خفت من غيرة رئيس التحرير ، ومن جهة ثانية كان قد تأكد لي بأن هذه المجلة لا تدفع للنتاج الذي ينشر لأول مرة . بعد المداولة والتفكير أرسلت المقال لينشر على صفحات مجلة «سكر الشعير» الغراء ، ورحت أنتظر الحدث بقلق لكن بشعور من الاستسلام .

في العدد التالي ، مباشرة ، كان من دواعي سروري وافتخاري أن أجد قصيدتي تتصدر الصفحة الأولى كمقال رئيسي ، تُقدّم لها الكلمات البليغة التالية التي كتبت بحروف صغيرة ووضعت بين قوسين :

[«نسترعي انتباه قرائنا إلى المقاطع الرائعة التي ننشرها فيما يلي بعنوان «زيت بوب» . ولا حاجة بنا إلى التحدث عن رفيع أسلوبها وعن صدقها العاطفي ؛ ـ من المستحيل أن تتم قراءتها دون أن تذرف الدموع . حسناً يفعل الذين تقززت نفوسهم لدى قراءة المقاطع الكريهة التي تناولت الموضوع العظيم نفسه ، والتي كتبها بريشة الإوز رئيس تحرير «ذبابة الخيل» ، حسناً يفعلون بمقارنة القطعتين .

[ملاحظة : إننا نشتعل شوقاً لاكتشاف السر الذي يحيط بلقب «سنوب» . فهل يمكن لنا أن نأمل بلقاء شخصي؟» .

لم يكن هذا التقديم مجاوزاً الإنصاف ، لكنني أعترف بأنه كان أكثر ممَّا توقعت : ـ اسمحوا ليس أن أعترف بأن في هذا عاراً على وطني وعلى الإنسانية جمعاء . لم أضع وقتاً طويلاً حتى قمت بزيارة رئيس تحرير «سكر الشعير» . ولحسن الحظ وجدت السيد في بيته . حيّاني باحترام عميق يخالطه إعجاب ورعاية أبوية بعثتها في نفسه دون شك حداثة سني وانعدام خبرتي . دعاني إلى الجلوس ، وابتدأ فوراً حديثه عن قصيدتي ، ـ إن التواضع يمنعني أن أذكر أو أعيد الآلاف من عبارات الثناء التي أغدقها عليّ .

لم يكن السيد كراب (هكذا كان يدعى رئيس التحرير) يلقي مدائحه على عواهنها ودون تمييز، بل حلل قصيدتي بكثير من التفهم والذكاء وبتجرد تام ـ ولم يتردّد في أن يشير إلى بعض النواحي التي لم يكن لها وقع مؤثر ـ ما جعل هذا السيد يكبر في عيني. وطبيعي أننا طرحنا «ذبابة الخيل» على بساط البحث. وآمل ألاّ أتعرَّض لمثل النقد الجارح والقدح المهين اللذين وجههما السيد (كراب) إلى هذه الظاهرة الغنائية التعيسة. كنت دائماً أنظر إلى رئيس تحرير «ذبابة الخيل» على أنه كائن خارق للطبيعة؛ لكن السيد كراب سرعان ما شفاني من هذه الفكرة المرضية. لقد سلَّط أضواء نقده على الخصال الأدبية والشخصية للذبابة (هكذا كان السيد كراب ينعت رئيس تحرير المجلة التي تنافسه). وهل هو أكثر من ذبابة؟ لقد كتب أبياتاً تافهة. إنه مهرّج يقيس أبياته بالمسطرة. إنه منحط. ألّف مأساة أضحكت الناس حتى انقلبوا على ظهورهم، وملهاة أغرقت العالم في الدموع. وفوق ذلك كله، بلغت به الوقاحة حداً جعله يكتب ساخراً منه (أي من السيد كراب) وتجرّأ أن يسميه «حماراً». وإنني إذا رغبت يوماً في أن أعبر عن رأيي بالذبابة فإن صفحات «سكر الشعير» رهن مشيئتي كما أكد لي السيد كراب نفسه. وبما أنه كان من المؤكد أن (الذبابة) سيهاجمني لأني تجرأت على نظم قصيدة تنافس قصيدته «زيت بوب»، فإنه (أي السيد كراب) يأخذ على عاتقه أمر الاهتمام بالموضوع بشكل يضمن حقوقي ومصالحي الشخصية. وإنني إذا لم أصبح رجلاً عظيماً في الحال، فلن يكون الخطأ خطأه هو (أي السيد كراب).

حين وصل السيد كراب عند هذا الحد من خطابه (أعترف أنني لم أفهم ما قصده بالعبارة الأخيرة) غامرت، وذكرت كلمة «مكافأة» مدفوعاً بالآمال التي ولّدها في نفسي ما أعلنته مجلة «سكر الشعير» على غلافها قائلة بأنها أي «سكر الشعير» تصرّ «على استئذان الأدباء لدفع مكافآت ضخمة لكل المقالات التي لا تصلح للنشر»؛ ـ حتى أنها غالباً ما تنفق من الأموال لقاء قصيدة قصيرة ما يفوق تكاليف مجلات «القدر المدمدمة» و«المشاغب» و«الأوزة النقّاقة» مجتمعة».

حين ذكرت كلمة «مكافأة» فتح السيد كراب عينيه، ثم فمه، حتى اتسع اتساعاً غريباً، فصار أشبه ببطة عجوز ثائرة أخذت بالصياح. ظل على هذه الحال (يدلك جبينه من وقت إلى آخر وكأنه في حالة ضياع يائس) حتى أنهيت ما تهيأت لقوله.

عندما أتممت كلامي غاص في مقعده متهالكاً، وقد أرخى ذراعيه إلى جانبيه دون حياة، ونسي فمه مفتوحاً كفم البطة، بينما عقدت الدهشة لساني إزاء هذه الوضعية. وفجأة قفز من كرسيه واندفع نحو الجرس، حين بلغه؛ بدا وكأنه غيَّر رأيه، إذ غرق تحت الطاولة وسرعان ما أطل وبيده هراوة همّ برفعها (الحق يصعب عليّ أن أدرك نيته)، وفجأة علت قسماته ابتسامة مرحِّبة وغاص في مقعده بهدوء.

«سيد بوب، قال لي (إذ كنت قد أرسلت بطاقتي قبل أن أصعد) سيد بوب، أنت شاب ـ شاب حديث السن كما يبدو لي». أجبته موافقاً وأضفت أنني لم أبلغ بعد الخامسة عشرة.

«آه! جيّد! أرى الآن بوضوح، لا تقل بعد شيئاً! فيما يتعلق بالدفع، أنت على حق. لكن ـ آه! آه! ـ إنك تنشر للمرة الأولى ـ نحن لا ندفع عادة ـ في المرة الأولى كما ترى، أنت تفهم، أليس كذلك؟ الحقيقة أننا في حالات كهذه «نأخذ تعويضاً». وابتسم السيد كراب ثم تلمَّظ وهو يشدد على عبارة «نأخذ تعويضاً». في أغلب الأحيان يدفع لنا لننشر المحاولات الأولى، والمحاولات الشعرية الخاصة. ثم إن سياسة المجلة المالية، يا سيد بوب، تتجنب الدفع نقداً؛ لا شك في أنك تفهم ما أعني. هكذا بعد ثلاثة أشهر أو ستة ـ سنة، أو سنتين ـ لن نمانع في منحك اشتراكاً لمدة تسعة أشهر عندما نكون قد رتبنا أوضاعنا لنؤمن لك ذلك. آمل مخلصاً، يا سيد بوب، أن تعتبر هذا الإيضاح كافياً». وسكت السيد كراب وراحت الدموع تجول في عينيه.

حزنت حتى أعماق روحي، لأنني سببت الألم لهذا الرجل النابغ البالغ الحساسية ولو عن غير نيّة، وأسرعت أعتذر له وأؤكد أنني مقتنع تماماً بوجهة نظره، متفهم لدقة موقفه. حين انتهيت من خطابي هذا الذي وجد

له وقعاً حسناً استأذنت للانصراف .

وفي صباح يوم «استيقظت لأجد نفسي شهيراً» وذاعت شهرتي حين راحت الصحف تتحدث عني في مقالاتها الرئيسية ، وقد كتبت الصحف ذلك في معرض التعليق على مجلة «سكر الشعير» التي نشرت قصيدتي ؛ وقد جاء ما قالته واضحاً ، مرضياً ، شاملاً ، كاملاً .

وقد كتبت «الصدى» ، وهي صحيفة ذات ثقافة عريقة ، معروفة برصانة أحكامها الأدبية المدروسة ، ـ هذه الصحيفة كتبت ما يلي :

«سكر الشعير» : «العدد الأخير من هذه المجلة يتخطى الأعداد السابقة كلها ويتحدى كل منافسة . فهي بجمال إخراجها وورقها ـ بعدد صورها الممتازة ـ وبمقالاتها الأدبية الرفيعة الأسلوب ـ بكل هذا تبدو «سكر الشعير» بالنسبة إلى الصحف المتأخرة التي تنافسها كأنها هيبيريون وأمامه السَّاتير(*) . صحيح أن «القدر المدمدمة» و«المشاغب» و«الإوزة النقَّاقة» تتفوّق عليها بالجعجعة ، إلاّ أن «سكر الشعير» تفضلها من كل الوجوه الأخرى . إننا لا نفهم كيف يمكن لهذه المجلة الشهيرة أن تتحمل مثل هذه النفقات الباهظة حتماً . صحيح أنها تصدر ١٠٠,٠٠٠ عدد ، وأن عدد المشتركين قد ازداد بمقدار الربع الشهر الماضي ؛ لكن من جهة ثانية ، فإن المبالغ التي تدفعها للمقالات تفوق التصوّر . يقال إن السيد (آنروزيه) قد أخذ ما لا يقل عن سبعة وثلاثين سنتاً ونصف السنت لمقاله الذي لا يُضاهى عن «الخنازير» . إنها صحيفة لا تُجارى برئيس تحريرها السيد كراب ، وبعدد من الأسماء التي اشتركت في التحرير أمثال سنوب وآنروزيه . ١٥ تشرين – أ .م»(**) .

أعترف لكم بأنني فرحت كثيراً لظهور هذا التعليق ذي الأسلوب الراقي

(*) Hyperion هو تيتان في الأساطير اليونانية ابن أورانوس إلـه السماء وجيا إلـهة الأرض . والساتير Satyrs مخلوقات غزيرة الشعر في الأساطير اليونانية تعيش في التلال والغابات نصفها بشر ونصفها حيوانات لها قرون وآذان ماعز .

(**) كان من عادة الصحف والمجلات ، عندما تنشر إعلاناً مقابل مبلغ معين ، أن تضع في نهاية الإعلان تاريخ نشره والمرة التي نشر فيها (أ .م .) تعني أول مرة . وبهذا يشير بو إلى أن ما كتب كان إعلانات نشرت مقابل مبالغ معينة .

في جريدة محترمة كالصدى . أما إيراد اسمي ـ أقصد اسمي المستعار ـ قبل اسم آنروزيه العظيم فقد جعلني أطير من الفرح .

ثم وقع نظري على هذه المقاطع في «السرطان» ـ وهي مجلة معروفة باستقامتها واستقلالها وبامتناعها عن تملق أصحاب المآدب :

«لقد سبق عدد «سكر الشعير» لشهر تشرين جميع المجلات التي تصدر في التاريخ نفسه . وفوق ذلك ، تخطاها بروعة إخراجه وغنى محتوياته الأدبية . صحيح أن «القدر المدمدمة» و«المشاغب» و«الأوزة النقاقة» تبز «سكر الشعير» بالجعجعة ، إلاّ أن هذه تتفوق في سائر الوجوه الأخرى . كيف يمكن لهذه المجلة الشهيرة أن تتحمل النفقات الضخمة ، هذا ما لا يمكن فهمه . صحيح أنها تطبع مائتي ألف نسخة ، وأن لائحة المشتركين قد ازدادت بمقدار الثلث في الأيام الخمسة عشر الأخيرة ، لكن المبالغ التي تدفعها للمقالات تفوق التقدير . فقد بلغنا أن السيد مَمْبلَتَمْب تلقّى ما لا يقل عن خمسين سنتاً مقابل قصيدته الجديدة «أغنية المستنقع الموحل» . نميز بين المشتركين الرئيسيين في العدد (عدا السيد كراب رئيس التحرير) أشخاصاً أمثال سنوب ، آنروزيه ، ومَمْبلَتَمْب . إذا وضعنا المقال الافتتاحي جانباً ، فإن درة العدد الشعرية هي قصيدة سنوب عن زيت بوب . لكن يجب ألاّ يتبادر إلى أذهان القراء أن هذه الجوهرة تشبه من قريب أو بعيد ترهة تحمل العنوان نفسه كتبها شخص تافه تنبو الآذان الحساسة عن سماع اسمه . وقد أثارت قصيدة «زيت بوب» الجديدة فضولاً شعبياً ورغبة في التعرّف إلى صاحب الاسم المستعار سنوب . وقد سرنا أن نروي فضول القراء ، إذ إننا اكتشفنا شخصية سنوب الحقيقية . إنه السيد ثنغوم بوب ، من سكان هذه المدينة ، وأحد أقرباء السيد ثنغوم العظيم ، والذي يتحدر من أكبر عائلات البلاد . والده السيد توماس بوب ، تاجر غني هو أيضاً «١٥ تشرين ـ أ .م .» .

أثر هذا التقدير الكريم فيَّ كثيراً ، ولا سيما أنه يصدر عن مجلة مثل «السرطان» ؛ أما كلمة «ترهة» التي وصفت بها قصيدة «زيت بوب» لرئيس تحرير «ذبابة الخيل» فقد رأيتها جارحة ومناسبة ، وأمّا كلمتا «درة» و«جوهرة» فقد بدتا لي ضعيفتين ينقصهما التشديد . إنهما لا تملآن الفم .

ما كدت أنتهي من قراءة «السرطان» حتى جاء صديق يضع بين يدي جريدة «الخلد» التي تتمتع بسمعة طيبة بفضل صدق أحكامها، ولأسلوب محرريها الرفيع النزيه. قالت جريدة «الخلد» عن عدد «سكر الشعير» الأخير ما يلي:

«وصلنا عدد «سكر الشعير» لشهر تشرين، ويجب أن نعترف بأننا لم نطالع من قبل مجلة تبعث في النفس البهجة مثل هذه المجلة. نحن نعرف ما نقول، فلتتدارك رأسها «القدر المدمدمة» و«المشاغب» و«الإوزة النقاقة». هذه النشرات سبّاقة في الادعاء والجعجعة، لكن «سكر الشعير» تستأثر بكل ما تبقى. غير أنّ ما لم نستطع فهمه هو كيف يمكن لهذه المجلة أن تتحمل نفقاتها الباهظة. صحيح أنها تطبع ثلاثمائة ألف عدد، وأن لائحة المشتركين قد ازدادت بمقدار النصف في الأسبوع الأخير، مع ذلك تبقى المبالغ التي تدفعها إلى المشتركين في التحرير ضخمة وهائلة. وقد بلغنا من مصادر موثوق بها أن السيد «فاتكاك» تلقى ما لا يقل عن اثنين وستين سنتاً ونصف السنت مقابل قصته الجديدة «الصحن المرمَّم».

«اشترك في هذا العدد كل من السيد كراب (رئيس التحرير الحالي) سنوب، مَمبلثَمْب، فاتكاك، وغيرهم. بعد مقال رئيس التحرير الذي لا يضاهى، نفضل الدفق الغنائي الذي يتلألأ كجوهرة خطتها ريشة شاعر جديد يكتب بتوقيع «سنوب»، وهو اسم مستعار نتوقع له أن يبلغ ما بلغه اسم «بوز»(*) من البريق. وسنوب هو السيد ثنغوم بوب الوارث الوحيد للحلاق الغني السيد توماس بوب، وأحد أقرباء السيد ثنغوم. عنوان قصيدة السيد بوب هو «زيت بوب». وكان أحد السفلة الدنيئين، المتطفلين على الصحافة، قد أثار قرف المدينة بثرثرته حول الموضوع. لكن، لا خطر هناك من وقوع أي التباس أو مقارنة بين القصيدتين. ١٥ تشرين ـ أ.م.».

لقد غمرني إعجاب هذه الجريدة البصيرة بخفايا الأمور بالنشوة. الاعتراض الوحيد، الذي خطر ببالي، يتعلّق بعبارة «السافل الدنيء» التي

(*) لعله أراد به الكاتب القصصي الإنكليزي الشهير تشارلز ديكنس (١٨١٢ ـ ١٨٧٠) فقد كان يوقع بهذا الاسم يوماً.

كان من الأفضل استبدالها بعبارة «بغيض ، حقير ، دنيء ، بائس مسكين» . هذه العبارة بدت لي أبلغ وقعاً في النفس . أمّا «الجوهرة» فقد كانت ذات فخامة كافية للتعبير عن رأي «الخلد» بقصيدة «زيت بوب» العصماء .

عصر اليوم الذي ظهرت فيه هذه الصحف والمجلات وقعت عيناي مصادفة على مجلة «عنكبوت الحقل» وهي مجلة رصينة معتبرة لإحاطتها بكل ما يجري من أحداث . وهذا ما قالته مجلة «عنكبوت الحقل» :

«سكر الشعير ! هذه المجلة الرائعة تقدم للقراء عدد شهر تشرين . الحقيقة التي يجب أن تواجهها «القدر المدمدمة» أو «المشاغب» أو «الإوزة النقاقة» هي أن كل ما تبذله من جهود لمنافسة «سكر الشعير» سيكون باطلاً ، ذلك أن هذه النشرات تستطيع أن تتفوق على «سكر الشعير» بالجعجعة والادعاء ، وفيما عدا ذلك فاللواء معقود لسكر الشعير . كيف يمكن لهذه المجلة الشهيرة أن تواجه نفقاتها الهائلة ، ذلك ما يتخطى أفهامنا . صحيح أنها تصدر شهرياً نصف مليون عدد ، وأن عدد المشتركين قد ازداد بنسبة خمسة وسبعين في المائة في اليومين الأخيرين ؛ لكن المبالغ التي تدفعها شهرياً للمشتركين في تحريرها تفوق التقدير . فقد تبيَّن لنا أن الآنسة «كريبالتل» قد تلقت ما لا يقل عن سبعة وستين سنتاً ونصف السنت مقابل قصتها الأخيرة «يورك تاون وبَنْكرهِلْ» .

«أروع مقالات العدد هو مقال رئيس التحرير بالطبع (السيد كراب الحالي) ، لكن هناك مقالات أخرى ممتازة أمثال سنوب ، والآنسة كريبالتل ، آنروزيه ، السيدة فيبالتل ، ممبلشمب ، والآنسة سكيبالتل ، أخيراً وليس آخراً فاتكاك . إننا نتحدى العالم أن ينتج مثل هذه المجلة العامرة بالعبقريات .

«القصيدة الموقعة باسم سنوب تحظى بمديح وإعجاب شعبيين ، والحق أنها تستحق أكثر مما لقيت من التصفيق . عنوان هذه الرائعة البليغة هو «زيت بوب» . لعل قارئاً أو اثنين بين قرائنا قد سمع بقصيدة (؟) تحمل عنواناً مماثلاً كتبها صعلوك كان يعمل خادماً في إحدى مكتبات الضواحي الحقيرة . إننا نرجو هذين القارئين بألا يخلطا بين الأثرين ، لأن مؤلف قصيدة «زيت بوب» الوحيدة هو السيد ثنغوم بوب ، وهو رجل متميِّز بعبقرية فذة ، وثقافة

واسعة . وسنوب ليس سوى اسمه المستعار ١٥ تشرين ـ أ .م» .

عندما قرأت المقطع الأخير من هذه الشتائم لم أتمالك نفسي من الغضب والاحتقار . كان واضحاً أن هذا الأسلوب المرائي ، كي لا أقول العذب ، الذي تحدثت فيه «عنكبوت الحقل» عن ذلك الخنزير رئيس تحرير «ذبابة الخيل» ، كان واضحاً أن هذا الأسلوب يضمر ميلاً خفياً نحو الذبابة ، وأن «عنكبوت الحقل» تقوم بالدعاية للذبابة على حساب اسمي وقصيدتي . فلو أن «عنكبوت الحقل» كانت ترمي بالفعل إلى تحقير رئيس تحرير «ذبابة الخيل» لما لجأت إلى هذه العبارات اللطيفة الخالية من كل عنف وهجاء مثل «صعلوك» و«خادم في مكتبة» و«ركيك» ، ذلك أنها تبدو باهتة وعادية حتى لا تقال لمؤلف أبشع مقاطع كتبتها ريشة بشري . ولا يخفى أن هذه المجلة قد عمدت إلى تفخيم «الذبابة» من طريق النقد اللطيف .

إنَّ ما ترغب «العنكبوت» في قوله عن صاحب الذبابة ليس من شأني . ما يهمني هو ما قالته عني . بعد المدائح التي أغدقتها على موهبتي كل من «الصدى» و«السرطان» و«الخلد» جاءت مقالة «عنكبوت الحقل» تقول ببرودة وبكل بساطة إنني «رجل متميز بعبقرية فذة ، وثقافة واسعة» رجل متميّز حقاً ! اتخذت قراري على الفور : سوف أحصل على اعتذار خطي من «عنكبوت الحقل» وإلاّ فسوف أتحدّاها .

بهذه النية رحت أبحث حولي عن صديق يمكن أن أحمّله رسالة إلى صاحبة الجلالة «عنكبوت الحقل» . وبما أن رئيس تحرير «سكر الشعير» كان قد أبدى لي ودّه وإعجابه ، فقد صح عزمي على طلب معونته في هذه المسألة .

لم أكن أتوقع أبداً ما أبداه لي السيد كراب من حسن التفهم ، ولا تعابير الإصغاء والاهتمام التي تجلّت في وضعيته حين كنت أبيّن له نيتي . وقد كرر من جديد مسرحية الحبل والجرس والعصا ، لكنه لم يغص في المقعد كالمعتاد . ثم انفرجت أساريره بعد لحظات وعاد يفكر ويتكلم بطريقة معقولة . رفض أن ينقل الرسالة ، وفي النهاية صرفني عن فكرة إرسالها ؛ لكنه اعترف بصراحة بأن «عنكبوت الحقل» قد ارتكبت خطأ معيباً ـ

خصوصاً فيما يتعلق بهذه النعوت : «رجل متميّز بموهبة فذة وثقافة واسعة» .

في ختام هذه المقابلة ، مع السيد كراب الذي أبدى اهتماماً أبوياً بنجاحي ، نصحني بأن أعمل على إعلاء شهرتي ، وذلك بأن ألعب من وقت إلى آخر لعبة «توماس هوك» لحساب «سكر الشعير» .

وسألت السيد كراب عن توماس هوك هذا وكيف ألعب لعبته . ففتح السيد كراب عينيه دهشة ، وبقي كذلك للحظة ، ثم استعاد هيئته الرصينة ليؤكد لي بأنه استعمل كلمتي «توماس هوك» ليتفادى التلفظ بكلمة «توماهوك»(*) ـ وأن يلعب التوماهوك يعني أن يسلخ ، أن يحقّر ، أن يتهم الكتّاب الذين هم خصوم المجلة .

أكدت للرجل ، الذي يرعاني ، أنني مستعد أن ألعب التوماهوك إذا كان هذا كل ما في الأمر . وهنا طلب مني السيد كراب بأن أحقر رئيس تحرير «ذبابة الخيل» على الفور ، وبالطريقة الأشد عنفاً ووحشية ، كاختبار لموهبتي . وهذا ما فعلته ، دون أن أنسى التعرض لقصيدة «زيت بوب» الأولى ، حتى استغرقت مقالتي ستاً وثلاثين صفحة من صفحات «سكر الشعير» . ولقد وجدت أن لعبة «التوماهوك» أيسر بكثير من نظم الأشعار ؛ إذ إنني في هذه اللعبة كنت أتبع أسلوباً معروفاً واضحاً سهل عليّ العمل . وإليكم الطريقة التي اتبعتها : اشتريت كتاباً يجمع خطب اللورد بروغام(**) كما اشتريت الآثار الكاملة لكوبت(***) و«قاموس آرغو الجديد» و«الفن الكامل لتركيب الفضائح» و«بائعة السمك»(****) (طباعة على وجه واحد) و«لغة لويس ج . كلارك(*****) . قطعت هذه المؤلفات بعناية ،

(*) Tomahawk فأس يصطنعها الهنود الحمر سلاحاً وأداة ، وهي في العامية الأميركية للتعبير عن حرب الشتائم .

(**) هو هنري بيتر بروغام وزير مالية إنكلترا (١٧٧٨ ـ ١٨٦٨) ورد ذكره في قصة سابقة «في المصح» .

(***) وليم كوبت Cobbett (١٧٦٣ ـ ١٨٣٥) (م .) صحفي ومصلح بريطاني .

(****) كتاب بائعة السمك مجموعة من الشتائم المقذعة .

(*****) كلارك هو رئيس تحرير «كنكر بوكر ماغازين» نشأت بينه وبين بو خصومة أدبية .

واستبعدت منها ما كان لائقاً (لم أستبعد كمية تذكر) واحتفظت بالعبارات الجارحة ، ثم مزجتها جميعاً مع بعض الفلفل والبهار وصار المزيج جاهزاً بين يدي . وحين جاء دور التوماهوك أحضرت ورقة بيضاء ورحت أنقل إليها العبارات المقطوعة ، عبارة من هنا وعبارة من هناك ، حتى اكتمل العمل . والحق أنني أنا نفسي لم أكن أتوقع مثل هذه النتيجة المدهشة التي أصبحت ، حين ظهورها ، محط أنظار العالم وتعليقهم وموضع دهشتهم . أما ما حلَّ برئيس تحرير «ذبابة الخيل» بعد هذا الهجوم وبعد نقدي لقصيدته ، فمن الصعب التأكد منه . لكن الاستنتاج المنطقي يقودني إلى الاعتقاد بأنه مات من البكاء . على كل حال ، اختفى عن وجه الأرض ، لم ير أحد شبحه منذ ذلك الحين .

أمّا وقد أدّيت مهمتي على أكمل وجه ، فقد قفزت مباشرة إلى منصب معاون السيد كراب لشؤون «التوماهوك» . وبما أن السيد كراب لم يكن قادراً على منحي أي راتب ، فقد رأى أن يعوّضني عن ذلك بنصائحه ، فقال لي ذات يوم بعد العشاء :

ـ يا عزيزي ثنغوم ؛ أنا أحترم موهبتك وأحبك كابن لي . ستكون وريثي فترئس تحرير «سكر الشعير» بعد موتي ـ وإلى ذلك الحين سأصنع منك رجلاً ـ هذا ما سأفعله ـ إذا اتّبعت نصائحي . الخطوة الأولى هي أن تتخلّص من الخنزير العجوز .

ـ خنزير؟ قذر أليس كذلك؟ حيوان؟ مَن هو؟ أين هو؟

ـ أبوك .

ـ لا شك في أنه خنزير .

ـ عليك أن تبني مركزك يا ثنغوم ، أبوك حجر عثرة في طريقك . يجب أن تقطع علاقاتك به فوراً (فتناولت عند ذلك سكيناً) ـ يجب أن تقطع كل علاقة به . ناوله رفسة واسترح منه .

ـ ما قولك؟ ماذا تقترح؟ سأناوله رفسة وأحطم أنفه .

فتطلّع إليّ وقد بدا عليه التفكير العميق ، ثم قال :

ـ أظن أن ما تقترحه يا سيد بوب كاف ، ويحقق الغرض ، لتبعده بذلك

عن طريقك ، فلا يراك عندما تصبح شخصية مرموقة .

ولكم أثّرت في نفسي رقة عواطف السيد كراب التي أغدقها عليّ . ولم أتردد في تنفيذ وصاياه القيمة ، فانفصلت عن الخنزير العجوز ، وشعرت بذلك أنني صرت رجلاً متميزاً .

بقيت أمامي قضية المال ، فقد أقلقني المال لبضعة أسابيع ، لكنني في النهاية تدبّرت الأمر بفضل دقة ملاحظتي .

ابتعت نشرة «السلحفاة» مقابل لا شيء تقريباً ، ثم اشتريت ريشة وورقاً وحبراً وكتبت مقالة بعنوان «ترالالا» لمؤلف «زيت بوب» وأرسلته إلى «الإوزة النقاقة» . ثم كتبت مقالة ثانية بعنوان «دينغ دان دونغ» بقلم السيد ثنغوم بوب ، مؤلف أغنية «زيت بوب» ورئيس تحرير «السلحفاة» . وهكذا أوقعت «الإوزة النقاقة» في الالتباس . ورحت في الوقت نفسه أطبع في «السلحفاة» بحثاً فلسفياً في الدور التاريخي لمجلة «الإوزة النقاقة» والصفات الشخصية لرئيس تحريرها . وحين صدر عدد «الإوزة النقاقة» ذكرت في باب مفكرة الشهر أنها خلطت بين مقالة جاهل سخيف وبين لؤلؤة فريدة كتبها السيد ثنغوم بوب مؤلف قصيدة زيت بوب الشهيرة ، وأن «الإوزة النقاقة» تأسف شديد الأسف لهذا الالتباس وستعيد نشر المقالة في العدد المقبل» .

لا داعي لأن أخبركم بمزيد من التفاصيل . المهم أنني كنت أفكر ـ أفكر فعلاً ـ أفكر باستمرار ، ووجدتني ذات يوم أحتلّ كرسي رئيس تحرير «الإوزة النقاقة» . ثم تابعت الهجوم على «المشاغب» و«القدر المدمدمة» فاشتريتهما بأثمان زهيدة . ولم يطل الوقت حتى ورثت أيضاً مجلة «سكر الشعير» وغدوت على رأس مؤسسة ضخمة عرفت باسم :

المشاغب سكر الشعير القدر المدمدمة

و

الإوزة النقاقة .

والآن ، يمكنني أن أردد بلسان شاتوبريان(*) : «لقد شاركت في صنع

(*) فرنسوا دو شاتوبريان (١٧٦٨ ـ ١٨٤٨) مرّ ذكره في صفحة سابقة ، هو أديب فرنسي من زعماء الرومنطيقية . اشتهر بغنى مخيّلته وتصاويره وطلاوة إنشائه .

التاريخ» . شاركت في صنع التاريخ حقاً . فمنذ العهد الذهبي ، الذي أتحدث عنه ، غدت مؤلفاتي وأفكاري ملكاً للإنسانية . وأتمتع الآن بنصر عالمي . تمتد شهرتي إلى آخر المعمورة . ما من صحيفة يومية أو مجلة عادية إلاّ وتردّد اسم سنغوم بوب مرات في اليوم . السيد ثنغوم بوب قال هكذا . السيد ثنغوم بوب كتب كذا أو فعل كذا . إنني متواضع جداً ولست طمّاعاً . لقد بلغت من الشهرة ما يكفي . وبعد ذلك كله ما هو هذا الشيء الذي لا يدرك والذي يقال له العبقرية؟ إنني أوافق بوفون(*) وهوغارت(**) على أن العبقرية ليست سوى الجهد المبذول .

انظروا إليّ . . لكم اجتهدت ! لكم تعبت ! لكم كتبت ! يا إلــهي ، ألم أكتب الكثير؟ لم أعرف أبداً ما يُسمّى الراحة . كنت في النهار ألازم مكتبي وفي المساء أحرق زيت المصباح حتى منتصف الليل . لو أنكم رأيتموني - كان يجب أن تروني - أميل يميناً ، أميل شمالاً ، أنحني إلى الأمام ، أستلقي إلى الخلف ، أجلس مستقيم الظهر ، أخفض رأسي فوق الصفحات . وبالرغم من ذلك كله كنت أكتب . في الفرح أو الحزن كنت أكتب . في الجوع أو العطش كنت أكتب . في السمعة الحسنة أو السيئة كنت أكتب . في ضوء الشمس وفي ضوء القمر كنت أكتب . ما كنت أكتبه لا يهم . المهم هو الأسلوب ! هذا هو المهم . لقد تعلمته من طريق تقليد فاتكاك - زيم ! بوم !

(*) جورج لويس ليكلير بوفون (١٧٠٧ ـ ١٧٨٨) : أديب فرنسي وعالم بالطبيعيات . له «التاريخ الطبيعي» ومؤلفات أتقن فيها فن الإنشاء .

(**) وليم هوغارت (١٦٩٧ ـ ١٧٦٤) : رسام ونحات إنكليزي . عبّر في فنه عن حياة عصره الاجتماعية .

بلاد الظلال

ها أنتم الذين تقرأونني لا تزالون في عالم الأحياء ، لكن أنا الذي يكتب يكون ، منذ وقت طويل ، قد مضى إلى بلاد الظلال ، إذ ستحدث ، في الواقع ، أشياء غريبة ، وتتكشف أسرار عجيبة ، وتمرّ عصور ، دون أن يقرأ الناس هذه الخواطر . وحينما يقرؤونها ، لن يؤمن بها بعضهم ، وسيشك البعض الآخر ، وقليلون بينهم هم الذين سيجدون فيها مادة للتأمل في الحروف التي أنقشها على هذه الألواح بمرقم حديديّ .

كانت السنة سنة هلع ، مليئة بالمشاعر الأكثر حدّة من الرعب ، والتي لا اسم لها على وجه الأرض ، إذ إن كثيراً من المعجزات والعلامات قد حدثت ، وانتشرت أجنحة الطاعون السوداء انتشاراً واسعاً في كل جهة من البحر واليابسة ، إلاّ أن هؤلاء العارفين في علم النجوم لم يكونوا يجهلون أن للسماوات آنذاك مظهراً من الشقاء ؛ وكان واضحاً بالنسبة إليّ أنا ، وأنوس الإغريقي ، أننا نقترب من عودة السنة الرابعة والتسعين بعد السبعمائة ، حيث يقترن المشتري بالحلقة الحمراء لزُحل الرهيب . كانت روح السماوات الخاصة تظهر سيطرتها ، إن لم أكن مخطئاً ، ليس على سطح الأرض الماديّ وحسب ، بل على نفوس البشر وأفكارهم وتأملاتهم أيضاً .

كنا ذات ليلة ، سبعة في داخل قصر فخم في مدينة قاتمة اسمها بتوليمائيس ، نجلس حول بعض زجاجات الخمر الأرجوانية من جزيرة كيو ، ولم يكن لغرفتنا مدخل آخر غير باب عال من النحاس ؛ وكان الباب من صنع كورينوس ، نادر الصّنع ويُغلق من الداخل . وكانت الستائر السوداء ، التي تحمي هذه الغرفة الكئيبة ، تُبقي لنا منظر القمر والنجوم الحزينة والشوارع المقفرة ؛ لكنّ ذكرى الطاعون والشعور به لم يمكن التخلص منهما بهذه السهولة . كانت حولنا ، وقربنا ، أشياء لم أستطع أن أفيها حقها من الاهتمام ، أشياء ماديّة وروحية ، ثقل في الجوّ ، إحساس بالاختناق ، حُصار ، وفوق كلّ شيء هذا النوع الرهيب من الحياة ، الذي يعانيه الأشخاص العصبيون ، حينما تستيقظ الحواس وطاقات الروح الراقدة الدكناء ، وتنتعش

بقسوة . كان يسحقنا ثقل قاتل ، ينتشر على أعضائنا ، على أثاث الغرفة ، وفي الكؤوس التي نشـرب بهـا ؛ ويبـدو كل شيء ، في هذا الإعـيـاء ، مضغوطاً وواهن القوى ، كل شيء ، ما عدا لهب المصابيح الحديدية السبعة التي كانت تضيء انهماكنا المفرط في الشراب والأكل . كان اللهب يتصاعد في خيـوط رفيعـة ، ويبقى هكذا ، شـاحباً جـامداً . وكـان كلٌّ منّا ، نحن المدعوين الجالسين حول المائدة الأبنوسية التي أحالها بريق اللهب إلى مرآة ، يتأمل فيها اصفرار وجهه والبريق الكالح في عيون رفقائه . مع ذلك ، كنا نُطلق ضحكاتنا مرحين على طريقتنا ، وهي طريقة هستيرية ، ونغني أغاني مجنونة ، ونشرب كثيراً ، وإن ذكّرنا توردُ الخمر بلون الدم ، إذ كان في الغرفة شخص ثامن ، وهو زوئيلوس الشاب . كان ، وهو ميت متمدّد بكامل طوله ومكفن ، جنيّ هذا المشهد وشيطانه . لم يكن ، ويا للأسف ، يشاركنا في لهونا ، سوى أن وجهه الذي شنّجه الشرّ ، وعينيه اللتين لم يطفئ الموت فيهما إلاّ نصف نار الطاعون ، كانت تبدو كأنها تهتم بفرحنا بقدر ما يستطيع الموتى أن يهتموا بفرح الذين يشرفون على الموت . لكن ، رغم أنني أنا ، وأنوس ، شعرت بعيني الميت تحملقان فيّ ، اجتهدت ألاّ أفهم المرارة في تعبيرهما ، وكنت ، وأنا أنظر بعناد إلى أعماق المرآة الأبنوسية ، أغني بصوت عال رنّان أغنيات شاعر مرفإ تيوس . لكن غنائي توقف تدريجاً ، وأصبحت أصداؤه ، التي تتدحرج بعيداً بين الستائر السوداء المسدلة ، ضعيفة وغير واضحة وتلاشت أخيراً . لكن ها هو يطلع من هذه الستائر التي ماتت فيها أصداء الغناء ، ظل ، داكن ، لا شكل له ، ظلّ أشبه بالظل الذي يمكن للقمر ، حينما يكونَ منخفضاً في السماء ، أن يرسمه للجسم الإنساني ؛ لكن لم يكن ظلّ إنسان ، ولا إلـه ، ولا أيّ كائن آخر معروف . أخيراً ، بعد أن اهتزّ قليلاً بين الستائر ، بقي ظاهراً ومستقيماً ، على سطح الباب النحاسي . كان الظل مبهماً ، لا شكل له ، ولا دلالة ؛ ولم يكن ظلّ إنسان أو إلـه ، إلـه يوناني ، أو كلداني ، أو أيّ إلـه مصري . وكان الظلّ هادئاً على الباب الكبير ، وتحت الإفريز المقوّس ، ولم يتحرك ، ولم ينبس بأية كلمة ، لكنه كان يجمد أكثر فأكثر ويظلّ جامداً . وكان

الباب ، إذا لم تخنّي الذاكرة ، تماماً قبالة قدمي الشاب زوئيلوس الميت . ولم نجرؤ ، نحن الرفقاء السبعة ، حينما رأينا الظلّ يخرج من الستائر ، أن نحدّق فيه ؛ غير أننا كنا نخفض عيوننا ، ونتابع تحديقنا في أعماق المرآة الأبنوسية . وخاطرت أخيراً ، أنا وأنوس ، بالهمس ببضع كلمات ، وسألت الظلّ عن اسمه ومكان إقامته . وأجاب الظلّ : «إنني ظل ، وأقيم في جوار مقابر بتوليمائيس ، وقرب هذه السهول الرمادية الجحيمية التي تحيط بقناة شارون المدنسة» .

وعندئذ انتفضنا نحن السبعة من الرعب ، ووقفنا نرتجف ، مذعورين ؛ ذلك أن نبرة صوت الظلّ لم تكن نبرة صوت شخص واحد ، بل حشد من الناس ؛ وكان هذا الصوت ، وهو يتغيّر بين مقطع وآخر ، يسقط بغموض في آذاننا ، مقلّداً اللهجات الأليفة المعروفة لآلاف الأصدقاء الذين ماتوا !

الفهرس